Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

Gaston Wiet
Collection

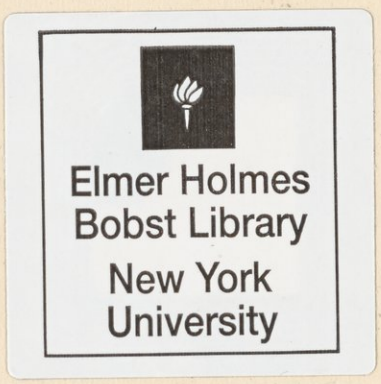
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

فهرست

الجـــزء الثالث

مـــن تاريخ مصر لابن اياس

(فهرست الجزء الثالث وهو الاخير من تاريخ مصر لابن اياس)

صحيفة

٢ سنة ٩٢٢

٦٨ ذكر سلطنة الملك الاشرف أبى النصر طومان باى

٩٩ سنة ٩٢٣

١٠١ ذكر سلطنة الملك المظفر سليم شاه ابن السلطان أبى يزيد

١٣١ ذكر ولاية الامير خاير بك على مصر

١٤٧ ذكر من توجه فى هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

١٤٩ سنة ٩٢٤

١٨٥ سنة ٩٢٥

٢٠٩ سنة ٩٢٦

٢٣٦ ذكر سلطنة الملك المظفر سليمان ابن الملك المظفر سليم شاه ابن عثمان

٢٤٥ سنة ٩٢٧

٢٧٨ سنة ٩٢٨

٣١٨ ذكر ولاية الوزير مصطفى باشا على مصر عوضا عن خاير بك

تمت

Ibn Iyās
"
/Kitāb ta'rīkh Miṣr/

الجزء الاخير من تاريخ مصر

المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور

تأليف

العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن اياس
الحنفى المصرى رحمه الله تعالى
آمين

طبع على نفقة الكتبخانه الخديويه

(الطبعة الاولى)
بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه
سنة ١٣١٢
هجريه

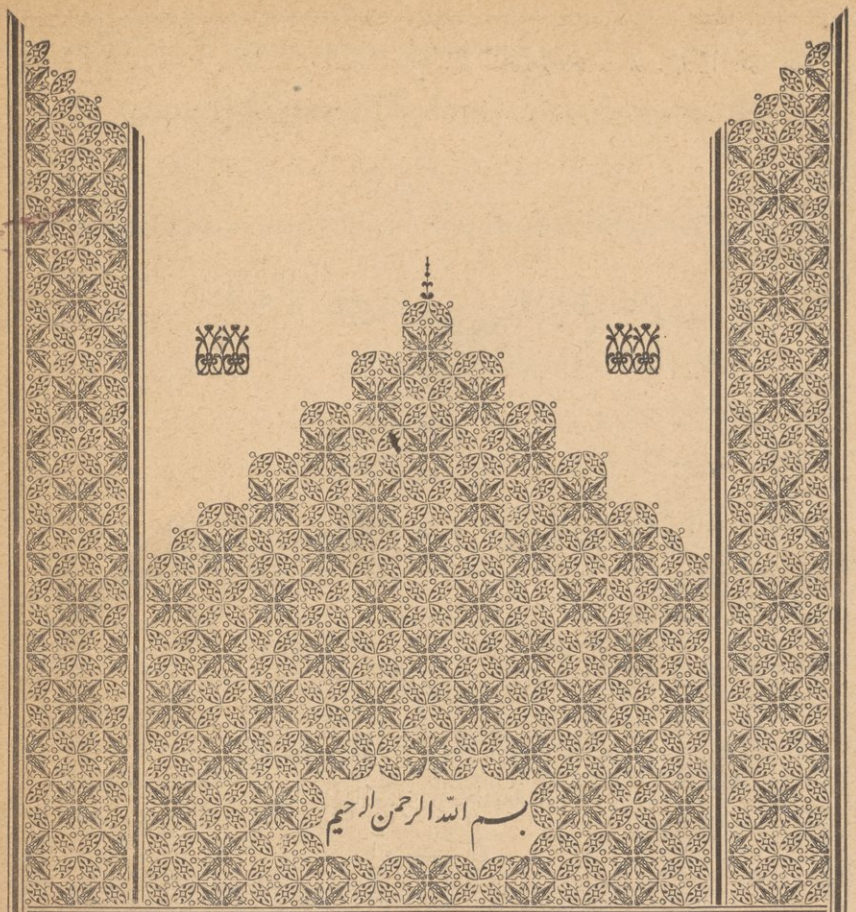

DT
96
.I28
v.3

JAN 10 1984

922

مناقب الاشرف الغورى قد شرفت * على جميع ملوك الارض فى الخبر
لانه العقد فى جيد الملوك ولا * تقاس قط عقود الجزع بالدرر

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة المباركة فكان مستهل المحرم يوم الاثنين وكان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما وسلطان مصر يومئذ الملك الاشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره (وأما السادة القضاة الاربعة) فالقاضى الشافعى كمال الدين الطويل والقاضى الحنفى قاضى القضاة حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى والقاضى المالكى قاضى القضاة محيى الدين ابن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى والقاضى الحنبلى قاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام
(وأما الامراء المقدمون) فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميرا مقدمى ألوف منهم أرباب الوظائف ستة وهم الاتابكى سودون العجمى أمير كبير وكانت يومئذ امرية السلاح

02821 2507

شاغرة والامير اركماس بن طرابای أمير مجلس والمقر الناصری محمد نجل المقام الشريف أمير اخور كبير والامير سودون الدوادار رأس نوبة النوب والامير انسباى بن مصطفى حاجب الحجاب والامير طومان باى بن قانصوه ابن أخى السلطان أمير دوادار كبير وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف (وأما الامراء المقدمون غير أرباب الوظائف) فهم الامير بخشباى بن عبد الكريم نائب طرابلس كان والامير قانصوه ابن كسباى بن سلطان چركس المعروف بابن اللوقا والامير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش والامير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى يشبك وقيل ان السلطان عين له تقدمة الامير حسين نائب جدة ويوجهت اليه البشائر بها قبل والامير طقطباى العلائى نائب القلعة والامير قانصوه كرت بن تمرباى والامير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر والامير تانى بك النجمى والامير ازمك الشريفى الناشف والامير تانى بك بن يشبك المعروف بالخازندار والامير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا والامير خاربك السيفى اينال والامير قانصوه الفاجر والامير ازبك بن طرابای المعروف بالمكحل والامير بيبرس ابن عبد الكريم والامير أبرك الاشرفى والامير علان بن قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية والامير خدابردى الاشرفى نائب الاسكندرية والامير أقباى بن قانصوه وقد جمع بين الامير اخورية الثانية والتقدمة والامير خاربك العلائى المعروف بالمعمار (وأما نواب البلاد الشامية والحلبية) فالمقر السيفى سيباى بن بخت نجا والمقر السيفى خاربك بن بلباى نائب حلب وتمراز الاشرفى نائب طرابلس وجان بردى الغزالى نائب حماه ويوسف الذى كان نائب القدس انتقل الى نيابة صفد ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة وأما الامراء الطبلخانات من أرباب الوظائف فالامير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد الشرابخانة الشريفة والامير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير والامير نوروز تاجر المماليك والامير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة والامير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى والامير طومان باى قرا حاجب ثانى والامير كرتباى الاشرفى والى الشرطة والامير ازدمر المهمندار والشريفى يونس نقيب الجيوش المنصورة والامير بخشباى قراشاد الشون والامير يونس الترجمان ومعلم المعلمين البدرى حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كف بصره وانقطع وأما الامراء الرؤس نوب فكثيرون لم نوردهم هنا خشية الاطالة (وأما أرباب الوظائف من أعيان المباشرين المتعممين) فالمقر القاضوى المحبى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشاء أعزه الله ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان والمقر القاضوى محيى الدين عبد القادر الشهير بالقصروى ناظر الجيش الشريف والزينى

عبد القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوفيا ديوان الجيوش الشريف والمقر العلائى
على ابن الامام ناظر الخاص الشريف وناظر الاوقاف وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين
عزل عنها يوسف البدرى فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ومتكلما
فى ديوان الوزارة وقد جمع بين نظارة الدولة وكتابة المماليك وكانت وظيفة الاستادارية يومئذ
بيد الامير طومان باى الدوادار والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل الشريف ومستوفى
ديوان الخاص والقاضى عبد الباسط تقى الدين ناظر الزردخانة والقاضى عبد الكريم بن
الادمى مستوفى الزردخانه والقاضى زين الدين بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة
وغير ذلك من الوظائف والامير شرف الدين يونس النابلسى استادار العالية كان وناظر
الاحباس بدر الدين العبسى ونقيب الاشراف السيد الشريف أفضل الدين محمد والآن
صار متحدثا فى استيفاء ديوان الجيش الشامى والقاضى كريم الدين أخو القاضى شرف
الدين أحمد بن الجيعان والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى
الخزائن الشريفة والشمسى محمد بن ابراهيم الشرابيشى متحدثا فى وظيفة الزمامية
والعلائى على البرماوى متحدثا فى جهات الديوان المفرد وبرددارية السلطان وعبد العظيم
الصيرفى متحدثا فى الشون السلطانية وأمر العليق وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة
(وأما الاعيان من الخدام الطواشية) فان وظيفة الزمامية لهامدة وهى شاغرة من حين توفى
الامير عبد اللطيف الزمام والآن الامير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة والامير
مرهف بن قانصوه ساقى خوند والامير سنبل العثمانى مقدم المماليك ونائبه جوهر الرومى
والامير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف وغير ذلك من أعيان الخدام وفى هذه السنة
تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتراته فقرر منهم جماعة
أرباب وظائف ما بين دوادارية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمر أخورية وسقاة وغير
ذلك من الوظائف وقد تكامل فى هذه السنة من الامراء الطبلخانات والعشراوات فوق
الثلثمائة أمير وقد كثر العسكر وقلت الرزق انتهى ذلك ولما كان مستهل الشهر يوم
الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الاربعة فهنئوا السلطان
بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب
وصحبته الامير كرت باى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالامان والاطمئنان
والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكثر الكلام وان كل شئ على حكمه يعنى فى أمر
المشاهرة والجامعة التى قررت على الحسبة وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء
بسلاح ولا يتزيا بزى ولا يغطى وجهه فى الاسواق ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة وأن
لا أحد من الناس يحتمى على المحتسب وقد تقدم القول بأن المماليك الجلبان أثاروا فتنة

كبيرة حتى خنق منهم السلطان وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام فشت الامراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والامير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة أرباب البضائع وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فامر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ولم يفعل شيأ مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانيا وكثر القال والقيل بين الناس وكانت الناس استبشرت بابطال المشاهرة والمجامعة فلما نودى بأن كل شئ على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض أغاوات الطباق فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال لاتسمعوا للمماليك القرانصة كلاما لانهم يرمون بينى وبينكم ولا تشمتوا العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا ولابد من خروج تجريدة له عن قريب فصلوا معكم ذهبا ينفعكم اذا سافرتم والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة اذا سافرتم فى التجريدة فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لانه لما نزل فى ذلك اليوم ونادى بأن كل شئ على حكمه وتخلقت جماعته بالزعفران فى عمائمهم وشق فى القاهرة تنكد المماليك الجلبان لذلك وقالوا لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شئ وخلق جماعته بالزعفران جكارة فينا والله ما نرجع حتى نقتله وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان سلم لنا ابن موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شئ فى الاسواق وفى يوم الاحد سابعه توفى الشرفى يحيى ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ومات وله من العمر نحو عشرين سنة وكانت جنازته حافلة وفى أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والاجبان وسائر البضائع وكل ذلك خوفا من المماليك الجلبان وفيه حضر الى الابواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات فاحضر صحبته تقدمة فشرو يه للسلطان وجودها وعدمها سواء وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمان أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك وأرسل يترفق للسلطان فى مطالعته فاستشار السلطان الامراء بأن يقبل منه تلك التقدمة أم يردها عليه فاقامت الامراء عند السلطان الى قريب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق

فى ذلك اليوم وفيه خرج الامير طومان باى الدوادار وصحبته الامير أزمك الناشف أحد الامراء المقدمين فتوجها الى جهة الفيوم ليكشفا عن الجسر الذى هناك وقد قيل انه لما كان النيل عاليا فى هذه السنة انقلب وكان السلطان قبل وقوع فتنة المماليك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر فاتم له ذلك فرسم الى الامير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر وفيه نادى السلطان للعسكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجم الغفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر وقد تجمد للعسكر من اللحوم المكسورة فى ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينار فثقل أمر هذا على السلطان وفيه نادى السلطان بان الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى وكان مختفيا من حين توعدته المماليك الجلبان بالقتل فظهر فى يوم الثلاثاء تاسعه فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره وفى يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب فرسم السلطان بتوسيطهم فى ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين وفى هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولى المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه وكان من أعيان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس وفى يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الابواب الشريفة الامير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر فى التجريدة فاحضر الاموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة وفى يوم الثلاثاء سادس عشره ابتدأ السلطان بتفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة وفى يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الامير قايتباى أحد الامراء الطبلخانات وهو قريب زوجة الاتابكى قانم التاجر على ابنة الامير قطباى نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الاعراس الحافلة قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ومدوا فيه أسمطة حافلة من الاطعمة الفاخرة وصنعوا فيه شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة وفى يوم الاثنين ثانى عشريه دخل أمير ركب الحاج الاول وهو المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد فخلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه دخل الامير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف وكان يوما مشهودا فطلع الامير علان الى القلعة وخلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره فى موكب حافل وقد أثنى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما

فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات وقد حصل فى هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة فى مغارة شعيب بسبب السيل الذى نزل عليهم هنالك وهلك من الحجاج فى هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا وكانت العربان طافشة فى درب الحجاز ولاسيما ماوقع للبشر فى هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عرّوه وأخذوا كل مامعه حتى كتب الحجاج فلم يصل لاحد من حاجه فى هذه السنة كتاب ولا علم لهم خبر ولما حضر الامير علان أشيع انه قبض فى مكة على شخص يقال له المعلم احمد الشامى وكان أصله من عتالين الزردخاناه فوجد معه مالا يتجر فيه فى مكة فلما بلغ أمره الامير علان قبض عليه وكان له رفيق فهرب من هنالك فلما دخل احمد الشامى هذا الى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التى كانت بالقلعة وسرقت من مال السلطان وهى اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك وأن السلطان غرّمها للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار الضرب فلما حضر احمد الشامى بين يدى السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالى يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذى أخذه ثم ان احمد الشامى أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فارسل للسلطان أربعة آلاف دينار وقال هذا هو القدر الذى نابنى من المال ولم يخصنى شئ غير ذلك فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه فى الحديد حتى يحضر بقية المال وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا وقد ظهر هذا المال الذى سرق من دار الضرب بعد مدة طويله فعد ذلك من جملة سعد السلطان وفى يوم الخميس خامس عشريه حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويله لم يدخل منهم أحد الى مصر وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الاشرف قايتباى وذلك فى سنة ثمانين وثمانمائة ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لان بلادهم بعيدة وما لهم شغل فى مصر فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا قماش كما تقدم للاشرف قايتباى فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الامراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الامير ازدمر المهمندار وجماعة من الرؤس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية كلهم ليسوا من الاعيان وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الاشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها

صفائح ذهب وفيها بعض فصوص وعلى رأس الخودة درة كبيرة مثمنة وعليه شايات حرير ملون وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رؤسهم شدود حرير وذكروا ان فيهم شخصا شريفا وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤس النوب من ذلك ووقع فى أيام الملك الاشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الارض فلما وصل الى أوائل البساط قبل الارض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا فلما قربوا من السلطان قبلوا الارض بين يديه ثالث مرة ثم قدموا كتاب ملك الحبشة قيل انه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان وان قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القمامة التى بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرؤا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من رؤس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرجموهم فكان لهم يوم مشهود فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لان بلادهم بعيدة حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر ثم ان القاصد أرسل الى السلطان تقدمة لم تكن كبيرة أمر قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السالفة مثل الاشرف برسباى والظاهر جقمق والاشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك وأحضر له عدة تواريخ يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليه ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقل بعض المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الاراضى التى هنالك والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك وقد أرسل بعض ملوك الحبشة تقدمة للملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة

اثنتى عشرة وسبعمائة فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النوادر ثم ان قاصد الحبشة أقام فى الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القمامة وفيه حضر الامير طومان باى الدوادار وقد تقدم القول على انه سافر الى جهة الفيوم هو والامير أرزمك الناشف ليكشفا على الجسر الذى هناك وقد انقلب من الماء وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فحاتم له ذلك كما تقدم ذكره فلما توجه الامير الدوادار الى هناك قرروا على عمارة هذا الجسر نحو ثلاثين ألف دينار فلما رجعا أخبر السلطان بذلك وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندرى وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلى الامام بحكم وفاته قيل ان شمس الدين السكندرى سعى فى هذه الوظيفة بالف ومائتى دينار حتى قرر بها وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التى كانت منكسرة للعسكر وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشترى بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك وقال ما بقيت أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التى كانت منكسرة لهم حتى قيل انه صرف فى حركة تفرقة اللحوم فوق الاربعين ألف دينار واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن وصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيا ونشابا وكانوا نحو ثلثمائة مملوك وفيه توفى الامير قنبك بن تربك أحد الامراء الطبلخانات وهو ابن عم الاتابكى أزبك وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة وفيه أرسل السلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم وأرسل يقول لهم اعملوا بهذه النفقات بر قكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة واجمعوا عساكركم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت فى المراكب الى هناك فكانت نحو مائتى مكحلة وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجىء على السواحل للديار المصرية وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أصحاب الدكاكين والاملاك يقطعون الاراضى من الاسواق والشوارع فامتثلوا ذلك وشرعوا فى العمل لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل

سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادّعى أن الاراضى قد علت وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك

فى دولة الغورى رأينا العجب * وقد حملنا فوق مالا نطيق

وقد كفى فى عامنا ماجرى * من قلة الامن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشريه أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة وهى أنه كان يؤخذ على كل اردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى نصف فضة وكان الاشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلطن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة فلما تسلطن الاشرف قانصوه الغورى تزايد الامر حتى صار يؤخذ على كل اردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى وصار يسمى الموجب ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه وفى يوم السبت سابع عشريه كان دخول الامير الماس أحد الامراء العشراوات على ابنة الامير قانى باى قرا أمير اخور كبير كان فكان ذلك المهم من المهمات المشهورة وحضر فى هذه الوليمة الاتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الامراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا وفى يوم الاثنين تاسع عشريه أكمل السلطان تفرقة ثمن الخيول التى كانت للعسكر فى الديوان وأكمل تفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحوم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار ردية بسبب ابن عثمان فتنكد لذلك وخلا هو والامراء يضربون مشورة بينهم فى أمر ابن عثمان وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس وأن لا يتأخر عن العرض أحد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة وفى صفر وكان مستهله يوم الاربعاء طلع الخليفة والقضاة الاربعة للتهنئة بالشهر فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده اعمل برقك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان وقال للقضاة الاربعة مثل ما قال للخليفة اعملوا برقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى فقالوا الأمر لمولانا وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها وفى يوم الخميس ثانيه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا وفى ذلك اليوم كانت وفاة الامير خاير بك ابن اينال أحد الامراء المقدمين ويعرف بكاشف الغربية وأصله من مماليك الامير اينال

الاشقر أمير سلاح كان وقد ساعدته الاقدار حتى صار باش العسكر ثم بقى كاشف الغربية
ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف وسافر الى الحجاز باش العسكر فى التجريدة التى خرجت
بسبب الجازانى وانتصر على العربان من قبيلة بنى ابراهيم فحزر رؤسهم وأرسلها الى القاهرة
وكان مسعود الحركات فلما مات نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة وكان
فى سعة من المال فخلف من الموجود ما لا يحصى وفى يوم السبت رابعه عرض السلطان
مماليك الامير خاربك المتوفى وأخذ منهم ما اختاره وأرسلهم الى الطباق ثم أرسل رسم على
دوادار خاربك وعلى مباشريه وشكهم فى الحديد وكان الامير خاربك قد كتب وصية وبرأ
جماعته فلم يلتفت السلطان الى وصيته وفى أثناء هذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور الدين على
المحلى رحمه الله وكان يعرف بقريبة وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين
الناس ❁ ومن الحوادث فى هذا اليوم ما وقع لعلم الدين جلبى السلطان وهو أنه كان ساكنا
فى الحسينية وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضى الاسواق بنفسه فلما انتهوا
فى القطع الى الحسينية جاء مماليك الوالى الى الحسينية وأخذوا حميرا من حمام الحبالين
ليشيلوا عليها التراب الذى قطعوه فمنعهم من ذلك جماعة علم الدين وتخاصموا مع مماليك الوالى
فجاء عبد علم الدين وقال لاستاذه على ذلك وكان علم الدين فى الحمام فقال علم الدين
اضربوا مماليك الوالى وامنعوهم ففتكوا بهم وضربوهم ضربا مبرحا حتى شجوا بعضهم
وكسروا أيدى بعضهم فلما سمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين فاغلظ عليه
علم الدين فى القول وربما سفه على الوالى فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى ضرب
مماليك الوالى فوضعه فى الحديد ثم طلع الوالى الى السلطان وأحضر مماليكه الذين ضربوا
بين يدى السلطان فلما عاين السلطان ذلك شق عليه ما فعل علم الدين فى حق الوالى ثم
طلع علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم فى نصره فلما عاين السلطان علم
الدين رسم لنقيب الجيش بان يقبض على علم الدين ويمضى به الى الوالى يوسطه وصمم
السلطان على ذلك فقبض نقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاريه وفك أزرار ملوطته
وأركبه على بغلة ومضى به الى الوالى ليوسطه فاستدرك الوالى فرصة فى هذه الواقعة وركب
فى أثناء ذلك اليوم وأتى الى الامير الكبير سودون العجمى وترامى عليه بسبب علم الدين بأن
يطلع يشفع فيه عند السلطان من التوسيط فطلع أمير كبير فشفع فيه فقبلت شفاعته ثم ان
الوالى ألبس علم الدين كملية صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليبوس الارض
فنتر فيه السلطان لما رآه وقال له الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبدا فقيل ان علم الدين خدم
السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه وخدم الوالى أيضا بمال لكنه استمر ممنوعا من الطلوع
الى القلعة من بعد ذلك وقد تزايد هذا الامر الفشروى حتى خرج عن الحد وكان علم الدين

لما قرره السلطان طاش وكان فى خدمة السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة وكان علم الدين عنده بجمقدار وهو صبى أمرد فلما تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقربين وصار يلبس سلارى بكم قصير مثل الامراء العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى فى جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى كتفه فوطة حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت المماليك كلما رأوه يلعنونه فى الباطن وربما توعدوه بالقتل وأمه كانت صانعة وقيل ان أصله كان من أبناء الساسة التى بالحسينية وعنده كثافة فى طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل

نقصت عقلا وفهما * وزدت شحما ولحما
ورثت طالوت جسما * ولم ترث منه علما

أو كما قيل

كأن أباه حين جامع أمه * أتاها وفى احليله كوز بلغم
فجاء ثقيل الطبع فظا مغلظا * ذميما ثقيل الروح واللحم والدم

وفى يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان بالميدان وعرض من العسكر فى ذلك اليوم أربع طباق ومن الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم أن السلطان أمر بابطال المشاهرة والمجامعة التى كانت للمحتسب وأشهر النداء فى مصر والقاهرة بذلك وان مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال بطال فارتفعت له الاصوات بالدعاء بالنصر وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة التى سرت القلوب والاسماع وكان يوما مشهودا وقلت فى هذه الواقعة هذه الابيات

قد جاد سلطان الورى * بعدله فى القاهره
مذ رخص الاسعار مع * ابطاله المشاهره
كم جائع من فرحة * يدعو له مجاهره
وكم حزين قلبه * بالكسر أضحى جابره
وقد عفا غلالنا * من المكوس الجائره
وصرف اللحم الذى * أرضى به عساكره
فارتفعت أيدى الورى * له بفضل شاكره
وحاز أجرا ناله * من الدنا والآخره
وقد علا تاريخه * فوق النجوم الزاهره
لأنه فى عصره * بين الملوك نادره
فيالها من سنة * خيراتها مبادره

فكم له فى الخير من * أفعال بر ظاهره

يارب فاجعل يده * لكل باغ قاهره

وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين فان الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبارة بأن يجعل على السوقة فى كل شهر مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الامر الى أن صار مقررا على السوقة فى كل شهر فوق ألفى دينار من هذه الجهة وغيرها من الجهات المتكلم عليها الزينى بركات بن موسى وكان جماعة من الامراء الذين بغير أقاطيع محتالة فى كل شهر على الزينى بركات بن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة فكانت السوقة تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان نورده فى كل شهر فاستمر ذلك من أول دولة السلطان الى أن الهمه الله تعالى ابطالها وفيه وجد مملوك من مماليك السلطان مقتولا بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان مصارعا ولا يعلم من قتله فتنكدت المماليك بسبب ذلك وفى يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الامراء المقدمين والامراء الطبلخانات والعشراوات وكان قد دار عليهم نقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا فقيل عين فى ذلك اليوم من الامراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما الامراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم الا القليل وقال لهم الذى له عذر يعوقه عن السفر يذكره لى فأعفى منهم جماعة وفى يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض العسكر قاطبة ولم يعف منهم أحدا وفى ذلك اليوم خلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزينى بركات الى الحسبة فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الامير طومان باى الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلها أحد وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذى انقلب هناك من الماء وذلك لانه لم يكتف بتوجه الامير طومان باى الدوادار والامير ارزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبته من الامراء المقدمين الاتابكى سودون العجمى والامير اركماس أمير مجلس والامير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والامير انسباى حاجب الحجاب والامير طومان باى الدوادار والامير تمراز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام فى المقياس الى ان صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الاهرام فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى الفيوم من تحت

الجبل ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين الحلبي بسبب ما تقدم واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار انظر لي حلبي يحلق رأسي فعرض عليه عدة حلبية فما أعجبه منهم أحد فقال له محمد بقي عندنا صبي صغير أمرد يسمى عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الخدام وهو يحلق مليحا فقال السلطان أحضره حتى يحلق لي فأحضره فلما حلق له أعجبته حلاقته فاستقربه حلبي السلطان عوضا عن علم الدين فسافر هذا الصبي مع السلطان الى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار حلبي السلطان في ساعة واحدة واذا أعطى لا مانع والله عند القلوب المنكسرة جابر والعبد بسعده لا بأبيه ولا بجده فعد ذلك من النوادر وفي يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بها برقهم فتأهبوا وخرجوا وسافروا في ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب وفي يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم المماليك عند باب القلعة وصرفوا الجامكية على المماليك والعسكر في غيبة السلطان على جاري العادة وفي يوم الاحد تاسع عشره حضر السلطان من الفيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الاربعة فشق من الصليبة وقدامه القضاة الاربعة والاتابكي سودون العجمي وسائر الامراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنائب قدامه وطلع الى القلعة في موكب حافل وكانت مدة غيبته في الفيوم تسعة أيام فكشف على الجسر الذي هنالك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من التقادم الفاخرة قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هنالك فطلع بعد العصر الى القلعة وسلم على السلطان وهنأه بالسلامة ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما عدى من الجيزة كان في ذلك اليوم رياح عاصفة فغرقت مركب قدام المقياس وقد ازدحمت فيها الخيول وشبت على بعضها فاشيع أن المركب قد انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك الخبر وفي يوم الاثنين عشريه كان عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين وكانت خماسين مباركة لم يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة وفي يوم الخميس ثالث عشريه أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبي الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان النيل يومئذ في اثني عشر ذراعا وثلاث أصابع فزاد على ذلك نصف ذراع وكان ذلك في شهر برمهات وسبب هذا الزيادة أن الامطار كانت باعلى بلاد الصعيد فانحدرت منها السيول الى النيل فزاد هذه الزيادة في غير أوانها وقد وقع مثل ذلك في بعض السنين الماضية وزاد في غير أوانه بسبب السيول نحو ذراعين وفي يوم السبت

خامس عشريه جلس السلطان فى الميدان وعرض الامراء الطبلخانات والعشراوات
ورؤس النوب فلما عرضهم قال لهم اعملوا برقكم وكونوا على يقظة من السفر فانى أنفق
وأخرج فى جمعتى هذه فنزلوا على ذلك وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع وقيل اثنان
من عند نائب حلب وأخبرا بان نائب حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على
السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصوفى ملك العراقين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم
زاحفون على بلاد ابن عثمان وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك
الروم واقعة مهولة وقد تقدم القول على ذلك وانكسر اسماعيل شاه الصوفى كما تقدم فاستمر
الصوفى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بمماليك التتار فقيل انه جمع
الجم الغفير من العساكر فان ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الواقعة المقدم ذكرها
فلما راج أمر الصوفى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان فقيل انه كبس على
جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد كان ملكها من يد الصوفى حين محاربته معه فى
الواقعة المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله فأشيع أن الصوفى كبس على من كان
بآمد على حين غفلة وقتل من كان فيها من العثمانية واستخلصها من يد جماعة ابن عثمان
وانتصر عليهم فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع بالامراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب
مشورة بسبب ذلك الى قريب الظهر فاشيع أن السلطان قال أنا أخرج بنفسى وأقعد فى
حلب حتى أنظر ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان فان كل من انتصر منهما على غريمه لابد
أن يزحف على بلادنا فانفض المجلس على أنه لابد من خروج تجريدة تقيم بحلب وتحرس
البلاد الحلبية وأشيع فى ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان والزامهم أن
يشرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير وفرسان العرب ويوزعوا ذلك على سائر
البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد وهذا من أكبر أسباب الفساد فى حق الجند
والمقطعين فان الكشاف ومشايخ العربان يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة
أمثال لأنفسهم وفى ربيع الاول وكان مستهل يوم الجمعة طلع الخليفة والقضاة الاربعة
وهنوا السلطان بالشهر وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشى وبركات بن الطريف
شيخ القراء الى الخليفة وهو يقول اعمل برقك الى السفر فانه لابد من سفر السلطان الى حلب
وانه ينفق ويخرج فى شهر واحد فتنكد الخليفة لهذا الخبر وفى يوم الاحد ثالثه جلس
السلطان بالميدان وعرض الامراء الطبلخانات وخاصكية الخواص وعين منهم جماعة للسفر
ثم طلع ودخل الى قاعة البيسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج بلور وعقيق
وكنابيش زركش وسروج ذهب وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك وأفرد منها
ما حسن بياله لاجل الطلب اذا خرج وسافر وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر السلطان

الى حلب وفى يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان وعرض الامراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل أمير أن يستخدم عنده مماليك شئ خمسة وشئ ثلاثة وشئ اثنان بحسب اقطاعه وقرر معهم أن بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل ذلك يخرجه عن امريته ويجعله طرخانا وفى يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضى شهاب الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب عمل برقه وقد كشفوا فى الدفاتر القديمة فوجدوا أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع برقه على السلطان فكتب الخليفة قوائم بصروف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف دينار وقيل خمسة آلاف دينار فاخذ الشهابى أحد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها على السلطان وفى هذا الشهر خلع السلطان على الامير طرابای الذى كان قبل ذلك نائب صفد واعاده الى نيابة صفد كما كان وعزل عنها يوسف الذى كان نائب القدس فكان مكثه فى نيابة صفد دون السنة ثم عزل وولى طرابای المذكور وفى يوم الاربعاء سادسه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان قاطبة وعينهم الى السفر صحبته ولم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية المرد وفى يوم الخميس سابعه رسم السلطان للطواشية بأن تدور على المماليك البطالة وأولاد الناس الذين كان السلطان قطع جوامكهم بأن يطلعوا يوم السبت للعرض فالذى يصلح للسفر يعيد السلطان له جامكيته ويكتبه للسفر ثم من بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التى قطعت فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان بالميدان وعرض جماعة من المماليك القرانصة من الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب الجوامك فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية وعين منهم جماعة مع كاشف الغربية وجماعة الى البحيرة وجماعة منهم الى الطرانة وجماعة الى المنوفية وجماعة الى منفلوط وجماعة الى الجيزة وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا ظهر منهم فساد وحفظ البلاد فى غيبة السلطان اذا سافر وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الى حلب ودارت الطواشية على المماليك القرانصة وأولاد الناس بسبب هذا العرض حتى عين هؤلاء الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا بسبب رد الجوامك التى كانت قطعت للمماليك العواجز وأولاد الناس واستقرت هذه الواقعة على ما ذكرناه وفى يوم الاحد عاشره نزل السلطان وعدى الى بر الجيزة وعرض جمال الامير خاير بك كاشف الغربية الذى توفى ثم عاد وطلع الى القلعة ودخل الى قاعة البيسرية وعرض فى ذلك اليوم بكايير وقرقلات وجواشن وغير ذلك أشياء كثيرة من آلات السلاح من حواصل الذخيرة وفى يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوى على العادة ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الملك الاشرف وكانت هذه

الخيمة

الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين ثلاثة وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة قيل لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير وهى من قماش ملون وهذه الخيمة كان لاينصبها الا ثلثمائة رجل من النواتية وقيل ان مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار فنصبها بالحوش ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد مملوأة بالماء الحلو وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة وزينوا بالاوانى الصينى والطاسات النحاس وأوسعوا فى زينة الشرابخانة الزينة الفاخرة أكثر من كل سنة ثم جلس السلطان فى الخيمة وحضر الاتابكى سودون العجمى وسائر الامراء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الاربعة وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم مدوا السماط وقد أوسع فى أمره وكان مولدا مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية وفى ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين بن النقيب رحمة الله عليه وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى كان يقرب للخواجا شمس الدين بن قضا الجوهرى وكان من أهل العلم والفضل لكنه كان جافى النفس وينسب الى شح زائد وله فى ذلك الامر أخبار شنيعة لم تذكرها لكنها شائعة بين الناس ومات وله من العمر نحو الثمانين سنة وكان سبب موته انه كان يمشى فى الاسواق بقبقاب سبك فتوجه الى خان الخليلى فرفسه فرس فوقع على خذه فانكسر فحملوه الى خلوته التى فى المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات وكان منفصلا عن القضاء وقد ولى منصب القضاء ست مرات ونفد منه فى هذه الست ولايات ستة وثلاثون ألف دينار وكانت اقامته فى الست ولايات نحو سنتين وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاء فعزل به قاضى القضاة زكريا وقاضى القضاة ابن أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندى وقاضى القضاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى وعلاء الدين بن النقيب وكان يسعى بجملة من الأموال ولا يقيم فى منصب القضاء غير أشهر ثم يعزل فنفد منه مال له صورة على هذه الطريقة وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة

منصب الحكم فى القضا قال لما * كشف الله ما به من هموم
زال عنى ابن النقيب وانى * كنت معه فى قبضة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا فى كل يوم من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك وكان يحرم نفسه من المأكل والمشرب والملبوس وفى ذلك اليوم توفى المهتار حسن شربدار السلطان وكان فى سعة من المال وصادره السلطان غير مرة فلما مات ختم السلطان على حواصله ولم يلتفت الى أولاده وفى يوم الثلاثاء ثانى عشره توفى الشيخ محب الدين الحلبى امام السلطان وكان من المقربين عنده وكان لا بأس به وفى يوم الخميس رابع

عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب السلطان بالشام فأرسل يقول له يا مولانا السلطان ان البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد والزرع فى الارض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ولا يتعب السلطان سره ولا يسافر وان كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية فلم يلتفت السلطان الى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب وفى يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على الامير ارزمك الناشف أحد المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل وخلع على الامير برسباى الفيل أحد أمراء الطبلخانات وقرره أمير حاج الركب الاول فنزلا من القلعة فى موكب حافل وفى هذا اليوم خلع السلطان على الامير الماس أحد الامراء العشراوات ويعرف بدوادار سكين وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الامير كرت باى بحكم انتقاله الى تقدمة ألف وكان الامير كرت باى من أعيان مماليك السلطان وولى كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف وقيل ان الامير الماس سعى فى الولاية باحد وأربعين ألف دينار منها عشرون ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على نقدات متفرقة وفى ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه الامير ماماى الصغير وقرره فى نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله الى استدارية الذخيرة وكانت مدة اقامة الزينى بركات بن موسى فى الحسبة احدى عشرة سنة الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية وقيل ان الامير ماماى الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ولكن عظم أمرها تين الوظيفتين فى هذا الزمان الى الغاية وصارتا من أجل الوظائف وهذه الاموال العظيمة التى يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من اضلاع المسلمين ودمائهم والامر الى الله وفى ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر وقد تحقق أمر خروج التجريدة فأنفق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وثمن جمل سبعة دنانير ثم ان السلطان كتب أولاد الناس قاطبة الى السفر ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وكان سبب ذلك أن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك قال للسلطان انا نظرنا فى بعض التواريخ ان الملك الظاهر برقوق لما خرج الى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيأ فاعجب السلطان منه ذلك وقطع نفقة أولاد الناس قاطبة فكثر عليه الدعاء من أولاد الناس بسبب ذلك وكانت هذه الواقعة من أعظم مساويه فى حق أولاد الناس وحصل لهم كسر خاطر شديد وفى يوم الاحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصائغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة وكان له مدة وهو مختف فظهر فى ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوندجان

سكر الجركسية مستولدة السلطان وهى أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة وكانت دينة خيرة قليلة الاذى فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأعيان المباشرين فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشخانة تزركش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ومشى الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرابشيين فدفنت هنالك على أولادها ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة ايدغمش وكانت جنازتها حافلة وكثر عليها الاسف والحزن من الناس وفى يوم الخميس حادى عشريه وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة فلما وقفوا له ساعدهم الامير علان الدوادار وبقية الامراء فلم يرث لهم السلطان وقال أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الاربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيته فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الاربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت وفى يوم الاربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على بقية العسكر النفقة وفى يوم السبت ثالث عشريه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ونادى عليهم فى الحوش ان السفر أول الشهر فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال وصار المماليك يجمعون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والاكاديش فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الاسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء وغلقت أسواق القماش بسبب المماليك واختفى الصنائعية والخياطون واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك واختفى طائفة من الغلمان خيفة السفر وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول يارب روحى وقد عاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى وقع منه ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهج العظيم ولا جاءت أخبار بان ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده وعابوا على السلطان أيضا عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام وأنفق عليهم مع العرض خشوا أن يشاع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصوفى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك وما كان هذا الرأى من الصواب وهذه الاحوال كلها غير صالحة وفى يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الامراء المقدمين فارسل للاتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار والامير اركماس أمير مجلس والامير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والامير انسباى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار وبقية الامراء

المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار وأين هذه النفقة من
النفقة التى كان يرسلها الاشرف قايتباى للامراء المقدمين عند خروجهم الى تجاريد ابن
عثمان فكان يرسل للاتابكى أزبك وحده ثلاثين ألف دينار والامير تمراز أمير سلاح عشرين
ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الامراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف
دينار حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ولم يفعل الاشرف قايتباى ذلك الا فى آخر تجاريده
لابن عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة فبلغت نفقة الامراء قاطبة دون الجند مائة ألف
دينار وفى يوم الاحد رابع عشريه نزل السلطان وتوجه الى مدرسته التى بالشرابشيين
فأقام بها الى ما بعد العصر وأشيع انه قد عرض موجود خوند فان حواصلها كانت هنالك
فظهر لها موجود عظيم ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر وغير ذلك وفى يوم
الاثنين خامس عشريه أنفق السلطان على الامراء الطبلخانات والامراء العشراوات وصار
يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية فأعطى لكل أمير طبلخانات خمسمائة
دينار وأعطى لكل أمير عشرة مائتى دينار ولم يرسل للخليفة نفقة فحصل له غاية المشقة وترامى
على جماعة من الامراء فى أن يقرضوه مبلغا بربح ودخل فى جهته ديون كثيرة ولم يتفق قط
ان السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة وكانت عادة جميع
السلاطين ان برك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان وكان يرسل اليه خمسمائة دينار
لاجل جوامك اتباعه فلم يلتفت السلطان الى شئ من ذلك وشح معه فى أمر النفقة وكان
الخليفة مظلوما مع السلطان فى هذه الواقعة ثم انه عرض المماليك القرانصة الشيوخ
والعواجز وكتب منهم جماعة الى الشرقية والغربية والصعيد وألزمهم أن يخرجوا بلا نفقة
وكانوا نحو خمسمائة مملوك وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه نزل السلطان من القلعة وتوجه
الى الريدانية ورتب الفراشين كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ورتب منازل
الامراء وكيف تكون منازلهم بالريدانية وفى ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير اخور
كبير بأن يعمل برقه ويسافر صحبته وكان فى الاول رسم له بأن يكون مقيما بباب السلسلة الى
أن يحضر السلطان ثم بطل ذلك ورسم له بأن يشرع فى عمل برقه الى السفر وفى يوم الجمعة
تاسع عشريه الموافق لسادس بشنس القبطى خلع السلطان الصوف ولبس البياض
وكانت أول جمعة خوند زوجة السلطان التى توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر
هنالك الخليفة والقضاة الاربعة وجماعة من الامراء المقدمين وحضر قراء البلد قاطبة
والوعاظ وكانت ليلة مشهودة بمدرسة السلطان التى بالشرابشيين وفى يوم السبت مستهل
شهر ربيع الآخر جلس السلطان بالميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الاربعة فهنوه بالشهر
الجديد وعادوا الى دورهم وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المهتار حسن الشربدار

الذى تقدم ذكر وفاته وقرره فى وظيفة أبيه فى مهتارية الشمر بخاناه عوضا عن أبيه بحكم وفاته وفى ثانيه فرق السلطان على مماليكه الجلبان لبوس الخيل من حرير ملون وخودو أتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ وغير ذلك من آلة السلاح التى فى الزردخانه فتزاحمت عليه المماليك وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ولا يرضون بالذى يفرقه السلطان عليهم فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم وكثر تمردهم فى هذه الايام الى الغاية

﴿أعجوبة﴾ قيل ان امرأة ولدت ولدا له راسان وأربع أيدى وأربع أرجل فلما شاهده السلطان تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك فى زمن الامام على رضى الله عنه ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين ان السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب فأحضر مشايخ العربان والكشاف وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال فنزلوا الى البلاد قاطبة وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار فلما سمع أهل النواحى من الفلاحين بذلك الامر أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الارض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة فلما بلغ الامراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك وأن غالب البلاد تخرب وأخلاها الفلاحون وأغلظ الامراء على السلطان فى القول وقالوا له نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد ديواننا اذا سافرنا فاستحى منهم السلطان وأمر بابطال ذلك وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف ومشايخ العربان بابطال ما كان قد رسم به فى الاول واعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحى فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ولو استمر على قوله الاول لخربت مصر عن آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد فلله الحمد على ذلك ومن الحوادث فى هذه المدة أن السلطان صادر ابنة الامير خاربك كاشف الغربية أحد الامراء المقدمين وهى زوجة الامير تانى بك الحمازانى دار أحد الامراء المقدمين وهى التى كان وقع لها ذلك الامر الفاحش المقدم ذكره فلما صادرها قرر عليها مالا ثقيلا له صورة فأرسل رسم عليها بجماعة من الطواشية فلما تحققت ذلك شرعت فى بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق وكان سبب ذلك انه لما توفى والدها الامير خاربك تكلم الاعداء فى حقها بأنها أخذت من موجود أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم فأرسل خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأنكرت وحلفت أنها ما رأت تلك القدور الذهب التى اتهموها بها فخنق منها السلطان وقال لها أنسيتى ذنبك يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها فخاف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من مال أبيها والا يغرقها وصمم على ذلك فلما جرى ذلك شرعت فى بيع جهازها لتورد المال الذى قرر عليها فصار فى كل يوم سبت وثلاثاء

يحضر الزيني بركات بن موسى و جماعة من المباشرين و يبيعون قماشها مثل التركة وقد وقع لابنة يشبك الدوادار زوجة الامير قانباى أمير اخور كبير كهذه الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها وجواريها مثل التركة وغلقت ماعليها من المال وقد تقدم ذكرها وفي يوم الخميس سادسه صرف السلطان للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة لهم على ثلاثة أشهر لكي يتوسعوا فيها ولم يصرف للذين تأخروا بمصر شيأ وأحالهم على الطباخين يصرفون لهم في غيبته وفي ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ثم نادى للعسكر في الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقي له عاقة يخرج و يسافر و يتقدم قبل خروج السلطان ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الجاليش الذي هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد الشامية وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يعلقون الجاليش قبل خروجهم بأربعين يوما فلم يمش السلطان على طريقة الملوك السالفة وفي يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر على يد حسام الدين الالواحي بواب الدهيشة ألف دينار وكان الساعي له في ذلك الامير طومان باى الدوادار الكبير ولولا هو ما كان يرسل له شيأ فان السلطان اذا أرسل للقضاة الاربعة يقول لهم اعملوا برقكم ولم يرسل لهم شيأ من النفقة وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لانه من حين سافر الاشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الاربعة الى البلاد الشامية صحبة السلطان وكان للخليفة والقضاة الاربعة على السلطان عادة انهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يرسل لهم نفقة السفر فتغافل السلطان عن ذلك ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفا مسقطا بالذهب على يد شخص من الزرد كاشية يقال له محمد العادلي وقد تقدم القول على أنه أرسل له نوبة جام جديد فكان مجموع ما حصل له من السلطان من الانعام ذهب وغير ذلك دون ألفي دينار وقد تكلف الخليفة في هذه الحركة على مصروف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار أو أكثر وفي يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من مماليك السلطان وتوجهوا الى السفر نحو البلاد الشامية وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن كل من جهز برقه يخرج و يسافر قبل خروج السلطان فصار يخرج في كل يوم جماعة من العسكر شيأ فشيأ ولم يسافروا وفي ذلك اليوم حضر خليفة سيدى أحمد البدوي وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتي الى حلب فلما سمع ذلك تعلل وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر يسافر فخنق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم يقبل له عذرا وأرسل يقول لخليفة سيدى أحمد الرفاعي رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر صحبتي فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا في تجهيز أمرهم وعملوا برقهم وعينوا معهم جماعة كثيرة من النواب فتقلقوا من أمر السفر فعند ذلك فرض القضاة الاربعة مبلغا له صورة على نوابهم على كل

واحد من النواب قدر معين على قدر مقامه فقامت الثائرة والشناعة على القضاة بسبب ذلك ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر على القضاة هذه الفعلة وفيه طلع قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ثم استأذن في الدخول على السلطان فدخل عليه وهو بالدهيشة فلما جلس بين يدي السلطان شرع يحلف له أنه لم يدخل كيسه شيء مما قرروه على النواب وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا نجعل كلفتنا على النواب المقيمين بمصر فلما سمع السلطان ذلك قال لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب فالذي يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذي لا يسافر لا تغصبوه على السفر فبطلت تلك الحادثة الشنيعة ولله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا في بيع قماشهم وكتبهم وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الاشرف برسباي الى آمد وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من الفراشين والبابية والركخانه والحجارين والشربدارية والزردخانيه من النفطية وغير ذلك وطلب الامير علم الدين الذي يحكم على الطبالين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطبالين والزمارين والمنقرين من كيسه وقال له أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فانفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلي هذه الوظيفة ويفعل ذلك ثم عرض مغاني الدكة وهم أحمد أبو سنه والمحوجب والمحلاوي وأمرهم بان يسافروا صحبته ثم عين جماعة من النجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيأ بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ولم يعطهم نفقة وقال لهم أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعندا رادتي سفركم تطلبون مني نفقة وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون أفرد شمس الدين الظريف نقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم وفي يوم الاحد تاسعه حضر الى الابواب الشريفة العجمي الشنقجي نديم السلطان الذي كان توجه بالاقيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير مرة فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصوفي في الخفية في خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان وكان من ملخص أمره انه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميلة ونزل من حدرة البقر وطلع به من الصليبة وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب انه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأكوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون وأما الخيول فثلثمائة فرس منها مائة فرس ببركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشيء

مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقى
وسروج بداوى وطبول بازات وكان فى الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس
أصفر ولحاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر
وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر وكان بالطلب خمسة رؤس خيل خاصة
منها اثنان بأرقاب مرزركش وكابيش وسروج بلور مزيكة بذهب وشئ عقيق وطبول بازات
بلور مزيكة بذهب وكان به فرسان بكابيش وسروج ذهب عليها غواشى ذهب وعليها
هلالات ذهب عوضا عن الطيور وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رؤس بالشاش
والقماش وبعض خدام من الطواشية وكان راكبا به من المباشرين القاضى محمود بن أجا
كاتب السر والقاضى محيى الدين القصروى ناظر الجيش والقاضى علاء الدين ابن الامام
ناظر الخاص والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر والقاضى أبى البقاء ناظر
الاسطبل والقاضى بركات بن موسى المحتسب والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك
وناظر الدولة والشرفى يونس النابلسى الاستادار كان والقاضى كريم الدين بن الجيعان وأولاد
الملكى وغير ذلك من المباشرين ثم جاء الصنجق السلطانى وانجرت الكؤسات والصناجق
السلطانية والخليفة وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كؤسات
وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كؤسات فشق طلب السلطان من
الرميلة واصطف العسكر والجم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب فلما مر
الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول التى به وقال من أدرك طلب الاشرف برسباى
لما خرج الى آمد كان فى طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمل الملون والفولاذ
وميز بعض الناس طلب يشبك الدوادار لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره
على هذا الطلب لانه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل
من باب زويلة وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجت له القاهرة فى ذلك اليوم
فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية وفى
ذلك اليوم خرج سنجق أمير المؤمنين المتوكل على الله وكان قدامه طبلين وزمرين ونفيرا
ولم يخرج فى ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط وكانت العادة القديمة أن يخرج
السلطان عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الامراء بعده شيأ فشيأ فلم يمش السلطان على
النظام القديم وخالف عوائد الملوك فى أشياء كثيرة من أفعاله منها انه لم يعلق الجاليش على
الطبلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلقون الجاليش ويعرضون العسكر ثم
ينفقون عليهم نفقة السفر ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين
وقد حكى عن الظاهر برقوق انه لما جرد الى تمرلنك خرج طلبه ينسحب من باب الميدان وكان
الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى يده طبر ويكر بفرسه من باب

الميدان الى الصوة قيل ان السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب وأما الغورى فانه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة فى الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة وفى العود يشق القاهرة وكان السلطان الغورى لا يقتدى الا برأى نفسه فى جميع الامور وفى يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان يقال له جانم الافرنجى وكان مجرما عائقا مسرفا على نفسه خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان فصار جانم هذا يخطف كل شئ لاح له ويؤذى الناس بطول الطريق فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجدوه من غير مشورة فقيل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجرة فى بلبيس وهو بقماشه وسيفه وتركاشه ووضعوا غلمانه فى الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة وفى يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما وكان صحبته ولده أميراخور كبير وقيل انه تصدق فى ذلك اليوم بمال له جرم وفى ذلك اليوم برز سنجق السلطان وتوجه الى الريدانية وكذلك الامراء خرج سنجقهم فلما كان يوم السبت خامس عشره خرج السلطان الملك الاشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلبية وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج الى تلك البلاد على هذا الوجه من حين توجه الاشرف برسباى العلائى الى آمد وذلك فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة فكانت المدة نحو سبعة وثمانين سنة ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الامراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بالشاش والقماش فخلع السلطان فى ذلك اليوم مميرو أطلسين على الاميرار كماس بن طرابای أمير مجلس وقرره فى امرية السلاح وكانت شاغرة من حين قرر الامير سودون العجمى فى الاتابكية فكانت عدة الامراء المقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الاتابكى سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى والمقر السيفى ارکماس أمير مجلس سلاح والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أميراخور كبير والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والمقر السيفى قانصوه بن سليمان جركس ثم الامير تمرا لحسنى الشهير بالزردكاش والامير علان بن قراجا دوادار ثانى أحد المقدمين والامير قانصوه كرت والامير جان بلاط الشهير بالموتر والامير تانى بك الشهير بالخازندار والامير بيبرس قريب السلطان والامير ابرك رأس الجلبان الاشرفى والامير اقباى الطويل أميراخور ثانى أحد المقدمين والامير كرت باى الاشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين وأما الامراء الطبلخانات من

أرباب الوظائف منهم الامير يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه والامير مغلباى والشرفى يحيى الزردكاش الكبير والامير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى والامير طومان باى قراحاجب ثانى وغير ذلك من الامراء الطبلخاناه وأما الامراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف وأما الامراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان وقد تعين أن يكون نائب الغيبة عن السلطان الى أن يحضر والامير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين والامير ازمك الشهير بالناشف والامير قانى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر فى امرية الحاج والامير ازبك الشهير بالمكحل أحد المقدمين والامير قانصوه الفاجر أحد مقدمى الالوف والامير بخشباى أحد المقدمين وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك والامير خاربك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثغر رشيد بسبب عمارة الابراج التى هناك والسور والامير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها والامير قانصوه الشهير برجل أحد الامراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر المقدم ذكره انسحبت اطلاب الامراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف فكان أولهم طلب الامير كرت باى أحد المقدمين وهو الذى كان والى القاهرة ثم طلب الامير اقباى الطويل أمير اخور ثانى أحد المقدمين ثم طلب الامير تانى بك الخازندار ثم طلب الامير ابرك الاشرفى أحد المقدمين ثم طلب الامير علان بن قراجا الدوادار الثانى أحد المقدمين ثم طلب الامير بيبرس قريب السلطان ثم طلب الامير جان بلاط الشهير بالموتر ثم طلب الامير قانصوه كرت ثم طلب الامير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ثم طلب الامير قانصوه ابن السلطان جركس ثم طلب الامير انسباى بن مصطفى حاجب الحجاب ثم طلب الامير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ثم طلب المقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف اميراخور كبير ثم طلب الامير اركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ثم بعد ذلك مشى طلب الاتابكى سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب فلما انقضى أمر الاطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج فخرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الافيال الثلاثة وهى مزينة بانواع الزينة ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الامراء رؤس النوب بالعصى يفسحون الناس وقد ترادفت الامراء الطبلخانات والامراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين منهم المقر القاضوى محب الدين محمود

ابن اجا كاتب السر الشريف والقاضى ناظر الجيش محيى الدين عبد القادر القصروى ومنهم
ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب
السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة
وكاتب العساكر المنصورة والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار
الذخيرة والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان والقاضى
أبو البقاء ناظر الاسطبل المعمور وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة وأولاد الملكى
كتاب استيفاء الجيش وكاتب الزردخاناه وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين
والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة وكان حاضر اهذا الموكب السادة الاشراف اخوة
الشريف بركات أمير مكة فكانوا قدام الامراء المقدمين ثم تقدمت الامراء المقدمون
قاطبة وصحبتهم ولد السلطان المقر الناصرى أمير اخور كبير والى جانبه الاتابكى سودون
العجمى ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الاربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة
الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة
وقاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين
أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك
بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى
بطراز أسود حرير ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى وقد اختصر هذا الخليفة أشياء
كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه ثم مشت الجنائب السلطانية فكانوا
طوالتين خيل بعراقى وسروج بغواشى حرير أصفر وظبول بازات وطوالتين خيل
بكابيش وسروج ذهب وميا ثرز ركش وبعضهم بسروج بلور مزيكة بالذهب وشئ عقيق
مزيك بفضة وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ثم تقدمت جماعة من
رؤس النوب مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالاطبار ولم يكن قدامه لا وطاق
ولا شبابة سلطانية كما هى عادة السلاطين فى المواكب ثم مشت البقج والجامع مغطية بالحرير
الاصفر ومشى البخورى بالمبخرة قدامه ثم أقبل السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى
عز نصره وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة وكان السلطان راكبا على فرس أشقر
بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه كلوته وهو لابس قباء بعلبكى أبيض بطرز ذهب على حرير
أسود عريض قيل كان فيه خمسمائة ذهب بنادقة وكان ذلك اليوم فى غاية الابهة والعظمة
فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مجملا فى المواكب وأقبل والصنجق السلطانى على
رأسه ومقدم المماليك سنبل العثمانى خلفه وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش
والجم الكثير من الخاصكية والجمدارية فدخل من باب زويلة وشق القاهرة فى ذلك

الموكب الحافل فارتجت له القاهرة فى هذا اليوم وصجت الناس له بالدعاء من العوام وغيرهم وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان فاستمر فى ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا ثم وصل الى المخيم بالريدانية ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلت خوبخانات فيها الذهب والفضة وضمن كل واحدة من الذهب العين ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الاموال التى جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج فى هذه التجريدة وفرغ أيضا حواصل الذخيرة وأخذ ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة التى كانت بها من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنابيش زركش وطبول بازات بلور ومينه وبركستوانات مكفتة واكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوبخانات وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش فكانت تلك الخوبخانات محملة على خمسين جملا ثم نزلت الزردخانه وهى محملة على مائة جمل وقدامها طبلان وزمران وعيدان نقر على جمال فتوجهوا الى الوطاق وفى يوم الاحد سادس عشره أرسل السلطان نادى فى القاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادى عشريه فلا يتأخر أحد من العسكر الذى تعين للسفر ولا يحتج بحجة ولا عذر ولما أقام السلطان فى الوطاق عين جماعة من نواب السادة القضاة للسفر صحبة الركاب الشريف فأما نواب الشافعية فعين منهم الشيخ زين العابدين نجل القاضى كمال الدين الطويل والقاضى شمس الدين بن وحيش والقاضى شمس الدين التفهنى امام الامير اركماس أمير سلاح والقاضى زين الدين الظاهرى فجملة ذلك أربعة من نواب الشافعية وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال الدين الصابونى مفتى المسلمين والشيخ صلاح الدين القليوبى قارئ الحديث الشريف وسافر صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير مكة وأما من تعين من نواب السادة الحنفية فالسيد الشريف القاضى البردينى والقاضى زين الدين الشرنقاشى والقاضى شرف الدين البلقينى والقاضى عز الدين خليل وأما نواب السادة المالكية فتعين منهم القاضى شمس الدين المدينى والقاضى معين الدين بن يعقوب وأما نواب السادة الحنابلة فتعين منهم القاضى شهاب الدين الهيثمى والقاضى شمس الدين الطرابلسى وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية فنهم السادة الاشراف القادرية وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه والشيخ محمد بن كشك وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه والشيخ عفيف الدين شيخ مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من أئمة السلطان فقاضى القضاة الحنفية شمس الدين السمديسى والشيخ شهاب الدين بن الرومى وأما من توجه من مشايخ القراء صحبته فالشيخ شمس الدين بن الظريف والشيخ الخواص

والرومى والشيخ حسن الطنتتائى وابن القاضى خليل والشيخ أبو الفضل الفار وابنا عثمان الاثنان وأما من سافر معه من المؤذنين فنهم نور الدين الخواص ونور الدين الحسنى وجلال الدين وناصر الدين وأما من توجه صحبة السلطان من الموقعين فنهم القاضى رضى الدين الحلبى والقاضى عمر بن معين الدين والقاضى علم الدين العباسى والقاضى محب الدين الظاهرى وشمس الدين الجيزى وسعد الدين بن الرومى وأما من توجه صحبته من كتاب الخزينة فنهم القاضى كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان وأما كتاب الزردخانة فنهم القاضى زين الدين عبد الباسط والقاضى عبد الكريم بن الادنى وغير ذلك من المباشرين وأما من توجه صحبة السلطان من الاطباء فنهم محمد بن الرئيس شمس الدين القوصونى وهو رأس الاطباء الآن وصحبته جماعة من الاطباء ومن الكحالين عبد الرحمن بن الشريف ومحمد بن العفيف وآخرون ومن المزينين عبد القادر المرشدى وآخرون من الجرايحية وأما من توجه صحبته من مغانى الدكة فنهم نور الدين المحوجب وأحمد بن أبى سنة وأحمد الحلاوى وتوجه صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنايين والنجارين والحدادين كما جرت به العادة وسافر معه شيخ المشايخ المسمى بشيخ الحرافيش وجنده وصنجقه وطبله وكان هو قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرت به العوائد القديمة عند خروج التجاريد ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل من المخيم الشريف ثلاثة من الامراء المقدمين وهم الامير كرتباى الاشرفى الذى كان والى القاهرة وبقى مقدم ألف وكان جملة مامعه من مماليكه أربعين مملوكا والامير ابرك الاشرفى والامير بيبرس قريب السلطان وكان جملة مامعه من مماليكه أربعة وأربعين مملوكا وفى يوم الاربعاء تاسع عشره رحل من الامراء المقدمين ثلاثة أيضا وهم الامير تانى بك الخازندار وكان جملة مامعه من مماليكه اثنين وستين مملوكا والامير قانصوه كرت وكان جملة مامعه من مماليكه اثنين وخمسين مملوكا والامير قانصوه ابن سلطان جركس وكان جملة مامعه من مماليكه ستة وسبعين مملوكا وأما الامير جان بلاط الموتر فكان جملة مامعه من مماليكه ستة وثلاثين مملوكا والامير تمر الزردكاش كان جملة مامعه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا وفى يوم الجمعة حادى عشريه رحل من الامراء المقدمين أرباب الوظائف الامير انسباى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا والاتابكى سودون العجمى وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير اخور كبير والامير اقباى الطويل أمير اخور ثانى فانهم لا يرحلون الا فى ركاب السلطان وكان جملة مامع الاتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغار للخدمة وجملة مامع

الامير اقباى الطويل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا فكان جملة مامع هؤلاء الامراء
الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ماقيل ويقال ان عدة
المماليك الذين خرجوا فى هذه التجريدة من القرانصة والجلبان وأولاد الناس خمسة الاف
نفر على ماقيل والله أعلم وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرانصة والعواجز والشيوخ
والمماليك الجلبان فى الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفى نفر على ماقيل وفى يوم
الجمعة حادى عشريه رحل من الريدانية الاتابكى سودون العجمى هو وأتباعه ومماليكه
وتأخر ابن السلطان والامير اقباى الطويل أمير اخور ثانى وأشيع أنهما يرحلان صحبة
السلطان ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب واذا فيها
ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو واصل لكم فوصل
اليه وهو بالمخيم بالريدانية ولما فكه السلطان وقرأه فاذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة
منها أنه أرسل يقول له أنت والدى وأسئلك الدعاء وانى ماز حفت على بلاد على دولات
الا باذنك وانه كان باغيا على وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى
حتى جرى بينهما ماجرى وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب وأما
ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن بيالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالامر
راجع اليكم وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فانى ماممنعتهم وانما هم
تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم وان البلاد
التى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ماترومونه ويريده السلطان فعلناه فلما
سمع السلطان ذلك أحضر الامراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان فانشرح الامراء
والسلطان لهذا الخبر واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الاوطان عن قريب وكان هذا
كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد وفى
عقيب ذلك اليوم حضر الامير اينال باى الدوادار سكين الذى كان توجه الى حلب بسبب
كشف خبر ابن عثمان فلما حضر وجد السلطان قد بر زخيامه الى السفر وخرج من
القاهرة فاخبر أن قاصد ابن عثمان وصل الى حلب وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين
السلطان فقدم لاينال باى هناك تقدمة حافلة ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله
من الريدانية خلع على الامير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة
بالقاهرة الى ان يحضر وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة عوضا
عن الامير ماماى الى أن يحضر وجعل الزينى بركات بن موسى المذكور متحدثا فى جميع
أمور السلطنة وفى تلك الليلة أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة السلطان
فاحترق جانب منها فلم تتفاءل الناس بذلك بسبب السلطان فلما دخل الزينى بركات بن موسى

الى القاهرة تضاعفت عظمته الى الغاية وصار فى مقام نظام الملك وهو المتصرف فى أمور المملكة والامير الدوادار الكبير معه كاللولب يديره كيف يشاء وفى تلك الليلة أيضا خلع على الامير الماس وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم وخلع على الامير ماماى المحتسب ورسم له بالسفر معه الى حلب فرجع الامير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه المنادون تنادى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وان لا أحد من الناس يمشى من بعد العشاء بسلاح ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب وأن من كان له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء وكان الامير الدوادار محببا للرعية والفقراء قليل الاذى فى حق الناس ولما شق الصليبة شق فى موكب حافل وقدامه السعاة والسقاؤن والجم الكثير من الناس والاتباع والمماليك السلطانية وتوجه الى منزله فى ذلك الموكب وقد قلت فى ذلك

لقد شرف الاكوان نائب غيبة * أمير دوادار الى النهى والامر
كريم شجاع فى المعامع فارس * له نصرة فى الحرب بالبيض والسمر
اذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم * له طلعة بالعدل تؤذن بالفجر
فيارب كن عونا له ومساعدا * على كل ما يغشاه من حادث الدهر
وأبق ابن موسى للرعية انه * كليم زكى القلب أمن من السحر
جناب كريم ثم ناظر حسبة * ومولده قد كان فى ليلة القدر
وللسادة الاشراف ينظر بالتقى * ونال بهذا غاية الفوز بالاجر
وصار لديوان الذخيرة ناظرا * وعامله فى أعناق أعدائه يبرى
عزيز بمصر حاز طلعة يوسف * أعوذه بالنجم والنور والحشر

وفى يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر رحل السلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الاربعة وولده المقر الناصرى أميراخور كبير واقباى الطويل أميراخور ثانى فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس وكانت مدة اقامته فى الوطاق بالريدانية سبعة أيام فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الاحد ثالث عشريه وفى يوم الاثنين رابع عشريه فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذى تأخر عصر فجلس الامير طقطباى عند سلم المدرج وصرفت الجامكية بحضرته وهذه أول جامكية صرفت فى غيبة السلطان وفى ذلك اليوم رسم الامير الدوادار للامراء المقدمين الذين عينهم السلطان الى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لاجل حفظ البلاد من فساد العربان فتوجه الامير تانى بك الى الشرقية والامير ازبك المكحل الى الغربية والامير قانصوه الفاجر الى المنوفية والامير قانصوه أبو سنه الى

البحيرة والامير بخشباى كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هنالك ثم نادى الامير الدوادار فى القاهرة لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بان يخرجوا صحبة الامراء الذين يسافرون الى الشرقية والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك المعينة للسفر فامتثلوا ذلك وفى يوم الاثنين رابع عشريه توفى الامير نوروز تاجر المماليك وأحد الامراء الطبلخانات وكان أصله من مماليك الاشرف قايتباى وكان قد كبر وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة واستمر على ذلك حتى مات فأشيع أن السلطان أنعم على مملوكه ماماى الذى قرر فى الحسبة ببرك نوروز وخيوله وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعد وأبرق وأمطرت السماء مطرا غزيرا وكان ذلك فى أول بؤنة من الشهور القبطية فاستمر المطر عمال الاثلاثة أيام متواليه حتى عدّ ذلك من النوادر وقام عقيب ذلك رياح واصفرّ الجو صفرة عظيمة وقت المغرب فتفاءل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد جرى فيما بعد وفى ذلك اليوم جاءت الاخبار من عند السلطان انه لما رحل من الخانقاه وجد فى وطاقه شخص من السعادنة زعموا انه فداوى أرسله علم الدين جلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ذكر ذلك فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى صار جلبى السلطان عوضا عن علم الدين فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا انه فداوى وأحضروه بين يدى السلطان فقرره فانكر فرسم بشنقه ثم ان السلطان أرسل يقول للامير الماس والى القاهرة بان يكبس على علم الدين وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه فلما بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من بيته ثم ان الوالى قبض على جماعة من الساسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد فأشيع بين الناس انهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم حتى يحضر السلطان وكان قبل ذلك حرق للامراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو ألفى دينار فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الجلبى واذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها واستمر الطلب الحثيث على علم الدين الجلبى الى أن ظفروا به فقيل ان الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس الكامل فى طلب علم الدين فلم يظفروا به وفى يوم الجمعة ثامن عشريه خرج الامير الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر ابى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما وكان النيل قد زاد قبل المناداة وكان فى اثنى عشر ذراعا فتعب الامير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية التعب وكسر مراكب فى أساس هذين السدين والماء يقوى على ما يصنعون الى ان أعان الله وسدهما ورجع وفى جمادى الاولى خرج الامير ماماى الصغير المحتسب وسافر ولحق السلطان وخرج صحبته صبى صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم بن احمد بك بن أبى يزيد بن عثمان وكان عمه سليم شاه بن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ودخل الى حلب فى الخفية ثم جاء الى مصر وأقام بها الى

أن خرج السلطان الى جهة البلاد الشامية فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده فلم يفد من ذلك شئ ولما خرج صحبة الامير ماماى خرج وقدامه جنائب وكان السلطان قد قام له بصالح البرق وتكلف عنه بنحو ألفى دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره فى بلاد بنى عثمان بان فى مصر من أولاد بنى عثمان ولما ذكر اوطن السلطان أن عسكر ابن عثمان اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون الى هذا الصبى قاسم فلم يظهر لهذا الامر نتيجة ولا أفاد ماقصده شيأ فشق من الصليبة وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر ملوكى وقيل كان فى اذنه بلخشة مثمنة وصحبته جماعة من العثمانية وخرج صحبته الامير ماماى والامير اينال باى دوادار سكين الذى كان قد حضر من البلاد الشامية فرسم له السلطان بالعود ثانيا صحبته الى حلب ومن الحوادث التى جرت فى غيبة السلطان ان الامير الماس والى الشرطة صار يحجر على الناس ويأمرهم بأن يعمروا على الحارات والازقة دروبا فى أماكن شتى فعمروا دربا فى رأس سوق الدريس ودربا فى الحسينية ودربا على قنطرة الحاجب ودربا عند الفرايين وآخر عند خوخة القطانين وآخر عند المقس وعدة دروب فى أماكن شتى وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنديلا وان لا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح ومن الوقائع اللطيفة أن الامير الدوادار لم يشوش على أحد من أجناد الحلقة ولا ألزمهم بالمبيت فى القلعة فى غيبة السلطان وكانت العادة القديمة ان السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية تتسلط نقباء القصر على أولاد الناس من نقباء الحلقة ويلزمونهم بالمبيت فى القلعة فى كل ليلة فى مدة غيبة السلطان الى أن يحضر من السفر فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعبا شديدا بسبب طلوعهم كل ليلة الى القلعة ليبيتوا بها بعيدا عن بيوتهم فى الشتاء والذى لا يبيت يقيم له بديلا يبيت عنه بالقلعة وكان ذلك يعمل الى أيام الاشرف قايتباى لما كان يسافر فلم يتعرض الامير الدوادار لما سافر الغورى الى أحد من الناس من أجناد الحلقة فكتب ذلك فى صحيفة الامير الدوادار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل عنهم هذه السنة السيئة ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشترى قمحا من مركب على شاطئ البحر فلما اشتراه لم يجد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعائدة ومعه حمار وزكيبة فأمسك المملوك ذلك الحمار والزكيبة فلم يعطه الفلاح اياهما وتنازع معه فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه فألقى الرجل نفسه فى البحر فأغمى عليه فمات فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك فمسكوه وأتوا به الى بيت الامير الدوادار فوضعه فى الحديد وأرسل الى الوالى فلما بلغ خشداشينه أتوا الى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده فقيل

للمماليك ان ذلك المملوك سلمه الامير الدوادار الى الامير ألماس الوالى فعند ذلك نزل من الطباق الجم الكثير من المماليك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت الوالى ويحرقوه ويطلقوا المملوك فتغافل الامير الدوادار عن أمر ذلك القتيل وراحت على من راحت ❁ ومن الحوادث فى غيبة السلطان ان شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الاشرفية وكان ساكنا بالقلعة فى خرائب تترو كان متهما بالمال وكان عنده ودائع من جوامك المماليك فنزل عليه بعض الحرامية وهو راقد فى بيته ليلا وضربوه على رأسه بالجلبات حتى مات وأخذوا جميع ما فى بيته وقتلوا عبده وجاريته ولم ينتطح فيها شاتان حتى تحير الامير طقطباى نائب القلعة من ذلك وكيف جرى فى وسط القلعة والابواب تغلق من بعد المغرب فعد ذلك من العجائب وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى قاضى القضاة الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشيخ علاء الدين القلقشندى رحمة الله عليه وكان من أهل الدين والعلم والفضل وله سند عال فى الحديث الشريف وولى منصب القضاء فى أيام الاشرف الغورى مرتين وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سنة وكان من أعيان علماء الشافعية رحمة الله عليه وفيه وردت الاخبار بأن السلطان دخل الى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة الاربعة أن يتقدموا الى غزة ثم لما وصل الى قطيا لاقاه الامير قانصوه رجله نائب قطيا ومده هناك مدة حافلة وقدم له تقدمة جيدة على ما قيل ومن الاشاعات التى أشيعت فى أثناء الطريق أنه سرقت بغلة قاضى القضاة الحنفية ثم ظهرت بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضى القضاة الحنبلى سرقت من خيمته وأشيع أنه قد سرق للسلطان جمل عليه مال له صورة فقبض على من فعل ذلك ووسط من الجملة ثلاثة أنفار وكل ذلك اشاعات ليس لها صحة ثم وردت الاخبار أن السلطان دخل مدينة غزة المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الاولى فلاقاه الامير دولات باى نائب غزة ومده مدة حافلة وقدم له تقدمة عظيمة وقيل انه أقام بها خمسة أيام ورحل عنها وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال الدين الالواحى بواب الدهيشة وقرره معلم المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها وكان هذا من غلطات الزمان فى تولية الوظائف غير أهلها وفى يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فأخذ القاعدة فجاءت اثنى عشر ذراعا وهذا من النوادر وقد بقى على الوفاء ستة أذرع هكذا نقله المقريزى فى الخطط وزاد الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه المسمى بكوكب الروضة أربعة وعشرين اصبعا من أيام الناصر محمد بن قلاون مار أوالقاعدة جاءت اثنى عشر ذراعا فان فى أيامه سنة احدى وستين وسبعمائة جاءت القاعدة اثنى عشر ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة

فى تلك السنة الى ما يقرب من أربعة وعشرين ذراعا فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل واستسقوا فى هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت ثم فى أيام الاشرف برسباى فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشرة أصابع وكان الوفاء ثانى مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة عشرين اصبعا من الذراع العشرين وثبت الى أواخر بابه فلما جاءت القاعدة فى هذه السنة اثنى عشر ذراعا حسبت الناس أن النيل يمكث على الاراضى وقت أوان الزرع وانه يبقى فى غير أوانه فاحصل فى هذه السنة الاكل خير ووفى النيل فى أوانه وسيأتى الكلام عليه فى موضعه وفى يوم السبت سابع عشريه توفى الامير جانى باى من طبقة الزمامية وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الاشرف قايتباى وكان لا بأس به وفيه أخرجوا فلوسا جددا وأبطلوا الفلوس العتق ونادوا بان الفلوس العتق بنصفين الرطل والجدد معاددة فوقف حال الناس بسبب ذلك وفى جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثا توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الامير الدوادار وهنوه بالشهر وفى هذا الشهر وردت الاخبار بان السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الاولى فلاقاه الامير سيباى نائب الشام ودخل فى موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الكثير من العسكر والناس ولاقاه أمراء الشام وعساكرها وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان فزينت له مدينة دمشق زينة حافلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الافرنج ذهبا وفضة وفرش له سيباى تحت حافر فرسه الشقق الحرير وازدحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه فمنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق الحرير تحت حافر فرسه فكان له بدمشق يوم مشهود وعد ذلك من المواكب المشهودة فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النصر الذى بدمشق وخرج الى الفضاء منها وتوجه الى المصطبة التى يقال لها مصطبة السلطان وهى بالقابون القاقونى فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وكانت قد تشعثت من مرور السنين وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الاشرف برسباى لما توجه الى الشام فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الاشرف قانصوه الغورى ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التى بالقابون تسعة أيام وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعتين ولم يحضر السلطان هناك صلاة الجمعة وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان

بردى الغزالى قيل انه مدله هنالك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذى تقدم ذكره عند ما خرج من مصر وسافر صحبة الامير ماماى المحتسب كما تقدم وقيل انه فى ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفا فاحشا حتى أظلمت الدنيا وأقام فى الخسوف فوق خمسين درجة وتغطى بالسواد جميعه واستمر فى الخسوف الى ثلث الليل الاخير وفى يوم الاثنين رابع عشره رسم الامير الدوادار بشنق شخص من العربان المفسدين على قنطرة الحاجب وقد ضبط الامير الدوادار أحوال الديار المصرية فى غيبة السلطان ضبطا جيدا ورسم للامير ألماس والى القاهرة بأن يطوف فى كل ليلة من بعد العشاء وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان يطوفون معه كل ليلة تنزل جماعة من المماليك من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع الفجر فلم يقع فى غيبة السلطان فى القاهرة الا كل خير وكان ذلك على غير قياس وكان الامير الدوادار فى كل وقت يقع الامير ألماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لاجل الدروب وقد أفحش فى الظلم فى هذه الحركة فكان يتفق مع أرباب الادراك والخفراء فيجبوا له من سكان الخطط والحارات لاجل عمارة الدروب فجبوا له من الناس أموالا لها صورة فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يختارونه من ذلك فاذا هرب صاحب الدار سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع لهم ما قرروه عليه والمرأة الارملة يسمروا بابها عليها ويتركوها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم من الطاقة اللحاف أو الطراحة أو البساط أو غير ذلك فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شئ أشرفى وشئ أشرفيين وأما أعيان الناس فكانوا يقررون عليهم شئ خمسة أشرفية وشئ عشرة أشرفية بحسب ما يختارونه ففعلوا مثل ذلك بخط المقس وخط باب البحر وسويقة اللبن والحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى وغير ذلك من الاماكن والخطط ففعلوا فى هذه الحركة ما لم يفعله هناد من وجوه الظلم والفساد وهم يزعمون أن فى ذلك نفعا للمسلمين فى عمارة الدروب فجبوا من هذه الحركة مالا له صورة ولم يصرفوا منه الا القليل ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع ابن طولون الى مشهد السيدة نفيسة الى آخر السوق الطولونى على جميع الاملاك والدكاكين التى هنالك وزعموا أنهم ينشؤا سورا على حدرة ابن قيحة الى باب القرافة وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين غفلة وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس فشرعوا فى كتب أسماء الدكاكين والاملاك التى بتلك الحارات الطولونية والقرافية فلما بلغ الامير الدوادار زجر ألماس وحط عليه وكان أشاع ذلك على لسان الامير الدوادار فحلف الامير الدوادار أيمانا مغلظة أنه ماله علم بذلك وأبطل هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا

أن

أن ينشؤا مظلمة أخرى وهى انهم يحبوا من سكان بركة الرطلى مالاله صورة بسبب قطع الطين الذى فى فم البركة فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول المراكب للبركة ولما بلغ الامير الدوادار ذلك أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا حتى لا تدخل اليها المراكب وفى يوم السبت تاسع عشره حضر الامير الدوادار وكان قد توجه الى الفيوم ليكشف عن الجسر الذى عمره الامير بخشباى هناك فكشف عليه وعاد بعد أيام وفى غيبة السلطان كان الامير الدوادار يركب كل يوم ومعه الامراء العشراوات الذين بمصر ويسيرون نحو المطرية وبركة الحاج فاذا رجع يدخل من باب النصر وقدامه الجم الكثير من الامراء والعسكر وكل هذا لاجل العرب والفلاحين حتى لا يظنوا انه ما بقى فى مصر عسكر ولا يطمعوا فى أمر العامة وكان هذا من الآراء الحسنة وفى يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة الموافق لسابع عشرى أبيب كان وفاء النيل المبارك وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشريه الموافق لثامن عشرى أبيب وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس وأربعين وثمانمائة مارأوا النيل وفى فى سابع عشرى أبيب الا فى تلك السنة فصنف منادى البحر هذه الكلمات ياحبيب اهنا وطيب النيل أوفى فى أبيب وقد بقينا فى هنا يافرحنا وكلمات أخر غير ذلك فلما وفى النيل توجه الامير طومان باى الدوادار نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحراقة وتوجه الى المقياس وخلق العامود ثم نزل من المقياس فى الحراقة المذكورة وصحبته جماعة من الامراء المقدمين الذين كانوا بمصر منهم الامير طقطباى نائب القلعة والامير أرزمك الناشف وآخرون من الامراء فتوجه لفتح السد وكان يوما مشهودا فلما فتح انسد عاد الامير الدوادار الى بيته فى موكب حافل وقدامه الامراء بالشاش والقماش وجماعة من المباشرين فلما فتح السد جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى وسر الناس فى ذلك اليوم بوفاء النيل قبل ميعاده وقد قيل فى المعنى

تمتع بماء النيل قبل وفائه * فقد طاب منه الشرب وهو لناطب
وقد سكبت منه الجنادل فيضها * فأضحى بلا شك حلاوته سكب

❁ ومن الحوادث أن الامير الدوادار نائب الغيبة منع الناس أن يسكنوا الجسر الذى ببركة الرطلى والخلجان قاطبة وعمل جسرا على خليج الزريبة عند موردة الجبس فآل أمر الجزيرة الوسطى الى الخراب فلم يكن بها بيت ولا فتح فيها دكان ومنع المقاصفية أن ينصبوا مقصفا فى الجسر ولا فى الزريبة فلم يكن فى الجسر ولا فى الزريبة بيت ولا دكان ولم يسكن المسطاحى ولا حكر الشامى ولا الزريبة وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الاعيان فحصل للناس فى هذه السنة غاية الانكاد بسبب ذلك وخسر الناس كراء بيوتهم وأشيع سد خوخة الجسر فتلطف القاضى

بركات بن موسى المحتسب بالامير الدوادار في أن يسمح للناس في دخول المراكب على العادة وأن يسكنوا الجسر فأبى من ذلك وقال ان العوام يفسدون نساء الاغوات المسافرين صحبة السلطان في هذه النيلية واستمر مصمما على منع ذلك ثم في أواخر النيلية شفع القاضي بركات بن موسى في خمسة مراكب للبياعين أن تدخل في البركة على العادة فدخل الحلواني والجبان والفاكهاني والعداس والسويخاتي لاغير فأقاموا أياما يسيرون فلم يجدوا من يبيعون عليه فمضوا الى حال سبيلهم واستمرت بركة الرطلي ليس بها ديار ولا نافخ نار فعند ذلك عمل الشيخ بدر الدين الزيتوني هذه المرثية اللطيفة في واقعة الحال فقال

سألت اله العرش ينعم بالنصر * لسلطاننا الغوري فهو أبو النصر
مليك عزيز أشرف ومظفر * مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة * فها بركة الرطلي مدمعها يجري
يحق لنا نرثي المقاصف بالبكا * خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر
لقد كان فيه للخليع تواصل * لعمرك ان الوصل خير من الهجر
وكان بها جيزة طاب ظلها * فتاح عليها الطير والوحش في القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت * وصاحت بقلب صار في غاية الكسر
ودوحته تبكي بجامعه دما * وقد أصبح الشامي يبكي على الحكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا * لصاحبها سكنى ولا أحد يكري
وقد أصبحت تلك القصور خواليا * فيا وحشة السكان من كل ذي قصر
على بركة الرطلي نوحوا وعددوا * لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسي حلاوة * مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بها الفكاه يسعى بمركب * بخوخ ورمان يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر * لها بهجة للمرء طيبة النشر
وكان بها الجبان يقلي بمركب * فيجمع بين النار والماء في البحر
وكان بها للاكلين قطائف * بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق في الصحن من فستق بها * وسكر هايروى حديث أبي ذر
وكان بها الحشاش يسرد بهجة * فمذ قطعوا الذاته صار في فكر
وكان بها السكير في غاية الهنا * يدير كؤس الراح في ليلة البدر
وكان بها للراكبين مراكب * مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد * بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة للطرب بين عهدتها * وجنك واعواد تغرد كالقمري

وقد درست تلك المعاهد كلها * وناحت بها الغربان والبوم فى الوكر
وشق شقيق الروض فيها ثيابه * وأرمى غصين الدوح ما فيه من زهر
وقد لبس الشحر ورسود ثيابه * وأبدى خرير الماء لطما من النهر
وسالت دموع السحب من أعين السما * وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسر
وقد كسفت شمس الضحى فى سمائها * وأظلم نور البدر بالخسف للفجر
جزيرتنا الوسطى خراب لانها * بها وضعوا سد الماء بها يجرى
وقد أخذوا أنقاضها لمبيعها * ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر
وقد أصبح النوتى فى غاية الضنا * ولا يلتقى فيها معاش ولا مكرى
وباع قماش الستر منها وقلعها * وباع المدارى حيث يدرى ولا يدرى
فيا مقلتى جودى بدمع تحسرا * ويا مهجتى صبرا وناهيك بالصبر
رعى الله أياما تقضت بطيبها * ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذى * أشار بهذا المنع بالنهى والامر
أراد بهذا المنع صون حريم من * غدا صحبة السلطان والبنت فى الخدر
فكان بهذا الامر أكرم صائن * حريم جميع الناس من آفة الدهر
ولولا ابن موسى كان فى البعض شافعا * وقد نال شكر الشاكرين مع الاجر
لما سمحوا فيها بمركب بائع * ولا لاح فيها من جليس على الجسر
فيا ربنا أنعم علينا بنصرة * لسلطاننا الغورى والعسكر المصرى
وأنعم بعود الكل فى خير مقدم * الى الاهل والاوطان فى غاية اليسر
وصل على المختار من آل هاشم * محمد الهادى الى الخير والبشر
كذا الآل والاصحاب والتبع الأولى * لهم غاية الاحسان فى موقف الحشر
عليهم صلاة الله ما هبت الصبا * صباحا على عود وما غرد القمرى
وناظمها العونى يدعو لكل من * رأى عيب زيتونى وينعم بالستر

وفى يوم الجمعة خامس عشريه توفى الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ الصوفية وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة بين الناس وكان لا بأس به وفى شهر رجب توفى الامير طرابای أحد الامراء العشراوات وكان مستهل يوم الخميس فتوجه جماعة من نواب القضاة والكتاب والاعيان الى بيت الامير الدوادار نائب الغيبة وهنؤه بالشهر وفى يوم الخميس ثامنه توفى تغرى بردى المعروف بالشمشمانى وكان يدعى أنه من الامراء العشراوات قيل انه كان من جملة السقاة فمات عن عدة أقاطيع ورزق مشتراته وكان فى سعة من الرزق وكان ينسب الى شح زائد وبخل وفيه جاءت الاخبار بوفاة شخص من الامراء

العشراوات يقال له مسايد وكان مسافرا صحبة السلطان فى التجريدة وكان أصله من مماليك الاشرف قايتباى وفيه دخل الامراء الذين كانوا فى نواحى الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عند ما أوفى النيل وتقطعت الطرقات بالمياه وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت البضائع تباع بسعرين ووصل صرف النصف الفضة بالفلوس العتق الى ستة عشر درهما وكانت الفلوس الجدد تصرف معادة وهى فى غاية الخفة فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك وتشطح الخبز وسائر البضائع وكادت أن تنشأ من ذلك غلاوة وفيه وردت الاخبار بأن السلطان وصل الى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة فكان لدخوله يوم مشهود وقد امه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء كموكبه بالشام وحملت القبة والجلالة على رأسه وكان حاملها مملوك الامراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام وفى حال دخول السلطان الى حلب حضر قصاد سليم شاه بن عثمان ملك الروم فقيل أنه أرسل اليه قاضى عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين وأحد أمرائه يقال له قراجاباشا وصحبتهم سبعمائة عليقة فنزلوا بمدينة حلب وبلغنى من الكتب الواردة بالاخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضى ابن عثمان وقراجاباشا شرع يعتبهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه وما جرى منه فى حقه وأخذه لبلاد على دولات فقال له القاضى وقراجاباشا نحن فوض لنا أستاذنا أمر الصلح وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال وينثنى عزمه عن ذلك وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ثم ان قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلادهم وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصوفى وان قتله جائز فى الشرع وأرسل يقول فى كتابه للسلطان أنت والدى وأسألك الدعاء لكن لا تدخل بينى وبين الصوفى ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان الغورى أنه أرسل يطلب منه سكرا وحلوى فأرسل له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى فى علب بكار وهذه حيلة منه وأرسل يقول فى كتابه انى لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع اثره من وجه الارض فلا تدخل بيننا فيما يكون فى أمر الصلح وأظهر أنه قاصد نحو الصوفى ليحاربه والامر بخلاف ذلك فى الباطن وذكروا له انه على القيسارية يقصد التوجه الى الصوفى ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى السلطان الغورى تقدمة حافلة وللخليفة وأمير كبير سودون العجمى فكان ما أرسله ابن عثمان من التقدمة أربعين مملوكا وأبدان سمور وأثواب مخمل وأثواب صوف وأثواب بعلبكية وغير ذلك وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال وأرسل اليه قاضى عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة وبغلة وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا تقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن المماليك اثنين ثم ان السلطان عين الامير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه

الى

الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما والامراء والعسكر منتظرون رد الجواب عن ذلك وقد نظمت هذه القصيدة فى معنى واقعة سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله مدينة حلب فقلت

أدعوا بنصر للمليك الاشرف * سلطان مصر ذى المقام الاشرف
قد قدّر الرحمن نقل ركابه * نحو الشآم وحسنها المستطرف
اختار أن يطأ البلاد لكشفها * فغدت تجود له بجود متحف
خضعت له النواب طوعا باللقا * من غير حرب أو حسام مرهف
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى * لاقاه بالاكرام والفضل الوفى
تاريخه فاق الملوك تعاظما * فاصغى له واسمع بغير تكلف
عاينته يوما مضى فى موكب * يزهو على برقوق وهو الاشرفى
ركب الخليفة والقضاة أمامه * وجيوشه منها الاساود تختفى
عوّدت طاعته بسورة يوسف * وجميع عسكره بآى الزخرف
فى غزة قد كان يوم دخوله * يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أتى * أهلا بسلطان الانام المنصف
وتهللت بالنور جبهة ربوة * لما اكتست بالزهر حلة يوسف
وحماة أحماها بصائح عدله * فأطاعه العاصى بغير توقف
واشتاقه نهر الفرات وقد أتى * تياره بالماء فى عزم وفى
واستأنست حلب به مذ زارها * واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحة * يا حبذا من قادم مستطرف
سلطاننا الغورى صار مؤيدا * مذ حفه الرحمن باللطف الخفى
فالله يبقيه على طول المدا * ما أسكرت ريح الصبا كالقرقف
قد صار لابن اياس شعر قاله * لكن نظمى قد أتى بتضعف
ثم الصلاة على النبى المصطفى * خير البرية نالها من مسعف
والآل والاصحاب ما جنّ الدجى * أوضاء صبح بعد ليل أوطف
وختام مسك قد شذا لما بدا * سلطان مصر ذى المقام الاشرف

وحكى أن السلطان لما دخل الى حلب رسم لقاضى القضاة كمال الدين الطويل بأن يخطب فى الجامع الكبير الذى بحلب فاجتمع الجم الكثير من أهل حلب فى الجامع المذكور فخرج قاضى القضاة كمال الدين الطويل وارتقى المنبر وخطب خطبة بليغة وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح وأذن المؤذنون بالجامع وقرؤا حزب السلطان هنالك وعملت الوعاظ وكان يوما

مشهودا بالجامع المذكور ولم يحضر السلطان ولم يصل صلاة الجمعة هنالك كما فعل بدمشق فعابوا عليه ذلك وكان قاضي القضاة كمال الدين يخطب بالجامع الكبير مدة اقامة السلطان بحلب ومن الحوادث التي وقعت من السلطان بحلب انه أنعم على قانصوه نائب حلب بتقدمة ألف وعلى يوسف الناصري شاد الشرابخانه الذي كان نائب حماه وعلى طرابای نائب صفد وعلى تمراز نائب طرابلس ومنها انه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا صحبته بلا نفقة لكل واحد منهم ثلاثون دينارا وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بخمسين دينارا فعارض في ذلك كاتب المماليك وجعلها ثلاثين دينارا وصرف للعسكر ثمن اللحم عن ثلاثة شهور ثم ان السلطان فرق على مماليكه الجلبان من حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها وفرق عليهم خيولا مالها عدد وصار ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسلاح بطول الطريق ولم يعط المماليك القرانصة شيأ فعز ذلك عليهم في الباطن ثم ان السلطان قرأ ختمة في الميدان الكبير بحلب يوم الخميس مع ليلة الجمعة وحضر أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الاربعة ومشايخ الزوايا وصلى أمير المؤمنين بالسلطان في الخيمة صلاة العصر وصلاة المغرب وأنعم السلطان في ذلك اليوم بار بعمائة دينار ومائة رأس غنم وأنعم على قاضي القضاة الشافعي بسبعين دينارا وعلى نوابه ومن معه من العلماء بسبعين دينارا والقاضي الحنفي كذلك وانعم على القاضي المالكي بخمسين دينارا وعلى نوابه الثلاثة بثلاثين دينارا وكذلك القاضي الحنبلي وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد منهم خمسون دينارا وأنعم على الفقراء الذين سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنانير وأنعم على القرّاء الذين حضروا هذه الختمة من قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنانير وفي عقيب ذلك أحضر السلطان الامراء المقدمي الألوف والنواب والامراء الطبلخانات والامراء العشراوات وحلفهم على المصحف الشريف بانهم لا يخونونه ولا يغدرونه فحلفوا كلهم على ذلك ثم نادى للعسكر بالعرض في الميدان الذي في حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هي عادة الاتراك وعندهم ان هذا هو القسم العظيم ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك في حماه فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب ثم وردت الاخبار الى حلب بان سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذي كان أرسله الى ابن عثمان وهو الامير مغلباى أحد الدوادارية ووضعه في الحديد وكان السلطان جهز الامير كرتباى الاشرفي أحد الامراء المقدمين الذي كان والى القاهرة الى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار وخلع على قاضي عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشا الذي تقدم ذكرهما خلعة سنية بطرز يلبغاوي عريض وأذن لهما بالعود الى بلادهما وكان هذا هو عين الغلط من السلطان الغوري حيث أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباى ويظهر له من امر ابن عثمان ما يعتمد عليه ثم لما وصل الامير كرتباى الى

عنتاب بلغه ان السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الامير مغلباى ووضعه فى الحديد بعد أن قصد شنقه فشفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة مالا يمكن شرحه فلما تحقق الامير كرتباى ذلك رجع الى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان بالامير مغلباى وأن طوالع عسكره قد وصلت الى عنتاب وملكت قلعة ملطية وبهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع ولما وصل الامير كرتباى بهذه الاخبار الردية الى السلطان اضطربت أحواله وأحوال الناس وأحوال العسكر قاطبة ثم ان السلطان أنعم على الامير عبد الرزاق وولاه على اقليم أولاد دوالغادر فخرج من حلب وصحبته ملك الامراء خاير بك فى موكب حافل فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن حلب بيوم وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف ماش وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد ثم خرج بعدهم ملك الامراء سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من شهر رجب وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من جهة ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على جيلان لقتال الباغى ابن عثمان وان السلطان والامراء عن قريب يخرجون الى القتال والذى يريده الله هو الذى يكون وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده أمير المؤمنين يعقوب ثم ذكر فيه عن أمر الاسعار فى حلب فقال الشعير كل اردب بسبعة وعشرين نصفا والخبز كل رطل بثلاثة دراهم والجبن بنصفين الرطل واللحم بتسعة دراهم كل رطل مصرى والدبس بنصف فضة الرطل المصرى وتناهى سعر القمح الى اشرفيين كل اردب والكرسنة عليق الجمال بمائة وأربعة وعشرين درهما الاردب ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الامير الدوادار يتضمن الوصية بالرعية وان المماليك الجلبان الذين بالطباق يكفون الاذى عن الناس ولا يشوشون على أحد من المتسببين وان الامير الدوادار يعرض جميع من فى الحبوس قاطبة من رجال ونساء ويطلق المديونين وغيرهم ولا يترك بالحبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه دم وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة وان كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه السنة وأرسل أيضا مثالا شريفا الى المماليك الجلبان الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى المدينة ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة فقرئ عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الامير طقطباى نائب القلعة وأرسل بالسلام على الامراء والعسكر قاطبة وفى شهر شعبان وكان مستهله يوم الجمعة ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية فعد ذلك من النوادر وقد دخلت سنة قبطية فى أول يوم من الشهور العربية ولا سيما يوم الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة وفى يوم السبت خلع الامير

الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له جانى بك القصير وهو من مماليك السلطان
وقرره فى كشف منفلوط عوضا عن اينال بن جانى بك الذى كان بها وقد ضعف بصره وفى يوم
الاحد ثالثه عرض الامير الدوادار المحابيس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتى بالحجرة
فاطلق منهم جماعة ممن عليهم دين وصالح أرباب الديون من ماله وأرضاهم واستتاب
جماعة من الحرامية وأطلقهم ورسم بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم وأبقى منهم جماعة فى
السجون الى ان يحضر السلطان ثم ان الامير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ له صورة ورسم
بقراءة ختمات فى جميع مساجد القاهرة وقال ادعو للسلطان بالنصر وفى يوم الاثنين رابعه
خلع الامير الدوادار على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان وهذه رابع ولاية له بالوزارة
وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بسفر الحاج على العادة وكان أشيع عدم خروج الحاج فى
هذه السنة وفى يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الاربعاء توفى قاضى الحنفية كان برهان الدين
ابراهيم بن الكركى وهو ابراهيم ابن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الكركى الحنفى
وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان الحنفية سمع على الشيخ محيى الدين الكافيجى
والشيخ سيف الدين وآخرين من علماء الحنفية وكان امام الاشرف قايتباى ورأى فى أيامه
غاية العز والعظمة وولى عدة وظائف سنية منها انه ولى مشيخة أم السلطان التى فى التبانة
ومنها استيفاء الصحبة ثم ولى قاضى قضاة الحنفية مرتين ثم ولى مشيخة المدرسة الاشرفية
وقاسى محنا وشدائد من الاشرف وكان بشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة غير كثيف
الطبع ومات وهو فى عشر الثمانين وعاش سعيدا ومات شهيدا وكان فى أرغد عيش من المال
والجاه وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون وفى رجله
قبقاب فزلقت رجله بالقبقاب فوقع فى البركة وكانت فى قوة ملئها أيام النيل ولما وقع ثقلت
عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا وفيه خلع الامير الدوادار على
شخص من الخاصكية يقال له جماس وقرره فى كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذى كان
بها وفيه جاءت الاخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشى شيخ سوق الكتبيين وكان
مقربا عند السلطان وقد حاز عدة وظائف سنية وفيه جاءت الأخبار بوفاة الامير يوسف
الشهير بالمقطش الذى كان نائب صفد وعزل عنها ثم توفى بحلب وأشيع وفاة أبرك الذى كان
كاشف اقليم الجيزة وكان من الامراء العشراوات وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة
السلطان بسبب وخم حصل لهم فمات فى غزة وفى الشام وفى حلب من الأمراء العشراوات
والخاصكية والغلمان وغير ذلك مما لا يحصى عدده ماتوا من كثرة الاوخام التى كانت معهم
بطول الطريق وفيه جاءت الاخبار بصحة ما تقدم ذكره وان السلطان لما كان بحلب أنعم
بتقادم ألوف على جماعة من الامراء منهم الامير يوسف الناصرى شاد الشراخناه ومنهم

طرابای بن یشبك نائب صفد ومنهم قانصوه استادار الصحبة ومنهم قانصوه الاشرفی نائب قلعة حلب ومنهم تمراز نائب طرابلس وآخرین والذی یظهر من أمر السلطان أنه کان یرید ابطال جماعة من الامراء المقدمین العواجز ویجعل هؤلاء عوضا عنهم وفی یوم الجمعة خامس عشر شعبان توفی الحاج علی البرماوی بزدادار السلطان والمتحدث علی جهات الدیوان المفرد وقد رأی من العز والعظمة مالم یره غیره من البزدادریة وساعدته الاقدار حتی وصل الی مالم یصل الیه غیره فی هذه الوظیفة وکان سبب موته أنه طلع له شقفة فی ظهره فانقطع اثنی عشر یوما ومات وکان أصله من فلاحین برمة یبیع الخام والطرح فی الاسواق وهو راکب علی حمار الی أن فتح الله علیه وکان لا بأس به وعنده لین جانب مع تواضع زائد وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العین خمسمائة ألف دینار وستمائة دینار ووجد له فی مکان اثنا عشر ألف دینار ذهب عین برسبیه ووجد له من الجوزة والمهارة نحو خمسة وأربعین رأسا ومن الجاموس مائة رأس ومن الغنم الضأن ألف راس ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور وضاع له عند الفلاحین بالبلاد أکثر مما تقدم ذکره فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دینار وفی یوم السبت سادس عشر شعبان أشیع خبر هذه الکائنة العظیمة التی طمت وعمت وزلزلت لها الاقطار وماذاك الا ان أخبار السلطان والعسکر انقطعت مدة طویلة ثم حضر کتاب علی ید ساع مجرد مطرد من عند الامیر علان دوادار ثانی أحد الامراء المقدمین وضمنه ان السلطان کان یکذب فی أمر سلیم شاه بن عثمان تارة ویصدق أخری الی أن حضر الامیر مغلبای دوادار سکین من عنده وهو فی حال نحس برنط أقرع علی رأسه وعلی بدنه کبر عتیق دنس وهو راکب علی اکدیش هزیل وقد نهب جمیع برکه وأخذت خیوله وقماشه وأخبر أن ابن عثمان أبی الصلح وقال له قل لاستاذك یلاقینا علی مرج دابق وأخبره أنه وضعه فی الحدید وقصد أن یحلق لحیته وقدمه الی الشنق ثلاث مرات فشفع فیه بعض وزرائه وحمله الزبل من تحت خیله فی قفة علی رأسه وقاسی منه من الهوان والاهوال مالا خیر فیه فلما سمع السلطان هذه الحکایة تحقق وقوع الفتنة بینه وبین ابن عثمان فقیل انه أنعم علی مغلبای بالف دینار وخیول وقماش فی نظیر ماذهب له والذی استفاض بین الناس من أخبار السلطان انه صلی الظهر وترکب وخرج من میدان حلب یوم الثلاثاء فی العشرین من رجب وصحبته أمیر المؤمنین المتوکل علی الله والقضاة الاربعة وکان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب فخرجوا باطلاب حربیة وطبول وزمور ونفوط حتی رجت لهم حلب فلما خرج السلطان من حلب توجه الی جیلان فبات بها فلما أصبح یوم الاربعاء حادی عشری رجب رحل السلطان من جیلان وتوجه الی مرج دابق فاقام الی یوم الاحد خامس عشری رجب وهو یوم نحس مستمر فما یشعر الا وقد دهمته عساکر سلیم شاه ابن عثمان فصلی السلطان صلاة الصبح ثم رکب وتوجه الی زغزغین

وتل الفار قيل ان هنالك مشهد نبي الله داود عليه السلام فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفتي وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس حرير أصفر على رؤس جماعة أشراف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام والسادة الاشراف القادرية ومعهم أعلام خضر وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضي الله عنها باعلام سود وكان الصبي قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أصفر وقيل أحمر وكان الصنجق السلطاني خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا وتحته مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة الاربعة والامير قمر الزردكاش أحد المقدمين وكان على ميمنة العسكر الامير سيباى نائب الشام وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب فقيل أول من برز الى القتال في الميدان الاتابكي سودون العجمي وملك الامراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة وأخذوا منهم سبع صناجق وأخذوا المكاحل التي كانت على العجل ورماة البندق فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الامان وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف انسان وكانت النصرة لعسكر مصر أولا وباليته تم ذلك لكنه قد بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا ابدا وخلوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال فبينما هم على ذلك واذا بالاتابكي سودون العجمي قتل في المعركة وقتل ملك الامراء سيباى نائب الشام فانهزم في الميمنة من العسكر جانب كبير ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة وأسر الامير قانصوه بن سلطان چركس وقيل قتل وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان الغورى في الباطن وهو مع ابن عثمان على السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان هو أول من هرب قبل العسكر قاطبة وأظهر الهزيمة وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر وصار السلطان واقفا تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك فشرع ينادى يا أغوات هذا وقت المروأة هذا وقت النجدة فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله وهو يقول للفقراء ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم وصار لا يجد له معينا ولا ناصرا فانطلقت في قلبه جمرة نار لا تطفأ وكان ذلك اليوم شديدا الحر وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار والا يرى بعضهم بعضا وكان نهارا غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغلت أيديهم عن القتال

وشخصت منهم الابصار وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الابيات

لما التقى الجيشان مع سلطاننا * فى مرج دابق قال هل من مسعفى
فله أجاب لسان حال قائلا * عرّضت نفسك للبلا فاستهدف
واشتد بالجلبان رعب قلوبهم * وغدوا يقولوا أى أرض نختفى
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم * حتى أتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الاحوال وتزايدت الاهوال خاف الامير تمرالزردكاش على الضنجق السلطان فأنزله وطواه وأخفاه ثم تقدم الى السلطان وقال له يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب فلما تحقق السلطان ذلك غلبه فى الحال خلط فالج أبطل شقه وأرخى حنكه فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة من ذهب فشرب منه قليلا وألفت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الامير بيبرس أحد المقدمين وقتلوا جماعة من الخاصكية وغلمان السلطان ممن كان حوله وأما السلطان من حين مات فلم يعلم له خبر ولا وقف له على أثر ولا ظهرت جثته بين القتلى فكأن الارض قد ابتلعته فى الحال وفى ذلك عبرة لمن اعتبر فداس العثمانية وطاق الغورى بما فيه من الامتعة والارزاق التى كانت حوله بأرجل الخيول وفقد المصحف العثمانى وداسوا اعلام الفقراء وصناجق الامراء ووقع النهب فى أرزاق عسكر مصر وبرقهم وزال ملك الاشرف الغورى فى لمح البصر فكأنه لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير فاضمحل أمره وزال ملكه بعد ما تصرف فى ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية وأعمالها وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فانه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك وقد قلت فى المعنى

اعجبوا للاشرف الغورى الذى * مذ تناهى ظلمه فى القاهره
زال عنه ملكه فى ساعة * خسر الدنيا اذا والآخره

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر وانتهى الحال الى الامر الذى قدّره الله تعالى فقتل فى تلك الواقعة من عسكر السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى ما لا يحصى عدده فقتل من الامراء المقدمين ثلاثة وهم الاتابكى سودون العجمى وبيبرس قريب السلطان واقبای الطويل وأسروا قانصوه بن سلطان چركس وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من

أمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة ولم يقتل من المماليك الجلبان الا القليل فانهم لم يقاتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الاربعين أميرا وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه فكانت ساعة يشيب منها الوليد ويذوب لسطوتها الحديد فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رؤس ووجوه معفرة بالتراب قد تغيرت محاسنها وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى وسروج مفرقة وسيوف مسقطة بذهب وتركستوانات فولاذ بذهب وخود وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت اليها أحد وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم من ذلك وقال بعض المواليا فى المعنى

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب * عودى فغنت صوارم شرقها والغرب
ضربت عاده تنقط فى سماع الضرب * رؤس الاعادى وترقص داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق السلطان ونزل فى خيامه وجلس فى المدورة واحتوى على الطشخاناه ومافيها من الاوانى الفاخرة وعلى الزردخاناه ومافيها من السلاح وعلى خزائن المال والتحف ونزل كل أمير من أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على مافيها فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميرا مقدمى ألوف خارجا عن أمراء الطبلخانات والعشراوات واحتوى العسكر على خيام العسكر المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد

ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة بل ان تمرلنك زحف على بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص يقال له يلدرم فلما حاربه انكسر فأسره تمورووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد العجم فاطاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس فمات وهو فى ذلك القفص الحديد ولم يقع قط لاحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ومات تحت صنجقه فى يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير قانصوه الغورى وكان ذلك فى الكتاب مسطورا وكان السلطان والامراء اما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف فردت عليهم أعمالهم وولياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل فى المعنى

اين الملوك الاولى فى الارض قد ظلموا * والله منهم لقد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان تحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بها فى المكان الذى كان به السلطان الغورى وهذا ما انتهى الينا من ملخص هذه

الواقعة مع مافيها من زيادة ونقصان فهذا ما كان من أمر السلطان الغورى وابن عثمان
وأما ما كان من أمر الامراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا
الدخول بها فوثب عليهم أهل حلب قاطبة وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم
وخيولهم وبرقهم ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب وجرى عليهم من أهل
حلب مالم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية
حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى
أمير اخور كبير فنزلوا فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم
غاية الضرر والاذية لاهل حلب فاصدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة فاخذوا
بثارهم منهم فلما رأى الامراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى
دمشق ودخلوها وهم فى أفحش حال لا برك ولا قماش ولا خيول ودخل غالب العسكر الى
الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة
أو بشت ولم يقع لعسكر مصر مثل هذه الكائنة فاقام الامراء والمباشرون والعسكر فى
الشام حتى تتكامل البقية ويظهر السالم من العاطب قيل ان الامراء لما دخلوا الى الشام
وصاروا فى حر الشمس لم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرايش من فروع
الشجر يستظلون بها وأما ما كان من أمر سليم شاه بن عثمان فانه أقام بالميدان الذى فى حلب
فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال
الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين
الفتوحى الحنبلى وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب
جميع بركه وقماشه ودخل الى الشام فى انحس حال قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن
عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فاشيع انه قال له أصلكم من اين
فقال له من بغداد فقال له ابن عثمان نعيدكم الى بغداد كما كنتم والاقوال فى ذلك كثيرة فلما
أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنية من ملابسه وأنعم عليه بمال له صورة ورده
الى حلب ووكل به ان لا يهرب وقيل لما دخل عليه القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم
بالكلام وقال لهم أنتم تأخذون الرشوة على الاحكام الشرعية وتسعون بالمال حتى تتولوا
القضاء وما منكم من أحد يرشد الى الخير لانكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها
بالناس وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه وأشاعوا من هذه الاخبار العجائب والغرائب
والمعول فى ذلك على الصحة وأخبرنى من رأى سليم شاه بن عثمان انه مربوع القامة واسع
الصدر اقنص العنق مكرفس الاكتاف متركب الوجنتين واسع العينين درى اللون وافر الانف
ملىء الجسد حليق اللحية ليس له غير الشوارب كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه
فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من غير نزاع وهرب قانصوه الاشرفى نائب القلعة وتوجه

الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أجرود وفى يده دبوس خشب فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها ما يعايره فختم على الحواصل التى بها واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وقد فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب بشخص أعرج وفى يده دبوس خشب وهو أضعف من فى عسكره وقد قيل فى المعنى

لا تحقرن ضعيفا فى مخاصمة * ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع ان ابن عثمان من حين استولى على مدينة حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات المرة الاولى دخلها وطلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها فلما عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف دينار ورأى من الكنابيش الزركش والرقاب الزركش والطبر والسروج الذهب والبلور وطبول البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة بالذهب والزرديات والخود الفاخرة وغير ذلك من السلاح ما لم يره قط ولا فرح به أحد من أجداده ولا أحد من ملوك الروم لان الذى جمعه الغورى من الاموال من وجوه الظلم والجور والتحف التى أخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك الجراكسة احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه بن عثمان من غير تعب ولا مشقة هذا خارج عما كان للامراء المقدمين والامراء الطبلخانات والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعة من بلاد السلطان واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك فكان الذى ظفر به سليم بن عثمان فى هذه الواقعة من الاموال والسلاح والتحف وغير ذلك لا ينحصر ولا يضبط وقد قسم له ذلك من القدم واحتوى على خيول وبغال وجمال لا يحصى عددها واحتوى على خيام وبرك ولا سيما ما كان مع السلطان وامراء العساكر كما يقال فى المعنى

ألا انما الاقسام تحرم ساهرا * وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة فى جامع الاطروش الذى بحلب وخطب باسمه ودعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها وزينت له مدينة حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين وارتفعت له الاصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من الجامع وفرح الناس به فرحا شديدا وانتمى اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقجى وكان هؤلاء من أخصاء الغورى وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى

لقاء أكثر من يلقاك أوزار * فلا تبالى أصدوا عنك أوزاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار * وفعلهم منكر للمرء أوعار
لهم لديك اذا جاؤك أوطار * اذا قضوها تنحوا عنك أوطاروا

وممن كان مواليا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب فانه أول من كسر عسكر السلطان وانهزم عن ميسرته وتوجه الى حماه ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة وقص ذقنه وسماه السلطان خاين بك لكونه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما واالس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاكو ثم انقلب عليه وقتله وقال أنت ما فيك خير لاستاذك فما يكون فيك الخير لى وربما يقع لخاير بك مثل ذلك ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب انه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ له صورة واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعى والمالكى والحنبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى أن يأذن لهم ابن عثمان وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة منهم القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة وعبد الكريم بن خفيرة أحد كتاب المماليك وعبد الكريم بن الادمى مستوفى الزردخانه والرئيس محمد بن القيصونى امام السلطان الغورى والسمديسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ويحيى بن بكير ورفيقه وجماعة آخرون لم يحضرنى أسماؤهم الآن فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وكل من كان عنده للامراء والعسكر شئ من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شئ من غير معاودة وأما من قتل فى هذه المعركة من الامراء وأعيان الناس فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته الاتابكى سودون العجمى وملك الامراء سيباى نائب الشام والامير قانصوه بن سلطان جركس وقيل لم يقتل وأسر الامير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية والامير اقباى الاشرفى الطويل أحد المقدمين أمير اخور ثانى فهؤلاء الذين قتلوا من الامراء المقدمين فى هذه الواقعة وأما من قتل من النواب فتمراز الاشرفى نائب طرابلس ونائب صفد وأصلان نائب حمص وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب وأما من قتل من الامراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم طومان باى بن قراحاجب ثانى

وجانى بك العادلى شاد الشراب خاناه كان وقانصوه حبانية وبردبك رأس نوبة عصاه ونوروز رأس نوبة عصاه وقانصوه الذى كان أستادار الصحبة وبخشباى قراشاد الشون وقيت الاحول وقرقماس المقرى توفى بالشام ويوسف المفتش الذى كان نائب صفد ومن الامراء العشراوات جانم المحمدى وجان بردى الذى كان كاشف الرميلة وبرسباى أحد الامراء العشراوات وتوفى أقباى الطويل الذى كان كاشف الشرقية وملاج الذى كان نائب القدس وان بردى وطراباى أخوا الاتابكى قيت الرجبى وخدابردى وقانم الاعرج وجانم الطويل وقايتباى أخواصطمر وتوفى مسايد وتوفى طراباى قراوأقطوه الطويل خادم السادة وجان بلاط الذى كان والى قطيا وبرسباى أحد الامراء العشراوات وصهره وتوفى لاچين ناظر مقام سيدى أحمد البدوى بغزة وقانصوه الناصرى وطراباى الاشرفى وتوفى الامير اينال خازندار الامير قانى باى أمير اخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات وغير ذلك ممن يأتى ذكره حتى قيل انه مات فى هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أمير الم تحضرنى أسماؤهم الآن وقتل أزبك العجمى أمير طبلخانات وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات وتوفى شادبك نائب المهمندار وتوفى الامير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات وأما من توفى من المباشرين فالقاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى وقتل بوطاق السلطان وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين وتوفى جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وغير ذلك ممن لايحضرنى أسماؤهم وأما القاضى جمال الدين عبد الله مباشر وقف قانى باى الجركسى قيل انه قتل فى الواقعة وأما من توفى من أولاد الناس فالشرفى يونس بن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالى أحد الطبردارية أيضا وقتل ابراهيم قريب الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة وآخرون من الاعيان ممن لايحضرنى أسماؤهم الآن وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمى مستوفى الزردخاناه وقتل ابن على الزردى ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة فانه لما ورد كتاب الامير علان الدوادار الثانى بما وقع من هذه الامور المهولة فى تلك الواقعة وقتل الامراء والاعيان والقضاة قام العزاء والصراخ فى بيت الاتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب وكان يعرف بسودون بن جانى بك وكان أصله من مماليك الاشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس وامرية سلاح والأتابكية واصطلى الحرب وأظهر الفروسية فى هذه الواقعة واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الامراء والاعيان الذين قتلوا وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر

وغيرهم

وغيرهم ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الاحوال وكثر القال والقيل وفى يوم الاحد سابع عشر شعبان وردت الاخبار على الامير الدوادار بان عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرقية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسة ولما بلغ الامير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج اليهم وصحبته خمسمائة مملوك فكبس عليهم فهربوا من وجهه وغنموا منهبوه من الاموال والمواشى والغلال وغير ذلك فرجع الامير الدوادار الى داره وفيه خلع الامير الدوادار على الزينى بركات بن موسى فشق القاهرة وأشهر النداء بالامان والاطمئنان وأن المشاهرة والمجامعة بطالة وجميع المظالم الحادثة بطالة وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتمى عليه أحد وقد تضاعفت حرمته ونفذت كلمته فوق ما كان واجتمع معه عدة وظائف سنية وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد وفى يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الامير الدوادار الجامكية على العسكر الذين فى القاهرة فجلس الامير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج وأنفق الجامكية هنالك والاشاعات فاشية بموت السلطان والاحوال مضطربة وفيه رسم الدوادار بعرض من فى السجون حتى النساء اللاتى بالحجرة فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الامير طراباى وكان له مدة وهو فى السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان متحدثا فى نظر الديوان المفرد وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان له مدة فى المقشرة على بقايا من مال المصادرة وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا وأسلم وقد تقدم سجنه وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم حتى أفرج عن النساء اللاتى كن بالحجرة وعمن كانوا فى السجون من الاعيان ولم يبق فى السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم وقطع أيدى جماعة وأطلقهم ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبد القادر أبو دية وآخرون منهم وقطع أيدى جماعة من الحرامية وأفرج عن القاضى صلاح الدين ابن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترافع معه عند السلطان حتى قال انه لقى خبيئة بمكة فيها مال كثير وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ولما حضر قال له المال الذى لقيته أحضره لى فأنكر ذلك فوضعه السلطان فى الحديد وسلمه الى الزينى بركات فأقام عنده فى الترسيم فى الحديد مدة طويلة بغير ذنب وفى يوم

الثلاثاء تاسع عشره خلع الامير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن بن الطولونى وأعاده الى وظيفته معلم المعلمين وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين الالواحى بواب الدهيشة متكلما فى المعلمية عوضا عن ابن الطولونى وفيه رسم الامير الدوادار نائب الغيبة باشهار المناداة فى القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة بطالة وتجرى على ما كانت عليه أيام الاشرف قايتباى من غير زيادة على ذلك فارتفعت له الاصوات بالدعاء وفى ذلك اليوم شق الزينى بركات بن موسى القاهرة وسعر جميع الاسعار حتى الكفافة سعرها بدرهمين الرطل وكانت باربعة دراهم كل رطل وسعر الاجبان واللحوم وفى أثناء ذلك الشهر فتح سد أبى المنجا وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا ووافق ذلك ثانى عشرى توت أول الشهور القبطية وكان الامير الدوادار فى مدة غيبة السلطان يركب فى كل يوم ويسير نحو المطرية فاذا رجع يدخل من باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الامراء المقدمون الذين تخلفوا بمصر والجم الكثير من العسكر فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعبيد النفطية ومماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم رماح بشطفات حرير ملون فترتج له القاهرة وترتفع له الاصوات بالدعاء من الناس فكانت نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها وقد عظم أمره جدا وهابه الناس هيبة عظيمة وفى يوم الجمعة ثانى عشريه لما تحقق موت السلطان لم تدع الخطباء فى ذلك اليوم على المنابر باسم السلطان بل دعوا باسم الخليفة فقط ولم يذكروا اسم السلطان وبعضهم قال اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا سلطان وكذلك البلاد الشامية وفى تلك الايام وقع الفساد من العربان فى الشرقية وغيرها من البلاد فنهبوا عدة بلاد من المنزلة وغيرها من ضواحى الشرقية ولم يبقوا لهم مواشى ولا بقرا ولا غنما حتى أخذوا اصيغة النساء وقتل من الفلاحين فى هذه الحركة ما لا يحصى عددهم وكذلك من القصاد وغيرهم وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما لما تحققوا موت السلطان وصارت مصر فى اضطراب والاشاعات قائمة بالاخبار الرديئة عما جرى للسلطان والعسكر وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ العرب الامير أحمد بن بقر وجماعة من العشير وفعلوا ما عظم خبره فى العساكر والتجار الذين دخلوا صحبة القفل الشامية فقتلوا من العساكر والتجار ما لا يحصى عددهم وأخذوا أموالهم وجمالهم والذى سلم من القتل عروه وجرى على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان ووقع لهم ذلك بين قطيا والصالحية عندما وصلوا الى الامان وفى هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان قصدوا أنهم ينزلون من الطباق وينهبون خان الخليلى ثم يحرقونه ويقتلون من به من تجار الاروام وقالوا هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان وقد شمتوا باستاذنا المامات فلما بلغ الامير الدوادار ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم

لا أطلب

لا أطلب خمود هذه الفتنة الا منكم فمنعوهم من النزول من الطباق ولولا الامير الدوادار قام
فى هذه الحركة حتى خمدت هذه الفتنة لخربت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان وفيه
اهتم الامير الدوادار بعمل طوارق خشب وكفيات وبندقيات وغير ذلك من آلات الحرب
وأشيع أنه يتسلطن قبل مجىء العسكر وكان القائم فى ذلك الامير طقطباى نائب القلعة
والامير علان الدوادار الثانى وفى يوم الجمعة الثانية لم تذكر الخطباء اسم سلطان فى الدعاء كما
فعلوا فى الجمعة الماضية ومن حين ورد كتاب الامير علان بما جرى للعسكر من أمر الكسرة
وأمر السلطان لم يرد من بعد ذلك أخبار صحيحة وانقطعت الاخبار عن مصر نحو أربعين يوما
وكثر القال والقيل فى ذلك على أنواع شتى ومن جملة ما أشيع ان جان بردى الغزالى نائب
الشام منع أن يصل الى مصر أحد وعوق العسكر بالشام وفيه وردت أخبار من عند الامير
حسين نائب جدّة والرئيس سلمان العثمانى انهما ماتوجها الى الهند صحبة العسكر المقدم
ذكرهم ووصلا الى كمران وهى ضيعة من ضياع الهند أنشؤا هناك قلعة ذات أبراج فكمل
بناؤها فى نحو خمسة أشهر ثم ان الامير حسين أرسل طائفة من العسكر نحو مكان يسمى
اللحية وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى موراو أقام الامير حسين هو وبقية
العسكر فى مكان يسمى بيت الفقيه فأقاموا بها نحو شهر ثم ان الامير حسين والرئيس سلمان
والعسكر توجهوا الى نحو زبيد وحاصروا صاحبها عبد الملك أخا الشيخ عامر فملكوا منه
زبيد وذلك صبيحة يوم الجمعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين
وتسعمائة فوجدوا بها من الامم ما لا يحصى عددهم ثم ذكروا فى الكتاب أن الامير حسين لما
أن فتح زبيد توجه الى حصار مدينة عدن وانه أشرف على أخذها ولما ملكوا زبيد أقاموا
بها شخصا من مماليك الاشرف الغورى وهو من أمراء العشراوات يسمى برسباى ومعه
بعض جماعة من المماليك وأولاد الناس الذين كانوا صحبتهم والتف عليهم جماعة من
العربان نحو عشرة آلاف انسان ولما ملك برسباى زبيد تسلطن بها ورتب له دوادارا
وخازندارا وأرباب وظائف كعادة السلاطين وغنم منها أموالا جزيلة هو ومن معه من
العسكر ولما توجه الى حصار عدن أيضا ملكها كما قيل وفى هذا الشهر عرض الامير
الدوادار العسكر الذين فى القاهرة وكان ذلك العرض فى بيته وكان سبب هذا العرض انه بلغ
الامير الدوادار أن عدة مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد فخشى أن تكون من
عند ابن عثمان فبادر الى عرض العسكر وقال لهم كونوا على يقظة وعبوا بارقكم حتى
يتضح هذا الخبر وانفصل المجلس على ذلك فانصرف العسكر فى هرج وفى شهر رمضان
وكان مستهله يوم السبت توجه لبيت الامير الدوادار جماعة من نواب القضاة وهنؤه بالشهر
وكانت القضاة الثلاثة والخليفة فى أسر سليم شاه بن عثمان بحلب لا يمكنهم العود الى مصر

وفى يوم الاحد ثانيه كان أول بابه من الشهور القبطية فثبت فيه النيل المبارك على عشرين ذراعا وكان فى العام الماضى أربع من ذلك واستمر فى ثبات الى أول هاتور ثم وردت الاخبار على يد ساع بأن الامراء والعسكر دخلوا الى الشام وهم فى أنحس حال وقد نهب بركهم وخيولهم وجمالهم وجميع ما يملكونه وأخبر ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان وثب بعضهم على بعض ونهبوا زروع الشام وأخذوا أموالهم وقتلوا منهم جماعة واضطربت أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب وفيه دخل قاضى القضاة محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى اسر ابن عثمان بحلب ولولا انه هرب مع العسكر والا كان أسر معهم وأخبر ان ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى الذين كانوا من أخصاء السلطان لما مات الغورى التفوا على سليم شاه بن عثمان وصاروا من جماعته وصاروا يتقربون اليه بذكر مساوى أستاذهم الغورى وأمرائه ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ولم يذكروا شيأ من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا وكانه لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ونسوا جميع انعامه واحسانه اليهم ولا سيما ما أحسن به الى العجمى الشنقجى من سلاريات وشقق حرير وسمور ومال وانعامات جزيلة فلم يثمر ذلك فيهم فلما بلغ الامير الدوادار ذلك رسم للوالى أن يقبض على بيت السمرقندى ويونس العادلى فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهما وحاشيتهما ووضع عبد السمرقندى فى الحديد وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى وظهر أنهم كانوا مواسين على السلطان وكانوا يكاتبون سليم شاه بن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة وصاحب البيت أدرى بالذى فيه وفى يوم الجمعة سابعه صلى الامير الدوادار صلاة الجمعة وخرج الى ملاقاة الامراء المقدمين الذين حضروا من الشام وقد بلغه وصولهم الى بلبيس فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر وهو فى محفة وصحبته الشهابى أحمد بن الجيعان ودخل الامير اركماس أمير سلاح وهو فى محفة عليل ودخل الامير انسباى حاجب الحجاب وتمر الزردكاش والامير علان الدوادار الثانى وآخرون ثم دخل بقية العسكر وهم فى أسوء حال من العرى والجوع والضعف ودخلوا وأطواقهم مفككة وأظهروا الحزن على السلطان وصار الامراء والعسكر يدخلون شيأ فشيأ وفى يوم الخميس ثالث عشره دخل الامير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والامير كرت قانصوه والامير جان بردى الغزالى نائب حماه ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان الغورى والامير جان بلاط الموتر والامير أبرك الاشرفى والامير تانى بك الخازندار والامير كرت باى وفيه تكامل دخول الامراء فسلم عليهم

الامير الدوادار ورجع الى منزله ودخل صحبته الامير قانصوه الاشرفى الذى كان نائب قلعة حلب وهو الذى سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح والقماش والكنابيش الزركش والسروج الذهب وغير ذلك من التحف فتسلمها ابن عثمان من غير أن يحاصر القلعة فخرج قانصوه هذا والامراء الذين معه فارين الى جهة الشام مع ان قلعة حلب حصينة مانعة فلما قابله الامير الدوادار ورحب بالكلام ورسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة واستوعده بكل سوء فلما دخل الامراء الى القاهرة اجتمع رأى الجميع على سلطنة طومان باى الدوادار وترشح أمره لان يلى السلطنة فصار يمتنع من ذلك غاية الامتناع والامراء كلهم يقولون ما عندنا من نسلطنه الا أنت ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها ثم ان الامير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الامراء المقدمين منهم الامير علان والامير انسباى حاجب الحجاب والامير تمر والامير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الامراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وانه امتنع من ذلك فأحضر لهم الشيخ مصحفا شريفا وحلف الامراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلف الجميع على ذلك ثم ان الشيخ حلفهم أن لا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا وان لا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ولا يجددوا مظلمة وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ويبطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهرة والجامعة وان يجروا الامور على ما كانت عليه فى أيام الاشرف قايتباى ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا فحلفوا على ذلك ثم ان الشيخ ذكر للامراء ان الله تعالى ما كسركم وذلكم وسلط عليكم ابن عثمان الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر فقالوا له تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الامير الدوادار وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم وترشح أمر الامير الدوادار الى السلطنة وتسلطن كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه

*ومن هنا نرجع الى أخبار الاشرف الغورى فانه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة واستمر نافذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاد بالخلع السنية وانعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة لابس آلة الحرب باللبس الكامل فشق ذلك على ابن عثمان ويهوله فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة من آلة

السلاح والخيول الفاخرة وكل فارس مقوم بالف فارس من عسكر ابن عثمان ولكن الله
تعالى يعطى النصر من يشاء فتوجهوا الى مرج دابق يوم الاحد خامس عشرى رجب من
هذه السنة فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ركب صبيحة يوم الاحد
المذكور وهو يوم نحس مستمر فبرز فيه الى قتال ابن عثمان وكانت الكسرة أولا على عسكر
ابن عثمان ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الامر وعادت الكسرة على عسكر مصر ولما
رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلقت فرسه ليهرب و ينجو بنفسه فاعترته
سارقة من الرجفة فاغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الارض فطلعت روحه فى تلك
الساعة وصار ملقى على الارض فزحفت عساكر ابن عثمان فنهر من كان حوله من الغلمان
والسلحدارية والمماليك الجلبان وتركوا جثته على الارض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة
ولا عرف له مكان قبر فكأنما ابتلعته الارض ولم يقف له أحد من الناس على خبر
ومن العجائب انه لم يدفن فى مدرسته التى صرف عليها نحو مائة ألف دينار وظن أنه يدفن
بها على عزة وحفظ مقام فكان المقدور خلاف ذلك وصار مرميا فى البرارى تنهشه
الذئاب والنمور ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة وكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما
وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كالف سنة مما يعدون وكانت صفته انه طويل القامة
غليظ الجسد ذو كرش كبير أبيض اللون مدور الوجه مشحم العينين جهورى الصوت
مستدير اللحية ولم يظهر بلحيته الشيب الا قليلا وكان ملكا مهيبا جليلا مبجلا فى
المواكب تملأ العيون منه فى المنظر ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية لكان خيار ملوك
الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة وكان يوم الاثنين والخميس ينزل الى الحوش
السلطانى ويوم السبت والثلاثاء بالميدان فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين
خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش وكان يكثر فى الاسفار من ركوب الحجورة بالسروج
البداوى والركب العراض وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكى
وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت والفيروزج والزمرذ والالماس وعين الهر وكان
مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر وكان ترفا فى ملبسه ويحب رؤية
الازهار والفواكه ويميل الى أبناء العجم وربما كان يميل الى مذهب النسيمية من ميله الى
معاشرة الاعاجم وكان مولعا بغرس الاشجار وحب الرياضات وسماع الاطيار المغردة ونشق
الازهار العطرة وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها وكان يستعمل الاشياء المفرحة
وكان نهما فى الاكل والشرب وكان يغوى طيور المسموع وكان يعرف بقانصوه بن بيردى
الغورى واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر
الحرمة والامراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان فى كلمة الى أن وقعت
الواقعة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج اليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التى

لم تقع الملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك وكان ذلك في الكتاب مسطورا وقد قلت في معنى ذلك

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى * فيما سمعت حوادثا مما جرى
لازالت الايام يبدو فعلها * بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذى وقعة ما مثلها * سبقت لسلطان ولا متأمرا
والاشرف الغورى كان مليكنا * لكنه قد جار فينا وافترى
والموت أوجب هزمه مع جيشه * قد كان ذلك في الكتاب مسطرا
أعماله ردت عليه بما جنى * والدهر جازاه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى لكن مساويه أكثر من محاسنه * فاما ما عده من محاسنه فانه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه ومنها انه كان له اعتقاد زائد في الفقراء والصالحين ومنها انه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ومنها أنه كان ماسكا للسان عن سب الناس في شدة غضبه ومنها انه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وليس له هرج وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الاشعار وكان قريبا من الناس يحب المزح والمجون في مجلسه غير أنه كثيف من حيث النظر الى ذاته وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الاتراك ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك في أفعالها * وأما ما عد من مساويه فانها كثيرة لا تحصى منها انه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الدول من قبله ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل بها بيع ولا شراء ولا معاملة في ملة من الملل ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر وهو مبلغ ألفان وسبعمائة دينار وكانت السوقة تبيع البضائع بما يختارونه من الاثمان ولا يقدر أحد أن يكلمهم فان كلمهم أحد يقولون علينا مال السلطان فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك وقرر على دار الضرب مالا له صورة في كل شهر فكانوا يضيفون في الذهب والفضة النحاس والرصاص جهارا فكان الاشرفي الذهبي اذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمال الدين فلعب في أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لاحد من الناس منها لا دينار ولا درهم فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى فمشى على طريقة جمال الدين وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته الى أن مات وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا

ومنها انه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والاوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية وكان يفرد عليهم الاموال الجزيلة فى كل سنة فيأخذ منها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف فكان كل واحد من الرعية أصحاب الاقطاع والاوقاف يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ولاسيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لاجل المشاة عند خروج التجريدة فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير وكان حسين نائب جدة يأخذ جدة العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب وعز وجود الشاشات بمصر وعز وجود الاصناف التى كانت تجلب من بلاد الافرنج والارز والانطاع وخرب البندر وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وكان كل أحد من أراذل الناس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى وكذلك على البطيخ والرمان حتى حرج على بيع الملح وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط لم يفعلها هناد فى زمانه ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مالا له صورة ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال فنهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ومنهم شمس الدين بن عوض ومعين الدين بن شمس الدين وعلم الدين كاتب الخزانة وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج اقطاعهم ورزقهم من غير سبب واعطاء ذلك الى عماليكه الجلبان ومنها قطع جوامك الضعفاء والايتام من الرجال والنساء والصغار وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك ومنها أنه أرسل فك الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المقرر من قديم الزمان وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل ان يزيد النيل وتزرع الاراضى وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة والخولة الذين فى سواقى الميدان على الجلة وروث الابقار وما يتحصل فى كل يوم مما يبيعونه وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضيق لا يغفل عنهم من المصادرات يوما واحدا وكان من حين تولى الامير خاربك الخازندار يباشر ضبط أمر الخزانة بنفسه ما يدخل اليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الامور

فى

فى ذلك جميعه من الوصولات وما يصرف من الخزائن فى كل يوم وكانت هذه الاموال العظيمة التى تدخل له يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب وهذا عين الاسراف لبيت مال المسلمين وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من المكتب وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى بل على أمور مستقبحة وكان يتغافل عن أمر القتلى ويدفعهم الى الشرع ويضيع حقوق الناس عليها وكان يكسل عن علامة المراسيم فلا يعلم على المراسيم الا قليلا فتتعطل اشغال الناس بسبب ذلك حتى كانت تشترى العلامة العتيقة باشرفى حتى تلصق على المرسوم لاجل قضاء الحوائج ولو شرحنا مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك انتهى * وأما من تولى الخلافة فى أيامه فامير المؤمنين محمد المتوكل على الله نجل أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأما قضاة الشافعية فاولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا وقاضى القضاة محيى الدين عبد القادر النقيب تولى وظيفة القضاء فى أيامه خمس مرات وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى تولى القضاء فى أيامه مرتين وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادرى وقاضى القضاة بدر الدين المكينى وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ثم أعيد قاضى القضاة كمال الدين الطويل وقد ولى القضاء فى دولته أربع مرات وأما قضاة الحنفية فالقاضى سرى الدين عبد البر ابن الشحنة ثم القاضى برهان الدين بن الكركى ثم القاضى شمس الدين محمد السمديسى ثم القاضى حسام الدين محمود بن الشحنة وأما قضاة المالكية فالقاضى عبد الغنى بن تقى الدين ثم القاضى برهان الدين الدميرى ثم ولده محيى الدين يحيى ثم جلال الدين بن قاسم ثم أعيد محيى الدين بن الدميرى ثانيا وأما قضاة الحنابلة فالقاضى شهاب الدين أحمد الششينى ثم ولده عز الدين محمد ثم شهاب الدين الفتوحى وأما كتاب سره فالقاضى محب الدين الحلبى وأما نظار جيشه فالقاضى شهاب الدين أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الخاص والقاضى عبد القادر القصروى وأما نظار خواصه فالقاضى علاء الدين بن الصابونى أولا ثم علاء الدين ابن الامام ثم ناصر الدين الصفدى ثم أعيد ابن الامام ثانيا وأما وزراؤه فالامير طقطباى بن ولى الدين وجمع بين الوزارة والاستادارية ثم الامير تغرى برمش ثم الامير يوسف البدرى وأما استادار يانه فالامير تغرى بردى بن بلباى القادرى ثم الامير تمربلباى خازندار الملك العادل طومان باى ثم الشرفى يونس النابلسى ثم قرر الامير طومان باى الدوادار فى الاستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى واستمر بها الى أن تسلطن وأما من ولى الحسبة فى أيامه فالامير قرقماس المقرى والامير جان بردى الغزالى ثم أعيد قرقماس المقرى ثم الزينى بركات بن موسى ثم الامير ماماى الصغير وأما أتابكيته فأولهم قيت الرجبى وقرقماس بن ولى الدين ودولات باى بن ارکماس وسودون العجمى وأما

دوادار ياته فأولهم مصر باى ثم ازدمر بن على باى ثم طومان باى الذى تسلطن بعده وأما حجابه فالامير خاربك بن باى الذى قرر فى نيابة حلب والامير انسباى بن مصطفى وأما بقية الامراء وأرباب الوظائف فعلى حكم ماتقدم من أخبارهم وأمانوابه بالشام فالامير دولات باى بن اركماس ثم قانصوه المحمدى الشهير بالبرجى وسيباى بن بخت بخا وأمانوابه بحلب فاركماس بن طرباى وبخشباى بن عبد الكريم وسودون بن يشبك وجانم ويشبك وابرك الاشرفى وتمراز الاشرفى وأمانوابه بصفد قانصوه بن قراوتانى باى العثمانى وسودون الدوادار وأمانوابه بغزة فالامير صلاح الدين الذى كان نائب القدس وأزبك الصوفى الذى كان نائب القدس أيضا واقباى الذى كان كاشف الشرقيه وآخرمن ولى بها فى أيامه دولات باى الاعمش وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة وولى بها آخرين غير هؤلاء وأما ماأنشأه بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التى أنشاها خلف المدرسة عند المصبغة ومن انشائه المئذنة التى عمرها بالجامع الازهر وهى برأسين وأنشأ هناك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى وجدد عمارة خان الخليلى وأنشأ به الحواصل والدكاكين وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين وكذلك الربعان اللذان بين السورين والطاحون عند المصبغة وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين لولده وتناهى فى زخرفته وأنشأ هناك ربعا ووكالة وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ونقل اليه الاشجار من البلاد الشامية وأجرى اليه ماء النيل من سواقى نقالة وأنشأ به المناظر والبحرة والمقعد والمبيت برسم الحاكمات وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش وجدد عمارة المطبخ الذى بالقلعة وجدد عمارة سبيل المؤمنين وجعل سقفه معقودا بالحجر وأنشأ الربع والدكاكين التى بسويقة عبد المنعم وأنشأ الربع والوكالة التى فى الجسر الاعظم وجدد عمارة ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع وبناه بالحجر الفص المشهر بعد ماكان بالطوب اللبن وأنشأ المجراة ونقلها من درب الحولى الى موردة الحلفاء وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر على تلك البسطة التى كانت هناك وأنشأ بها المقعد المطل على البحر وجدد عمارة قنطرة بنى وائل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخرنوبى وأعلاها حتى صارت تدخل المراكب من تحتها وجدد عمارة قناطر السباع وأنشأ المساطب وعليها الدعائم عند قبة الامير يشبك التى بالمطرية وأنشأ بالطينة على ساحل البحر المالح قلعة لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة الابراج بالاسكندرية وأصلح طريق العقبة ودوار حقن وأنشأ هناك

خاناوأبراجاعلى بابه وجعل فيه حواصل لاجل ودائع الحجاج وأنشأ فى الازلم خاناوجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبة وحفر هنالك الآبار فى عدة مواضع من مناهل الحجاج وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هنالك وأجرى عين بازان بعد ما كانت انقطعت من سنين وأنشأ بجدة سورا على ساحل البحر المالح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج وجاء هذا السور من أحسن المبانى هنالك وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين وبالجملة ان السلطان الغورى كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى الامور وكان كفؤا تاما للسلطنة مبجلا فى المواكب تملأ منه العيون وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ومشايخ الاسلام وقضاة القضاة فمنهم الشيخ بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريقا ولى مشيخة الجامع المؤيدى وكان من خيار أبناء الديرى وتوفى الشيخ شهاب الدين خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه وكان من أعيان مشايخ الحقيقة وجاءت الاخبار بوفاة قاضى القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة توفى بدمشق وولى قضاء الحنابلة بمصر والشام وتوفى الشيخ ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه وكان من أعيان مشايخ الصوفية وتوفى العلامة تقى الدين الاوجاقى شيخ الحديث رحمة الله عليه وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن الاسيوطى وكان من أعيان علماء الشافعية بلغت مصنفاته ستمائة مؤلف وكان بارعا فى علم الحديث توفى فى جمادى الاولى سنة احدى عشرة وتسعمائة وتوفى قاضى قضاة المالكية برهان الدين الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وتوفى القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش وكان من أعيان علماء الحنفية وتوفى الشيخ علاء الدين العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة وكان من أعيان علماء الشافعية وتوفى قاضى قضاة الحنابلة شهاب الدين أحمد الششينى وكان علامة فى مذهبه توفى سنة تسع عشرة وتسعمائة وتوفى الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ وكان من أعيان الحنفية وكانت وفاته فى ربيع سنة عشرين وتسعمائة وتوفى الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن عنان رحمة الله عليه وكان من أعيان مشايخ الصوفية وتوفى قاضى قضاة الشافعية كان محيى الدين عبد القادر بن النقيب وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وتوفى قاضى القضاة كان جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين القلقشندى الشافعى وكان من أعيان علماء الشافعية وتوفى الشيخ نور الدين على المحلى وكان يعرف بقريبه وكان من أعيان علماء الشافعية وتوفى الشيخ تاج الدين الذاكر وكان من أعيان الصوفية وتوفى قاضى قضاة الحنفية وكان يسمى برهان الدين بن الكركى وكان من أعيان علماء الحنفية مات غريقا

فى أيام دولته ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الاعيان لم نذكرهم هنا خشية الاطالة انتهى ذلك ولا بأس بايراد هذا الرجل الذى عمله الشيخ بدر الدين أبقاه الله تعالى يرثى به الملك الاشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له وهو قوله

غربت شمس دولة الغورى * وابن عثمان نجمه طلع ساير
وبهذا رب السماء قد حكم * والفلك دار ولم يزل داير
ابن عثمان باداه بأخذ القلع * ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا الى مصر مملوك * ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا * ومن الصوف ما عاد يجينا ثياب
على الصوف يا ما قعدنا سنين * ما يجى من عندو ولا تاجر
والامارة جو للملك قالوا * ابن عثمان باغى عليك جاير
الامير الكبير سمى سودون * للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الاشرفى العالى * هو أمير سلاح سمى اركماس
وبسودون رأس نوبة النواب * لو رياضه مع سائر الاجناس
وانسباى هو حاجب الحجاب * لو شجاعة فى الحرب بالباتر
ومحمد يدعى أمير اخور * نجل سلطان أشرف عز يناصر
والدوادار تانى أمير علان * وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير * وتمر بالزرد كاش يشهر
وكذا جنبلاط معو كرتباى * وأربعين فى ذى العدد واكثر
وتبعهم من الامارة كثير * طبلخاناه بالنصر تباشر
والعساكر معهم كثير فرسان * عشراوات من ترك تتكاثر
ضرب الكل بينهم مشورة * قالوا ملت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال * بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان * نكسر الروم والاراضى ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقمار * كل واحد بهم جتو قامر
ولا يدرى ما قد خبى فى الغيب * من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر * لتسعمايه اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى * شافع الخلق فى نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريده * لابن عثمان طالب بلاد الشام

والاماره فى خدمتوموكبين * بالمماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهره * كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفه خرج معوالقاضى * كاتب السر المنتخب محمود
والخليفه المتوكل ولد يعقوب * هومحمد فعلوا الجليل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم * كل نائب قد أبذل المجهود
وخرج معو لاجل الخلع * ناظر الخاص الناهى الآمر
هو المباشر للخاص وهوالعامل * وكذا القصروى لجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب * ماسمعنا موكب رقى مثله
ولا نالوا ملك ولا سلطان * فى المواكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل فى حلب * وقطع من وعره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر * ان طبعو منها بقى حائر
طلب الصلح أرسل لهم قاصد * بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا دا الصلح سيد الاحكام * من يخالف يرجع هداه فى ضلال
والامانه فى محمل الانسان * وأبى حملها عوالى الجبال
وقضى ربنا بحقن الدما * وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الاشرف الغورى * أعلموا نواعليه ماكر
قالوا احذر تركن الى صلحو * واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز * والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح * والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعه * للفريقين شابت لها الاطفال
نصر الله المصرى على الرومى * وبخيلو أضحى عليه غاير
ولا يدرى ماقد خبى فى الغيب * ولايدرى ماهو اليه صاير
ابن عثمان كان لومن العسكر * خلق كانوا على الشمال كامنين
فى اشتغال العسكر بنهب الروم * خرجوا فى القتال لاجل اليمين
فاستغاث الملك وبو سارقه * ارتمى على الارض عن جواد وينين
جا ابن عمو بيبرس واقبال الطويل * كل واحد لنصرته بادر
والشجاعه ماتغلب الكثرة * قطعوهم بالصارم الباتر
جل ربى محرك الحركات * جعل الله لكل قتله سبب
والعجب كان فى قتلة الغورى * فى التواريخ تكتب بماء الذهب
تسعمايه اثنين وعشرين عام * ماجرى لو خامس وعشرين رجب

نسأل الله أن يحسن العاقبه * ويعيد الرايح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ الثار * ويرد الكسره على الكافر
اشتهى التار لقتله الغورى * ولعلى أن أبلغ الاوطار
والتهانى ذاك النهار عندى * ويغنوا على وتر أوطار
بعدهذا ما اخشى غراب البين * ان زعق فى دارنا أوطار
والعجائب فى قتلة الغورى * راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسبنا كل الحساب الا * ماجرى لومامر بالخاطر
دمعة العين منى على الغورى * من دماها تجرى لحزنى عين
ارتجى عين فى الناس تساعدنى * من صباحى حتى تغيب العين
كان عليه ترقب زمان ملكو * والسعادة حتى أصابو عين
الجواد غاب بين العدا أرماه * مات ودمعو من العيون غاير
كل من غار منو بقى فرحان * بعد ما كان غاير على الغاير
ذى العساكر شبهتها روضه * فيها أغصان فرسان عليها زهور
والنسيم فى النهر فصل زرد * واذا هو كالسيف ظهر مشهور
واللبوس من فوق الحديد تحكى * ورد أحمر بين الرياض منثور
ومن البان شطفات غصون مذهبه * وجماها صناجق الباتر
وحكى الياسمين بدن مجروح * وشقيق النعمان عليه داير
فى سما حرب عسكر السلطان * تطلع انجم فرسان تزين اللبوس
والاسنة تحكى شهب ثاقبه * وخودهم مثل النجوم فى الشموس
والملك بينهم قمر مخسوف * وحكى الرعد ضربهم فى التروس
خلت أسهم من قوس قزح ترمى * للعساكر فى ليل غبار عاكر
والسحاب صار يمطر سهام خارقه * للاعادى ولم يزل ماطر
ذى العساكر بستان وفيه فاكهه * ودماهم خمر العنب مدفوق
واحد اصفر لونو حكى مشمش * وذا لون العناب وذا معشوق
ما رآى حد مثل ذى الوقعة * لاتقل لى الناصر ولا برقوق
والامارة تحكى شجر مثمر * فى رياض نشر واغداعاطر
والمدافع ترمى سفر جل بكار * ولّ رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسى قلبى على الغورى * وأقول ياقلب اتفكر
أين سليمان وأين هو النمرود * وأين هو فرعون وأين هو قيصر

وأين ملوك الزمان وذو القرنين * واللى يسمى ان صح الاسكندر
وأين كسرى انوشروان وايوانه * مات والايوان بعد وبقى داثر
كل حادث بأمر القديم راحل * والاقامة للاول الآخر
لو يكن فى هذا البلد جمال * ويراهن فى واجب المعوب
نحن عصبه نحزن على غلبه * لما يبقى دستو عليه مقلوب
فايش تقل سلطانا الغورى * لما جرد قتل ومات مكروب
بعد ملكو خمسه وعشرسنين * تسعة اشهر بالكاتب الحاصر
ويليها خمسه وعشرون يوم * عز كاتب حاسب أمين ذاكر
العجب كان فى قتلة الغورى * كل مقدور لا يمنعه المحذور
ويوم خروجو من البلد أوكب * ولا يدرى ما فى الجبين مسطور
بالمقدر قال لو لسان الحال * قد بقى من عمرك ثلاث شهور
انتبه من رقدة الغفله * واجعل الطول من الامل قاصر
بعد الاشهر عدة تسعة أيام * والمنيه تكون فى العاشر
ذى الملك كان رئيس وهو مقدام * وابن عثمان مؤخر ولاح كسره
خندس الريح عليه وحل مركبو * وابن عثمان عوم وبان نصره
غرق السفن واخرب السفان * وبسيفوا رمى الجميع بحره
من جثثهم ومن دماهم صار * بحرهم بر بالجثث صادر
وتركهم لما رجع مقلع * برهم بحر بالدما حادر
قد جلا لو عروس جمال ملكو * خالق الخلق ربنا ذو الجلال
وحبالو أنوا يقع ميت * عن جواد ويوم الحروب والقتال
وزوى لو انو ايموت مقهور * ولا يعرف قبره ليوم الزوال
كم تطير بالرمل والرمال * طاير الله هو أعظم الطاير
طار حسابو وكل ما أمل * وبهذا ما طار عليه طاير
ابتدا فى النظم والخاتم * بمديحى فى المصطفى المختار
كلمو الضب والذراع والبعير * وسعت لو فى خدمتو الاشجار
والغزاله حديثها مشهور * ونطق لو فى راحتو الاحجار
والقمر انشق له نصفين * بعدما كان كامل صحيح نار
واشبع الجيش كلو ببعض الزاد * وجرى الماء من اصبعو فاير
ان يقولوا أبو النجا العوفى * فى نظامو ما فى البلد مثلو

يا الذى جا يسمع عقود نظمه * خذ وحرر عنو بديع نقلوا
وان أتالك من يطلب التاريخ * والوقايع عن الملوك قلو
غربت شمس دولة الغورى * وابن عثمان نجمه وطلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم * والفلك دار ولم يزل دايـر

وهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار دولة الملك الاشرف أبى النصر قانصوه الغورى رحمة الله عليه وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم وأخذ أموال بغير حق واختتمت أواخر دولته بفتن وضرب سيف وذهاب أموال وأرواح وأمور مهولة وحوادث غريبة وفتن عظيمة ليس لها آخر والامر الى الله تعالى من قبل ومن بعد يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها وحكم من الفرات الى الشام ثلاثة شهور وملك ثلاثة عشر قلعة بالامان من غير حرب ولا قتال وملك قبل ذلك عدة قلاع من اعمال شاه اسمعيل الصوفى والذى وقع لسليم شاه بن عثمان من السعد والنصرة على الصوفى وسلطان مصر وأخذ أموالهم وبركهم وخيولهم واحتوائه على بلادهم وخزائن أموال الامراء وأموال السلطان الغورى وناهيك بها اما وقع قط لاحد من ملوك الروم قبله ولا بعده وهذا الامر من الله تعالى وقد وعده بذلك من القدم ان وعد الله حق وهو لا يخلف الميعاد

ذكر سلطنة الملك الاشرف أبى النصر طومان باى

وهو السابع والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الحادى والعشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد أقول وكان أصله من كتابية الاشرف قايتباى اشتراه الملك الاشرف قانصوه الغورى وكان يلوذ له بقرابة فلما اشتراه قدمه الى الاشرف قايتباى ولهذا يدعى طومان باى بن قانصوه فصار من جملة مماليكه الكتابية واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد بن قايتباى فأخرج له خيلا وقاشا وغلمانا وصار من مستخرجات الناصر ومعاتيقه وبقى جمدارا ثم بقى خاصكيا واستمر على ذلك حتى تسلطن قريبه قانصوه الغورى فانعم عليه بامرية عشرة واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائة فلما توفى ابن السلطان المقر الناصرى فى الفصل الذى جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجعله شاد الشرابخاناه عوضا عن ولده بحكم وفاته واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة فلما توفى الامير ازدمر بن على باى الدوادار الكبير فى جمادى الاولى وهو مسافر بجبل نابلس خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الامير ازدمر بحكم وفاته فاستمر فى الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان فجعله نائب

الغيبة عوضا عن نفسه الى أن يحضر من السفر فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية واطاعه العسكر الذين تخلفوا بمصر قاطبة وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف ونائب الغيبة وكان يركب فى كل يوم اثنين وخميس ويسير نحو المطرية ويدخل من باب النصر ويشق القاهرة وقدامه الجم الكثير من العسكر والامراء المقدمين وقدامه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط من المكاحل فتبرج له القاهرة كلما شق منها وفتح السد فى غيبة السلطان وكان له يوم مشهود ولم يزل على ذلك حتى ثبت موت السلطان الغورى ورجعت الامراء من التجريدة فوقع الاختيار منهم على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع والامراء تقول ما عندنا سلطان الا أنت وهو يمتنع من ذلك ثم ركب هو والامير علان وجماعة من الامراء المقدمين وتوجهوا الى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك تعلل الامير طومان باى على السلطنة بأنواع من العلل منها أن خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم ولا دينار فاذا تسلطنت ما أنفق على العسكر شيأ ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف على مصر وأن الامراء لا يطاوعونى على الرجوع الى السفر ثانيا ومنها أنه اذا تسلطن يغدرون به ويركبون عليه ويخلعونه من السلطنة ويرسلونه الى السجن بثغر الاسكندرية ولا يبقونه فى السلطنة الا مدة يسيرة ثم ان الشيخ أبا السعود أحضر بين يدى الامراء مصحفا شريفا وحلف عليه الامراء الذين جاؤا بصحبته بأنهم اذا سلطنوه لا يخامروا عليه ولا يغدروه ولا يثيروا فتنا وأنهم ينتهوا عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف الشريف بمعنى ذلك فلما تحالفوا ترشح أمر طومان باى الى السلطنة وانفض المجلس على ذلك وتوجه الامراء الى بيوتهم فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من هذه السنة صلى الامير الدوادار صلاة الفجر وركب ومعه الامراء المقدمون وقدامه الفوانيس والمشاعل فطلع الى باب السلسلة وجلس به فلما ركب من بيته الذى فى درب البباشق من الصليبة وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الامراء الذين طلعوا بصحبته فارتفعت له الاصوات بالدعاء وانطلقت النساء له بالزغاريت من الطيقان فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين المتوكل على الله فحضر وصحبته سيدى هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عمهم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة والقاضى شرف الدين يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعية وجماعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الامراء المقدمين وغيرهم من الاكابر والاصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله فى

جميع أموره وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها وكالة مفوضة وثبت ذلك على يد القاضي شمس الدين بن وحيش فاكتفوا بذلك وكان أشيع أن يولوا الخلافة الى أحد من أولاد سيدى الكبير خليل فان الخليفة المتوكل على الله كان فى أسر ابن عثمان ووالده يعقوب عزل نفسه من الخلافة فلما أحضره هذه الوكالة عن ولده اكتفوا بذلك وكان قاضي قضاة الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمان وكذلك قاضي قضاة المالكية محيي الدين الدميرى وقاضي القضاة الحنبلي الشهابي الفتوحى فلم يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشافعية الا الشرفي يحيي بن البردينى فبايع السلطان الخليفة أمير المؤمنين يعقوب وشهد عليه بذلك الشرفي يحيي بن البردينى وجماعة من نواب القضاة نيابة عن محمد المتوكل وحضر فى آخر المجلس قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى فأفيض عليه شعار الملك وتلقب بالملك الاشرف مثل قريبه الغورى ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ولا وجدوا له فى الزردخانات لاقبة ولا طيراولا الغواشي الذهب فركب من سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة قدامه فطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على كرسى المملكة وقبل له الامراء الارض ودقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة وارتفعت له الاصوات بالدعاء وفرح كل أحد من الناس بسلطنته وكان محببا للعوام فانه كان لين الجانب قليل الاذى غير متكبر ولا متجبر فلما انتهى أمر المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى داره فى موكب حفل وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغير على طول المدى وقد قال محمد بن قانصوه

قد ذهب الغورى الى ربه * وذا الذى قدره الله

الملك لله فمن شاء من * عباده للملك ولاه

فلما كان وقت صلاة الجمعة فى ذلك اليوم خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرفي يحيي بن البردينى واستمر يخطب به فى كل يوم جمعة ثم ان الخطباء خطبوا باسمه فى ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كانت الخطباء لم يذكروا فى الخطبة اسم سلطان ولا يدعون له نحو خمسين يوما بل كانوا يدعون للخليفة فقط وفى هذا اليوم قبض السلطان على قانصوه الاشرفي نائب قلعة حلب الذى سلم القلعة الى ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة فلما حضر قانصوه هذا صحبة العسكر تغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك فقبض عليه وأودعه فى البرج بالقلعة حتى يكون من أمره ما يكون وفى يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة من الامراء ممن تخلف بعد العسكر بدمشق فحضر الامير جان بردى الغزالى نائب حماه وقد ترشح أمره أن يلي نيابة الشام والامير سودون الدوادار رأس

نوبة النواب والامير قانصوه كرت أحد المقدمين وكان مريضا فلما حضروا وجدوا الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الامير سودون الدوادار وكان قد ركن الى السلطنة وهو بالشام فلم يتم له ذلك فلما حضروا طلعوا الى القلعة وقبلوا الارض للسلطان ونزلوا الى دورهم ثم جاءت الاخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان حماه الأمير ناصر الدين بن الحنش بلغه أن ابن عثمان ارسل جاليش عسكره وصحبته ابن سوار الذى كان تعصب له فلما وصلوا الى قابون بالقرب من دمشق لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من أنهر دمشق حتى صار كل من دخل فى تلك المياه بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة حسبما أشيعت بذلك الاخبار وقد قلت فى المعنى

قل لابن عثمان اذا قابلته * اقبل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شاميا بجهالة * نخشى عليك اللدغ من إبن الحنش

فلما دخلت الامراء دخل صحبتهم جماعة كثيرة من أعيان أهل دمشق وأولادهم وعيالهم وسبب ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هذه الكسرة وقتل سيباى نائب الشام واضطربت الاحوال وثب أهل الشام بعضهم على بعض ونهبوا حارة السمرة وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم وكذلك فعلوا بتجار الفرنج الذين هنالك ونهبوا أموالهم وكانت فتنة مهولة ونهبوا بيوت أعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار فخرج غالب أعيان دمشق منها بسبب ذلك وبسبب فتنة ابن عثمان وفساد الاحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر ابن عثمان رسم له بنيابة حمص وقيل برزت له المراسيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان قرره السلطان فى الاتابكية بدمشق فان ابن الحنش أرسل يقول للسلطان مدنى ببعض عسكر وأنا أجمع العربان وضمان كسرة عسكر ابن عثمان علىّ وكان فى قديم الزمان بعض أجداد الحنش متولى على نيابة حمص وفيه حضر شخص يقال له اينال الاعور وكان جان بردى الغزالى قرره فى نيابة صفد فلما بعث اليها دواداره ومباشريه وثب عليهم أهل صفد ولم يمكنوهم من الدخول الى المدينة وربما قتلوا منهم جماعة فحضر الى مصر ليلبس خلعة ويمضى الى صفد ليقتص من أهلها وفى يوم الاثنين سابع عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر فى الحوش وحصل فى ذلك اليوم بين الامراء خلف بسبب الوظائف وحصل بين الامير علان الدوادار الثانى وبين جان بردى الغزالى تشاجر حتى خرج فيه عن الحد وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يخرجوا فى التجريدة صحبة السلطان ونادى أيضا أن كل من أخذ شيأ من نهب سلاح العسكر أو قماشهم يرده ومن لم يرد شيأ وغمز عليه شنق من غير

معاودة وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعبيد ممن كان فى التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال وسلاح وقماش وغير ذلك ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر بهدم المسطبة التى كان أنشأها السلطان الغورى بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التى كان يجلس عليها الاشرف قايتباى فهدم السلطان المسطبة وأعاد الدكة كما كانت فى أول الامر وجلس عليها وكانت قد تكسرت فاصلحوها وجعل لها غشاء من الجوخ الاصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما كان يجلس الاشرف قايتباى وقد قلت فى المعنى

قد عادت الدكة للحكم * وانهدمت مسطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى * يمشى به الذيب مع الغنم
فيا له من ملك عدله * قد شاع بين العرب والعجم

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره جلس السلطان على الدكة وعرض العسكر بالحوش وكتب منهم نحو ألفى مملوك وعين من الامراء المقدمين الذين كانوا بمصر نحو ستة مقدمين وعين الامير جان بردى الغزالى باشا على العسكر وقد ترشح أمره بان يلى نيابة الشام وفيه قبض السلطان على المهتار محمد الفجولى وعلى أخيه على مهتار الطشطخاناه بخدمة السلطان الغورى وقبض على جمال الدين الالواحى بواب الدهيشة وهذا كان أول حكم السلطان طومان باى وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين توفى الامير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان الغورى متحدثان فى أمور الخزائن الشريفة فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران فطاشا وركبا فى غير شرجيهما وما كانا يظنان أن السلطان الغورى يموت فى هذا الزمان فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقهما كما يقال فى المعنى

أمور تضحك السفها منها * ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى يوم الخميس عشرى شهر رمضان عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش وجلس على الدكة بالحوش وخلع على من يذكر من الامراء وهم المقر السيفى سودون الشهابى الدوادار وقرره أتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان وخلع على المقر السيفى جان بردى الغزالى وقرره فى نيابة الشام عوضا عن سيباى بن بخت بخا بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان وخلع على المقر السيفى اركماس بن طراباى وقرره فى امرية سلاح على عادته وخلع على المقر السيفى بخشباى بن عبد الكريم وقرره أمير مجلس عوضا عن اركماس بحكم ولايته فى امرية سلاح وخلع على المقر السيفى انسباى بن

مصطفى وقرره أميراخور كبير عوضا عن نجل المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها وخلع على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن سودون الدوادارى بحكم انتقاله الى الاتابكية وخلع على طقطباى العلائى نائب القلعة وقرره حاجب الحجاب عوضا عن انسباى بحكم انتقاله الى امرية اخور الكبرى وخلع على الامير علان بن قراجا وقرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام الشريف بحكم انتقاله الى السلطنة وخلع على الامير ابرك الاشرفى وقرره وزيرا واستادارا وكاشف الكشاف عوضا عن المقام الشريف وخلع على كرت باى الاشرفى أحد الامراء المقدمين وقرره دوادارا ثانيا مقدم ألف كما كان علان وخلع على ماماى دوادار قانى باى قرا أميراخور كبير كان وقرره أميراخور ثانى عوضا عن اقباى الطويل بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان وخلع على شخص من الاتراك يقال له تمر السيفى مغلباى الساقى وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدابردى الاشرفى بحكم انه بقى مقدم ألف وخلع على شخص يقال له بخشباى الذى كان كاشف البهسنا وقرره فى نيابة صفد وخلع على شخص آخر من الاتراك وقرره فى نيابة طرابلس وخلع على شخص يقال له تانى بك الاشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم انتقاله الى الجوبية الكبرى وخلع على اقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل ذلك فيما بعد وخلع على الامير يشبك الفقيه وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاربك الذى توفى وخلع على جنتمر وقرره خازندارا ثانيا وخلع على ماماى الصغير وأقره فى الحسبة على حاله وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة وقررهم فى وظائف معلومة وأما أرباب الوظائف من المباشرين فخلع على القاضى محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على حاله وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القصروى بحكم قتله هنالك وخلع على سائر المباشرين من أرباب الوظائف باستمرارهم على وظائفهم وخلع على نقيب الجيش وازدمر المهمندار وألماس والى الشرطة وسنبل مقدم المماليك باستمرارهم على عادتهم وفى يوم الثلاثاء خامس عشريه خلع السلطان على شيخ العرب الامير أحمد بن بقر باستمراره على عادته وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر فى هذه السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج من قتل النفوس ونهب الاموال ولاسيما ما فعله ابن الجذامى بالعسكر لما رجع وهو مكسور وما فعله أولاد عبد الدائم بالشرقية من نهب الاموال وقتل النفوس ولم تنتطح فيها شاتان وخلع عليه وراحت على من راح وفى يوم الخميس سابع عشريه خلع السلطان على مصرباى الاقرع أحد امراء الطبلخانات وقرره فى الجوبية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان وخلع على تمرباى العادلى وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم وفاته وخلع على شادبك وقرره

شاد الشراب خاناه عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى التقدمة وخلع على على بك وقرره على نظر الجوالى عوضا عن القصروى وخلع على فخر الدين بن عوض واستقر به ثالث قلم فى كتابة المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته وخلع على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره على عادته وفى أواخر هذا الشهر قرئ عهد السلطان بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاضى القضاة الحنفى وجماعة من النواب وحضرت جماعة من المقدمين على العادة ثم ان السلطان أنعم على أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصة ونصف وثلث فى منشية دهشور فانعم عليه فى ذلك اليوم بما ذكرناه وفى يوم السبت تاسع عشريه طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهى مزفوفة على رؤس الحمالين وفى يوم الاحد سلخ هذا الشهر حضر الناصرى محمد بن بلباى المؤيدى حاجب ميسرة بدمشق وأخبر أن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينة دمشق وملك قلعتها وقتل على باى الاشرفى نائب القلعة وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام وحضر ابن بلباى هذا وهو فى زى العرب ببشت وزنط على رأسه فلما أشيعت الاخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس فى أمر مريب بسبب ذلك وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر وجزموا بهذا الأمر وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد فتنكد السلطان والامراء والناس قاطبة لهذا الخبر ولاسيما وانها ليلة عيد الفطر والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر والاشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر وقد قلت

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر * بلد شرفت بخير امام
حبر نا الشافعى قطب ولى * نجل ادريس عمدة الاسلام
هى تدعى كنانة من غزاها * قصم الله ظهره بالحسام

وفى شوال وكان مستهله يوم الاثنين صلى السلطان صلاة العيد وخلع على الامراء ومن له عادة فخطب بالسلطان فى ذلك اليوم الشرفى يحيى بن البردينى وكان موكب العيد حفلا وفى يوم الجمعة خامسه الموافق لرابع هاتور القبطى قلع السلطان البياض ولبس الصوف وقد عجل بلبس الصوف وفيه توفى الأمير جانم الابراهيمى أحد الامراء الطبلخانات وفى يوم السبت سادسه طلع الى السلطان شخص يقال له على الشعبانى نقيب المحتسب وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار فى الغلال فلما وقفا بين يدى السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معينا وعلى الغلال أيضا ولا يحصل من ذلك ضرر للمسلمين فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعبانى بالمقارع وابن خبيز وأشهر الشعبانى فى القاهرة وهو ماش مكشوف الرأس وقد ضرب بالمقارع ونودى عليه هذا جزاء من يتعاون فى انشاء المظالم

فى الدولة العادلة بعد ما بطلت وأمر السلطان بعزل الشعبانى من التحدث فى أمر الحسبة فأقام الشعبانى بعد ذلك أياما يسيرة وأشيع موته من الضرب الذى حصل له كما تقدم وفى يوم الاثنين ثامنه حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى بك الاحدب وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم فى عسكره فصار يموت منهم فى كل يوم جماعة وعز عندهم وجود الاقوات من الغلال والعلف وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتبن وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب وقد تحوّن بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها وسارت خيول عسكره سائبة تأكل من ورق الاشجار وهى فى غاية الحصر وفيه حضر خدا بردى نائب الاسكندرية وخرج اليها نم الذى قرر بها وحضر الامير خاير بك المعمار الذى كان توجه الى ثغر رشيد بسبب عمارة السور والابراج التى هناك كما تقدم وفيه خلع السلطان على شخص من الاتراك يقال له ملباى المشرف وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن قانصوه الاشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات بن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدلغيا يبيع الجلود يقال له الدمراوى مكاسا على بيع الجلود فجار عليه ابن موسى فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتمى به فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك وقد شنع فيها فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره فلما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام وقال له يا كلب كم تظلم المسلمين فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد ان يهلك ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الامير علان الدوادار الكبير فلما حضر قال له ضعه فى الحديد واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بانه يؤذى المسلمين فلما طلع الامير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبى السعود أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقوه على باب زويلة فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبرطاق وهو فى الحديد ينادى عليه هذا جزاء من يؤذى المسلمين فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الامير علان الدوادار الذى بالناصرية فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تغريق ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله فعفا الشيخ عنه من القتل واستمر ابن موسى عند الامير علان وهو فى الحديد

حتى يكون من أمره ما يكون وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهلاك وقد قلت فى هذه الواقعة

تعجبوا مما جرى فى الوجود * بين ابن موسى كان وأبى السعود
تشاجر قد طال ما بينهم * واشتعلت نيرانه بالوقود
فصرح الشيخ بعزلانه * وأكد القول بأن لا يعود
ويغلب الله على أمره * ويرغم القاهر أنف الحسود
ليت شعرى ذا الهبوط الذى * نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ظهر غريمه شهاب الدين بن الصائغ وكان يسعى عليه فى أيام الغورى فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى انتدب الى مرافعته ابن الصائغ وقال أنا أثبت فى جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقواسة وجماعة كثيرة وكبس على نساء ابن موسى وقبض عليهن ونهب ما فى بيوتهن من قماش وأمتعة وقبض على عبيده وغلمانه وحاشيته فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان فيه من أذى ابن موسى ثم ان ابن موسى قال أنا أثبت فى جهة ابن الصائغ مائتى ألف دينار وقال للامير علان أرسل خلف ابن الصائغ وضعه فى الحديد حتى يعمل حسابه فلما حضر ابن الصائغ وضعه الامير علان فى الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى وأما ما كان من أمر الشيخ أبى السعود فانه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه النائرة والاشلة وأنكر عليه الناس والفقراء وقالوا ايش للشيخ شغل فى أمور السلطنة واشتقلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى وفى يوم الاحد رابع عشره طلعت الى القلعة خوند بنت الامير اقبردى الدوادار وهى زوجة السلطان وأمها بنت خاص بك أخت خوند زوجة الاشرف قايتباى فطلعت وقت صلاة الصبح بالفوانيس والمشاعل ومعها الجم الكثير من الخوندات والستات وأعيان نساء الامراء والمباشرين فاستمرت فى موكبها حتى طلعت الى القلعة ودخلت الى قاعة العواميد فحمل الامير بشير الطواشى رأس نوبة الستارة على رأسها القبة والطير حتى جلست على مرتبتها وكان لها يوم مشهود بالقلعة وفى يوم الاحد عرض الامير علان الدوادار ابن موسى وابن الصائغ وكان قرر على ابن موسى عشرين ألف دينار وأن يورد منها على الجامكية عشرة آلاف دينار فلم يورد منها شيأ فبطحه على الارض وضربه نحو عشرين عصا فوعد أنه يورد ذلك القدر ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة عصا حتى كاد أن يهلك وأشيع بين الناس موته وفى يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحمل من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان وأشيع أنه يرسل جماعة من عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة

الى الكعبة فلم يثبت ذلك ثم ان السلطان أرسل الطواشى مرهف من البحر المالح وصحبته كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل مكة المشرفة والمدينة فتوجه الى الطور ونزل من هنالك الى البحر وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد وأظهر أنه قد رضى عليه وصار يتصرف فى أمور المملكة من عزل وولاية فأنكر عليه الناس ذلك وفى يوم السبت عشريه طلع الزينى بركات بن موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظائفه فلم يلتفت اليه ونزل من عنده بغير طائل وهو فى التوكيل به حتى يغلق ما قرر عليه من المال فتوجه الى بيته وهو فى غاية الذل بعد ما زينت له حارته فى سويقة اللبن وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل عليهم خمدة بسبب ذلك وفى يوم الاحد حادى عشريه خلع السلطان على شرف الدين بن عوض وقرره فى استادارية الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها وفى يوم الاثنين ثانى عشريه نادى السلطان للعسكر بان يوم الثلاثاء أول النفقة وفيه وردت الاخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك وأنه قد وقع بين الرئيس سلمان العثمانى وبين الامير حسين نائب جدة وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند وفيه خلع السلطان على شخص من الاتراك يقال له قجماس وكان شادا فى بنها العسل وقرره فى كشوفية الشرقية وأبطل من كان قرر بها وفيه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة فأعطى لكل مملوك خمسين دينارا فردوها عليه وقالوا بق بق وخرجوا من باب الحوش على حمية وقصدوا أن ينشؤا فتنة فأشار بعض الامراء على السلطان بان يرضيهم وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جارى العادة فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك فأنفق فى ذلك اليوم على أربع طباق وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم فى غزة هو والامراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع وفيه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الاروام الذين كانوا فى خان الخليلى وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة وعندهم جواسيس لابن عثمان فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم فى الحديد وفيه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبى الصغير الذى يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذى توجه مع السلطان الغورى الى التجريدة فلما انكسر العسكر رجع مع الامراء الى مصر فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله فخاف عليه السلطان من القتل فطلع به الى القلعة وأسكنه فى مكان بالبحرة ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وجماعته وفيه حضر الى الابواب الشريفة الشريف يحيى ابن الاتابكى أزبك بن ططخ وكان مقيما بجماه

فلما ملكها ابن عثمان فرّ منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس وفيه خلع السلطان على الامير طقطباى حاجب الحجاب وجعله متحدثا فى كشوفية البحيرة عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الجوبية الكبرى وفى يوم الجمعة سادس عشريه حضر الى الابواب الشريفة القاضى عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد بن الجيعان وكان فى الاسر عند ابن عثمان بالشام ففرّ منه وحضر الى مصر وهو فى زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطى وهو تاجر فى الوراقين وأخبر السلطان بان ابن عثمان قد تلاشى أمره وان عساكره مختلفون عليه وان ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره فى الضياع وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها وصار بيده من الشام الى الفرات ونيب فى هذه المدن التى ملكها جماعة من أمرائه كما فعل فى حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد وقيل ان ابن الحنش أرسل الى السلطان مطالعة يستحثه فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عثمان الى غزة ثم ان السلطان خلع على القاضى عبد الكريم ونزل الى بيته وفى يوم الاثنين تاسع عشريه خلع السلطان على ابن خليفة سيدى أحمد البدوى الذى قتله ابن عثمان فى حلب وقرّره عوضا عن أبيه بحكم قتله فنزل من القلعة فى موكب حافل وعلى رأسه الاعلام وقدامه سائر الفقراء الاحمدية وفى ذى القعدة وكان مستهله يوم الثلاثاء جلس السلطان على الدكة بالحوش وخلع فى ذلك اليوم على الشرفى يحيى بن البردينى وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان وخلع على قاضى القضاة الحنفية حسام الدين محمود بن الشحنة وأقرّه فى قضاء الحنفية على عادته وخلع على الشيخ شمس الدين التتائى وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن القاضى محيى الدين الدميرى بحكم أسره عند ابن عثمان وخلع على قاضى القضاة عز الدين الششينى وأعاده الى قضاء الحنابلة عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان وهذه ثانى ولاية وقعت لعز الدين بن الششينى فلما خلع السلطان على القضاة الاربعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم التشاريف رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة فى غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان وفى ذلك اليوم اكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة وأخذوا فى أسباب عمل البرق والخروج الى غزة قيل ان السلطان أنفق على نحو ألفى مملوك وهم المعينون للسفر وفى يوم الجمعة رابعه طلع ملك الامراء جان بردى الغزالى نائب الشام الى القلعة فصلى مع السلطان صلاة الجمعة ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذى بالريدانية وخرج

من غير طلب بل قدامه بعض جنائب خيول بعراقى وطبول بازات وقدامه عبيد نفطية
فتوجه الى الريدانية فى ذلك اليوم قبل خروج الامراء والعسكر وفى يوم السبت خامسه
نادى السلطان للعساكر المعينة للتجريدة بان يخرجوا صحبة الباشا فى ذلك اليوم ومن
لا يخرج يستاهل ما يجرى عليه فوقف له جماعة من المماليك المعينة وقالوا لا نخرج ولا
نسافر حتى تنفق علينا ثمن جل سنة أشرفية وتصرف لنا العليق وثمن اللحم المنكسر فحصل
فى ذلك اليوم بعض اضطراب وخرج المجلس مانع والعسكر غير راض والاحوال غير صالحة
وابن عثمان زاحف الى غزة ونائب غزة أرسل يقول ادركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان
مدينة غزة وتتعبوا فى خلاص البلاد من يده وفى يوم الاحد سادسه خرج شخص من الامراء
المقدمى الالوف المعينين للسفر وصار فى كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شيأ فشيأ
والباشا جان بردى مقيما بالريدانية حتى يكمل خروج العسكر وفى يوم الاثنين سابعه أنفق
السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر فخص كل مملوك نحو أربعة
أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك وفى ذلك اليوم حضر شخصان من المماليك
السلطانية وكانا فى بعض الضياع عند العرب فدخلوا مصر فى هيئة الغلمان بابشات وعليهم
زنوط فأخبرا بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره وأن عساكره مختلف عليه وقد وقع بينه وبين
خاير بك نائب حلب وربما أشاعوا قتله ولم يكن لهذا الخبر صحة فى أمر ابن عثمان ولم تثبت
صحة هذه الاخبار وفى يوم الاربعاء تاسعه حضر دوادار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قد
فر من ابن عثمان وأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار
وقد أشرفوا على أخذ غزة بل أشاعوا أخذها وان نائب غزة قد هرب فاضطربت الاحوال
لهذه الاخبار وتنكد السلطان الى الغاية ونادى فى ذلك اليوم بالخروج من غير تأخير ومن
تأخر يستاهل ما يجرى عليه فلما كان فى ذلك اليوم خرجت العسكر على وجوههم
مسرعين وأشيع سفر السلطان بنفسه وصحبته الامراء قاطبة وأنه هو الذى يلاقى ابن
عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير وهو فى الحديد وجماعة من أجناد الحلقة بغزة
وهم فى الحديد وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بان يحضر الى غزة
ويملكها من غير مانع فلما حضروا بين يدى السلطان حلفوا له أن هذا الامر ما وقع
منهم ولا كاتبوا ابن عثمان وانما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس
فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة فصدقهم السلطان على ذلك وأرسل جان بردى الغزالى
نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه فى حقهم بالباطل ففكهم السلطان من الحديد
وأرسلهم الى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم وفى يوم الخميس خلع السلطان على الامير
يوسف البدرى الذى كان وزيرا وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال عوضا عن

الزينى بركات بن موسى وفى يوم الجمعة حادى عشره تزايد أمر الاشاعات بأن ابن عثمان أرسل الى غزة عسكرا صحبة جماعة من أمرائه منهم شخص يسمى اسكندر باشا والآخر يسمى داود باشا وآخرون من امرائه وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة وأحرقوا منها بعض بيوت وان نائب غزة هرب وعسكر ابن عثمان زاحف على مصر وان الاحوال غير صالحة فلما تحقق السلطان هذه الاخبار أشيع أنه يخرج إلى لقاء ابن عثمان بنفسه ونادى فى ذلك اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختف على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله والعرض لهم فى الميدان وان السلطان يصرف لهم الجوامك والمركوب ويكونون صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان فلم تعجب الناس هذه المناداة لقوله ولو كانوا قتلوا القتلى يظهروا وعليهم أمان الله وكان السكوت عن هذا أجمل فاضطربت الاحوال فى ذلك اليوم وارتجت القاهرة وخرج العسكر المعين للسفر على وجوههم مسرعين وفى ذلك اليوم خرج الامير خدابردى الاشرفى أحد المقدمين الذى كان نائب الاسكندرية فخرج فى موكب حفل بغير طلب وقدامه الجنائب الحربية وصحبته الجم الكثير من العسكر من مماليكه وقيل كان عنده ثلثمائة مملوك فارتفعت له الاصوات بالدعاء من الناس قاطبة والنصرة للعسكر على ابن عثمان وقد صارت الناس فى وجل بسبب ابن عثمان وفى يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على الدكة بالحوش وحضر الامراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الامير طقطباى حاجب الحجاب أنا عزمت على السفر الى البحيرة وكان السلطان قد جعله متحدثا فى كشوفية البحيرة فقالت الامراء الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نهب لك برك ولا قماش فتعلل أنه ضعيف فحصل بينه وبين الامراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه وقيل ان بعض المماليك لكمه وقاسى من البهدلة مالا خير فيه فتقرر الحال على انه يخرج الى التجريدة صحبة الامراء ومنع السلطان المماليك من نهب بيته وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة وفى ذلك اليوم خرج الامير نائب حماه الذى قرر عوضا عن جان بردى الغزالى فخرج بطلب حربى وفى ذلك اليوم خرج الامير ارزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا وكان قدامه جنائب وطبلان وعلى رأسه صنجق وصارت الامراء تخرج شيأ بعد شئ الى قتال ابن عثمان وفى يوم الاحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك وفى ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها

أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان واستحث بقية الامراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الامراء شيأ وقال لهم اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم ان خرجتم خرجت معكم وان قعدتم قعدت معكم وما عندى نفقة أنفقها عليكم وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعاده الى الترسيم بعدما كان ترشح أمره الى اعادته فى وظائفه وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل وادعى العجز فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ضيق على أصحاب المصادرات منهم ابن موسى ومحمد المهتار وجمال الدين بوّاب الدهيشة وآخرون ممن بقيت عليهم بواقى الاموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر ومن حين قرر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال وفيه خرج الامير قانصوه الفاجر أحد المقدمين ويتوجه الى السفر وفى يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الامير طقطباى حاجب الحجاب ويتوجه الى السفر فطلب طلبا وقدامه طبلان وزمران وبعض جنائب كما خرج ارزمك الناشف وفى يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقية العسكر ثم نادى فى ذلك اليوم بان الامراء وبقية العسكر يخرجون فى هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجرى عليه وقد خرج هذا العسكر فى قلب الشتاء فى وسط الاربعانية وقاسى غاية المشقة وفى هذا اليوم خرج الامير تانى بك النجمى أحد الامراء المقدمين بطلب حربى وفى يوم الخميس سابع عشره خرج الامير الماس والى القاهرة وبرز الى السفر فى ذلك اليوم وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع فوجدوه قد عمد الى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وعمل منه السنبوسك فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الامير ماماى المحتسب فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته فطافوا به فى المدينة ثم سجنوه فى المقشرة ولم تزل الاعجام تقع منهم هذه الفعلة الشنيعة من قبل وفى يوم الاثنين حادى عشريه وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطانية خرجوا يسيرون نحو المطرية فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحاج فلما قربوا منهم فاذا هم من جماعة ابن عثمان فقالوا لهم من أنتم قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان وكانوا نحو خمسة عشر انسانا وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الاتابكى سودون العجمى فلما قتل

وملك ابن عثمان حلب والشام تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ماجسر وا يجيئون من جهة غزة فان نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزة فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق الدرب السلطانى وطلعوا بهم من التيه وأتوا بهم الى عرود فما شعر بهم أهل مصر الا وهم فى وسط المدينة فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ووجدوا معهم ثلاثة من العربان فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اذ رأوا ثلاثة أنفار من الاروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا اليهم وسلموا عليهم وباسوا أيديهم فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا لهم من أين علمتم أن هذا القاصد يجىء اليوم حتى أتيتم اليه ما أنتم الا جواسيس من عند ابن عثمان فقبضوا عليهم بعد ما أشبعوهم ضربا وأتوا بالكل الى بيت الامير علان الدوادار الكبير فلما دخل القاصد بيت الامير علان قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الامير الدوادار فلم يوافق على ذلك وأغلظ عليهم فى القول ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار فلما رأى الدوادار الكبير ذلك رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه غصبا فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية وضربوهم ومسكوهم وعروهم من ثيابهم ووضعوهم فى الحديد بعد ما قاسوا غاية البهدلة من جماعة الدوادار فلما بلغ السلطان ذلك رسم للامير مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله السلطان الغورى الى ابن عثمان وحصل منه فى حقه غاية البهدلة فقال له السلطان انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك فأخذ خشداشينه وتوجه بهم الى بيت الامير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدلة أو يقتلونهم فما مكنهم الامير علان من ذلك ثم قبضوا على عبد البر بن محاسن الذى حضر صحبتهم فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمته فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل الى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر من جملتهم خليفة سيدى أحمد البدوى وآخرون من الاعيان ممن تخلفوا بحلب وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق الستين ألف انسان وأنه خطب باسمه من بغداد الى الشام وان معاملته ماشية من بغداد الى الشام وأنه لما دخل الى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون الى آخر مدينة دمشق وجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة وهو فى همة زائدة ويقول ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة وأخبر أن ابن عثمان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها فى هذه المدة يقتل عسكره خلقا فى المدينة ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق وأنهم لا يصومون شهر رمضان ويشربون فيه الخمر والبوزة ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر

رمضان

رمضان وان ابن عثمان لا يصلى صلاة الجمعة الا قليلا وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الاخبار الشنيعة من غير ابن محاسن ممن شاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان حنق منه السلطان وقال له أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة فسجن به أياما حتى طلع الاتابكى سودون الدوادارى وشفع فيه حتى أطلقه من البرج وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان ثم ان السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخفية عليهم وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا فاختفوا فى القاهرة فلما بلغ السلطان ذلك نادى فى خان الخليلى بأن لا أحد يأوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان ومن غمز عليه بأن عنده أحد من العثمانية شنق من غير معاودة ثم ان السلطان أرسل أخذ المطالعات التى حضرت على يد القاصد ولم يقابله فوجدوا معه عدة مطالعات للامراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية فالذى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألفاظها تركية وكان من مضمونها من مقامه السعيد الى الامير طومان باى أما بعد فان الله قد أوحى الىّ بأنى أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر ذو القرنين ومن جملة المطالعة وعد ووعيد وتهديد وتشديد فمن جملة ذلك أنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية وأنا ملك بن ملك الى عشرين جدا وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط ثم ذكر فى أثناء المطالعة وان أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائبنا بمصر ولك من غزة الى مصر ولنا من الشام الى الفرات وان لم تدخل تحت طاعتنا أدخل الى مصر وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الاجنة التى فى بطونهن من الجراكسة وأظهر التعاظم وقوة الباس ولعل الله تعالى أن يخذله بسبب هذا التعاظم الزائد وفى آخر مطالعته وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فلما قرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنه اذا طلع القاصد الى القلعة يقطعونه بالسيوف فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك وفيه أشيع بين الناس ما فى مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره ثم اضطربت أحوال الديار المصرية وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان وقالوا مثل ما طرقنا قصاده على حين غفلة كذلك هو يطرقنا أيضا على حين غفلة فشرع الناس فى تحصين أماكن فى أطراف المدينة وجوانبها ليختفوا فيها اذا دخل ابن عثمان الى مصر وبعض الناس عوّل على أن ينزل هو وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصعيد اذا تحقق مجىء ابن عثمان وأشيع أن خاير بك نائب حلب الذى عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان

أرسل مطالعات الى بعض الامراء المقدمين وهو يرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان وشرع يطنب فى محاسنه وعدله بين الرعية وانه اذا دخل مصر يبقى كل أحد من الامراء على وظيفته وعلى رزقه وكل هذا حيل وخداع حتى يتمكن من الدخول الى مصر ثم ان السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة يوم الاربعاء ثالث عشرى الشهر فجلس السلطان بالحوش على الدكة وطلع العسكر لقبض النفقة فلما طلعوا أنفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا فرموا تلك النفقة فى وجهه وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك فانا لم يبق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح فنزلوا كلهم من القلعة على حمية وهم على غير رضا فخنق منهم السلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد وقال ما أقدر على مائة دينارا لكل مملوك والخزائن فارغة من المال وان لم ترضوا بذلك فولوا عليكم من تختارونه فى السلطنة وأنا أتوجه الى مكة أو غيرها من البلاد فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان ان كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك وان رحت لعنة الله عليك غيرك يجى يعمل سلطانا فسمع ذلك باذنه منهم وأشيع أن السلطان قال للعسكر أنتم أخذتم من السلطان الغورى ثلاثين دينارا ولم تقاتلوا شيأ وكسرتم السلطان وخنتموه حتى قتل فنزل العسكر على غير رضا وأشيع اثارة فتنة بين العسكر ثم انه فى ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الامراء من الاكابر والاصاغر يطلعون غدا بكرة النهار فان العرض عام وانفض المجلس على ذلك فلما كان يوم الخميس رابع عشريه جلس السلطان على الدكة بالحوش وطلع الامراء قاطبة والعسكر وطلع سيدى محمد ابن السلطان الغورى فقال السلطان هذا ابن أستاذكم قد حضر اسألوه ان كان أبوه ترك فى الخزائن شيأ من المال يخبركم بذلك وان كنتم تسلطنونه فانا أول من يبوس له الارض فقالت المماليك الجلبان نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بثار أستاذنا وقالت المماليك القرانصة نحن ما نسافر حتى نأخذ مائة وثلاثين دينارا كما أعطى من سافر قبلنا فانفض المجلس مانعا أيضا وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم وأشيع أن بعض الامراء قال للسلطان اعمل كما عمل الاشرف قايتباى والسلطان الغورى وخذ من الاملاك والاوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر فلم يوافق السلطان على ذلك وقال ما أحدث فى أيامى مظلمة أبدا فشكره الناس على ذلك ودعوا له ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لاجل دفع العدو وما ثم فى الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى الى فعل الخير وسطر أجر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة فكان كما قيل فى المعنى

للخير أهل لا ترا * ك لوجوهه تدعو اليه

طوبى لمن جرت الامو * ر الصالحات على يديه

وفى هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل يقول لأولاد الملك المؤيد وأولاد الملك المنصور وأولاد الامراء الذين بمصر اعملوا بر قكم واخرجوا للسفر والذى لا يسافر منكم يقيم له بديلا عوضا عنه للسفر وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام من الطواشية مالا له صورة مساعدة للسلطان على النفقة وشرع السلطان فى بيع قماش وسلاح وتحف وذخائر وصوف وسمور وبعلبكى وغير ذلك من الاصناف وأخذ من ابن السلطان الغورى مالا له صورة مساعدة على النفقة وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض الخاصكية الى الاتابكى قيت الرحبى لينقله من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط وأرسل مراسيم شريفة الى الظاهر قانصوه الذى بثغر الاسكندرية ان يسكن فى قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس فى الجامع وأن يسير نحو البساتين التى بالاسكندرية وفى يوم الجمعة خامس عشريه خرج الامير خاربك المعمار أحد الامراء المقدمين والامير أزبك المكحل فخرجا فى ذلك اليوم الى التجريدة وطلبا أطلابا حربية وفى يوم السبت سادس عشريه طلع العسكر بسبب العرض ولم يطلع فى ذلك اليوم أحد من الامراء المقدمين واحتجب السلطان فى الدهيشة ولم يخرج الى العسكر فنزلوا الى بيوتهم من غير طائل وفى هذا اليوم نادى السلطان بان لا أحد من الناس يتجاهر بالمعاصى ولا يهودى ولا نصرانى يبيع خمرا ومن شهر عليه بيع الخمر شنق من غير معاودة وكذلك البوزه والحشيش فلم يسمع له أحد ذلك ولم ينتهوا عما هم فيه وفى ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم الخميس طلع القضاة الذين تولوا جديدا فى الشهر الماضى وهنوا السلطان بالشهر ونزلوا الى بيوتهم وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بان أول النفقة يوم السبت ثالث الشهر وقد اتفق مع العسكر على أنه ينفق لكل مملوك خمسين دينارا ويصرف ثمن اللحم المنكسر خمسة أشهر والعليق المنكسر فتراضوا وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية نحو عشرة أنفس منهم شخص يقال له خاربك البجمقدار وهو من خيار مماليك الاشرف قايتباى وفيه أشيع ان السلطان خرج عن ألف دينار فرقها على الفقراء الذين فى الزوايا وفى المزارات التى بالقرافة وغيرها من المزارات وفرق عليهم أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أرادب وقال لهم ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو وقرأ عدة ختمات فى المزارات منها عند الامام الشافعى والامام الليث وغير ذلك من المزارات وفيه استحث السلطان أولاد السلاطين وأولاد الامراء والمباشرين والخدام فيما قرره عليهم من المال بسبب النفقة وأشيع أنه أخذ من ابن السلطان الغورى مالا له صورة وقيل ان السلطان الغورى كان قد خصص ولده قبل أن يسافر الى البلاد الشامية بمائة ألف دينار هكذا أشيع وفى يوم السبت ثالثه طلع العسكر الى القلعة ليقبضوا النفقة كما نادى فورد على السلطان فى

ذلك اليوم أخبار رديه بان العسكر الذين توجهوا الى غزة قد انكسروا فى يوم الاحد رابع عشرى ذى القعدة ومن العجائب أن الواقعة الاولى التى انكسر فيها السلطان الغورى كانت يوم الاحد خامس عشرى رجب فكان التفاوت بينها وبين هذه الواقعة يوم واحد وهذا من العجائب وهذه الكسرة الثانية كانت يوم الاحد وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة أن جان بردى الغزالى نائب الشام خرج الى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام وصار الامراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد فلما أبطؤا على الغزالى جمع بعض عربان وتقدم الى غزة هو والامير ارزمك الناشف أحد المقدمين الذى ولى نيابة حماه ودولات باى نائب غزة وأصله من مماليك السلطان الغورى وجماعة من المماليك السلطانية فقاطعوا على عسكر ابن عثمان من طريق الدرب السلطانى فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه اخرون من أمرائه ومن العساكر العثمانية الجم الكثير وكان جان بردى الغزالى ومن معه من الامراء فى فئة قليلة من العسكر فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصى وكان ذلك بالقرب من بيسان فانكسر الامير جان بردى الغزالى ومن معه من العساكر والامراء وقتل الامير خدابردى أحد الامراء المقدمين وقتل الامير على باى السيفى وازدمر الدوادار أحد الامراء الطبلخانات وأشيع موت جماعة من الامراء ولكن لم أقف على صحة من قتل من الاعيان فى هذه المعركة وأشيع أن الامير جان بردى الغزالى قد جرح والامير ارزمك الناشف أيضا وقتل من المماليك السلطانية جماعة ومن الغلمان مالا يحصى عددهم وقد حزت رؤسهم بالسيوف وقيل ان هذا الخبر ورد من عند الامير طقطباى حاجب الحجاب وكان من حين خرج الى السفر وهو مقيم بالصالحية فورد عليه بعض المماليك السلطانية وأخبره بذلك فطالع السلطان بما قد جرى من أمر هذه الحركة المهولة وأشيع أن عسكر ابن عثمان قد احتوى على برك الغزالى وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة فلم يتركوا لهما بركا ولا خيولا ولا جمالا ولا سلاحا وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة الثانية ولم ينج من عسكر مصر فى هذه المعركة الا من طال عمره وقيل ان مماليك الغورى هم الذين أحسوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية ولما تزايدت الاقوال فى ذلك عين الامير سنبل مقدم المماليك بان يتوجه الى الصالحية ليكشف الاخبار فخرج من يومه وسافر وفى يوم الاحد رابعه وقعت حادثة مهولة وهى أن السلطان نزل الى الميدان واجتمع الامراء والعسكر فلم يشعروا الا وقد قامت ضجة كبيرة فى الرميلة وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى الريدانية فقال السلطان للعسكر كم نقل لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون تسافرون فاخرجوا ولاقوا ابن عثمان فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ورجت القاهرة رجا مهولا ووزع الناس قماشهم فى الاماكن المخفية

فلما

فلما اضطربت الاحوال ركب العسكر وتوجهوا الى الريدانية فلم يرواهناك أحدا من العثمانية فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة وعوّل الناس على أن يختفوا فى فساقى الموتى ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعة من العربان نزلوا من الجبل وأتوا الى الريدانية فأشاع الذى رآهم من بعد أنهم من العثمانية فانتشرت هذه الاخبار فى القاهرة من غير سبب وفى هذا اليوم أفرج السلطان عن الامير قانصوه الاشرفى الذى كان نائب حلب وسلم القلعة الى ابن عثمان من غير قتال ولا محاصرة فتغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة فاقام به مدة ثم أفرج عنه فى ذلك اليوم وفى يوم الاثنين خامسه دخل الامراء والعسكر الذين توجهوا الى غزة وانكسروا من عسكر ابن عثمان فدخل جان بردى الغزالى وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشراوات ودخل العسكر وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل أنحس من المرة الاولى فدخل بعض المماليك السلطانية وهم راكبون على حمير وبعضهم على جمال وقد نهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم ولم يسلم من القتل الا من كان فى أجله مدة وذكروا عن ابن عثمان انه مع عسكره رماحا بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الارض وذكر جان بردى انهم رموه على الارض ولولا غلمانه قاتلوا عنه العثمانية لكانوا حزوا رأسه مثل الامير خدابردى الذى قتل وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر لا يحصى عددهم وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها ابقار وجاموس فى أول العسكر وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط وحضر الامير دولات باى نائب غزة الذى كان بها وحضر أيضا الامير بخشباى الذى كان مشد الشون أخو الامير كرتباى الذى كان والى القاهرة وكان أشيع موته فى الواقعة التى وقعت فى مرج دابق فظهر أنه فى قيد الحياة وكان مختفيا عند العرب فحضر فى ذلك اليوم وحضر أيضا شخص من الامراء العشراوات يقال له قرقماس الرجبى وكان أشيع موته فى الواقعة التى كانت فى مرج دابق فظهر أنه فى قيد الحياة وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موتهم فظهر أنهم فى قيد الحياة فلما طلع الامير جان بردى الغزالى والامير أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان سلاريات بسمور ونزلا الى منزلهما وقد فرح كل واحد من الناس بسلامتهما لانهما فرسان الاسلام فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما فلما حضر الغزالى ومن معه من الامراء والعسكر ظهر أمر من قتل من الامراء العشراوات والعسكر والغلمان فصار فى كل حارة نعى مثل أيام الفصول وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بان أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الى القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر فأعطى لكل مملوك خمسة وعشرين دينارا وأعطاهم ثمن الاضحية على العادة وكان أولا سألهم بان يعطيهم ثلاثين دينارا لكل مملوك فابوا ذلك فلما رأوا عين الجد وأن ابن عثمان زاحف

على البلاد وقد وصل الى قطيا رضوا بخمسة وعشرين دينارا نفقه ونزلوا من القلعة وأخذوا فى أسباب آلة السفر وفيه ورد على السلطان أخبار ردية بان سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذى ملك مدينة غزة قد لعب فى أهل غزة بالسيف وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار وكان سبب ذلك أن الغز الى لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة أشيع فى غزة أن الغز الى قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان فبادر على باى دوادار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم وقتلوا من كان فى الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ومن كان بها مريضا وأحرقوا الخيام التى كانت فى وطاقهم فلما ظهر ان الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الامراء رجع سنان باشا الى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم من فعل ذلك بنا قالوا على باى دوادار نائب غزة وأجناد غزة ولم نفعل نحن شيأ من ذلك فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم فقال لهم سنان باشا نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيأ قالوا لا فقال لهم كيف فعلتم بعسكرنا ذلك فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح وكان ذلك فى الكتاب مسطورا وقد قيل فى المعنى

ان ترمك الاقدار فى أزمة * أوجبها أجرامك السالفه
فادع الى ربك فى كشفها * ليس لها من دونه كاشفه

وفى يوم الاربعاء سابعه حضر الى الابواب الشريفة جماعة من طوائف العربان من غزالة ومحارب ومن عربان هوارة وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم حتى يتوجهوا صحبة التجريده مع العسكر فلما حضروا نزلوا بالجيزة واجتمع بها الجم الكثير من العربان ثم دخلوا الى الرميلة ونزلوا بها حتى يعرضهم السلطان بالميدان وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التى وقعت للعسكر وتملك ابن عثمان البلاد الشامية وثبت عند الناس أن دولة الجراكسة قد آلت الى الانقراض وأن ابن عثمان هو الذى يملك البلاد وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب أستاذهم يقولون ما نقدر نعطى خراجا حتى يتبين لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان فنبقى نورد الخراج مرتين وقد اضطربت الاحوال براو بحرا والامر الى الله تعالى وفى ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان وقد تقدم ذكر ذلك فأشيع أنهم أغرقوه ومن معه من العثمانية تحت الليل هكذا أشيع وفيه ابتدأ السلطان بتفرقة الاضحية على العسكر ولم يعط

المماليك الذين كانوا صحبة الغزالى وانكسروا فقال لهم السلطان أنتم هربتم ولم تقاتلوا شيأ وخنتم الامراء حتى انكسروا وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان قد وصل الى قطيا وقد تملكوا القلعة التى بالطينة وهرب من كان بها من أولاد الناس القاطنين بها وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج السلطان وصلى صلاة العيد وطلع الامراء بالشاش والقماش على جارى العادة وكان موكب العيد حافلا لكن كان الناس فى غاية الوجل والخوف من ابن عثمان وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره وصل الى قطيا ولاسيما ما بلغ الناس مما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبى النساء وقتل الاطفال كما أشيع ذلك وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية عربة وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة ومحملة أيضا بارود ورصاص وحديد ورماح خشب وغير ذلك وقدام العجلات أربع طبول وأربع زمور وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان ما بين تركمان ومغاربة وبأيديهم صناجق بعلبكى أبيض وكندكى أحمر وهم يقولون الله ينصر السلطان وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات وركب قدامها الامير مغلباى الزردكاش الكبير ويوسف الزردكاش الثانى وجماعة من الزردكاشية وعبد الباسط ناظر الزردخاناه والشهابى أحمد بن الطولونى وقدامهم الجم الكثير من النجارين والحدادين الذى تعينوا للسفر مع التجريدة فخرجوا من باب الميدان الى الرميلة ونزلوا من جهة القبور وشقوا من البساطين ودخلوا من باب زويلة وشقوا من القاهرة فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة وكان يوما مشهودا وارتفعت الاصوات له بالدعاء بالنصر على ابن عثمان الباغى وتباكى الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه واستمروا واقفين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الريدانية عند تربة العادل التى هناك وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة الازدحام فلما وصلت العجلات الى تربة العادل صفوهم هناك الى أن تخرج الامراء فكان ذلك اليوم من الايام المشهودة فى الفرجة وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره أشيع أن بعض الناس شفع فى المماليك الذين حضروا من غزة ولم يصرف لهم السلطان الاضحية فصرفها لهم فى ذلك اليوم بعد ما وبخهم بالكلام وقال لهم كيف

هربتم حتى كسرتم الامراء ولم تقاتلوا وبقى وجهكم أسود بين الناس وفى يوم الاربعاء رابع عشره حضر الى الابواب الشريفة الناصرى محمد بن شمس الدين القوصونى رئيس الطب وكان فى حلب أسيرا عند ابن عثمان فهرب من هنالك مع العربان وغرم لهم مالا له صورة حتى أتوا به الى مصر فطلع وقابل السلطان فى ذلك اليوم وقد غير هيئته وحلق ذقنه وتزيا بزى العرب حتى تخلص من جماعة ابن عثمان وأخبر السلطان أنه قد بلغه عن ابن عثمان أن عسكره مختلف عليه وانه مات له من الجمال والخيول مالا يحصى عدده من الثلج الذى وقع بالشام وان الغلاء هنالك وأن عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الخيول وأشيع فى ذلك اليوم أن عسكر ابن عثمان كان فى غزة ورحل عنها وقد صارت العربان تقتل منهم جماعة كثيرة ممن يجدونه فى الضياع فيقتلونهم ويهربون فى الجبال وفى يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر لقبض الجامكية فقال لهم الطواشية يا أغوات ما فى هذا اليوم جامكية البلاد خراب والعرب مشتتة فى الطرقات والمدركون ومشايخ العربان ما أرسلوا من التقاسيط التى عليهم شيأ فان حصل شئ على يوم الاثنين ينفق لكم فنزل العسكر من القلعة وهم فى غاية النكد فان لهم ستة أشهر لم يصرف لهم السلطان من اللحم المنكسر شيأ وقد تعطلت الجوامك أيضا وفى ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجله أحد الامراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وقرره كاشف الشرقية عوضا عن جمماس الذى كان بها فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية وخلع على الماس كاشف الغربية بان يستمر على عادته فى كشف الغربية وخلع على الامير ابرك الوزير والاستادار باستمراره على عادته وكان أشيع عزله وقد صارت أحوال الديار المصرية فى هذا الايام فى غاية الاضطراب من وجوه شتى وفى يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة ثم خلع على الاتابكى سودون الدوادارى وقرره بأمير العسكر على التجريدة وفيه حضر الامير طقطباى حاجب الحجاب وكان قد توجه صحبة التجريدة المعينة الى غزة فاظهر أنه مريض وأقام بالصالحية فلما انكسر جان بردى الغزالى ورجع الى مصر أقامت بقية الامراء فى الصالحية الى أن تخرج التجريدة التى تعينت ثانيا فلما حضر الامير طقطباى دون الامراء الذين هنالك عزذلك على الامراء والعسكر ونسبوه الى العجز وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة وفيه أشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان الذين حضروا بان يرجعوا الى بلادهم وقد أشار بعض الامراء على السلطان ان العربان ليس لهم فائدة فى خروجهم مع التجريدة فرسم لهم بالعود الى بلادهم وفى يوم الاحد ثامن عشره ورد على السلطان أخبار ردية بان ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره وهو قاصد مصر وقد أشيع انه قسم عسكره فرقتين فرقة تجى عمن الدرب السلطانى وفرقة تجى عمن التيه وفى أثناء هذا الشهر خلع السلطان

على

على الامير اينال خازندار الامير طرابای أحد الامراء العشراوات وقرره فى نيابة دمياط عوضا
عمن كان بها فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم أرسل أحضر الامراء وضربوا مشورة فى
ذلك وأشيع أن السلطان يخرج الى الريدانية ويقيم بها ويقسم العسكر فرقتين فرقة
تتوجه الى ناحية عجرود والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذى جاء منه القاصد الذى تقدم
ذكره وكانت الامراء عوّلوا على خروج التجريدة من أوّل السنة الجديدة فلما وردت
عليهم هذه الاخبار اضطربت أحوالهم ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم فى الريدانية
بسرعة ويكونوا على يقظة فان ابن عثمان قد وصل الى غزة وقيل انه توجه يزور بيت
المقدس ثم يمشى بعساكره الى مصر وقد كثر القال والقيل فى ذلك واضطربت أحوال الناس
قاطبة الى أين يذهبون حتى تنقضى هذه الفتنة وفى ذلك اليوم رسم السلطان
لنقيب الجيش بأن يدور على الامراء المقدمين ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية فى هذا
اليوم فخرجت خيام جماعة من الامراء فى ذلك اليوم الى الريدانية وفى هذا اليوم نادى
السلطان بان جميع المغاربة الذين فى مصر والقاهرة يحضرون غدا للعرض وفى يوم الاثنين
تاسع عشره جلس السلطان على الدكة فى الحوش وطلع الجم الكثير من المغاربة فلما
طلعوا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل اليهم الامير شادبك الاعور فقال لهم
السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة
فارسلوا يقولون للسلطان نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل الا الافرنج
وما نقاتل مسلمين وأظهروا التعصب لابن عثمان فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله
المغاربة غزعلى السلطان ذلك وأرسل يقول لهم ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان والا
فالمماليك الجلبان يقتلون كل مغربى فى مصر حتى لا يخلوا فيها مغربيا يلوح فنزلوا من القلعة
على غير رضا من السلطان وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر
يقول له فيه ادخل تحت طاعتنا ولك الامان ولا قينا من الصالحية وصحبتك ألف اردب
شعير وأشيع أن عبد الدائم أحمد بن بقر الذى كان عاصيا توجه الى ابن عثمان لغزة
والاشاعات فى اخبار ابن عثمان كثيرة وفى يوم الاثنين المقدم ذكره نادى السلطان للعسكر
قاطبة من كبير وصغير بان يعرضوا غدا فى الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح
ثم ان السلطان نزل الى الميدان وصلى صلاة العصر وركب من هناك وتوجه الى الريدانية
وبات بها فى الوطاق وهذا أوّل نزوله من حين ولى السلطنة وفى يوم الثلاثاء عشريه لبس
العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريدانية بحضرة السلطان وفى ذلك اليوم صارت
الامراء المقدمون يخرجون الى الريدانية وهم الامراء الذين تعينوا للتجريدة وصاروا يخرجون
شيأ بعد شئ وهم باطلاب حربية ومماليكهم لابسة آلة الحرب وهم على جرائد الخيل ثم خرج

الاتابكى سودون الدوادارى وجان بردى الغزالى نائب الشام واركماس أمير سلاح وبخشباى أمير مجلس وانسباى أمير اخور كبير وتمر رأس نوبة النوب وعلان الدوادار الكبير وطقطباى حاجب الحجاب وقيل بل عفى من السفر بسبب ضعفه ولكن الاصح سفره وخرجت بقية الامراء المقدمى الالوف قاطبة والامراء الطبلخانات والعشراوات قاطبة وعساكر مصر ولم يبق بها من الامراء والعسكر الا القليل وهذه التجريدة أكثر عسكرا من التجريدة التى خرجت مع السلطان الغورى وكان هذا السلطان له عزم شديد فى عمل هذه المجلات وسبك المكاحل وعمل البندق الرصاص وجمع من الرماة ما لا يحصى وكانت له همة عالية ومقصد جميل ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان وكان ابن عثمان باغيا على عسكر مصر وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير سبب والباغى له مصرع وفيه أشيع أن السلطان رسم بان الافيال الكبار يخرجون صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان بعد ثلاثة أيام وفى ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان من الوطاق وتوجه الى المصطبة التى بالريدانية التى تسمى المطعم فجلس بها واجتمع الجم الكثير وهم لابسون آلة السلاح وقد سدوا الفضاء واجتمع هناك السواد الاعظم من العوام حتى النساء وقد أطلقوا الزغاريت هناك وارتفعت الاصوات بالدعاء للسلطان بالنصر وكان هناك يوم مشهود فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم باستدعاء هناك بل نادى بان جميع العسكر المنصور من كبير وصغير لا يتأخر منهم أحد وان العرض فى الصالحية وان السلطان لا يتوجه الى الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم يعود الى القلعة وكان ذلك عين الصواب وفى يوم الاربعاء حادى عشريه استمر السلطان مقيما بالريدانية وخرج فى ذلك اليوم بقية العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا حجة والسلطان يستحثهم فى سرعة الخروج ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم بك وهو الصبى الذى من أولاد ابن عثمان وقد تقدم ذكره فجعل له السلطان بركا وسنجاعا على انفراده ورسم له بان يسافر صحبة العسكر ويقف وقت الحرب تحت الصنجق السلطانى وأشيع ان سليم شاه فى قلبه الواجس من هذا الصبى وقيل ان غالب عسكره مائل الى هذا الصبى ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا ابن أستاذنا هذا نسلطنه عوضا عن سليم شاه وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس أرسل الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود فدخلت تلك المراكب الى ثغر دمياط وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك وهذه عونة من صاحب رودس الى سلطان مصر حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر فلم يظهر لاشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة وانما هى اشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها ولما خرج السلطان الى الريدانية أشيع أنه يتوجه من هناك الى الصالحية ليلاقى عسكر ابن عثمان فمنعه الامراء من

التوجه

التوجه الى الصالحية وقالوا ما يقع بيننا وبينه قتال الا فى الريدانية ثم ان التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من الدكاكين التى فى الاسواق ويدخلونها فى الاماكن المنسية حتى تسلم وما سلم منها شئ وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ونقل أعيان الناس قماشهم الى الترب والى المدارس والزوايا والمزارات والى بيوت العوام التى فى الرباع لعله يسلم وما سلم منه شئ كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه وفى آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد ابن الامير اسنبغا الطيارى رأس نوبة النوب كان وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء وكان حشما رئيسا لا بأس به ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة وكان من المعمرين فى الارض وفى يوم الخميس ثانى عشريه وردت الاخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة وان أوائل عسكره قد وصل الى العريش وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الى الجبل الاحمر والى آخر غيطان المطرية ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ووصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك ثم ان السلطان رسم للامير ماماى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقة وأرباب البضائع من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل وينشؤا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد فنادت المشاعلية فى الحارات والازقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق وكل من تأخر منهم شنق على باب منزله من غير معاودة وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين فانه قد بلغ السلطان ان جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق فى باكر النهار حتى ينتظرهم السلطان ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا فى الوطاق كل ليلة وفى يوم الجمعة ثالث عشريه وردت الاخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا فاضطربت أحوال الناس لذلك وفى يوم السبت رابع عشريه عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق فاجتمع منهم الجم الكثير فوعدهم السلطان انهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس ورسم للامير انسباى أمير اخور بان يصلح بين زعر الصليبة وزعر المدينة وفى ذلك اليوم أشيع ان السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية وأشيع ان السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين فلما رأى العسكر ان السلطان حمل الحجارة بنفسه صارت المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق وعمل الحائط التى تستر المكاحل ثم وردت الاخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى

بلبيس وفي يوم الاحد خامس عشريه حضر الامير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان اذ كانوا قد وصلوا الى هنالك أى الى القرب من الصالحية فلما وصل الامير قانصوه الصالحية رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد وصلوا الى هنالك فقبض على شخصين منهم وحز رؤسهما وأحضرهما بين يدى السلطان وكان صحبة تلك الرؤس شخص من أبناء حلب من جماعة خاير بك نائب حلب الذى خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان فلما وقف بين يدى السلطان طومان باى أخبره أن الواصل اليك خاير بك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان وان هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع وان الغلا موجود فى عسكره ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبى عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الامراء المقدمين الذين بمصر فأخذ السلطان المطالعات التى كانت معه ووضع ذلك الرجل الحلبى فى الحديد وأشيع ان عسكر ابن عثمان لما دخل بلبيس نادى لاهل بلبيس بالامان والاطمئنان وان لا أحد من العساكر العثمانية يشوش على أحد من أهل بلبيس ولا الفلاحين قاطبة ثم أشيع ان عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشة فلما تحقق السلطان ذلك أراد ان يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هنالك فلم تمكنه الامراء من ذلك ولولا قاهم من هنالك كان عين الصواب فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الى الخانكاه ويجدوا العليق والمأكل والمشرب والراحة من التعب فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هنالك حتى تمكنوا من الدخول الى الخانكاه ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة قدام الوطاق وهم على ظهور خيولهم لابسين آلة الحرب ولا ينامون الا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية وقد اشتد الرعب فى قلوب الجراكسة من عسكر ابن عثمان فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ودخلوا الى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان وكذلك غالب فلاحى الشرقية وأهل بلبيس قد دخلوا الى القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية ثم ان العربان من السوالمة صاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العثمانية ويقطعون رؤسهم ويحضرونها بين يدى السلطان فرسم السلطان بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة ثم ان السلطان عرض العسكر بالريدانية وهم لابسون آلة الحرب حتى عرض الامراء المقدمين والعشراوات فحضرت الامراء المقدمون وهم بالطبول والزمور وكان لهم يوم مشهود بالريدانية ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الامراء والعسكر

قاطبة فسيرهم ثم رجع الى الوطاق وقدامه الطبول والزمور والنفوط فامتدت العساكر من الجبل الاحمر الى غيطان المطرية حتى سدّت الفضاء وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بلبيس رسم بحرق الشون التى فى بلبيس وما حولها حتى الشون التى فى الخانكاه فأحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفول وذلك لاجل عسكر ابن عثمان حتى لا ينهبوها بسبب خيولهم فيقوى بذلك العسكر على القتال وفى هذه المدة صارت العربان تقطع رؤس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات فيرسل السلطان يعلق تلك الرؤس على أبواب المدينة ومن الحوادث فى هذه السنة أنه أشيع ان السلطان كان جالسا فى الخيمة واذا بشخص من التركمان قد دخل عليه وهو لابس زنطا أحمر وفى وسطه مخمق وتركاش وقد ضرب على وجهه اثاما وكان السلطان فى نفر قليل من الخاصكية فلما هجم ذلك الشخص على السلطان وقرب منه دفعه بعض الطواشية الذين كانوا واقفين بين يدى السلطان فلما مس صدر ذلك الشخص وجد فى صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه فاذا ذلك الشخص امرأة من نساء التراكمة فتوهم السلطان انها تقصد قتله فقال أخرجوها من قدامى فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة زردية من تحت ثيابها وهى متحملة بخنجر كبير من تحت ثيابها فلما عاينها المماليك الجلبان على تلك الحالة ضربوها بالسيوف وقد تحققوا أنها هجمت على السلطان تريد قتله لا محالة فلما قتلوها رسم السلطان بأن يعلقوها على باب النصر فأوتوا بها وهى عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانية الى باب النصر حتى علقوها هناك على مكان تجاه باب النصر واستمرت معلقة هناك يومين عريانة وعورتها مكشوفة بين الناس ثم دفنت ثم ان السلطان أرسل مع دوادار الوالى رأسين مقطوعين فزعموا أن أحدهما رأس ابراهيم السمرقندى والاخرى رأس أمير من أمراء ابن عثمان فعلقوهما على دكان عند باب زويلة وقد تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندى وأضافه وبات عنده وكان السمرقندى أتى صحبة ابن عثمان فلما بات تلك الليلة عند البدوى حز رأسه تحت الليل فلما طلع النهار أحضرها بين يدى السلطان طومان باى وقال له الذى يأتيك برأس ابراهيم السمرقندى ايش تعطيه فقال له السلطان أعطيه ألف دينار فأخرج رأس السمرقندى من تحت برنسه وقال له هذه رأس ابراهيم السمرقندى فلما تحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوى ألف دينار وكان ابراهيم السمرقندى أصله من المدينة الشريفة وطاف من بلاد العجم الى بلاد الروم وكان يعرف اللغة التركية فلما دخل الى مصر تحشر فى السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه وقيل هو الذى حسن لابن عثمان أن يدخل مصر ويملكها ويقطع جادرة

الجراكسة من مصر وأطمعه فى ذلك حتى دخل مصر وكان السمر قندى من الظلمة الكبار ولو عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لاهلها منه خير قط وكان يرافع فى أعيان مصر أشد المرافعة فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفاهم شره وفى يوم الاربعاء ثامن عشرى ذى الحجة وردت الاخبار بأن چاليش عسكر ابن عثمان قد نزل ببركة الحاج فاضطربت أحوال عسكر مصر واغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغير ذلك من أبواب المدينة وغلقت الاسواق التى بالقاهرة وتعطلت الطواحين وتشحط الدقيق والخبز من الاسواق ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان الى بركة الحاج زعق النفير بالوطاق فركب العسكر قاطبة وركب سائر الامراء المقدمين والامراء الطبلخانات والعشراوات وركب قاسم بك ابن عثمان فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الامراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ودقت الطبول والزمور حربيا وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه وهو يرتب الامراء على قدر منازلهم وصف العسكر من الجبل الاحمر الى غيط المطرية فاجتمع هناك الجم الكثير من العسكر وكان السلطان طومان باى له همة عالية ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ولم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ولم يبرز كل منهما الى غريمه فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رؤس من العثمانية وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الالباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب وماذاك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع وصف هناك طوارق وصنع عليها تساتير من خشب وحفر خندقا من الجبل الاحمر الى غيط المطرية وقد تقدم القول على ذلك ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل جمل وعليها زكائب فيها عليق وعلى أفتابها صناجق بيض وحمر تخفق فى الهواء وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان أو أن الحصار يبقى مدة طويلة فجاء الامر بخلاف ذلك فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام بها يومين فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم ولو توجه وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الاحمر فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان فركب الامراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا وركب العسكر قاطبة حتى سدوا

الفضاء

الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الاعظم فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية فكان بين الفريقين واقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق فقتل من العثمانية مالا يحصى عددهم وقتل سنان باشا لا ابن عثمان وكان أكبر وزرائه وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة حتى صارت الجثث مرمية على الارض من سيدل علان الى تربة الامير يشبك الدوادار ثم ان العثمانية تحايلوا وجاؤا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ثم انقسموا فرقتين فرقة جاءت من تحت الجبل الاحمر وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر مالا يعلمه الا الله تعالى وقتل من الامراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أزبك المكحل وجرح الاتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا وقيل انكسر فخذه فاختفى فى غيط هناك وجرح الأمير علان الدوادار فلم تكن الاساعة يسيرة مقدار خمس عشرة درجة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ورأى العسكر قد ذهب من حوله خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى وولى واختفى قيل انه توجه نحو طرا وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر وأما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الاحمر فانها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الامراء والعسكر فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هناك ونهبوا الطوارق والتساتير الخشب والعربات التى تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال ولم يفده من ذلك شئ ونهبوا البارود الذى كان هناك ولم يبقوا بالوطاق شيأ لا قليلا ولا كثيرا فكان ذلك مما جرت به المقادير والحكم لله العلى الكبير ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق دخلوا القاهرة بالسيف عنوة وتوجه جماعة منهم الى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فاطلقوهم أجمعين وأطلقوا من كان فى الديلم والرحبة والقاعة أجمعين ثم توجهوا الى بيت الامير خاربك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه وكذلك بيت يونس الترجمان وكذلك بيوت جماعة من الامراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى جهة العثمانية فانطلق فى أهل مصر جمرة نار ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والاكاديش وأخذوا عدة جمال من جمال السقائين

وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك وصار وا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم الى ما بعد المغرب ثم توجهوا الى شون القمح التى بمصر وبولاق ونهبوا ما فيها من الغلال حق المسلمين وهذه الحادثة التى وقعت لم تكن لاحد على بال وكان ذلك مما جرت به الاقدار فى الازل وقتل فى هذه المعركة ابن سوار بالريدانية ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه يشبك الدوادار وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الاكبر وفى ذلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى

نبكى على مصر وسكانها • قد خربت أركانها العامره

وأصبحت بالذل مقهورة * من بعد ما كانت هى القاهره

وفى يوم الاثنين سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله القاهرة وصحبته وزراء ابن عثمان والجم الكثير من العساكر العثمانية ودخل ملك الامراء خاير بك ودخل قاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى وكل هؤلاء كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى فلما دخل الخليفة من باب النصر شق القاهرة وقدامه المشاعلية تنادى للناس بالامان والاطمئنان والبيع والشراء والاخذ والعطاء وان لا أحد من العسكر العثمانى يشوش على أحد من الرعية وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل وان كل من كان عنده مملوك يركسى ولا يغمز عليه وظهر عنده يشنق من غير معاودة والدعاء للملك المظفر سليم شاه بالنصر فضج له الناس بالدعاء ولكن لم يلتفت أحد من العثمانية لهذه المناداة وصار وا ينهبون بيوت أولاد الناس حتى بيوت الربوع فى حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة فاستمر النهب والهجم عمالا فى بيوت الامراء والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام متوالية لا يتركون خيلا ولا بغالا ولا قماشا ولا قليلا ولا كثيرا وما أبقوا فى ذلك ممكنا ودخل فى ذلك اليوم يونس العادلى وخشقدم الذى كان مشد الشون بمصر وكان قد هرب من الغورى الى البلاد العثمانية وهو الذى كان سببا لهذه الفتنة العظيمة وفى يوم الجمعة خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة وقد ترجم له بعض الخطباء فى خطبته فقال وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين انتهى ما أوردناه من حوادث سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وقد قلت فى ذلك

ختم العام بحرب وكدر * وجرى للناس غايات الضرر

وأتاهم حادث من ربهم * كل هذا بقضاء وقدر

923 ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فكان مستهل المحرم يوم السبت وفيه أرسل السلطان سليم شاه جماعة من الانكشارية وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النهابة من نهب البيوت ولما انكسر عسكر مصر حوّل السلطان سليم شاه وطاقه من بركة الحاج ونصبه فى الريدانية وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وفساقى الموتى ومن غيطان المطرية فاذا أحضروهم بين يدى السلطان يأمر بضرب أعناقهم ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الاتابكى سودون الدوادارى وأحضره بين يدى السلطان سليم شاه فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام فوجده قد جرح وكسر فخذه وهو فى حالة الاموات فلم تأخذه عليه شفقة بل أركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء وجرسه فى وطاقه وقصد أن يشهره فى القاهرة فمات وهو على ظهر الحمار وقيل حزّ رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق وصار العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على المماليك الجراكسة منها وكل تربة وجد فيها مملوك جركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التى وجدوه فيها من الحجازيين وعلقوا رؤسهم فى الوطاق فضرب فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأسا من سكان الصحراء وقيل كان فيهم ينابعة وأشراف فراحوا ظلما لا ذنب لهم وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ويقبضون على المماليك الجراكسة من اسطبلاتهم باليد ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هنالك فلما كثرت رؤس القتلى بالريدانية نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رؤس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم حتى قيل قتل فى هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعمائة انسان ما بين جراكسة وغلمان وعربان من الشرقية والغربية وصارت الجثث مرمية من سبيل علان الى تربة الاشرف قايتباى فجافت منهم الارض وصارت لا تعرف جثة الامير من جثة المملوك وهم أبدان بلا رؤس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان فى هذه الواقعة فلا يحصى عددهم ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر ألبسه قفطانا من مخمل أخضر مذهب وألبسه عمامة عثمانية وأعطاه ورقة بالامان له على نفسه ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وأسكن الدفتردار فى بيته الذى فى البندقانيين وهو أحد وزراء السلطان سليم شاه ثم توجه اليه الامير يوسف البدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا مخملا وأقره متحدثا على جهات الغربية وخلع على الامير فارس السيفى تمراز وأقره كاشف المنية وغير ذلك من الجهات القبلية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله متحدثا فى الحسبة على أن يقرر بها من يختاره وفى يوم الاحد ثانى المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من الريدانية ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف الى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا اليه مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت الى

ذلك واختار الاقامة على شاطئ بحر النيل فلما كثرت العثمانية بالقاهرة صاروا يدورون
فى الحارات والازقة والاسواق وكل من رأوه من أولاد الناس لابسا زنطا أحمر وتخفيفة
يقولون له أنت جركسى فيقطعون رأسه فلبس أولاد الناس كلهم عمائم حتى أولاد
الامراء والسلاطين قاطبة وأبطلوا لبس التخافيف والزنوط من مصر وفى يوم الاثنين
ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ودخل الى القاهرة من باب النصر وشق المدينة فى
موكب حافل وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة العدد والعساكر المتراكمة مابين مشاة
وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع واستمر سائرا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ثم
عرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف
فلما شق من المدينة ارتفعت له الاصوات بالدعاء من الناس قاطبة وقيل ان صفته درى
اللون حليق الذقن وافر الانف واسع العينين قصير القامة وعلى رأسه عمامة صغيرة وكان
عنده خفة ورهج كثيرا التلفت اذا ركب الفرس وقيل انه كان له من العمر حين ذاك نحو
أربعين سنة أو دون ذلك وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفة وكان سيئ الخلق
سفاكا للدماء شديد الغضب لا يراجع فى القول ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة
والقضاة الاربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر وكان ينادى كل يوم فى القاهرة
بالامان والاطمئنان والنهب عمال من جماعته ولا يستمعون لمناداته وحصل للناس منه
الضرر الشامل ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام اذا
دخلت الى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف فقيل تلطف به الخليفة حتى
رجع عن ذلك ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه ولكن الله سلم والله غالب
على أمره ولما زاد ضرر العثمانية فى القاهرة صارت أعيان الناس والمباشرين يجعلون على
أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظون بيوتهم من النهب وصارت العثمانية يمسكون أولاد
الناس من الطرقات ويقولون لهم أنتم جراكسة فيشهدون الناس عندهم أنهم ماهم
جراكسة فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من
المبلغ وصار أهل مصر تحت أسرهم ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على
حواصل الخوندات والستات فينهبون مافيها من القماش الفاخر فانفتحت للعثمانية
كنوز الارض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك
من كل شئ جليل وظفروا باشياء لم يظفروا بها قط فى بلادهم ولم يروها قبل ذلك ولا أستاذهم
الكبير ❁ ومن هنا نرجع الى ترجمة سليم شاه بن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من
أخباره بحسب ما تيسر لى من ذلك على ما مشت عليه طريقة التاريخ من مبتداه الى هذه
الواقعة

ذكر سلطنة الملك المظفر سليم شاه ابن السلطان أبي يزيد

ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد خان ابن أبي يزيد المعروف بيلدرم ابن أرخان بن أردن ابن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير الشهيد بالغزاة بعد ان عاش تسعة وستين سنة وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان من خلاصة ملوك الروم وهو الثامن والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية وهو الثالث من ملوك الروم بمصر فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم والثانى الظاهر تمربغاوالثالث سليم خان ابن عثمان ملك القاهرة عنوة بقائم سيفه وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لآبائه ولا لاجداده من قبله وقد ساعدته الاقدار على بلوغ الاوطار فتصدى الى قتال شاه اسماعيل الصوفى سنة احدى وعشرين وتسعمائة فانكسر منه الصوفى وقتل غالب عسكره واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع وملك غالب بلاده التى بالعراقين ثم تصدى الى قتال الملك الاشرف قانصوه الغورى وتلاقى معه على مرج دابق فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فلم يحمل معه غير مدة يسيرة وانكسر ومات قهرا فى وسط الحرب وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أعور وفى يده دبوس خشب وهو ماش على أقدامه فتسلم الاموال والسلاح التى كانت بها حتى قيل كان بها من الاموال السلطانية للغورى مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار خارجا عن السلاح والكنابيش الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التى بالطراز الذهب اليلبغاوى وغير ذلك من التحف الفاخرة فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والامراء وأولادهم وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه ثم توجه الى الشام فملكها بالامان ثم نزل اليه اغات الشام بالامان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الاموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها ثم خرج من الشام وقصد التوجه نحو الديار المصرية فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات تسلم الكل بالامان من غير حرب ولا مانع ولم يتفق ذلك لاحد من الملوك قبله ثم توجه الى القاهرة فتلاقى مع الاشرف طومان باى على الريدانية فوقع بينهما قتال هين فلم يكن الا عشرين درجة وانكسر الاشرف طومان باى وولى مهزوما وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم وآخر الامر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم

سيفه (أقول) ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائم سيفه لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان ومن هنا نرجع الى أخبار ابن عثمان فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم فلما كانت ليلة الاربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان الا وقد هجم عليه الاشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر واحتاط به فاضطربت أحوال ابن عثمان الى الغاية وظن أنه مأخوذ لا محالة وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان وأوقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم واجتمع هنالك الجم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرهم وصاروا يرجمون فى الوطاق بالمقاليع وفيها الحجارة واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار فلاقاهم الامير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير فاسعفهم وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هنالك واقعة تشيب منها النواصى فلكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة قديدار واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب ثم أشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية ثم ان المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت على الجراكسة ومثل ما تعمل شاة الحمى فى القرظ يعمل القرظ فى جلدها فصاروا يدورون فى الحارات وكل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوبا ولكن لم يتم لهم ذلك فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين الفريقين ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان ثم ان العثمانية طردوا الاتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم ثم ان الاتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى بالناصرية وقبضوا على من بها من المماليك الجراكسة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم ثم ان العثمانية طردوا الاتراك عن الناصرية الى قناطر السباع ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو العمرى الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر

عند راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند حدرة البقر ثم ان السلطان طومان باى رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الامراء من ذلك وأشيع أنه قسم العسكر الى أربع فرق فرقة الى جهة قناطر السباع وفرقة الى جهة الرميلة وفرقة الى جهة جامع ابن طولون وفرقة الى جهة باب زويلة فلم يقاتل من المماليك الجراكسة الا القليل وصاروا يختفون فى الاصطبلات والزوايا خوفا من القتال وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية فما بقى يخرج منها ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا من جهة مصر العتيقة وطلعوا من جهة باب القرافة وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها فدخلوا الى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عند قبرها وبسط الزاوية وأخذوا من مقامها شيأ كثيرا وقتلوا أيضا فى مقامها مماليك جراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا من المعركة ثم ان السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع فهدم من عقدها بعض شئ ثم ان الاتراك سجنوا جماعة من العثمانية فهربوا وطلعوا الى ماذن الجوامع فطلعوا مئذنة المؤيد وصاروا يرمون الناس بالبندق والرصاص ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة واستمروا على ذلك حتى طلع لهم الاتراك وقتلوهم فى المئذنة أشر قتلة ثم صارت القتلى من الاتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع والى الرميلة والى تحت القلعة وفى الحارات والازقة وهم أبدان بلا رؤس هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرون الناس ويأخذون أثوابهم ويقتلونهم ويقتلون كل من يلوح لهم من العثمانية وغيرهم ولولا لطف الله تعالى لهجموا على الناس فى القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من أمسك أحدا من العثمانية وطلب منه الامان لا يقتله ويأتى به حيا ومن العجائب فى هذه الواقعة أن السلطان طومان باى لما ظهر فى هذه المرة بعد انهزامه فى الريدانية خطب باسمه فى القاهرة وكان فى الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه بن عثمان فكان كما يقال فى المعنى

لا تيئسن من فرج ولطف * وقوة تظهر بعد ضعف

فاستمر السلطان طومان باى يرتفع أمره مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى من يوم الاربعاء الى طلوع شمس يوم السبت ثامن المحرم فتكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم وتفرقت الامراء عنه كل واحد فى ناحية واستمر السلطان طومان باى يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء كالامير شادبك الاعور وآخرين من الامراء العشراوات فلما ظهر له الغلب هرب ونوجه الى نحو بركة الحبش وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله كما قيل فى المعنى

قليل الحظ ليس له دواء * ولو كان المسيح له طبيب

وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ولما هرب السلطان طومان باى وقعت فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان وهو انه لما هرب السلطان طومان باى صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التى كانت به فعلوا ذلك لكونه كان به وقت الحرب كما تقدم وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العداس خطيب الجامع وأحضروه بين يدى سليم شاه بن عثمان فهم بضرب عنقه فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى الى ابن عثمان وشفع فى ابن العداس وخلصه من القتل ولولا أنه كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال وقاسى شدة من الطربة ثم ان العثمانية طفشت فى جميع الحارات والاماكن وحطوا غيظهم فى العبيد والغلمان والعوام من الزعر وغيرهم ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح وربما عوقب من لا ذنب له فصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة ومن الرميلة الى الصليبة الى قناطر السباع الى الناصرية الى مصر العتيقة فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصليبة فوق العشرة آلاف انسان فى مدة هذه الاربعة أيام ولولا لطف الله تعالى لغنى أهل مصر قاطبة بالسيف ثم ان العثمانية صارت تنكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه وكذلك الجوامع الكبار والمدارس والزوايا فهجموا على الجامع الازهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرها وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ومماليك سلطانية فضربوا رقابهم أجمعين بين يدى السلطان سليم وقيل ان المشاعلى الذى كان هناك افرنجى وقيل يهودى من الروم وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ويعزل رؤس الغلمان والعربان وحدها ثم ينصب الجبال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرؤس فى الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى وكان المشاعلى اذا حز رأس المملوك يرمى جثته فى البحر وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الامير قانصوه رجله أحد الامراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه فانه كان رجلا جسيما وقتل فى هذه الواقعة الامير بخشباى الذى كان قرره السلطان طومان باى أمير مجلس كما تقدم وقتل آخرون من الامراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وغير ذلك وصارت الجثث مرمية فى الرميلة الى سوق الخيل ثم الى الخيمين وقد تناهشت

الكلاب أجسادهم ولم تقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط الا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وأخربها وهدم بيت المقدس ثم دخل مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الاراضى ولا ينتفع به لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهى قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام ثم وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هولاكو وهو المعروف بتتار لما زحف على بغداد وأخربها وأحرق بيوتها وقتل الخليفة المستعصم بالله واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن فوقع لاهل مصر ما يقرب من ذلك ومازالت الايام تبدى العجائب فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الامراء والعسكر رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ونصب فى وطاقه صنجقين أحدهما أبيض والآخر أحمر وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى وكان علامة فى الحديث وله شهرة طائلة بين الناس وكان لا بأس به وفى تلك الايام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد والامر والنهى بالديار المصرية وصارت أولاد السلاطين جالسة فى دهليز بيته لا يعبؤ بهم مثل المقر العلائى على بن المؤيد أحمد وابن الظاهر خشقدم وأولاد الملك المنصور عثمان وغير ذلك من أولاد الامراء وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين وجماعة من الامراء مثل قانى بك رأس نوبة ثانى وسنبل مقدم المماليك وغير ذلك من الامراء فى دهليز بيته لم يلتفت اليهم وصار رزقه مضروبا على غالب البيوت وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد وصار هو فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة وظهور العظمة فى تلك الايام ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة لم تصل لآبائه ولا أجداده وصارت الستات والخوندات مرمية فى دهليز بيته لا يلتفت اليهن وصارت خوند ابنة الامير اقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا تورده الى الديوان فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبا من المال الذى قرره عليها وحصل له من الستات والخوندات خدم جزيلة فطاش الخليفة فى تلك الايام الى الغاية وظن أن هذا الحال يتم له وما علم أن القبان بآخره كما قيل فى المعنى

أمور تضحك السفهاء منها * ويبكى من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث ان أولاد الزنكلونى الذين جرى لهم مع السلطان الغورى ما جرى ومات أبوهم تحت الضرب وابن نور الدين المشالى الذى شنقه الغورى كما تقدم ذكره لما تغيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ونادى من كانت له ظلامة يرفع أمره الى السلطان سليم ثار

أولاد الزنكلونى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين بن وحيش وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى وضرب الزنكلونى وقصدوا أن يضوابه الى ابن عثمان ليقطع رأسه فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن المشالى فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلونى ثلثمائة دينار ولابن المشالى مائتى دينار فأبوا من ذلك واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان وفى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى السلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهرة بان الامراء المقدمين والامراء الاربعينيات والامراء العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة يظهرون وعليهم أمان الله تعالى وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للامراء عهدا وأمانا فى ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ونادى ايضا بان الامراء المختفين يظهرون ويتوجهون الى مدرسة السلطان الغورى وعليهم الامان فظهر الامير اركماس أمير سلاح والامير انسباى أمير اخور كبير والامير تمر الحسنى رأس نوبة النوب والامير طقطباى حاجب الحجاب والامير تانى بك الخازندار أحد المقدمين والامير تانى بك النجمى أحد المقدمين والامير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ومن الامراء الطبلخانات الامير مصرباى الاقرع والامير قانى بك رأس نوبة ثانى والامير شبك الفقيه دوادار السلطان طومان باى وكان مختفيا فى الجامع الازهر فطلع بالامان وظهر من الامراء العشراوات نحو أربعين أميرا وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية فلما ظهروا واجتمعوا فى المدرسة الغورية احتاط بهم جماعة من العثمانية ثم مضوا بهم الى الوطاق وأرادوا أن يخونوهم فلما قابلوا السلطان سليم وبخهم بالكلام وبصق على وجههم وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ثم رسم لهم بان يطلعوا الى القلعة ويقيموا بها محتفظا بهم فطلعوا الى القلعة وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل يطلب الامان من السلطان سليم شاه وقد وصل الى الخانكاه وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة الذين هربوا بعد الكسرة فأرسل له السلطان سليم شاه أمانا وفيه أشيع ان السلطان طومان باى لما هرب من الواقعة التى كانت بالصليبة ظهر بعد ذلك انه توجه الى البهنسا وأقام بها فلما ضجر من الذى قاساه من الحرب والشرور أرسل القاضى عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الامان من السلطان سليم شاه وفيه أشيع ان العثمانية هجموا على مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل فى حجة المماليك الجراكسة وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم دخل جان بردى الغزالى القاهرة وعلى رأسه منشور فيه أمان من السلطان سليم شاه فتوجه اليه وهو فى الوطاق وقابله هناك وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى

الريدانية أشيع أنه هرب الى عكة وقيل الى غزة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام الغورى وكان سبب الكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب وانهزم قبل العسكر وأشاعا الكسرة على عسكر مصر وفى يوم الاربعاء تاسع عشر المحرم أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم وقيل سجنوهم بالقلعة وكانوا نحو أربعمائة مملوك وقد ظهروا بالامان من ابن عثمان فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم وكان من عادته يعطى الامان للامراء والمماليك ثم يغدر بهم فى الحال فكان لا يثق أحد منه بالأمان وفيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه فى الولايات على بعض البلاد منهم نائب غزة ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية فولى عدة كشاف فى أماكن مختلفة من البلاد وفى يوم الخميس عشرى المحرم نادى السلطان سليم شاه فى الصليبة وقناطر السباع بأن أصحاب الاملاك الذين فى الصليبة وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم فان السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقيم بها وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك فأخلى الناس بيوتهم فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالامان والاطمئنان وكيف الامان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم فى أسوا الاحوال وانطلقت فى قلوبهم جمرة نار وهجمت الطوائف العثمانية على الناس فى بيوتهم وأخرجوهم منها وسكنوا بها حتى صارت الحارات والازقة ما تنشق منهم وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم من الصليبة الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة وما خلا منهم موضع فى المدينة وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الخوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ولم يفد ذلك شيأ وهدموا ما بنوه وسكنوا بها ثم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة فى موكب حافل رجت له القاهرة وكان معه المماليك الذين طلعوا بالامان وقيدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى وفى أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى كان عالما فاضلا فى مذهبه بارعا فى العلوم ورعا زاهدا ولى قضاء الشافعية فى أيام السلطان الغورى فأقام بها مدة وعزل عنها ثم قرره الغورى فى مشيخة مدرسته وقاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل حتى مات وعاش من العمر فوق الثمانين سنة ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الاهوال على الناس بمصر فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس رحمة الله عليه وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس وكف بصره قبل موته بمدة طويلة وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع وكان علامة فى كل فن رحمة الله عليه وفى يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم خلع السلطان على الشرفى يونس الاستادار قفطانا من المخمل بالذهب وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ليمسح البلاد ويكشف ما فيها

من اقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والاوقاف فأخذ قوائم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك ونزل الى الشرقية فما أبقى من أبواب المظالم شيأ حتى فعله بالشرقية وقرر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين فى جهات الغربية وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا على جهات المحلة وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاصطبل متحدثين فى الجهات القبلية فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير التى بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم فحصل لهم غاية الضرر بسبب ذلك وفى آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع الخبز من الاسواق وسبب هذا الامر ان العثمانية لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذى فى الشون وأطعموه لخيولهم حتى لم يبق فى الشون شئ من الغلال ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين واضطربت أحوال الناس قاطبة ثم ان الاخبار ترادفت بأن طومان باى ظهر انه فى الصعيد عند أولاد عمر ومنع المراكب من الدخول الى مصر بالغلال فبموجب ذلك وقعت التشحيطة بمصر وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لاحد ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما ولم يفصل بين ظالم ومظلوم بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق وكان هذا على غير القياس فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه الى مصر فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه ولا عسكره بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الاستاذ ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربطت العسكر الخيول فى الحوش الى باب القلعة عند الايوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة وصار روث الخيل هنالك كأنه كيمان التراب على الارض حتى سد الطريق وأخرب ابن عثمان غالب الاماكن التى بالقلعة وفك رخامها ونزل به فى المراكب يتوجهون به الى القسطنطينية ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ثم ان العثمانية نصبوا خيمة فى وسط الرميلة وجعلوا فيها دنان بوزه وخيمة أخرى فيها جفان حشيش وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لاجل المحارفة كعاداتهم فى بلادهم وفى يوم الجمعة جاءت الاخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والتف عليه جماعة كثيرة من العربان واجتمع عنده من الامراء والعسكر الجم الكثير وأشيع انه وصل اليه من ثغر الاسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الاشرف طومان باى وصار على رأس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى الواقعة التى كانت بالصليبة فخشوا من مثل ذلك وفى صفر وكان مستهله يوم الاحد فى يوم الثلاثاء ثالثه حضر العلائى على ناظر الخواص وكان قد توجه الى ثغر الاسكندرية فلما حضر أحضر صحبته

جماعة

جماعة من المماليك الجراكسة كانوا هنالك فأحضرهم في زناجير ثم أشيع بعد ذلك ان ناظر
الخواص كان قد توجه الى ويقول لهم يا سبحان الله ان كنتم نسيتونا فنحن
ما نسيناكم وأرسل يعتب عليهم ويتحرش بهم ثم بعد ايام أشيع أن طومان باى أرسل يقول
لابن عثمان ان كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائبا عنك بمصر
وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله اليك فى كل
سنة فارحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحية وصن دماء المسلمين بيننا ولا تدخل
فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء وان كنت ما ترضى بذلك اخرج ولاقينى
فى برالجيزة ويعطى الله النصر لمن يشاء منا فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة
السلطان طومان باى أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الاربعة وأحضر جماعة من
وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان باى وكتب ابن عثمان خطه
عليها وقع الاتفاق فى القلعة على ان الخليفة والقضاة الاربعة يتوجهون الى السلطان
طومان باى بذلك الحلف على أيديهم ثم ان ابن عثمان خلع على القضاة الاربعة خلعا سنية
وقال لهم انزلوا فى هذا الوقت واعملوا برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو الصعيد
فنزلوا من القلعة على ذلك ثم ان الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان طومان باى وقال
انا أرسل دوادارى بردبك الى طومان باى صحبة القضاة الاربعة وأشيع ان المطالعة التى
أرسلها طومان باى الى ابن عثمان ذكر فى ذيلها ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح
عن عجز فان معى ثلاثين أميرا ما بين مقدمى ألوف وأربعينيات وعشراوات ومعى من
المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح
لصون دماء المسلمين ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الاربعة وبردبك دوادار الخليفة الى
السلطان طومان باى نحو الصعيد وفى هذه الايام قويت الاشاعات بان السلطان طومان باى
جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى برالجيزة فكثر
القيل والقال ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك ثم أشيع ان الامير علان بن قراجا
الدوادار الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع هنالك وصلى عليه السلطان
طومان باى والامراء الذين كانوا هنالك وكان الامير علان جرح فى الواقعة التى كانت
بالريدانية واستمر عليلا من ذلك الوقت حتى مات هنالك وكان من فحول الامراء وأشجعهم
والله غالب على أمره وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية وصاروا
يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم ونهبوا
بلاد عبد الدائم بن أبى الشوارب وأحرقوها ونهبوا عدة بلاد من الشرقية منها قليوب
وقلقشنده وغير ذلك من البلاد ووصلوا الى شبرى وصاروا يغدون من شبرى الى قنطرة

الحاجب فلما تزايد الامر أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى وجعل عليهم جان بردى الغزالى باشا فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا الى الشرقية فاقاموا بها أياما فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال فرجع العسكر ولم يلاقوهم وفى أثناء هذا الشهر وردت الاخبار من الصعيد بان القضاة الاربعة وبردبك دوادار الخليفة وقاصد ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم وجماعة من العثمانيين وصلوا الى قريب البهنسا فخرج عليهم جماعة من الجراكسة فقتلوا العثمانية وهرب بردبك دوادار الخليفة حتى نجا من القتل ونهب جميع ما معه من القماش وغيره وأشيع قتل قاضى البهنسا عبد السلام ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاظ غيظا شديدا وتحقق ان السلطان طومان باى قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الامان ثم ان ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش وفى يوم السبت حادى عشرى صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجم الكثير من العساكر ببركة الحبش وتوجه المباشرون صحبته حتى القاضى كاتب السر وأخذ السقائين بجمالهم فضج الناس من العطش لان السلطان ابن عثمان طلب جميع السقائين بجمالهم وروايا هم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باى وان كان يهرب منه الى بلاد الزنج ويتبعه فوصل ثمن الراوية الماء أربعة انصاف وفى يوم السبت ثامن عشرى صفر أشيع ان أوائل عسكر السلطان طومان باى قد وصل الى ترسه بالقرب من الجيزة فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطئ البحر بجهة طرا لاجل تعدية العسكر وكذلك فى بر مصر العتيقة وفى هذه الايام امتنع جلب البضائع التى كانت تدخل الى القاهرة من الجبن والسمن والاغنام وغير ذلك من البضائع التى كانت تجلب من الجيزة ونواحيها وقليوب وشبرى وغير ذلك من البلاد واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة وفى ربيع الاول وكان مستهله يوم الثلاثاء أشيع ان جان بردى الغزالى لما خرج من بلاد الشرقية كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزنكلون فنهب ما فيها من الابقار والاغنام والاوز والدجاج وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بابخس الاثمان كما فعل اقبردى الدوادار فى الاحامدة وأولادهم فاشترى بعض الناس بنتا باربع أشرفيات واعتقها ووهبها الى أمها وقد رق عليها ثم ان جان بردى الغزالى فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة ان كل من اشترى شيأ من نهب بلاد الشرقية من الابقار والاغنام يرده على أصحابه وكذلك أولاد الفلاحين ولام الغزالى على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيفا وقد قيل فى المعنى

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا * بيع الهوان ربحت أم لم تربح

قدّم وأخر من أردت من الورى * مات الذى قد كنت منه تستحى

وفى يوم الاربعاء ثانى ربيع الاوّل رسم السلطان سليم شاه بان الامراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش فنزلوا بهم من القلعة شئ على بغال وشئ على جيروشئ مشاة وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق وعلى رؤسهم كوافى بغير شاشات وقيل كان فيهم من الامراء المقدمين سبعة وهم اركماس أمير سلاح وانسباى أمير اخور وتمر رأس نوبة النوب وطقطباى حاجب الحجاب وتانى بك الخازندار أحد الامراء المقدمين وتانى بك النجمى أحد الامراء المقدمين وقانصوه أبو سنة أحد الامراء المقدمين وأما الامراء الطبلخانات فهم قانى بك رأس نوبة ثانى ومصرباى الاقرع والماس والى القاهرة وماماى الصغير المحتسب ويوسف الاشرفى الزردكاش الثانى وآخرون من الامراء الطبلخانات لم تحضرنى أسماؤهم الآن وأما الامراء العشراوات فجماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم فكان مجموع هؤلاء الامراء المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه وبخهم بالكلام ثم أمر بضرب أعناقهم أجمعين فضرب أعناقهم فى الوطاق الذى ببركة الحبش وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الاوّل وصارت أجسادهم مرمية على الارض تنهشهم الكلاب بالنهار والضباع والذئاب بالليل وصارت المرأة من نساء الامراء المقدمين تبرطل المشاعلية بمال له صورة حتى يمكنوها من نقل جثة زوجها فتحضر له تابوتا وحمالين فيحملوه من بركة الحبش الى المدينة فتغسله وتكفنه وتدفنه فى تربته ان كان له تربة وتركت جثث البقية هنالك مرمية تنهشها الكلاب وكانت هذه الكائنة من أعظم الكوائن فى حق الامراء وقد ظهروا بالامان لابن عثمان ثم غدرهم وقتلهم فكان لا يثق أحد له بالامان وليس له قول ولا فعل وقيل كان سبب قتل هؤلاء الامراء أن السلطان طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجماعة من عسكره الذين توجهوا صحبة القضاة الاربعة لما طلب طومان باى الامان من ابن عثمان فلما فعل ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من الصلح فقتل هؤلاء الامراء ظلما بعد أن أعطاهم الامان وكان ذلك من شدة غيظه وحنقه وقد قلت فى هذه الواقعة

جل الذى أفنى عساكر مصرنا * من دولة أترا كها من جركس
وأتت الينا دولة عوجاء من * أولاد عثمان ذوى الفعل المسى
قتلوا أكابرنا بايسر حيلة * عملت عليهم لا باسهام القسى
ياليت شعرى دولة الاتراك هل * تأتى كما كانت ونذكر ما نسى

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل هؤلاء الامراء أرسل فقبض على نسائهم ورسم عليهن وأرسلهن الى بيت ناظر الخاص وأشيع انه يقصد مصادرتهن وقرر عليهن مالا يوردنه

فالقين فى بيت ناظر الخاص أياما ولم يورد من المال شيأ فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن يعاقبهن وقيل سجن منهن جماعة فى الحجرة حتى يوردن ماقرر عليهن من المال ورسم على مباشرى الامراء الذين قتلوا حتى يقيموا حساب اقطاعاتهم فاقاموا فى الترسيم مدة وفى يوم الاحد سادس ربيع الاول عدى السلطان سليم الى برالجيزة بسبب قتال الاشرف طومان باى وقد بلغه انه وصل الى المنوات ومعه من العربان والعسكر ومن المماليك الجراكسة الجم الكثير فلما عدى الى برالجيزة أقام بها الى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الاول فتلاقى عسكر ابن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان وقيل على المنوات فكان بين الفريقين واقعة لم يسمع بمثلها أعظم من الواقعة التى كانت بالريدانية وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر عسكر ابن عثمان فوق مامرة وطردتهم الاتراك الجراكسة حتى ألقوا أنفسهم فى البحر وكانت الكسرة عليهم أولا وقتل منهم جماعة كثيرة ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الاتراك وطرشهم الرماة بالبندق الرصاص فهزموهم هزيمة منكرة ووقعت الكسرة على الاتراك وولى السلطان طومان باى مهزوما فتوجه الى قرية تسمى البوطة فى أعلى تروجه وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس كما يقال فى المعنى

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فاول مايجنى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر قطع رؤس المماليك الجراكسة وقطع رؤس جماعة كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى فلما تكامل قطع الرؤس رسم ابن عثمان باحضار مراكب فلما حضرت وضعوا فيها رؤس الذين قتلوا فلما عدوا الى بولاق صنعوا مدارى خشب وعلقوا عليها تلك الرؤس وحملتها النواتية على أكتافهم ولاقتهم الطبول والزمور ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة وشقوا بتلك الرؤس من البحر الى باب القنطرة وطلعوا بهم على سوق مرجوش وشقوا بهم من القاهرة وكان لهم يوم مشهود وقيل كان عدة الرؤس الذين قتلوا فى هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس مابين أتراك وعربان وغير ذلك والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الاول كانت ليلة المولد النبوى فلم يشعر به أحد من الناس وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد من اجتماع العلماء والقضاة الاربعة والامراء بالحوش السلطانى والاسمطة التى كانت تعمل فى ذلك اليوم وما كان يعطى للقرين والفقراء من الشقق والانعام فى تلك الليلة فبطل ذلك جميعه وأشيع ان ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة باربعمائة دينار فقطعوها قطعا وباعوها للناس ستائر وسفر وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط قيل ان مصروفها

على الاشرف قايتباى ثلاثون ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وكانت غاية فى التجمل حين تنصب ليلة المولد الشريف وكانت كهيئة قاعة ولها أربعة لواوين وفوقها قبة بقمريات والكل من قماش وكان فيها تقاصيص غريبة وفصوص غريبة وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبدا وكانت اذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة فابتيعت بأبخس الاثمان ولم يعرف ابن عثمان قيمتها وفقدتها الملوك من ذلك الوقت وهذه من جملة مساويه التى فعلها بمصر وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نساء الامراء الذين قتلوا أنكر على الدفتردار ذلك وأمر باطلاقهن من الترسيم وأمر أن لا يأخذ أحد منهن شيأ ويترك لهن ما تأخر عليهن من المال فارتفعت له الاصوات بالدعاء ولم يظهر لهذا الكلام نتيجة فيما بعد واستمرت المصادرات عمالة كما كانت بل ازدادت أضعافا وفيه جاءت الاخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبو بكر وكان السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهنسا لما أرسل يطلب من ابن عثمان الامان فكتب له أمانا وصورة حلف وأرسله على يد قاضى القضاة وأرسل صحبتهم أميرا من أمرائه وجماعة من العثمانية فلما وصلوا هنالك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ولم يمكنه الامراء من ذلك وثاروا على جماعة ابن عثمان وقتلوهم عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهنسا وقتلوا قاضى القضاة محمود بن الشحنة ويقال ان سبب قتله ان أخاه أبا بكر كان عنده عترسة وملوحة رقبة فلهذا سماه الناس الموتر فزعموا أنه غمز على شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا فى مكان فدل العثمانية عليه فهجموا على ذلك المملوك وقطعوا رأسه فلما سافر قاضى القضاة محمود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الامان الذى أرسله اليه ابن عثمان سافر أبو بكر صحبة أخيه محمود الى البهنسا فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان فقتلوهم هنالك فكان للمملوك الذى قتل أخ هنالك فغمزه بعض المماليك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوثب ذلك المملوك على أبى بكر وقطع رأسه هنالك فتعصب له أخوه محمود بن الشحنة فوثبوا عليه فقطعوا رأسه أيضا ودفنا هنالك هذا ما أشيع واستفاض بين الناس من أمرهما ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر أقام فى برا الجيزة أياما وسار من هنالك وتفرج على الاهرام وتعجب من بنائها وفى يوم الاربعاء سادس عشره نادوا فى القاهرة بابطال الفلوس العتق وضربوا للناس فلوسا جددا كل اثنين بدرهم وعليها اسم سليم شاه وكانت فى غاية الخفة فتضرر الناس منها الى الغاية وفى أثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد الاشقر شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس

وكان أصيلا عريقا من ذوى البيوت وكان والده القاضى محب الدين الاشقر ولى نظارة الجيش وكتابة السر بالديار المصرية وكان من أعيان الرؤساء رحمة الله عليه مات وله من العمر فوق الثمانين سنة وكان عنده لين جانب مع تواضع زائد وكان أسمر اللون جدا كانت أمه جارية حبشية مستولدة الاشقر ومن هنا نرجع الى أخبار السلطان طومان باى فانه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المنوات وقيل بوردان انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على ذلك فتوجه طومان باى الى نحو توجة بالغربية منهزما فلاقاه حسن ابن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوطة فمزما على السلطان طومان باى ليضيفاه وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة ثم ان السلطان طومان باى أحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه أنهما لا يخونانه ولا يغدران به ولا يد لسان عليه بشئ من الاشياء ولا بسبب من أسباب المسك ولا يدلان عليه فحلفاه على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لا يدرى بما به المقادير تجرى ثم انهما أرسلا الى السلطان سليم شاه أعلماه به فأرسل اليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به الى ابن عثمان ولما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الامراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا فى البلاد وتمت الحيلة على السلطان طومان باى وخانه حسن بن مرعى بعد أن حلفه على المصحف الشريف وركن اليه وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باى وله عليه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان الغورى وقام بما عليه من المال مرارا فلم يذكر له من هذه الاخلاق شيأ ولا أثر فيه الخير فكان كما قيل فى المعنى

لا تركنن الى الحريف فماؤه * مستوخم وهواؤه خطاف

يمشى مع الاجسام مشى صديقها * ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة وعلى رأسه زنط وعليه شاش وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات فلما خرج جوابه من قدامه توجهوا به الى خيمة من الخيام فأقام بها واحتاطت به الانكشارية بالسيوف لاجل الحفظ به فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان بيرانبابه وفيه وردت الاخبار الى القاهرة بمسك السلطان طومان باى فصارت طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق ذلك فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد الى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الاول من تلك السنة وكان ذلك اليوم يوم الخماسين وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الاكبر فعدوا بالسلطان

طومان باى من برا نبابه الى بولاق وطلعوا به من هناك وهو راكب على اكديش وهو فى الحديد وعليه لبس العرب الهوّارة كما تقدم وكانت مدة اقامته فى الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوما وأشيع أن ابن عثمان قصدان يرسل طومان باى الى مكة ولا يقتله ثم بدا له بعد ذلك ماسنذكره فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى حنق من ذلك وعدى به الى بولاق فلما طلع الى بولاق وشق من المقس كان قدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط فطلع من جهة سوق مرجوش وشق من القاهرة فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يفعل به فلما أتوا الى باب زويلة أنزلوه عن فرسه وأركبوه الجمال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف مسلولة فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة وقال للناس الذين حوله اقرأوا الى الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك فلما وضعوا الخيبة فى رقبته ورفعوا الحبل انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الارض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس وعلى جسده شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار وفى رجليه لباس من جوخ أزرق فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والاسف فانه كان شابا حسن الشكل كريم الاخلاق سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وقتل فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الابطال العناترة وكان لما سافر عمه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية فى غيبة السلطان وكانت القاهرة فى تلك الايام فى غاية الامن من المناسر والحريق وغير ذلك ولما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ولم يشوّش على أحد من المباشرين فى مدة سلطنته ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه قيل له ان الخزائن خالية من الاموال فقال له الامراء وجماعة المباشرين افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة الاماكن التى بالقاهرة سبعة أشهر وخذ من الرزق والاقطاعات خراج سنة فلم يسمع لهم شيأ وأبى من ذلك وقال ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى وكان ملكا جليلا قليل الاذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما فانه تسلطن رابع عشر رمضان وانكسر وهرب تاسع عشرى ذى الحجة وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا وتشتت فى البلدان وآخر الامر شنق على باب زويلة وأقام ثلاثة أيام

وهو معلق حتى فاحت رائحته وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه وتوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ومضت دولته كأنها لم تكن وقد قلت من أبيات

لهفى على سلطان مصر كيف قد * ولى ووزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة * ولقد أذاقوه الوبال الاكبرا
يارب فاعف عن عظائم جرمه * واجعل جنان الخلد رب له قرى

وكان شنق السلطان طومان باى من غايات سعد السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ولم يعهد مثل هذا ومن عهد شاه سوار الذى كلبوه على باب زويلة لم يعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى ثم ان ابن عثمان لما شنق طومان باى صفا له الوقت وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها ثم أخذ فى أسباب التوجه الى نحو بلاد القسطنطينية فأشيع أنه يجعل يونس باشاه نائبا عنه بمصر ثم خلع على شخص من جماعته وقرره نائب غزة وخلع على شخص آخر وقرره نائب القدس فخرجا من القاهرة فى أواخر هذا الشهر وقدامهما طبلان وزمران وجنائب وخرجا فى موكب حافل وفى يوم الاربعاء ثالث عشريه صنع بعض النفطية الى السلطان نفطا وتوجه به الى وطاقه بانبابه فأحرقوه قدامه بالوطاق ومن الحوادث المهمة انه قد أشيع أن السلطان سليم شاه عوّل على جماعة من أهل مصر من أعيانهم يرسلهم الى اسطنبول وفى يوم الجمعة خامس عشريه أتى السلطان سليم شاه من وطاقه الذى فى انبابه وعدى الى بولاق وتوجه الى القاهرة وشق من باب الخرق ودخل من باب زويلة وتوجه من هناك الى الجامع الازهر وزينت له القاهرة فصلى بالازهر صلاة الجمعة وتصدق هناك بمبلغ له صورة ثم توجه الى بولاق من الطريق التى أتى منها وكان فى موكب حافل ثم بعد أيام أشيع أنه دخل الى حمام الاستدار التى ببولاق فأتى من الرملة ولم يشق بولاق وكان أهل بولاق زينوا له السوق ولما خرج من الحمام عاد من الطريق التى أتى منها وقيل انه أنعم على الحمامى فى ذلك اليوم بعشرين دينارا وأعجبته حمام بولاق وشكرها ثم عاد الى الوطاق ثم ان جماعة من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته جلسوا فى المدرسة الغورية وشرعوا يطلبون جماعة من القضاة والشهود والمباشرين وأعيان تجار المغاربة وتجار الوراقين وتجار الشرب والباسطية وجماعة من البزدارية والرسل وجماعة من السوقة المتسببين فى البضائع وطائفة من البنائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك من أرباب الحرف حتى طلبوا جماعة من أعيان اليهود فلما تكامل عرضهم فى المدرسة الغورية عينوا جماعة منهم أن يسافروا الى اسطنبول

فكتبوا أسماءهم فى قوائم وألزموا كل واحد منهم بأن يحضر له ضامنا يضمنه فلما أحضروا لهم الضمان أطلقوهم الى حال سبيلهم ويأتى الكلام بعد ذلك فى أمورهم وما تم لهم فى هذه الحركة وفى يوم الاحد سابع عشريه قبض الوالى على شخص من العثمانية قيل انه خطف امرأة من السوق وزنى بها فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى أن يقطع رأسه فقطع رأسه فى الحال وطاف بها فى القاهرة وهى على رمح فظهر من ابن عثمان فى ذلك اليوم عدل عظيم لعل أن يعتبر بقية عسكره ويكفوا عن الاذى وفى أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع فى فك الرخام الذى بالقلعة فى قاعة البيسرية والدهيشة وقاعة البحرة والقصر الكبير وغير ذلك من أماكن بالقلعة وفك العواميد السماقية التى كانت فى الايوان الكبير قيل انه قصد أن ينشئ له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى فلم يتيسر له ذلك ثم صار يحيى بن بكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهجمون قاعات الناس ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الامراء قاطبة حتى القاعات التى ببولاق وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار وأبناء الناس والمدارس التى فيها الكتب النفيسة فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ولم يعرفوا الحلال من الحرام وفيه نادوا فى القاهرة بابطال الفلوس العتق وضربوا للناس فلوسا جددا خفافا فاجدا لخسر الناس الثلث ووقف حال الناس بسبب ذلك فصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفلوس العتق وسعر بالفلوس الجدد وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى الامراء ويقولون لهم حاسبونا على خراج الامراء الذين قتلوا فى المعركة وفى ربيع الثانى وكان مستهله يوم الاربعاء أشيع انه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصوفى وعلى يده مطالعة لابن عثمان فلما قرأها تنكد وقصد ان يقبض عليه فهرب ذلك القاصد من عند ابن عثمان وكان بالمقياس فلما هرب صاروا يكبسون بيوت مصر العتيقة وبيوت الروضة فلم يحصلوه لا فى البر ولا فى البحر فحصل لاهل مصر العتيقة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب هروب هذا القاصد فمن الناس من يقول انهم قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ومنهم من يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا ومن الحوادث أن شخصا من التجار الاروام كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وأخيه أبى بكر بن الملكى نحو خمسة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف دينار فكان كلما طالبهما سوفا به ومطلاه وتماديا على ذلك مدة طويلة فشكاهما الى الدفتردار فأرسل خلفهما فلما حضرا اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور فأمرهما الدفتردار بأن يدفعا له ذلك فقالا ما معنا شئ من المال ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا بشئ من المال فندفع له حقه

فقال لهما ما بقيت أصبر عليكما فخنق منهما الدفتردار وأمر بسجن عبد القادر وأخيه أبي بكر فسجنا في سجن الديلم وأقاما به أياما حتى سعى لهما الشهابي أحمد بن الجيعان وأطلقا من السجن ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما وفي أوائل هذا الشهر حضر قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل والقاضي المالكي محيي الدين بن الدميري والقاضي الحنبلي شهاب الدين الفتوحي وكانوا توجهوا الى نحو البهنسا بسبب الأمان الذي توجهوا به من عند ابن عثمان الى السلطان طومان باي ولم يفد توجه هؤلاء القضاة اليه شيأ ولما حضر هؤلاء القضاة أخبروا بصحة قتل قاضي القضاة حسام الدين محمود بن الشحنة الحنفي وأخيه أبي بكر وقد تقدم القول على سبب قتلهما ودفنا هناك وفي يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان عدى الى المقياس وكان في ذلك اليوم رياح عاصفة فكاد أن يغرق فلما سلم من الغرق أقام بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة ثم ان أمراءه طردوا السكان الذين بالروضة وبمصر العتيقة وسكنوا في دورهم فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك فأعجبه المقياس فأقام به مدة أيام وكان وزراؤه يعدون الى الروضة في كل يوم ويطالعونه بالامور التي يفعلونها في الناس من خير أو شر وفي يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الامير يشبك بن مهدي أمير دوادار وهي زوجة قاني باي أمير اخور كبير وقاست قبل موتها شدائد ومحنا وصودرت غير مرة من السلطان الغوري ومن ابن عثمان أيضا واستمرت مختفية حتى ماتت وكانت من أعيان الستات في سعة من المال وكانت لا بأس بها وفيه خلع السلطان على شخص من العلماء يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسي وقرره في قضاء الحنفية عوضا عن محمود بن الشحنة بحكم قتله كما تقدم وفيه وقعت كائنة عظيمة لخوند ابنة المقر اقبردي الدوادار وهي زوجة السلطان طومان باي وذلك انه كان عندها جارية بيضاء جركسية رقاصة فهربت من عندها وتوجهت الى بعض وزراء ابن عثمان فعرفته بمكان حاصل سيدتها فتوجهوا اليه ونقلوا كل ما كان فيه من بشاخين زركش وعنبر ومقاعد سمور ووشق وحياصات ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب وغير ذلك من الامتعة الفاخرة وأواني بلور وأواني فضة ونحاس مكفت بالذهب وصيني موشي بلازورد وغير ذلك فنقلوا جميع ما كان لها في الحاصل فذهب لها أشياء كثيرة بنحو خمسين ألف دينار وما قنع ابن عثمان بذلك فصادرها وقرر عليها وعلى والدتها بنت العلائي علي بن خاص بك عشرين ألف دينار وقيل أكثر من ذلك القدر فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد وقاسيا شدائد عظيمة ومحنا وبهدلة وتهديدا بالقتل وما جرى عليهما خير وفي يوم الجمعة سابع عشره رسم الدفتردار باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السفر الى اسطنبول فخرجوا في ذلك اليوم جملة واحدة فنزلوا في المراكب وتوجهوا الى ثغر

الاسكندرية الى أن يمضوا الى اسطنبول فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا وفى عقيب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين وفيهم البعض من النصارى وطائفة من الفعلة وذلك بسبب المدرسة التى أراد ابن عثمان أن ينشئها باسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى وأشيع أنه أرسل طائفة من المغاربة أيضا تقيم باسطنبول وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والشهود فمنهم القاضى شمس الدين الحلبى أحد نواب الشافعية وقد قاسى من العثمانية غاية البهدلة من الضرب والصك وأنزلوه المركب على رغم أنفه ومنهم الزينى زين الدين الشرنقاشى أحد نواب الحنفية والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الاتميدى أحد نواب الشافعية والقاضى بدر الدين البلقينى نقيب قاضى القضاة الشافعى والقاضى شهاب الدين بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة والشريف البردينى الحنفى وآخرون من نواب القضاة الاربعة وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار الشرب والوراقين منهم محمد المسكى الاسود ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الاسمر ومن تجار خان الخليلى وغيره وخرج يوسف الذى كان ناظر الاوقاف وخرج ابن شقيرة التاجر الذى بمرجوش ومن تجار الهرامزة وغير ذلك من التجار والاعيان من مشاهير الناس فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم طائفة أخرى يأتى الكلام عليها وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لاهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان وهذه عبارة عن أسر المسلمين ونفيهم الى اسطنبول وفى يوم الثلاثاء حادى عشريه أشيع بين الناس أن ابن عثمان كان فى اصبعه خاتم من الفضة وهو مرصود للمقابلة وكان يتبرز فيه فسقط من اصبعه فى البحر وهو فى المقياس فتأسف عليه غاية الاسف وأحضر الغطاسين فغطسوا عليه عدة مرار فلم يجدوه فى ذلك المكان ويقال ان هذا الخاتم كان فى ذخائر أجداد ابن عثمان حتى فقد منه وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان يقول لامير المؤمنين اعمل برقك حتى تسافر الى اسطنبول فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت أحواله وشرع فى عمل برقه وقال سافر أنت وأولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك فلما بلغهم ذلك تنكدوا وأجمعون وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من القلعة فوضعه فى صناديق خشب ونزلوا به فى المراكب ليتوجهوا به الى اسطنبول ومن العجائب أن السلطان الغورى ظلم أولاد ناظر الخاص يوسف وأخذ رخام قاعتهم التى تسمى بنصف الدنيا وجعل ذلك الرخام فى قاعة البيسرية فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن عثمان ولم ينتفع به أحد من بعده والمجازاة من جنس العمل وقد خرج هذا الشهر على الناس وهم فى أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان ومن حين فتح عمرو بن العاص مصر لم يقع لاهلها شدة أعظم من هذه الشدة

وفى شهر جمادى الاولى وكان مستهله يوم الجمعة ففى ذلك اليوم خرج المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الملك الاشرف اينال وكان تعين الى السفر الى اسطنبول فخرج فى ذلك اليوم وخرج جماعة من الفقهاء وأعيان التجار ممن تعين الى اسطنبول فمنهم شمس الدين بن روق وكان القاضى بدر الدين بن الوقاد أحد نواب الحنفية تعين الى السفر الى اسطنبول فلما تحقق ذلك اختفى وحصل على نقيب الجيش من الدفتردار مالا خير فيه وبهدله وهم يضربه لانه كان ضامنه وفى يوم السبت ثانى الشهر عرض السلطان سليم شاه عسكره ببر الجيزة وعين منهم جماعة يسافرون صحبته الى ثغر الاسكندرية وأشيع سفره الى هناك وفى يوم الاثنين رابعه عدى ابن عثمان من المقياس الى بر مصر العتيقة وشق من جامع ابن طولون وطلع الى القلعة ثم عاد من يومه الى المقياس وأقام به ومن الحوادث أن شخصا من نواب الشافعية قيل عنه انه زوج امرأة من نساء الاتراك لشخص من العثمانية فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذى مات فدلس ذلك على القاضى الذى زوجها الى العثمانى فلما رفع أمرها الى ابن عثمان أحضر ذلك القاضى ولم يقبل له عذرا وبطحه وضربه ضربا شديدا ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا من كروش البقر بروثه وركبه على حمار مقلوب وأشهره فى القاهرة وكان قبل ذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن لا أحد من قضاة مصر يعقد عقدا لعثمانى ولا يزوجه بأحد من نساء الاتراك وكذلك الشهود وحرج عليهم فى ذلك الى الغاية فلم يسمع له قضاة مصر شيأ من ذلك وصاروا يزوجون العثمانية بنساء الاتراك الذين قتلوا فى الحرب كما تقدم القول على ذلك وفى يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل السلطان سليم شاه من المقياس فى مراكب هو وجماعة وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية وقيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس وتوجه يونس باشا من البر على ترجه بعسكر آخر يلاقيه من هناك وفى يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الاولى خرج أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصد السفر الى اسطنبول وخرج صحبته أولاد عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد وخرج صحبته الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الخليفة وخرج الشرفى يونس ابن الاتابكى سودون العجمى وآخرون من الاعيان فتوجهوا الى بولاق ونزلوا من هناك فى المراكب ليتوجهوا الى ثغر رشيد فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر وصارت باسطنبول وهذه من الحوادث المهولة ثم ان الخليفة عوم من بولاق الى رشيد ثم بعد ذلك وردت الاخبار بأن الخليفة مقيم بالمركب ببر بولاق الى يوم الثلاثاء تاسع عشره فعوم فى أثناء ذلك اليوم من بولاق وتوجه الى رشيد ثم بعد ذلك وردت الاخبار بان الخليفة قد وصل الى ثغر رشيد وأقام به هو وجماعة من الذين سافروا ثم دخلوا الى ثغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التى بها مشحونة من الماء فبلغ ملء كل

كرا زخمسة أنصاف وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هنالك ولاسيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل ثغر الاسكندرية رسم بان الجماعة الذين أتوا من مصر يسجنون فى الخانات وفى أبراج الاسكندرية الى أن يتكاملوا ثم يسافرون دفعة واحدة فوضعوهم فى الابراج ونساءهم فى الخانات فقاسوا مشقة عظيمة بسبب ذلك وخرج فى عقيب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر الى اسطنبول ونائبه جوهر وقيل توجه سنبل الى بيت المقدس من بعد ذلك وفى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الاولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشهابى أحمد ناظر الجيش وابن الجمالى يوسف ناظر الخاص وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج وخرج جان بك دوادار طرابای وفى يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من ثغر الاسكندرية فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وايابا وقيل انه أقام بثغر الاسكندرية ثلاثة ايام لاغير ودخل عليه من التقادم من مشايخ العربان بالغربية شئ كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك فلما حضر أتى الى المقياس وشق من جهة الروضة بالمراكب فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت وفى يوم السبت ثالث عشريه عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم وأشيع أن ابن عثمان قد طرقته الاخبار الرديئة من عند الصوفى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد وفى يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الاولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القصاة الشيخ كمال الدين الشافعى الطويل فكثر عليه الاسف والحزن فانه كان محببا للناس وخرج زين الدين البتنونى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث وخرج جماعة من الزرد كاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الاعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانه وخرج ابراهيم مقدم الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانه وفى أثناء هذا الشهر توفى تقى الدين بن الطربنى كاتب الشعير بالشون السلطانية وكان لا بأس به وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك وجاءت القاعدة ثمانية أذرع وستة عشر اصبعا وكانت القاعدة فى العام الماضى لما أخذ قاع النيل اثنى عشر ذراعا حتى عد ذلك من النوادر الغريبة وفى جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الاحد فى ذلك اليوم كان أول المناداة على النيل المبارك فزاد ثلاثة أصابع وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه خلع على وزيره يونس باشا وقرره نائبا عنه بمصر وأعمالها اذا سافر الى بلاده فلما تقرر يونس باشا فى النيابة بمصر وأشيع سفر ابن عثمان ظهر جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وتزيوا بزى العثمانية ولبسوا

الطراطير والقفاطين الحرير وصاروا يخالطون العثمانية ويركبون معهم فى الاسواق
بطول النهار وفى يوم الاربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان فى عسكره بان كل من
كان متزوجا من مصر بامرأة يطلقها والا يشنق من غير معاودة فمنهم من طلق زوجته
ومنهم من أبقاها فى عصمته ومن الحوادث ان القاضى بدر الدين بن الوقاد لما تعين للسفر
الى اسطنبول وضمنه نقيب الجيش تخلص واختفى أياما فغمز عليه فقبضوا عليه من المكان
الذى كان به فلما أحضروه بين يدى الدفتردار وبخه بالكلام وبطحه على الارض وهم
يضربه حتى شفع فيه بعض الحاضرين وقاسى من البهدلة والسب مالا خير فيه وغرم
مالا له صورة وآخر الامر سافر الى اسطنبول والذى خاف منه قد وقع فيه وفى يوم الخميس
خامسه عدى السلطان سليم شاه من الروضة وطلع الى الرميلة وعرض عسكره فى
الميدان الذى تحت القلعة وعين منهم جماعة يقيمون بمصر صحبة يونس باشا وعين جماعة
يسافرون صحبته ورسم للمشاة من عسكره بان يسافروا فى البحر واستمر يعرض عسكره
ثلاثة أيام متواليه وفى ذلك اليوم خرج حريم ملك الامراء خاير بك وحريم جان بردى
الغزالى للاقامة بحلب الى أن يأتى السلطان هناك وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان
عن قريب وفى يوم الجمعة سادس هذا الشهر خرج جماعة من المباشرين للسفر الى
اسطنبول منهم القاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان كاتب الخزائن
الشريفة وخرج الناصرى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان كاتب الخزائن أيضا
وخرج الزينى عبد القادر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش وخرج شخص من أولاد
ابن البارزى يقال له بهاء الدين وخرج محمد المجولى مهتار السلطان الغورى بالطشتخاناه
الشريفة وخرج عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة وولده زين الدين وخرج فى
ذلك اليوم بعض نصارى من كتاب الخزينة وخرج كمال الدين بزدار الطرابية وخرج
فرج الدين البريدى رأس نوبة حاجب الحجاب وخرج فتح الدين بن خفيرة أحد كتاب المماليك
وخرج جماعة كثيرة من البزدارية والرسل وأرباب الصنائع من كل فن ممن تعين الى
اسطنبول وخرج الشهابى أحمد بن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين وخرج يحيى
شكاردوادار وشيخ سوق الغزل بدر الدين وخرج ابراهيم مقدم الدولة وخرج جماعة كثيرة
غير هؤلاء فى أوقات متفرقه ونزلوا فى المراكب وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية ومن هناك
يتوجهون الى اسطنبول وقيل ان عدة من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة
انسان وقيل دون ذلك وقيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجماعة
أحضر غيرهم من اسطنبول يقيمون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها وقيل ان هذه عادة
عندهم اذا فتحوا جهة أخذوا من أهلها جماعة يضون الى بلادهم ويحضرون من بلادهم

جماعة يقيمون فى تلك المدينة عوضا عن الجماعة الذين أخذوهم وفيه نادوا فى القاهرة أن لا عبد ولا جارية ولا امرأة ولا صبى أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثمانى من مصر وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوهم ويسافروا بهم وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التى بالمطرية وأضافه هناك الناصرى محمد بن الريس شمس الدين القوصونى ومد له هناك مدة حافلة وكذلك الشيخ دمرداش وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم الى الغاية وغسل وجهه من مائها وأقام هناك الى ما بعد العصر ثم رجع الى الوطاق ومن الحوادث فى هذا الشهر ان الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الاملاك بسبب أملاكهم وندب الشرفى يونس نقيب الجيش الى ضبط البيوت التى فى القاهرة قاطبة فصار الناس يعرضون عليه مكاتيبهم فالذى يكون من الاعيان يفرج له عن بيته ويواسى نقيب الجيش بشئ من الدراهم ويكتب على مكتوبه عرض والذى يكون جاريا فى ملك المماليك الجراكسة ولم يظهر له أصحاب يكون ملكا للسلطان ويدخل الى الذخيرة ويقرب من هذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقاضى القضاة المنفصل علاء الدين بن النقيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين قاطبة ورفع يد قاضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعى من التحدث على أوقاف الحرمين الشريفين فكانت أصحاب الاوقاف يعرضون مكاتيبهم على قاضى القضاة علاء الدين ويكتب عليها عرض ثم يمضوا بها الى الدفتردار فيخرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك فيقع عليهم كلفة للقاضى علاء الدين وكلفة لمراسيم الدفتردار وان لم يفعلوا ذلك ولم تخرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهات الاوقاف يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الاوقاف ويستخرجون منها الخراج ويروح ذلك على النظار وهذا من جملة مساوى ابن عثمان فيما فعله فى أهل مصر من الانكاد والضرر الشامل لهم وفى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة حضر الشرفى يونس النابلسى الاستادار وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والاتراك والامراء الذين قتلوا فى المعركة فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غاية الضرر وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ووضع يده على خراجهم بغير حق وما حصل لاحد منه خير فكان كما يقال فى المعنى

مباشر فى الورى لم تخف سيرته * بين الانام وما يخشى من الريب
تنجو به رجله مما جنت يده * كأنه القط فى خطف وفى هرب

وفى يوم الاحد خامس عشره حضر الى الابواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنئ ابن عثمان بملكة مصر وأحضر صحبته تقادم فاخرة وحضر صحبته بيبردى بن كسباى أحد الامراء العشراوات الذى كان باش

المجاورين بمكة وحضر قراكز الذى كان محتسبا بمكة فلما حضر أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على يد الرئيس سلمان العثمانى وقيل انه أغرقه فى البحر وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة وجدة وجدد مظالم فى أيام السلطان الغورى وكان من المفسدين فى الارض فقتل كما تقدم وكان غير محبب لاهل جدة ومكة ومن الحوادث أن النيل المبارك توقف فى أثناء الزيادة واستمر فى التوقف ستة أيام فقلق الناس لذلك وزاد سعر القمح وتشحطت سائر الغلال واضطربت الاحوال جدا ثم بعد ذلك زاد النيل المبارك اصبعا واحدا فسكن الحال قليلا وفى يوم الاثنين سادس عشره حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا قد توجهوا الى الغربية والمنوفية والمحلة فحضر أبو البقاء ناظر الاسطبل وبركات أخو شرف الدين الصغير ويحيى بن الطنساوى وآخرون من المباشرين وفى يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن يبردى باش المجاورين وقراكز المحتسب والمماليك الذين حضروا صحبتهما من مكة يريد قتلهم ابن عثمان فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل فرسم أن يتوجهوا الى اسطنبول فخرجوا فى ذلك ونزلوا فى المراكب وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية ومن هناك توجهوا الى اسطنبول وفى يوم الاربعاء ثامن عشره حضر الزينى بركات بن موسى المحتسب وحضر فخر الدين بن عوض وكانا فى بعض جهات الغربية بسبب استخراج الخراج وعمارة الجسور التى هناك وفى يوم الخميس تاسع عشره توفيت ابنة السلطان طومان باى وكان لها من العمر نحو عشر سنين وكان قد حصل لها طربة على أبيها لما قتل وفى يوم الاحد ثانى عشريه اضطربت أحوال القاهرة وصارت الادراك تقف على أبواب المدينة ويمسكون الناس من رئيس ووضيع ويضعونهم فى الحبال حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود وما يعلم ما يصنع بهم فلما طلعوا بهم الى القلعة أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار التى كانت بالقلعة وينزلونها الى شاطئ البحر ثم يضعونها فى المراكب ويمضوا بها الى اسطنبول وكان قبل ذلك بمدة نزلوا بالعامودين السماقى اللذين قلعوهما من الايوان الذى بالقلعة فارتجت لهما الصليبة لما نزلوا بهما من القلعة وقاسى الناس فى سحبهما غاية المشقة وحصل لهم بهما بدلة من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود ثم فى عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالحبال فى رقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ولو كانوا من أعيان الناس فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير فيه وفى يوم الخميس سادس عشريه رسم السلطان سليم شاه باحضار ألف رأس من الغنم ومائة جمل ومائة بقرة فلما حضرت بين يديه أمر أن تفرق قربانا على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ومزارات الصالحين التى بالقرافة وغيرها من المزارات المشهورة حتى على أبواب تربة السلاطين المتقدمين ففرقوا ذلك جميعه

وصار

وصاروا يذبحون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين بها وقيل ان سبب ذلك ان لهم عادة فى بلادهم اذا حلت الشمس فى برج الاسد يفرقون هذا القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين فى بلادهم قاطبة ففعل مثل ذلك بمصر وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل فى مركب وتوجه نحو الآثار الشريفة فقام عليه ريح عاصف فانقلبت به المركب فى البحر فكاد أن يغرق وأغمى عليه وما بقى من موته شئ وقيل انه كان سكرانا لا يعى فكان فى أجله فسحة حتى عاش الى اليوم ۞ ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الخليفة لما سافر الى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها وكان ذلك بيد الخلفاء من قديم الزمان وكان من جملة تعظيمهم وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت وكان يحصل لهم فى كل يوم من الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور التى كانت تدخل عليهم فخرج ذلك كله عنه وحصل للخليفة يعقوب والد المتوكل على الله غاية الضرر بسبب ذلك وشق عليه ذلك ولم يفده من ذلك شئ وفى أثناء هذا الشهر خرج الشرفى يحيى بن البرديني الذى كان ولى قضاء القضاة فى دولة الاشرف طومان باى ولما رأى الاحوال مضطربة وبعثوا أعيان الناس الى اسطنبول سعى بحال له صورة حتى قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى كما كان جاهين الجمالى فخرج من هذا الشهر وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة من الينبع وكان من قديم الزمان لا يلى مشيخة الحرم الا الطواشية وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس أحضر فى بعض الليالى خيال الظل فلما جلس للفرجة قيل ان الخيال صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليها وقطع به الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على الخيال فى تلك الليلة بثمانين دينارا وخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا وقال له اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا من خشب بالمقياس فوق القصر الذى أنشاه السلطان الغورى فوق بسطة المقياس وصار يجلس به فى اليوم الحر وأحضر جماعة من النجارين والبنائين وشرع فى بنائه حتى فرغ فى أيسر مدة وقد قلت فى ذلك

لو علم الغورى أن قصره * يسكن للظفر المؤيد
أضرم فيه النار من يومه * ولم يدع فى جدره جلمد

وفى رجب وكان مستهله يوم الاثنين فى يوم الاربعاء ثالثه توفى القاضى رضى الدين الحلبى الموقع وكان شابا حسن الشكل والهيئة وكان من أخصاء القاضى كاتب السر محمود

ابن أجا وكان من أعيان الموقعين وكان من جملة أصحابنا رحمة الله عليه وكان له مدة وهو متوعك فى جسده وكان تعين الى سفر اسطنبول فرض عقيب ذلك فدخل انكشارى من العثمانية فرآه مريضا فقال له اخرج فى هذا اليوم وسافر فقال له لا أستطيع القيام فحمله العثمانى بالنطع الذى تحته وأراد أن يخرجه من الباب فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى فمات تلك الليلة من الرجفة التى حصلت له وفى يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة فتوجه الى وطاقه الذى بالريدانية فكان له موكب حافل وخلع عليه السلطان قفطان تماسيح مذهب وقدامه الرماة بالنفط وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة وقد أشار عليه السلطان بان الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بان يكون عوضا عن الباشا الذى بها وجعله هو المتصرف فى أمر مكة قاطبة وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا وأنصفه غاية الانصاف وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية وأكرم ولده غاية الاكرام وفيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم وانتبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان بقى عليهم من الخراج فى البلاد فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول وفى أثناء هذا الشهر توفى القاضى ناصر الدين محمد بن العمرى موقع الامير يشبك الدوادار وكان من المعمرين فى الارض ۞ ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التى فى يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ولم يمض غير الاوقاف والرزق التى بالمكاتيب والمربعات الجيشية فقط فحصل لاولاد الناس غاية الضرر بسبب ذلك ووضع المباشرون أيديهم على خراجهم وراح عليهم الخراج فى هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين وفى يوم الاربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور فحضر وقابل يونس باشا وبقية الوزراء وكان له مدة وهو عاص فى وادى العباسة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت وفى يوم السبت ثالث عشر رجب الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية أظلم الجو ظلمة شديدة وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحلت منه الارض والاسواق وكانت الشمس فى برج الاسد فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء فى غير أوانه وكان قد بقى على ميعاد الوفاء أربعة وستون اصبعا والنيل فى قوة الزيادة فخشى الناس على النيل من النقص وأشيع كسوف الشمس فى ذلك اليوم وفى يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس وأتى الى بيت الاشرف قايتباى الذى خلف حمام الفار قانى المطل على بركة الفيل فأقام به فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس فى ليالى

الوفاء وسكن فى هذا المكان الذى بين الدروب فاختلف الناس فى الاقوال بسبب ذلك ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته فى اقامته بالمقياس فلما سكن فى ذلك المكان طفشت عساكره فى بيوت الناس التى حول الصليبة وأعمالها وطردوا أصحابها منها وسكنوها فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك وفى يوم الخميس خامس عشريه طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذى بها بالبحرة ثم رجع الى بيت الاشرف قايتباى فقيل اصطفت عساكره من الصليبة الى باب السلسلة ما بين مشاة وركاب وفيه وردت الاخبار من البحيرة بأن حسن بن مرعى محاصر مع الجويلى فارسل لهما السلطان تجريدة الى البحيرة وعين بها ألف عثمانى من عسكره ومن الحوادث المهولة أن النيل المبارك توقف ليالى الوفاء على اصبع واحد وكان مضى من مسرى ثمانية عشر يوما فاضطربت أحوال الديار المصرية بسبب ذلك ثم أشيع أن النيل قد نقص أربعة أصابع واستمر فى ذلك التوقف ستة أيام وقد مضى من مسرى احد وعشرون يوما فاضطربت الاحوال بسبب ذلك ولولا خوف السوقة من ابن عثمان لرفعوا الخبز من الاسواق وكادوا أن ينشؤا غلوة عظيمة وقد توقف النيل فى هذه السنة مرتين ستة أيام فى أبيب وستة أيام فى مسرى ولولا ان الله بعث الزيادة بعد ذلك لاكل الناس بعضهم بعضا وقال القائل فى المعنى

لو نطق النيل قال قولا * يشفى به غاية الشفاء
قد كثر الجور فاعذرونى * لما توقفت فى الوفاء

فلما كان يوم السبت سابع عشرى رجب الموافق لثانى عشرى مسرى زاد الله فى النيل المبارك اصبعا واحدا عن النقص الذى كان نقصه ثم فى يوم الاحد ثالث عشرى مسرى القبطى الموافق لثامن عشرى رجب زاد النيل ما كان نقصه ووفى ستة عشر ذراعا واصبعا من السابع عشر وكان النقص أربعة أصابع عن الوفاء فزاد النقص وأوفى وزاد اصبعا من السابع عشر وذلك من فضل الله تعالى على عباده فلما كان يوم الاثنين تاسع عشرى رجب الموافق لرابع عشرى مسرى فتح السد وجرى الماء فى الخليج الحاكمى والناصرى وقد قيل فى المعنى

عجبت لنيل مصر حين وفى * على جور الانام العاديات
نخضنا فى حديث النيل لكن * مزجناه باوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة وبطل ما كان يعمل فى ذلك اليوم من الاسمطة التى كانت تصنع بالمقياس والجامع الحلوى والمشنمات الفاكهة التى كانت تفرق فى ذلك اليوم فنزل يونس باشا فى الحراقة

السلطانية وتوجه الى السد وفتحه على العادة ولكن أين الثريا من يد المتناول بالنسبة لما كان يعمل يوم الوفاء بمصر ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرطلى سكنت العثمانية فى بيوت الجسر قاطبة وربطوا خيولهم فى القواطين المطلة على البركة وأخذوا الابواب والطيقان والدرابزانيات وأوقدوها فى النار وكذلك بيوت المصطاحى وحكر الشامى وسكنوا فى بيوت الاكابر التى كانت على البركة قاطبة فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى البركة وكذلك المتفرجين ومنعوا المتفرجين من الدخول الى الجسر وصاروا يهوشون على الناس بالعصى وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها الا الجدر ونقل أصحاب الاملاك سقوف البيوت والابواب والطيقان ولم يبق منها غير الحيطان وأما بركة الازبكية فان التركمان نصبوا وطاقهم بها ومنعوا الماء من الدخول اليها وأخربوا غالب بيوتها وأخذوا غالب ما فيها من الابواب والطيقان وغير ذلك من الاخشاب وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان وكان قد بقى له ادلال على ابن عثمان من حين تحيل على السلطان طومان باى وقبض عليه فلما قابل ابن عثمان قبض عليه وسجنه بالبرج الذى بالقلعة وقبض على ابن صقر وقبض على ابن أخى الجويلى وسجنهم بالبرج أيضا وكان شيخ العرب أحمد بن بقر أتى ليقابل ابن عثمان فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع بعد أن دخل القاهرة ومضى الى الشرقية وقد شمت فى حسن بن مرعى كل الناس فانه كان سبب امساك السلطان طومان باى حتى شنق والجازاة من جنس العمل وفى آخر هذا الشهر توفى صاحبنا القاضى أبو الفتح السراجى أحد نواب الحنفية رحمة الله عليه وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو وكان له شعر جيد وألف عدة كتب وكان من الافاضل فى عصره عارفا بطريقة صنعة التوقيع حسن العبارة وكان مجلسه بخط جامع ابن طولون وعاش من العمر ما قارب السبعين سنة وكان حسن الهيئة وقلت

نوحوا على مصر لأمر قد جرى * من حادث عمت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الاتراك فى * غمض العيون كانها سنة الكرى
وأتى اليها عسكر سيماهم * حلق الذقون ولبس طرطور يرى
لا يعرف الاستاذ من غلمانه * وأميرهم بين الورى قد حقرا
جل الاله مصدقا عما حكى * فى سورة الروم العظيمة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صادقا * أن ابن عثمان يلى وكذا جرى
ولا رب العرش سلطانا على * مصر وهذا الامر كان مقدرا
أين الملوك بمصر من ساداتها * مثل البدور تضى وكانت أنورا

يالهف قلبي للوا كب كيف لم * تلفى بقلعتها الحزينة عسكرا
لهفى على ذاك النظام وحسنه * ما كان فى الترتيب منه أفخرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها * فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على النشاب والرمح الذى * كانا مع الدبوس يكسر عنترا
لهفى على لبس الكلوتة والقبا * كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى على تلك التخافيف التى * كانت على الامراء تزهو منظرا
لهفى على لبس الكراف بقندس * بطلت والغوا كل زنط أحمرا
لهفى على المهماز والخف الذى * كانا نهارا الحرب أصون للثرا
لهفى على أعياد مصر كيف قد * أفنت تشاريفها ومتمرا
وكذا الكنابيش التى قد زخرفت * كانت تشد خيولها عند السرى
وكذا السروج المفرقات بلمعها * كانت كبرق أو كليل أقمرا
لهفى على الابواب كيف تكسرت * وخلت أماكنها وصاحبها سرا
لهفى على نهب القماش وبيعه * وبأبخس الاثمان صارت تشترى
وأشيع بيع الخيمة العظمى التى * للمولد النبوى أحسن مايرى
بيعت بابخس قيمة عما حكى * يالهف قلبى كم يزيد تحسرا
لهفى على شيخو وجامعه الذى * قد كان للصلوات مجمع للورى
درست معالمه بحرق صار من * بعد التزخرف والرياضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد * أخلت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله * من كل بيت كان زاه أزهرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد * كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الامراء كيف تشتتوا * وخلت منازلهم وعادت مقفرا
لهفى على أترالك مصر اذ غدت * مكسورة وقلوبها لن تجبرا
لهفى على الفرسان كيف تقطعت * أعناقهم بيد العدو اذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم * رمم حكت عيد الضحى الاكبرا
لهفى على ذاك الحريم وهتكه * من بعد صون فى الحريم مخدرا
وتيتمت أطفال جند قد غدت * أجسامهم نهش الكلاب على الثرا
قتلوا بأصغر بندق من شأنها * كالسم تجرى فى الجسوم ولا ترى
لما تكبرت الجراكسة التى * كانوا بمصر أذلهم رب الورى
لهفى على سلطان مصر كيف قد * ولى وزال كأنه لن يذكرا

شنقوه ظلما فوق باب زويلة * ولقد أذاقوه الوبال الاكبرا
يارب فاعف عن عظائم جرمه * واجعل جنان الخلد مأواه قرا
يالهف قلبي للخليفة كيف قد * طردوه عن مصر بجور وافترا
وأذيق من ذل السؤال وفاقة الأيدي واتعاب بما قد أقهرا
وكذا بنو عمه قد أخرجوا * معه لاسطنبول وامتد السرا
وكذلك أبناء الملوك تحيروا * عند الخروج ولم يراعوا الاوقرا
وكذلك أعيان التجار وغيرهم * صارت دموعهم بمصر انهرا
لهفي على الشرع الشريف وحكمه * قد كان في زمن القضاة موقرا
يالهف قلبي للشهود بمجلس * كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر انها لمصيبة * وقعت بمصر مالها مثل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت * لم يذكروا فيها بأعجب ماجرى
لهفي على عيش بمصر قد خلت * أيامه كالحلم ولى مدبرا
وأتى من التكدير مالا مخبر * سمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا * في هذه الايام آخر ماجرى
وتزايد الكرب العظيم لاجله * حتى وفا وبه المنادي بشرا
قد كان هذا الانتقام بمصرنا * سبقت به الاقدار كان مقدرا
ياليت شعري بعد هذا كله * تنفي الهموم ونرتجي فرجا نرى
يارب انا بالنبي المصطفى * والانبياء الكل سادات الورى
نسألك كشفا للأمور بسرعة * واعف عن الاجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن اياس شعر قاله * لكن منه النظم يحكي جوهرا
ثم الصلاة على النبي محمد * والآل والاصحاب ممن بشرا
ماماس غصن في الرياض وغردت * أطياره عند النسيم اذا سرا

وفي أول شعبان المكرم وكان مستهله يوم الاربعاء أشيع ان شيخ العرب أحمد بن بقر لما رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن مرعي شيخ عربان البحيرة وسجنه بالبرج خاف على نفسه وخرج من القاهرة على حين غفلة وتوجه الى جهات الشرقية ولاقته العربان ولو تكاسل يوما واحدا القبض عليه ابن عثمان وسجنه كما قد فعل بحسن بن مرعي وفيه أشيع أن جماعة من العثمانية قتلوا أميرا من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه وكان صاحب صنجق ولم يعلم ما سبب ذلك وقيل قبضوا على من

Murder of a Turkish Amir

فعل ذلك من العثمانية وشنق منهم جماعة من أجل ذلك وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ويولى ملك الامراء خاير بك عوضا عنه لأمر قد عنّ له ومن الحوادث ان ابن عثمان لما سكن فى بيت الاشرف قايتباى المطل على بركة الفيل وجرى الماء فى الخليج الحاكمى أمر بسد الخليج من عند قنطرة عمر شاه حتى تملأ بركة الفيل بسرعة وفى يوم الجمعة ثالث شعبان أشيع ان ابن عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده وخروجه من مصر فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك فى ذلك اليوم وصحبته جماعة من العثمانية بسبب اصلاح الآبار فى طريق غزة وتنظيف الطرقات من الوعر قبل خروج السلطان فلما تحقق عسكره أمر خروجه الى السفر لاسطنبول شرعوا فى عمل برقهم ومشترى أزوادهم فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك وفى يوم السبت رابع شعبان وقعت حادثة مهولة وهو أن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من عسكره نحو أربعة وعشرين انسانا وقيل أكثر من ذلك فلما قبض عليهم رسم بشنق جماعة منهم فى أماكن مختلفة وكلب منهم اثنين على باب زويلة واثنين على باب الصاغة واثنين بين القصرين والبقية عند جامع قوصون وشئ فى الصليبة وشئ فى قناطر السباع وأشيع أن سبب ذلك ان جماعة من الانكشارية قصدوا أن يقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس فاستدرك أمره وتحوّل الى بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله وفيه حضر الريس سلمان العثمانى الذى كان قد توجه صحبة المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى الى الهند وفيه أشيع أن الريس سلمان هو الذى أغرق حسين نائب جدة وكان بينهما عداوة من أيام الغورى فلما مات الغورى وظفر سلمان بحسين قتله على ما قيل ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان يعبث به ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك وأشيع أن الريس سلمان وحسين نائب جدة كانا قد تعاهدا بلاد الهند من بلاد الشيخ عامر وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصى هم والعسكر الذين توجهوا صحبتهما فى أيام الغورى وهم من عسكر الطبقة الخامسة التى كان جددها الغورى فى زمانه وفى يوم السبت حادى عشر شعبان كان يوم النوروز وهو أوّل السنة القبطية وفيه أشيع ان ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذى قرره فى نيابة السلطنة صحبة وتحقق الناس انه نائب السلطنة عوضا عن يونس باشا وكان ابن عثمان قرره فى نيابة السلطنة قبل ذلك وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذى تحت القلعة وهم لابسو الزرديات وفى أيديهم الرماح والاتراس وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول وفى يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة الوالى على أبواب المدينة وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام

وغيرهم فاذا قبضوا عليهم يضعونهم فى الحبال وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ومن شطوط مصر العتيقة وكذلك يقبضون على جمال السقائين بالروايا التى عليها فاضطربت أحوال الناس وغلقت الاسواق والدكاكين واختفت الناس فى البيوت وكثر القيل والقال فى ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب انهم يمسكون الخيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى اسطنبول فى المراكب فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا وأما سبب مسك جمال السقائين فانهم أشاعوا ان ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السقائين بالروايا الى ان يصل الى غزة لأجل عدم الماء فى الطريق من هنا الى غزة فامتنعت السقاؤن من الخروج فى هذه الايام وعز وجود الماء فضجت الناس لذلك وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية وفيه خرج الوالى الذى كان ابن عثمان قرره فى ولاية القاهرة فخرج وبرز الى الريدانية الى ان يخرج ابن عثمان وفيه أشيع ان ابن عثمان اطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم فى أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون ثم نادى فى القاهرة بان لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين فسكن الاضطراب قليلا وفتحت الدكاكين فى الاسواق وخمدت هذه الحركة قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده فى اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم وفى يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الازهر وصلى به الجمعة وتصدق فى ذلك اليوم بمال له صورة ثم شق من القاهرة فى موكب وكان ذلك آخر مواكبه فى القاهرة ثم رجع الى المكان الذى كان به وفى يوم الاثنين عشريه عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وصنع للمحمل الشريف كسوة وقد تباهى فى كسوة الكعبة بخلاف العادة وتباهى فى زركشة البرقع الى الغاية وكذلك فى ثوب المحمل الشريف وما أبقى فى ذلك ممكنا وفيه أطلق ملك الامراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا فى سجن الديلم فاطلقهم أجمعين وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا وفى يوم الاربعاء ثانى عشريه خرج القاضى محب الدين بن أجا كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالى يوسف بن الطحان فخرجت النساء فى محائر وشقادف فلما خرج القاضى كاتب السر سكن فى بيته الذى عند قنطرة سنقر الوزير يوسف البدرى وفى يوم الخميس ثالث عشرى شعبان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان فخرج من بيت السلطان قايتباى

الذى خلف حمام الفارقانى وشق من الصليبة وطلع الى الرميلة فخرج فى موكب حافل وقدامه ملك الامراء خاير بك نائب حلب وجان بردى الغزالى نائب الشام وقدام العسكر طبلان وزمران وعدة جنائب حربية وكان راكبا على بغلة صفراء عالية قيل انها من بغال السلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار وكان عليه قفطان مخمل أحمر وقدامه جماعة من الوزراء منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والامراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب فطلع من جهة الصور ونزل من جهة تربة الاشرف قايتباى ووقف هنالك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المرعبة ثم شق من بين الترب الى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذى نصب به ببركة الحاج ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس ولما خرج من بين الترب قسم عسكره فرقتين فرقة مرت من تحت الجبل الاحمر وفرقة من تربة العادل ثم تلاقوا على بركة الحاج ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخانقاه فنزل هنالك ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل الى المدينة ومن العجائب ان مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لانه خادم الحرمين الشريفين وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال أليس لى ملك مصر وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويتم أطفالها وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها فلم يدخل اليها أحد من الخوارج ولا ملكها قط أحد ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأشيع ان ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر وأخذ منها من كل شئ أحسنه مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبدا وكذلك ما غنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى وصار أقل ما فيهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف مما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك فارحلوا عن الديار المصرية الاوالناس فى غاية البلية وفى مدة اقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لاهلها الضرر الشامل وبطل منها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها ولم يعمل بها فى أيامه بمصر وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية

أشهر الا أياما قلائل ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشامية والحلبية من حين قتل الغورى واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر سنة وشهر واحد وهو مالك من الفرات الى مصر الى الشام ويخطب فيها باسمه وكذلك السكة على الذهب والفضة باسمه وكذلك ما حول العراقين وقد وعده الله بذلك وفى مدة اقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ولا رآه أحد ولا أنصف ظلاما من مظلوم بل كان مشغوفا بلذته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان المرد ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الجراكسة وما كان له أمان اذا أعطاه لاحد من الناس وليس له قول ولا فعل وكلامه ناقض ومنقوض لا يثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم فى أفعالهم وليس له سماط يعرف ولا نظام كعادة السلاطين فى سماطهم كانت تجلس عليه الخاصكية فى كل يوم وأما عسكره فكانوا جميعا عيونهم دنية ونفوسهم قذرة يأكلون الاكل وهم راكبون على خيولهم فى الاسواق وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين يتجاهرون بشرب الخمر فى الاسواق بين الناس ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظام يعرف لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم ولما خرج ابن عثمان من مصر رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فبرز سنيحه وخرج وسافر صحبته وأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بنيابة الشام بل قيل انه ولاه نيابة طرابلس ونيابة صفد ونيابة غزة ونيابة الرملة وبيت المقدس وجبل نابلس ولم يوله نيابة الشام فشق ذلك عليه ثم قرره فى نيابة الشام وتوجه اليها صحبته وفى يوم السبت خامس عشريه نادى خاير بك بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى فظهر منهم الجم الكثير وهم فى أسوأ حال فى زى الفلاحين وعليهم زنوط قرع وبرد سود وقصان بأكمام كارفا فاذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين وفيه وردت الاخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلبيس وحصل له توعك فى جسده فأرسل الى خاير بك يطلب محفة فأرسل له خاير بك محفة الى بلبيس وفى يوم الاحد سادس عشرى شعبان طلع المقر السيفى مملك الامراء خاير بك بن بلباى نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل فكان له موكب حافل وقدامه عدة جنائب بغواشى حرير أصفر وقدامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاة يرمون بالنفط وقدامه الجم الكثير من عسكر ابن عثمان فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس وطلع الى القلعة وأقام بها وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة وتقلبت الاحوال وكثرت الاقوال وقد قلت فى خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو

مصر أضحت فى سرور عندما * قد تولى للنيابه خير بك

فلسان الحال عنها قائل * يا لعمرى قد أتانى خيربك

فلما أقام خايربك بالقلعة أرسل خلف البنائين والنجارين والمبلطين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة ثم ان خايربك خلع على شخص من الاتراك يقال له كمشبغا وقرره فى ولاية القاهرة وهو مملوكه وفيه خلع ملك الامراء خايربك على جماعة من المباشرين وقررهم فى وظائف سنية فخلع على القاضى ناظر الجيش علاء الدين ابن الامام وقرره كاتب السر الشريف عوضا عن محمود بن أجا بحكم توجهه الى السفر كما تقدم وقرره ناظر الجيش أيضا عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص وأبقى علاء الدين فى نظارة الخاص مضافة لما بيده من هذه الوظائف وقيل انه قرره فى نظر الكسوة الشريفة وجعله أمير ركب المحمل أيضا فصار بيده خمسة وظائف سنية فقضاعفت عظمته فوق ما كان وخلع على الزينى بركات بن موسى وقرره مدبر المملكة وناظر الحسبة الشريفة وناظر المارستان المنصورى وناظر الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف وتزايدت عظمته واجتمعت الكلمة فيه وصار عزيز مصر فى هذه الفترة فتوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم وصار هو حاكم البلد وقد قلت فيه

يا نجل موسى عدت بالبركات فى * أعلى المراتب حيث كنت وأزيدا
قد كان قطعا زال عنك ولم تزل * فى السعد عمالا على رغم العدا

وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان وقرره نائب كاتب السر على عادته ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته وخلع على القاضى شرف الدين الصغير وقرره متحدثا فى ديوان الوزارة وخلع على الشرفى يونس النابلسى وقرره استادار العالية وصاحب الديوان المفرد وخلع على فخر الدين وأخيه شمس الدين كاتب المماليك وقررهما فى التحدث على جهات الذخيرة وخلع على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى استادارية الشعير وغير ذلك من الوظائف فنزلوا من القلعة وهم بالقفاطين المخمل عوضا عن الخلع فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد وهذا أول تصرف خايربك فى أحوال المملكة وفيه أشيع أنه قد عقد لخايربك على خوند مصر باى زوجة الظاهر قانصوه وفيه ظهر الزينى أبو بكر ابن الملكى وكان له مدة وهو مختف فلما ظهر خلع عليه خايربك قفطانا مخملا وقرره فى استيفاء الجيش على عادته وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى شعبان حضر الامير قايتباى الذى كان نائب الكرك وكان قد أرسله خايربك الى ابن عثمان بطالعة من عنده لاجل أن جماعة من عسكره الانكشارية ثاروا على خايربك وقالوا له رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة واجعل لنا لحما وعليقا مثل الجراكسة فقال لهم حتى أرسل أستأذن أستاذكم بذلك فأرسل الامير قايتباى نائب الكرك الى ابن عثمان بسبب ذلك فلما حضر ما علم

أحد بماذا أجاب ابن عثمان عن تلك المطالعة التى أرسلها بسبب جماعة الانكشارية كما تقدم فلما حضر قايتباى أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ولا يعلم ما سبب ذلك وكان يونس باشا أعظم وزرائه وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع الاتراك وكان قرره أولا فى أن يكون نائبا عنه بمصر ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك فى النيابة وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ويقال ان يونس باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على مملكة الروم دون اخوته فما زال يجتهد ويسعى حتى ولاه الروم ثم سار معه على ذلك حتى دخل الى مصر وملكها ولكن سليم شاه ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ولا أمان منه لاحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرهج والخفة ويحب سفك الدماء ولو كان لولده ويقال انه قتل أباه واخوته لاجل مملكة الروم وآخر الامر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه يرعى له الود القديم فكان كما قيل فى المعنى

ربما يرجو الفتى نفع فتى * خوفه أولى به من أمله

رب من ترجو به دفع الاذى * سوف ياتيك الاذى من قبله

فلما أشيع قتل يونس باشا اضطربت القاهرة وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر وخشوا من هجمة العرب على المدينة ثم سكن ذلك الاضطراب قليلا وفى شهر رمضان كان أوله يوم الخميس فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب من المدرسة المنصورية وقدامه الفوانيس موقودة والمشاعل كذلك على العادة وكان له موكب حافل فلما كان صبيحة شهر رمضان خلع ملك الامراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير وابن موسى قفطانين مخملين كما هى عادتهم فى أول شهر رمضان ونادوا فى القاهرة بان لا أحد يحتمى على الزينى بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة وفى يوم الخميس مستهل الشهر خلع ملك الامراء خاير بك على الامير قايتباى الشهير بنائب الكرك وقرره فى الدوادارية وكانت شاغرة من حين مات الامير علان الدوادار وفى يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى القلعة خوند مصرباى وقد تقدم القول بأن ملك الامراء خاير بك قد تزوج بها وطلعت الى القلعة فى ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبتها نساء كثيرة من نساء الاعيان وهن على حمير المكاريه وفى يوم الجمعة تاسع الشهر أشهروا فى القاهرة أربع نسوة وهن على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد قيل انهن كن يجمعن عندهن الاجانب من الاتراك فى شهر رمضان ويأتين لهم بالنساء الاجنبيات فغمز عليهن وأمر خاير بك باشهارهن على تلك الحالة وفى يوم السبت عاشره ظهر الامير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية وقد أرسل اليه ملك الامراء خاير بك منديل الامان وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة فلما طلع الى القلعة وقابل خاير بك خلع عليه قفطانا مخملا ونزل

فسكن فى بيت الامير قانصوه جركس الذى فى حارة السقائين وأشيع ظهور جماعة من الامراء العشراوات وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر وخلع عليه وعلى ولده بيبرس وقد التزما باصلاح جهات الشرقية ولم يتم ذلك واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من عبد الدائم بن بقر واخوته وفى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان وكان أول بابه من الشهور القبطية ثبت النيل المبارك على أربعة عشر اصبعا من تسعة عشر ذراعا واستمر فى ثبات الى آخر أيام بابه وشرق غالب بلاد الصعيد وأكثر البلاد العالية التى لا تروى الا من عشرين ذراعا وكان نيلا شحيحا من أوله الى آخره وفيه ظهر أبو البقاء ناظر الاسطبل وكان مختفيا فلما ظهر ألبسه خاير بك قفطانا مخملا وأقره على عادته متحدثا على جهات الاسطبل الخاص وفى يوم الاثنين المقدم ذكره عرض ملك الامراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع وكسوة مقام ابراهيم الخليل عليه السلام وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم وعدة ستور من قبل ابن عثمان وقد تناهوا فى زركشة البرقع ونسيج كسوة الكعبة الى الغاية بخلاف العادة فشقوا بها من القاهرة وقدامهم الاعيان من المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط وكان ذلك اليوم مشهودا فلما طلعوا الى القلعة عرضوا على خاير بك نائب السلطنة ثم رجعوا ثانيا من حيث جاؤا وفى يوم الاربعاء رابع عشر رمضان نادى ملك الامراء خاير بك بان المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون الخيول ويشترون السلاح وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيأ من آلة السلاح فشق ذلك على العثمانية ووقفوا لخاير بك فى الحوش وكلموه وأرادوا معه فتح باب الشر وقالوا له نحن ما يكفينا هذا القدر الذى رتبته لنا وهو ثلاثة أنصاف فى كل يوم وكل شئ فى السوق غال ثم قالوا له رتب لنا جوامك فى كل شهر ألفين ولحما وعليقا وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة وأغلظوا عليه فى القول فقال لهم ليس لى هذا التصرف لانى انما أنا نائب السلطنة وهذا لا يكون الا بأمر السلطان فهو الذى يفرق عليكم الاقطاعات ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله فقام ودخل البيت مسرعا وأغلق عليه الباب دونهم فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة وكادت أن تكون فتنة عظيمة وثاروا على خير الدين الذى جعله السلطان نائب القلعة فأغلق باب القلعة واختفى ثم أشيع ان خاير بك أرسل الى ابن عثمان ساعيا يخبره بما وقع من أمر هذه الحركة وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك وفى يوم الاحد ثامن عشر رمضان نادوا فى القاهرة بان المماليك الجراكسة الذين ظهروا يلبسون الزنوط الحمر والملاليط على عادتهم ولا يتزيوا بزى العثمانية ولا يخرجوا الى الطرقات وسبب

ذلك انه أشيع أن جماعة من الجراكسه يتزيون بزى العثمانية ويخرجون الى الطرقات ويخطفون عمائم الناس وما يلوح لهم من البضائع وغيرها فى جهة العثمانية فنادى خاربك تلك المناداة حتى تميزا لجراكسة من العثمانية ولم يفد ذلك شيأ وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج الشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومصلح الدين خازندار ابن عثمان وصحبتهما كسوة الكعبة الشريفة وهى محزومة محملة على الجمال وأشيع أنهما يتوجهان بها من البحر المالح الى جدة الى مكة المشرفة فكان لهما فى القاهرة موكب حافل وكان ذلك اليوم مشهودا وخرج صحبتهما ألفا عثمانى وقدامهم طبلان وزمران ورماة بالنفط وركب قدامهما الامير قايتباى الدوادار الكبير وأعيان المباشرين فلما خرجوا من القاهرة رجعت لهم مصر فخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الوطاق بالريدانية وفى ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانية على الزينى بركات بن موسى المحتسب بسبب الفلوس الجدد فان ابن عثمان ضرب فلوسا جددا وجعل فيها اسمه ورسم للسوقة ونادى لهم بأن يصرف كل ستة عشر جديدا بنصف فضة معاددة وكانت هذه الفلوس فى غاية الخفة فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ووقف حالهم وغلقت الدكاكين فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بان النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديد ليعرف الدرهم الفلوس من الدرهمين فى المعاملة فثارت العثمانية على ابن موسى وقالوا له هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان حتى تبطل من مصر معاملته وهموا بضربه فنادى فى ذلك اليوم بأن كل شئ على حاله من الفلوس كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان فى الاول فأغلقت السوقة دكاكينهم ورفعوا البضائع ووقع فى القاهرة بعض اضطراب وأشيع ان خاربك نائب السلطنة صنع من الخوازبق الحديد عدة وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوقة على باب القاهرة فلما أشيع ذلك خافت السوقة وفتحت الدكاكين ومشوا صرف النصف بستة عشر جديدا كما كان فى الاول وفى يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان نزل ملك الامراء خاربك من القلعة وتوجه الى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشهابى أحمد بن الجيعان فودعهما ورجع ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه نحو ألفين من العثمانية وجماعة مشاة يرمون بالنفط فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم وارتفعت له الاصوات بالدعاء من الناس قاطبة وهذا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة ثم فى يوم الخميس ثانى عشريه نزل ملك الامراء من القلعة ثانيا وتوجه الى باب الشعرية وزار الشيخ عبد القادر الدشطوطى وجلس عنده ساعة فقيل ان الشيخ عبد القادر قال له استوصى بالرعية فانك تسئل عن ذلك يوم القيامة فبكى خاربك وقبل يده وخرج من عنده وعاد الى القلعة من

يومه وفي يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ظهر الامير أرزمك الناشف أحد الامراء المقدمين فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الامراء خاير بك ومنديل الامان على رأسه قام له خاير بك واعتنقه وأجلسه بين يديه وكان لما طلع الى القلعة لابسا زى العرب وعليه زنط وشاش وملوطة بأكمام بكار فألبسه خاير بك قفطانا مخملا بتماسيح وألبسه عمامة عثمانية وكان لما قابله معه ستة أنفار مابين أمراء عشراوات وخاصكية فخلع عليهم قفاطين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن عدت لهم وفي يوم الاربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ختم صحيح البخارى بالقلعة وحضر ملك الامراء خاير بك والقضاة الاربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين فلما انفض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفاطين من جوخ أزرق بوجه صوف وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم وكان ختما حافلا وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل في ختم السلاطين الماضية في مثل هذا اليوم ولما سافر سليم شاه بن عثمان وخرج من مصر استمرت الخطبة والسكة عمالة في مصر باسمه فكان سائر الخطباء يدعون في يوم الجمعة باسمه ويقولون وانصر اللهم السلطان الملك المظفر سليم شاه وكذلك اسمه على الدنانير والدراهم والفلوس الجدد ثم كان مستهل شوال يوم السبت فطلع القضاة الاربعة وجماعة من أعيان المباشرين فخرج ملك الامراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعة ثم انه مد مدة حافلة لجماعة من العثمانية فنزلوا على ذلك السماط مثل الصقورة فلم يبق وا منه غير العظام ولم يفضل لغلمان القلعة شئ وكان خاير بك يظن أن الامراء الجراكسة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة فلم يطلع له أحد من هؤلاء وخافوا ان تكون مكيدة أو حيلة وكأن هذا اليوم لم يكن عيدا بل كان في غاية الخمود في كل شئ وفي هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ولا على أحد من المباشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة وفي يوم الثلاثاء حادى عشره نزل ملك الامراء خاير بك من القلعة وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ونصب له هناك خياما وأراد أن يبيت على شاطئ البحر وأحضر جماعة ممن يقلون السمك وقصد أن ينشرح في ذلك اليوم هناك فصنع له السيد نقيب الاشراف مدة حافلة وأحضرها هناك فخرج عليها جماعة من العثمانية في أثناء الطريق فخطفوا ذلك الاكل من فوق رؤس الحالين فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانية بسبب هذه الفعلة ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ولا مراعاة له في سائر الاحوال وفي ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك وأحضر جماعة من الصيادين في مراكب ومعهم أسماك كثيرة فصارت القلايون تقلى من هذه الاسماك وتطعم العسكر الذين بصحبته وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية وأقام هناك الى مابعد العصر ثم نزل في مركب وشق من جهة الروضة وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع فكان من مضمونها انه وصل الى الشام ودخل اليها وزينت له لما دخلها ومن مضمون تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من خاير بك أربعين ألف أردب شعير وقمح يرسلها له فى مراكب من البحر المالح الى الشام فألزم خاير بك المباشرين بذلك فأخذوا فى تجهيز ذلك وارساله من البحر كما برز الامر وفى أثناء هذا الشهر وردت الاخبار من عند الجماعة الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول بأن مركبا من المراكب التى توجهوا بها قد غرقت فى البحر المالح وغرق للناس فيها جملة مال وغرق فيها أربعمائة انسان وفيهم جماعة من الاعيان الذين خرجوا من مصر ولكن لم يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الاعيان وقد أشيع انه كان فيها بيبردى بن كسباى أحد الامراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة وقد تقدم القول على ذلك وكان بتلك المركب قراكز الجكمى رأس نوبة عصا الذى كان محتسبا بمكة وكان بها نحو أربعين مملوكا وكانوا صحبة باش المجاورين وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة وقد تقدم القول على ذلك وكان بتلك المركب محمد بن ابراهيم الشرابيشى الذى كان ناظر الاوقاف المتعلقة بالزمامية فى أيام السلطان الغورى وكان بها غير هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن وأشيع غرق جماعة من البزدارية الذين كانوا خرجوا من مصر ليتوجهوا الى اسطنبول وأشيع أن الطاعون عمال باسطنبول وبها الوخم والغلاء وهذا ما أشيع والله أعلم بصحة ذلك وفى يوم السبت خامس عشر شوال حضر أمير من عند ابن عثمان من الشام يقال له الامير على قيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن عثمان فخرج الامير قايتباى الدوادار الى ملاقاته فدخل من باب النصر وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية وجماعة من المماليك المتعلقين بملك الامراء خاير بك الذين كانوا بحلب قيل انهم نحو ثلثمائة مملوك فأنزلوا هذا القاصد فى بيت الاتابكى سودون العجمى الذى فى قنطرة سنقر فلم تصح هذه الاشاعة وأنزلوه فى مكان غير ذلك المكان الذى ذكروه فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان دخل الى الشام وهو مقيم بها وقيل انه يشتى هناك وان أهل الشام فى غاية الضنك والشدة من عسكره لانهم طردوهم عن بيوتهم وسكنوا بها وحصل منهم لاهل الشام الضرر الشامل أكثر مما حصل لاهل مصر وأخبر أن الغلاء بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة انصاف ولا توجد واختلفت الاقوال فى مجىء هذا القاصد فمن الناس من يقول جاء بسبب استمجال هذا المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ومن الناس من يقول ان ابن عثمان ولاه نيابة الاسكندرية وقيل جاء بسبب غير ذلك والاقوال فى ذلك كثيرة وفى يوم الاحد سادس عشره نزل ملك الامراء خاير بك من القلعة وتوجه

الى منشية المهرانى بسبب وسق المراكب بالمغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان فقيل جهز من المغل نحو ثلاثين ألف اردب قمحا وشعيرا وقيل أكثر من ذلك وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى موكب حافل وكان أمير ركب المحمل فى تلك السنة القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص الذى قرر فى كتابة السر كما تقدم وقد خرج الحاج فى هذه السنة ركبا واحدا الاول والمحمل معا وكان الحاج فى هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان فى الطريق لانه فى السنة الماضية فى دولة الاشرف طومان باى لم يخرج المحمل من القاهرة ولم يحج فيها من أهل مصر أحد ولما خرج القاضى ناظر الخاص طلب طلبا حربيا يشتمل على أربعة نوب هجن باكوار مخمل وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكنابيش زركش وثلاثة خزائن باغشية حرير أصفر ومحفة جوخ أزرق وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق وقد احتفل بعمل سنيج حافل بسبب من حج معه من العثمانية فى هذه السنة ولما شق من القاهرة كان قدامه الامير قايتباى الدوادار والامير ازمك الناشف أحد الامراء المقدمى الالوف الذى ظهر عن قريب والامير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره وركب قدامه سائر الاعيان من المباشرين من كبير وصغير ثم أتى بعده المحمل وقدامه القضاة الاربعة على العادة وممن حج فى هذه السنة من الاعيان قاضى القضاة محيى الدين المالكى وهو ابن الدميرى فألبسه خاير بك قفطانا مخملا وقرره قاضى المحمل وحج آخرون من الاعيان لا يحضرنى أسماؤهم الآن وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل فى هذه السنة فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش وكتب عليها اسمه ولما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة هذا ما كان من ملخص خروج المحمل فى ذلك اليوم وفى يوم السبت ثانى عشريه خلع ملك الامراء خاير بك على قانصوه العادلى قفطانا مخملا بتماسيح وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا وفى يوم الاحد ثالث عشريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانية أشيع عنهم أنهم يخطفون العمائم ويعرون الناس فى الطرقات وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد وتزايد منهم الفساد فلما قبض عليهم رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشنقوا على باب زويلة فشنق منهم اثنان على باب زويلة وواحد على باب الشعرية وأما الاثنان فقد شفع فيهما من الشنق فى ذلك اليوم فسجنا وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الاذى فى حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلاما ولا له عليهم حرمة وفى يوم الاثنين رابع عشرى شوال توجهت المماليك الجراكسة الى بيت الامير قايتباى الدوادار بسبب انه

وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك فى ذلك اليوم فطلع الى القلعة واجتمع بملك الامراء خاير بك وأقام بالقلعة الى قريب الظهر والمماليك الجراكسة فى انتظاره على بابه فلما نزل قال لهم يا أغوات شاورت ملك الامراء عن أمركم فقال حتى نجمع المال وننفق عليهم الجوامك ولم يواعدهم على يوم معين فرجعوا من عنده بغير طائل وقد صارت المماليك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعرى ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به ومنهم من يطوف فى الاسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها فسبحان من يعز ويذل وصاروا يمشون فى الاسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ولا اسطبلات ولا عبيد ولا غلمان وقد نظر الله اليهم بعين المقت جزاء بما كانوا يعملون فسبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه وفى يوم الاحد كان مستهل ذى القعدة الحرام فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنوا ملك الامراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر وعادوا الى بيوتهم وفى يوم الخميس خامسه خلع ملك الامراء على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان أولا فخلع عليه قفطانا مخملا عوضا عن المتمر وقد صارت الامراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم بقفطانات مخملة وبعضهم بقفطانات جوخ وطراطير جوخ أسود وعليهم عمائم مدورة وفى أرجلهم سقمانات جلد فى زى العثمانية فصارت الامراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على هذه الهيئة واختلط العثمانية مع الجراكسة حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا لابشئ واحد وهو ان المماليك الجراكسة تعرف بذقونهم والعثمانية بغير ذقون وقد قلت فى هذا المعنى مواليا

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان * واخلع ثياب المواكب واتبع السلطان
فى لبس سقمان أو طرطور أو قفطان * وكن مع القوم فى الملبوس والأوطان

وفى يوم الاحد ثامن الشهر نزل ملك الامراء خاير بك من القلعة باكر النهار وتوجه الى نحو قبة الامير يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام هناك الى آخر النهار ومد فى ذلك اليوم مدة حافلة وأهديت اليه جماعة من المباشرين مجامع حلوى ومشنات فاكهة وسكر اوخرفان شوى وأقفاص أوز ودجاج وغير ذلك أشياء فاخرة على أعناق الحمالين وظهور الدواب وكان يوما سلطانيا ولم يتم حتى وقعت حادثة وهى انه فى ذلك اليوم بعد العصر نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الاحمر بالقرب من سبيل علان فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمح وبطيخ فأخذوا منهم نحو أربعين جملا وذهبوا بها الى الجبل ومضوا بها ولم تنتطح فيها شاتان فلما بلغ ملك الامراء ذلك تنكد غاية النكد بسبب ذلك فلما ذهبت العرب بالجمال أتى الفلاحون الى ملك الامراء واستغاثوا بين يديه وبكوا فقام من وقته

وهو منكد وطلع الى القلعة بعد العصر ولم يخرج من يده شئ فى رد الجمال من أيدى العربان
الى أصحابها وفى يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة حضر الى الابواب الشريفة شيخ العرب
عبد الدائم ابن شيخ العرب أحمد بن بقر شيخ عربان الشرقية وقد حضر بالامان من ملك
الامراء خاير بك وكان أرسل اليه منديل الامان على يد الامير قانصوه العادلى كاشف
الشرقية فلما توجه اليه صار يتلطف به فى الكلام ويخادعه ولا زال به حتى أطاع وحضر
صحبته وكان عبد الدائم عاصيا على السلطنة من أيام السلطان الغورى لم يدخل تحت طاعة
ثم عصى على ابن عثمان فلما أرسل اليه خاير بك قانصوه العادلى بالامان حضر وقابل
خاير بك وصحبته تقدمة ما بين خيول وجمال وأغنام فلما مثل بين يدى ملك الامراء
خاير بك خلع عليه قفطانا مخملا ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه رايات زعفران
وكان عبد الدائم هذا من أكبر المفسدين فى الشرقية فخرب غالب بلاد الشرقية ونهب
أموالها وقطع الطريق على القوافل الواردة من الشام فى مدة فتنة ابن عثمان وأخذ
مالا يحصى من أموال التجار وقتل جماعة من المماليك السلطانية وأخذ ما كان معهم من
الخيول والسلاح وكذلك الامراء الجراكسة لما وقعت عليهم الكسرة فى الريدانية
وتشتتوا فى بلاد الشرقية فصار يأخذ ما عليهم من الثياب والسلاح والخيول وغير ذلك وجمع
أموالا وتحفا لم تجمع لآبائه ولا اجداده وقد غنم أموال التجار وأموال العسكر من المماليك
الجراكسة وغيرهم من أموال المقطعين من البلاد وعمل من المفاسد فى الشرقية ما لا يسمع
بمثله وفى يوم الخميس تاسع عشر ذى القعدة وقع فى القاهرة اضطراب عظيم وغلقت أبواب
المدينة قاطبة حتى غلقت أبواب الدروب والخوخ التى بالحارات وأقامت الابواب مغلقة
الى ضحوة النهار ثم فتحت بعد ذلك وسبب ذلك أن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة الذى
كان سببا لمسك السلطان طومان باى تحيل عليه السلطان سليم شاه بن عثمان حتى قبض
عليه وقيده بقيدين وأودعه فى الاعتقال فى طبقة عند باب القلعة ووكل به جماعة من
العثمانية يحفظونه فأقام على ذلك مدة وغافلهم وبرد القيدين بمبرد حديد وتدلى بحبل من
السور الذى بالقلعة وهرب بعد العشاء من القلعة فلما بلغ ملك الامراء هروب حسن بن
مرعى من القلعة تنكد لذلك غاية النكد وهرب حسن بن مرعى وفاز بذلك وتخوف الناس
من هروبه وفيه وردت الاخبار من الشام بأنه لما أقام بها ابن عثمان وقع بها فى تلك الايام
وخم عظيم ومات من عسكره جماعة كثيرة من ذلك الوخم وأشيع موت حليم چلبى فقيه ابن
عثمان ونديمه وأشيع موت أخى حليم چلبى أيضا ومات من أمرائه جماعة كثيرة وانه وقع
بالشام غلاء عظيم حتى وصلت كل عليقة الى خمسة أنصاف ووصل سعر الرغيف الخبز
نصف فضة وان عسكره تقلق من الغلاء والوخم وتفرقوا عنه فى الضياع والجبال وأشيع أن

عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ونهب الفواكه من فوق الاشجار ورعت خيولهم فى الغيطان وأكلوا أوراق الاشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لاهل الشام غاية الضرر أكثر ما حصل منهم فى حق أهل مصر من الفساد بها ومن الحوادث الشنيعة ما وقع فى هذا الشهر من أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد منهم يونس النابلسى الاستادار وفخر الدين وأخوه أولاد ابن عوض وبركات أخو شرف الدين الصغير وشرف الدين الكبير وأبو بكر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش وبركات ابن موسى وعلاء الدين ناظر الخاص وعبد العظيم استادار الشعير فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون اتفقوا على أخذ أموال المسلمين فاستباحوا أموالهم ودماءهم وماذا الا أن غالب البلاد قد شرق فى هذه السنة بسبب خسة النيل وكان المباشرون التزموا بتغليق المال الذى على البلاد فلما حصل هذا الشراقى ضربوا مشورة بين بعضهم وقالوا نحن فى العام الماضى أوقفنا اقطاعات أولاد الناس التى بالمناشير وأخذنا خراجهم وفى هذه السنة أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية ونضع أيدينا على خراجها فى هذه السنة فى نظير شراقى البلاد فطلعوا الى ملك الامراء خاير بك وعرضوا عليه ذلك وحسنوا له عبارة فى استخراج خراج الرزق فى هذه السنة فى نظير الشراقى فقال لهم انزلوا افعلوا ذلك فنزلوا من عنده وأطلقوا فى الناس النار وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد ليستخرجوا منها الاموال من الرزق التى بالمربعات قاطبة حتى الرزق الاحباسية ولو كانت الرزقة تشترى بمربعة شريفة فضجت أولاد الناس والنساء الارامل من هذه الحادثة المهولة وحصل الضرر الشامل للارامل والايتام والله تعالى لا يغفل ولا ينام وصار الناس يقفون الى ملك الامراء خاير بك ويشكون اليه ذلك فيقول لهم أنا أوقفت المناشير والمربعات بأمر الخشكار ابن عثمان فنزلوا من عنده فى أسوإ حال وصاروا يسألون الاستادار بمال يدفعونه له حتى يفرج عن رزقهم فلا يجيبهم ولا يقضى لهم حاجة ثم ان فخر الدين بن عوض لاجزاه الله خيرا استدرج من الرزق الى خراج بلاد الاوقاف التى كانت بالمكاتيب الشرعية فصار يستخرج خراج الاوقاف ويأكله على أصحابه رغما عن أنفهم فحصل للناس فى هذه الحركة غاية الضرر الشامل وقد اشتد الامر على الناس بسبب ذلك وكل هذا من المباشرين وأذاهم فى حق المسلمين وقد قلت فى المعنى مواليا

كان ابن عثمان مذ جا مصر مثل الضيف * رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف * أطراف أقلامهم تفعل مثل فعل السيف

وفى يوم الاحد ثانى عشرى ذى القعدة خرج الامير قايتباى الدوادار وعدى الى برا الجيزة وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل

وقد أشيع أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتنوا مع عرب عزالة وحصل منهم غاية الفساد فخرج الامير قايتباى وصحبته تجريدة وعسكر من الجراكسة بسبب العربان وطردهم عن البلاد فخرج وأقام فى برا الجيزة الى أن يتكامل العسكر وفى يوم الاثنين ثالث عشريه اجتمع المماليك الجراكسة فى بيت الامير قايتباى الدوادار وهو بيت الاتابكى قرقماس الذى عند حوض العظام واجتمع القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ولم يكن الامير قايتباى الدوادار حاضرا بل حضر أخوه جان بك فأنفقوا على المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة فأنفقوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشريه وأنفقوا يوم الاربعاء ويوم الخميس أيضا وقد ظهر من المماليك الجراكسة الجم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك وقد كانوا موزعين فى البلاد عند الفلاحين وآخرون قد اختفوا فى البيوت والحارات حتى خمدت الفتنة ثم ظهروا بعد ذلك وفى يوم الخميس سادس عشريه أشيع أن الامير قايتباى الدوادار لما توجه الى برا الجيزة بسبب فساد العربان وأقام هناك أياما حتى يتكامل خروج العسكر وردت الاخبار بأن العسكر العثمانى لما توجهوا الى هناك وقع بينهم خلف فى بعضهم فوثبوا على باشهم وهو شخص من أمراء ابن عثمان ورام قتله فهرب واستجار بالامير قايتباى فلما جرى ذلك أرسل الامير قايتباى كاتب الملك الامراء بما جرى من العثمانية فى حق باشهم ثم أشيع واستفاض بين الناس أن جماعة شيخ عربان عزالة قد حضر عند ملك الامراء خاير بك وأخبره أن العربان الذين أتوا الى برا الجيزة عدة قبائل لا تحصى وان العسكر الذى أرسله لا يقاوم هذه العربان الكثيرة فانهم فوق العشرين ألف انسان ونشأ هذا كله من حسن بن مرعى لما هرب من الحبس فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد ثم قال له ان لم تخرج أنت بنفسك وتمدى برا الجيزة والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم فصلى ملك الامراء خاير بك صلاة الفجر ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط والجم الكثير من العثمانية ومعهم صناجق حرير أحمر فشق من الصليبة وتوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزة وفى يوم الجمعة سابع عشريه حضر الامير قايتباى الدوادار وكان قد خرج باش التجريدة التى توجهت الى العرب وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعى وترافع هو والعربان الى الاودية والجبال وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذى أهمل فى أمر حسن بن مرعى حتى أخلى من وجه العسكر ومضى بنجعه ودخل الى الاودية والجبال وفى آخر هذا الشهر وقع بين القاضى فخر الدين بن عوض وبين خشقدم الاشرفى مملوك السلطان الغورى الذى كان شادا السون وهرب وتوجه الى بلاد ابن عثمان

وكان سببا لانشاء هذه الفتنة بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان الغورى وقد تقدم القول على ذلك فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها قرر خشقدم هذا كاشف أسيوط مع منفلوط فلما رحل ابن عثمان عن مصر وقرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر عزل خشقدم من التحدث على أسيوط فلما حضر خشقدم من أسيوط وقعت بينه وبين فخر الدين بن عوض فتنة بسبب الرزق التى هنالك فحصل بينهما تشاجر عظيم فتشاتما وتساابا سبا قبيحا وقال فخر الدين بن عوض لخشقدم أنت كنت سببا لوقوع الفتنة بين أستاذنا الغورى وبين ابن عثمان فتحمل خشقدم من فخر الدين بن عوض وشق عليه ذلك فلما كان يوم السبت ثامن عشرى ذى الحجة طلع خشقدم الى القلعة ووقف الى ملك الامراء خاير بك وشكى له فخر الدين بن عوض فيما قاله فى حقه فتعصب له جماعة من العثمانية وأغلظوا على خاير بك فى القول بسبب فخر الدين بن عوض فلما طلع ابن عوض الى القلعة يوم السبت وبخه خاير بك بالكلام وقامت عليه النائرة من أمراء ابن عثمان الذين بمصر وقالوا له هذا خلى أستاذه الغورى وهرب من عنده وجاء الى الخشكار وصار من جماعته وأنت تبهدله وتشتمه فقامت البينة على ابن عوض بأنه شتم خشقدم وسبه فغضب خاير بك على ابن عوض وأمر بوضعه فى الحديد وأسلمه للوالى ورسم له بان يوسطه فقصد الوالى أن ينزل به من القلعة ليوسطه فقامت جماعة من المباشرين وتداخلوا على خشقدم وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض فدخل الى ملك الامراء خاير بك وشفع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض فى ذلك اليوم غاية البهدلة من أمراء ابن عثمان بسبب خشقدم وكان ابن عوض مستحقا لذلك فانه صار فى هذه الايام من وسائط السوء ولا سيما ما فعله فى جهات الغربية ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم واستخراج خراجهم وضاعت على الناس حقوقهم وحصل منه الضرر البليغ ولا حول ولا قوة الا بالله وفى ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج وقد حضر فى السابع والعشرين من ذى الحجة وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء وقد وصل الحمل الدقيق الى أربعين دينارا ووصل الاردب القمح الى عشر أشرفيات ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات وكذلك اشتد السعر فى سائر البضائع والاصناف والغلال وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى حتى وصل كراء الموهية الى أربعين دينارا وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة وان أمير مكة السيد الشريف نادى فى مكة ان لا أحد من الناس يجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد جاور بمكة وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان وغير ذلك من الاعيان والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بمكة انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وقد خرجت هذه السنة على خير وكانت سنة صعبة شديدة على الناس كثيرة الحوادث والفتن جرى فيها

أمور شنيعة لم تجر فى سالف الازمان وقتل فيها جماعة من الامراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلما فقتل من الناس ما لا يحصى عددهم ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم الاشرف الغورى والاشرف طومان باى والظاهر قانصوه قتل فى البرج بثغر الاسكندرية وتغير فيها ثلاث دول وخربت فيها دور كثيرة ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى وتيتم فيها أطفال وترملت فيها نساء وجرت فيها مفاسد كثيرة لم يسمع بمثلها ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا فى زمن بختنصر البابلى فانه أخرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا فكان النيل يطلع وينهبط ويفرش على الارض فلا يجد من يزرع شيأ من أراضيها وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ورد العاقبة الى خير وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه ذكر فيه ان فى هذا القرن يبدو الخراب فى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ثم يتزايد الامر الى سنة خمسين وتسعمائة فيقع فيها فناء عظيم حتى يفنى من أهل مصر نحو النصف وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة ومن أعظم مساوى ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالديار المصرية ونفيهم الى اسطنبول ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول

﴿ذكر من توجه فى هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية﴾

وهم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب وأولاد ابن عمه سيدى خليل وهما أبو بكر وسيدى أحمد ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الاشرف اينال ومن أولاد الامراء الشركسية يونس ابن الاتابكى سودون العجمى والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الاشرف قايتباى ومن الامراء بيردى بن كسباى الذى كان باش المجاورين بمكة أحد الامراء العشراوات وقراكز الجكمى أحد الامراء العشراوات وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة وجان بك دوادار الامير طراباى ومن أولاد الناس الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ويوسف بن أبى الفرج الذى كان نقيب الجيش ويحيى بكار الذى كان دوادار الوالى ومن نواب السادة الشافعية الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة كمال الدين الطويل والشيخ شرف الدين بن دوق والشيخ شمس الدين الحلبى والشيخ شمس الدين بن وحيش والشيخ كمال الدين بن مظفر والشيخ بدر الدين البلقينى والشيخ برهان الدين الابناسى والشيخ شمس الدين الحجازى والشيخ شمس الدين بن الادمى الدمياطى والقاضى شمس الدين المقسى العزيزى والسيد الشريف الحجار والقاضى ولى الدين البتنونى ابن الشرمساحى والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الاتميدى ومن نواب السادة

الحنفية الشيخ زين الدين الشرنقاشي والسيد الشريف البرديني والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودي والشيخ بدر الدين محمد بن الرومي ومن نواب السادة المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيشي والشيخ شهاب الدين الابشادي ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيثمي والشيخ جلال الدين الطنبدي والقاضي جمال الدين الحنبلي وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانية فهم المقر الشهابي أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف وابن أخيه بدر الدين بن كمال الدين والجناب الشمسي محمد ابن القاضي صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزائن الشريفة والقاضي زين الدين عبد القادر بن الملكي مستوفي ديوان الجيوش المنصورة والشمسي محمد البارزي ومن كتاب المماليك وغيرهم شمس الدين محمد بن فخر الدين وسعد الدين وفرج وكريم الدين وفتح الدين من أولاد ابن فخيرة وابن أبي المنصور ومحمد بن عبد العظيم ومحيي الدين بن بهاء الدين من أولاد ابن البقري وأبو الحسن بن الرقيق وعبد العظيم بن غالب ويحيى بن الطنساوي وشهاب الدين بن عبد العظيم وعبد العظيم بن تقي الدين ناظر الزردخاناه وولده زين الدين وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادني وكمال الدين من أولاد ابن البقري وشرف الدين وعلي المرجوشي وأخو يونس الاستادار وابن الزكي ومحمد بن علي كاتب الخزانة وأحمد ابن قريميط وعبد القادر بن قريميط وأبو السعادات وأفضل الدين المنوفي وناصر الدين العزي الموقع وولي الدين ناظر المواريث وعامل المواريث وسعد الدين أخو علاء الدين ناظر الخاص وبركات المنوفي وسعد الدين المنوفي ومحمد الكويز ناظر الخاص وأحمد بن حشو البطن وابن نصر الله وكريم الدين صهر عبد الفتاح ومحمد بن أبي غالب وصفي الدين بن الهيصم وتاج الدين بن البقري وشقيقه بركات بن سلمان وكمال الدين بن الناصري وعبد الرحمن مباشر أميراخور كبير وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه وأبو الفضل مباشر الوالي ورفيقه والعبادي ورفيقه وبدر الدين مباشر الامير انسباي وكمال الدين العائق مباشر أميراخور كبير وآخرون من المباشرين لم تحضرني أسماؤهم الآن ومن أعيان الناس المهتار محمد النحولي مهتار السلطان الغوري كان والمهتار سليمان ومحمد بن يوسف الذي كان ناظر الاوقاف وعلم الدين جلبي السلطان الغوري وعلي مقدم الدولة ومن الزرد كاشية يحيى بن يونس ومحمد العادلي الشهير بابن البدوية وزين العابدين بن محمود الاعور وجماعة من السيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الاسمر وأحمد الديروطي وأولاد ابن نفيس وعلي بن خشيم ومن تجار سوق مرجوش ابن الشقيرة وأبو الفوز الحصاني وبدر الدين شيخ سوق الغزل ومن تجار المغاربة الشيخ سالم التاجوري وسعيد اللبدي وأبو سعيد وآخرون لم تحضرني أسماؤهم من المباشرين والتجار بأسواق القاهرة وغيرها

ومن الخدام مقدم المماليك سنبل العثمانى ونائبه وعثمان الرومى وشهاب الدين أحمد الجارحى قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ومن البزدارية كمال الدين بن بزدار أمير كبير وعبد القادر بن المنقار وابن الشيخ محمد بن رسلان وناصر الدين واسمعيل ومحمد الكاتب وأبو بكر وابن السمينى ويحيى بن يحيى وبركات بن المبيض ومحمد بن الجيعان وبركات النائب وسعد الدين بن البحلاق ويحيى مقدم الخاص وحسن نائب البرماوى والسوهاجى ومحمد قطارة ومحمد بن فروشيخ جهات الأميرية وآخرون ما يحضرنى أسماؤهم الآن ومن رؤس النوب فرج بن البردينى وآخرون ومن مقدمى السقائين عبيد وأبو الخير وابن فريخ النار ويوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلا جماعة كثيرة لم يحضرنى أسماؤهم الآن وقد زعموا أن الخشكار بن عثمان يقصد أن ينشئ له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى التى بالشرابشيين ويوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرية ومن طائفة النصارى بانوب الكاتب بالخزائن الشريفة وأبو سعيد وأمين الدولة ويوحنا الصغير ويوسف بن هبول وشيخ الملكيين الاسكندرى وولده وآخرون من النصارى واليهود لم يحضرنى أسماؤهم فيقال ان جميع من خرج من أهل مصر ويوجه الى اسطنبول دون الالف انسان والله أعلم بحقيقة ذلك وفيهم نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ومنهم كبار ولم تقاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ولا سمع بمثلها فى التواريخ القديمة وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ففارقت الناس أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم الى بلد لم يطؤها قط وخالطوا أقواما غير جنسهم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وكانت سنة مشومة على الناس مباركة على المباشرين الذين بمصر وصاروا هم الملوك يتصرفون فى المملكة بما يختارونه من الامور ولا سيما ما فعلوه فى جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد ووضعوا أيديهم على رزق الناس والاقطاعات ثم استدرجوا الى أن أخذوا أموال الناس بغير حق شرعى ثم استدرجوا ثانيا الى أن أخذوا أموال الاوقاف وصار وليس على يدهم يد يفعلون ما شاؤا من هذا النمط فغنموا فى هذه السنة أموالا جزيلة من البلاد مما أخذوه من خراج الناس فكان مجىء ابن عثمان غنيمة للمباشرين وبعض الافراد الذى أودع عندهم الامراء الجراكسة والعسكر الاموال والقماش وقتلوا فى الواقعة فقعدوا على تلك الودائع وراحت على من راحت فكان كما يقال فى المعنى * مصائب قوم عند قوم فوائد * انتهى

❁ (ثم دخلت سنة أربع وعشرين وتسعمائة) فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء فطلع القضاة الى القلعة وهنوا ملك الامراء خاير بك بالعام الجديد ثم رجعوا

الى دورهم فلما كان يوم السبت رابع المحرم شكى الناس من أذى العثمانية الذين بمصر وتزايد منهم الفساد فى حق الناس وصاروا يتوجهون الى الاماكن التى فى زقاق الكحل والمسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والازبكية ويأخذون مافيها من الابواب والسقوف والشبابيك الحديد والطيقان ويحملونها على الجمال بين الناس على النداء والاجهار ويبيعونها بأبخس الاثمان ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ثم صاروا يطلعون بالنساء الى القلعة ويتحشرون بهن فى اطباق المماليك الذين بالقلعة وصنعوا بالطباق اطباق بوز وصارت خانه برسم حرافهم وصاروا يأخذون ما بالطباق من الابواب والسقوف ويطبخون بها الطعام حتى أخربوا غالب السقوف التى بالقلعة ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والازقة والاسواق فى النهار والليل وصار الناس على رؤسهم طيرة من العثمانية ويجدون القتلى مرمية فى الطرقات فلما تزايد هذا الامر دخل جماعة من الناس الى القاضى الذى جعله ابن عثمان فى المدرسة الصالحية أمينا على قضاة مصر فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الامير قايتباى الدوادار وأركبه وطلع به الى القلعة وأخبروا الملك الامراء خاير بك بهذه الاحوال التى تصدر من العثمانية ثم ان قاضى ابن عثمان أغلظ على خاير بك فى القول وقال له انظر فى أحوال المسلمين والا تخرب مصر عن آخرها فقد فسدت الاحوال جدا ومتى بلغ الخنكار هذه الاخبار يرسل يضرب أعناقنا ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر وغفلتم عن أحوال المسلمين حتى جرى فيها ما جرى فلما سمع ملك الامراء خاير بك هذا الكلام وعد القاضى والامير قايتباى الى يوم السبت حادى عشر الشهر فاحضر الانكشارية والاصباهية وعرضهم وفحص عمن يفعل هذا منهما ثم ان خاير بك نادى فى القاهرة بان لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبى أمرد ولا يتوجهون فى هذا الشهر الى السيدة نفيسة ولا الى مشهد الحسين ولا الى بين القصرين وان الدكاكين والاسواق تغلق بعد المغرب ولا يمشى أحد من الناس بعد المغرب وفى يوم الاحد ثانى عشر المحرم حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعموا انهما من أعيان أمرائه وقيل ان أحدهما أغات طائفة الانكشارية والآخر أغات الاصباهية فلما بلغ ملك الامراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما وكان لهما موكب حافل فطلعا الى القلعة واجتمعت الامراء العثمانية والامير قايتباى الدوادار وقرؤا مطالعة الخنكار ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الامير ازمك الناشف أحد الامراء المقدمين والامير قانصوه العادلى كاشف الشرقية والامير تمربای العادلى وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباهية الذين كان قد تركهم بمصر فكثر القيل والقال فى ذلك فلما كان يوم

الثلاثاء

الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الامراء خاربك الى الامير ازمك الناشف أحد الامراء المقدمين والامير قانصوه العادلى كاشف الشرقية والامير تمربای العادلى وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباهية الذين كان قد تركهم بمصر فكثر القال والقيل فى ذلك وأرسل ملك الامراء خاربك الى الامير ازمك الناشف أربعمائة دينار وقال له هذه نفقة السفر فاعمل بها برقك واخرج سافر فشكى ازمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعمل برق السفر ثم ركب وتوجه الى بيت الامير قايتباى الدوادار وشكى له من أمر هذه النفقة فقال له اصبر حتى أطلع الى ملك الامراء خاربك فى ذلك اليوم ثم فى يوم الاربعاء خامس عشره أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشارية والاصباهية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان وخرج بعضهم الى نحو الشرقية والغربية وتفرقوا فى البلاد ومن الحوادث الغريبة انه فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر وصار ضد السليم شاه بن عثمان وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف على عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم وسافر قاسم بك هذا صحبة الاشرف قانصوه الغورى الى حلب وصنع له برقا وسنيجاحا فلا وجعل له صنجق من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم وحضر الواقعة التى كانت فى مرج دابق فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى رجع قاسم بك صحبة الامراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب فلما قبضوا عليه وشنق اختفى قاسم بك ولم يعلم له خبر مدة طويلة وقد فاته القتل مرارا عديدة وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا وكان عسكر ابن عثمان قصدهم المخامرة عليه والتوجه الى قاسم بك وقد أشيع بين الناس أنه لما هرب بعد كسرة طومان باى توجه مع بعض العربان الى نحو الجبل الاخضر الذى باعلى البحيرة وكان قد نسى أمره فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم قد قبضوا عليه فى مكان عند العطوف بالقرب من البرقية وقد غمز عليه بعض غلمانه فى ذلك المكان فتوجه اليه كشبغا والى القاهرة وشخص آخر يقال له جانم الحزاوى شاد الشون من خدمة ملك الامراء خاربك وهو دواداره الآن فتوجها اليه وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور فلما قبضوا عليه عرّوه من أثوابه وقلعوه عمامته وألبسوه برنسا أسود وغطوا وجهه وسبب ذلك انهم خشوا ان العثمانية متى بلغهم انهم

قبضوا عليه وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه وتثور بين العثمانيين فتنة عظيمة وتكون سببا لزوال ملك سليم شاه بن عثمان فلما طلعوا به الى القلعة بعد العصر قريب المغرب من يوم الجمعة عرضوه على ملك الامراء خاير بك فرسم بادخاله الى سجن العرقانة الذى هو داخل الحوش السلطانى فادخلوه به وأغلقوا عليه باب السجن ثم اجتمع ملك الامراء خاير بك والامير قايتباى الدوادار ومن الامراء العثمانيين فائق بك وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب القلعة فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر قاسم بك فقال ملك الامراء خاير بك دعوه فى السجن وأرسلوا كاتبوا الخنكار فى أمره وانتظروا الجواب فيما يرسم به فقال فائق بك هذا ما هو رأى متى بات فى قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة فلما دخل وقت العشاء أحضروا المشاعلى ودخلوا عليه وهو فى العرقانة فخنقوه بها وكان آخر العهد به فلما أصبح يوم السبت ثامن عشره أخرجوا قاسم بك من العرقانة وهو ميت ورقدوه على مسطبة بالحوش وكشفوا عن وجهه وأرسلوا خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه فقالوا لهم هذا قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن عثمان ثم صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ثم شهد منهم جماعة كثيرة ان هذا هو قاسم بك ابن أحمد بك ابن عثمان ثم بعد ذلك أرسل ملك الامراء خاير بك خلف قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى وقامت عندهما البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا فكتبوا بذلك محضرا وثبت عند قاضى القضاة ثم انهم شرعوا فى تجهيز قاسم فغسلوه وكفنوه وأخرجوه قدام الدكة التى بالحوش السلطانى فصلوا عليه هناك وكان الذى صلى عليه قاضى القضاة الشافعى وكانوا أطلقوا له النداء فى القاهرة بأن الصلاة على الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان فانه ينزل من القلعة ثم ان ملك الامراء خاير بك أشهر المناداة فى القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمان صلاة الغيبة فى الجوامع كل هذا حتى يتحقق الناس موته عن يقين فلما صلوا عليه بالحوش حملت الامراء نعشه على أكتافهم ثم نزلوا به من سلم المدرج ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علما أبيض ثم توجهوا به الى تربة الجمالى فدفنوه فيها على أقاربه وكانت جنازته مشهودة وكثر عليه الاسف والحزن من الناس فانه كان شابا جميل الصورة حسن المنظر له من العمر سبع عشرة سنة وقد قتل ظلما بغير ذنب وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوها فى علبة وتوجه بها جانم الحزاوى هى والمحضر الى الخنكار بالشام هذا ما أشيع واستفاض بين الناس والله أعلم بصحة ذلك وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الاشرف طومان باى وقتله فتعجب الناس من قوة سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الى منتهاه وهذا أمر من الله تعالى ليس فى قدرة بشر وكانت الناس

تظن ان قاسم بك هذا سيلى مملكة الروم بعد عمه سليم شاه فخابت فيه الظنون وعاجله ريب المنون وكان ذلك مما سبقت به الاقدار والحكم لله الواحد القهار وفى يوم الاحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على المماليك الجراكسة فى بيت الامير قايتباى الدوادار فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم وهى جامكية شهر واحد فأنفقوا عليهم يوم الاحد ويوم الاثنين وفى ذلك اليوم نادى ملك الامراء خاير بك فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى فى بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان وكل من خبأ عنده أحدا وغمز عليه شنق على باب داره من غير معاودة وسبب ذلك ان الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباهية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا فى الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هاربين فى البلاد وأظهروا العصيان وقد تقدم القول على ذلك وفى يوم الاثنين سابع عشريه أشهروا المناداة فى القاهرة حسبما رسم ملك الامراء بان جميع الانكشارية والاصباهية يخرجون يوم الاثنين صحبة القصاد وكل من تأخر منهم شنق من غير معاودة فشق من القاهرة جماعة من الامراء العثمانية وقدامهم مشاعلى ينادى بالتركى وآخر ينادى بالعربى وذلك بعد الظهر فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الى نحو الشرقية وقد التفت عليهم المماليك الجراكسة وصاروا يرمون بينهم وبين الامراء العثمانية الذين بمصر الفتن حتى يقع بينهم الشر ويظهروا العصيان على ابن عثمان وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحمل الشريف والقاضى علاء الدين ناظر الخاص أمير ركب المحمل وقاضى قضاة المالكية محيى الدين بن الدميرى وبقية الحجاج وأخبروا أنهم قاسوا فى هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال وفساد العربان فى الطريق وكثرة الامطار والسيول وقلة العليق ومشى غالب الحجاج على أقدامهم فى الرجعة وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج فى الطريق من البر والصدقات وفعل الخير وكان اذا رأى أحدا من الحجاج منقطعا يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبقسماط فى الطلعة والرجعة فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم وقد رفق بهم فى مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج وقد أثنوا عليه خيرا وفى يوم الاربعاء تاسع عشريه دخل الى القاهرة الامير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرقية وكان أشيع عنه العصيان من حين عين للسفر فأتى لتبطل عنه الاشاعات فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الامراء خاير بك قفطانا مخملا مذهبا ونزل يعمل برقه وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان فى خلف بينهم بسبب السفر الى الشام واستمرت الانكشارية فى أمر العصيان عن السفر وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ويقبضون على نسائهم اللاتى تزوجن بهن من مصر وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك وفى صفر الخير وكان

مستهل يوم الجمعة طلع القضاة الاربعة الى القلعة فهنؤا ملك الامراء خاربك بالشهر
ورجعوا الى دورهم وفى هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين
منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم فخرجوا صحبة القصاد الذين جاؤا لطلبهم من الشام
حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان قيل انه أرسل يطلب ألف انسان من الاصباهية
ومن الانكشارية أربعمائة انسان وفى يوم الاثنين رابع صفر خرج بقية العسكر العثمانى
الذى تعين للسفر وخرج الامراء المعينون للسفر وهم الامير أرزمك الناشف أحد المقدمين
والامير قانصوه العادلى كاشف الشرقية والامير تمربای العادلى والامير خشقدم الاشرفى
الذى كان شاد الشون أيام السلطان الغورى ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ولم يطلبوا
طلباعلى جارى العادة فلما خرجوا توجهوا الى الريدانية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها وفى هذه
الايام تزايد القال والقيل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة وفى يوم الثلاثاء خامس صفر خلع
ملك الامراء خاربك على شيخ العرب الامير أحمد بن بقر وقرره فى مشيخة جهات الشرقية
عوضا عن ابنه عبد الدائم وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب منية غمر وأحرقها وغيرها
من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها وطفشت العربان فى البلاد بالفساد والنهب وحصل
منهم الضرر الشامل وصار عبد الدائم رأس كل فتنة فى كل دولة وقد تقدم القول على ذلك
وفى يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم وانه قد التف عليه عربان
كثيرة من الشرقية والغربية وطردوا أباه من الشرقية واضطربت أحوال الشرقية الى
الغاية وأشيع فى البلاد ان مصر ما بقى فيها أحد من عساكر ابن عثمان فلما بلغ ملك الامراء
خاربك ذلك رسم لخير الدين بك نائب القلعة وجماعة من الامراء العثمانية بان يشقوا من
القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر فتنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية
نحو ثلثمائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل وشق من الصليبة وتوجه من بين الصورين
وطلع من جهة سوق مرجوش وشق من القاهرة فرجت له فى ذلك اليوم ثم عاد الى القلعة
وفيه أشيع أن ملك الامراء خاربك أخذ فى أسباب تحصين القلعة وسد منها عدة أبواب
وأبقى منها الابواب الكبار على حكمها وقصد أن يسد بعض أبواب من القاهرة وأظهر الخوف
والفزع ودخلت رأسه الجراب من عبد الدائم بن بقر وكثرة العربان التى اجتمعت معه وكثر
القيل والقال فى ذلك والروايات مختلفة وفيه أشيع ان الريس سلمان العثمانى الذى كان
فى البرج بالقلعة وضعه خاربك فى الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام وكثرت الحوادث فى
هذه الايام جدا وفى يوم الاثنين حادى عشره أشيع ان ملك الامراء خاربك عين الامير
قايتباى الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بقر وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة
ومن العثمانية وعرض فى ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال لهم كليا فعرضهم فى بيت سنان

باشا العثمانى وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الامير قايتباى الدوادار بسبب عبد الدايم كما تقدم وفى أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه بن عثمان خرج من دمشق وقصد التوجه الى حلب وما يعلم سبب ذلك وكثرت الاقاويل فى خروجه من الشام الى حلب وفى يوم الاربعاء عشرى صفر عرض الامير قايتباى الدوادار المماليك الجراكسة فى بيته الذى بين القصرين وعين جماعة منهم يخرجون الى الشرقية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وقد قويت الاشاعات بعصيانه وقد التفت عليه جماعة كثيرة من العربان وفسدت أحوال الشرقية فاطبة من قطع الطريق على القصاد ونهب البلاد ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تخرب بلاد الشرقية ولما عرض الامير قايتباى الجراكسة وجد غالبهم مشاة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح فبطل أمر العرض والتجريدة وفى يوم السبت ثالث عشريه خرج شيخ العرب بيبرس بن بقر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس الغمرى يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الامير أحمد وبين اخوته بالصلح وأشيع أن ملك الامراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم لعله يقع الصلح على أيديهما وكذا جرى وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الاول حضر جانم الحمزاوى دوادار ملك الامراء خاير بك وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه بن عثمان ببشارة قتل قاسم بك بن عثمان فلما أخبر سليم شاه بذلك سر الى الغاية وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوى بنيابة ثغر الاسكندرية ثم رسم له بالعود الى القاهرة وأرسل على يده خلعة الى ملك الامراء خاير بك فى استمراره بنيابة السلطنة بمصر على عادته وأرسل خلعة الى الامير قايتباى الدوادار وقيل الى كشبغا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان فلما وصل القاصد صحبة جانم الحمزاوى الى الريدانية بات فى تربة العادلى وفى هذا اليوم نزل ملك الامراء خاير بك من القلعة وصحبته الامير قايتباى الدوادار والامراء العثمانية الذين بمصر وطائفة من الانكشارية والاصباهية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر وصحبتهم جماعة كثيرة من الامراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم وخرج الجم الكثير من العساكر العثمانية وفيهم من يرمى بالنفوط فتوجه الى تربة العادلى وجلس على المسطبة التى هناك ثم ان ملك الامراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذى أرسله له السلطان سليم شاه بن عثمان فأشيع فى ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته وأن يجعل السكة والخطبة باسمه فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد ثم ان ملك الامراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه قضاة القضاة وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر

فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبته وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة وركب قدامه أيضا أعيان المباشرين ولاقته النصارى بالشموع فى أيديهم من باب النصر فلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الامير قايتباى الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من الفضة فتخاطفتها الناس فلما شق من القاهرة زينت له زينة خفيفة فى بعض أماكن وارتفعت له الاصوات بالدعاء من بعض الناس وأشهروا النداء قدامه بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية وان كل من ظلم أو قهر عليه بباب ملك الامراء خاير بك والدعاء بالنصر لمولانا السلطان سليم شاه بن عثمان فضج الناس له بالدعاء قاطبة واستمرت الانكشارية يرمون قدامه بالنفوط وهم مشاة حتى طلع الى القلعة وكانوا نحو أربعمائة انسان وكان أشيع أن ملك الامراء خاير بك يستقل بمملكة مصر ويجعل السكة والخطبة باسمه حسبما رسم الخنكار ابن عثمان فلم تصح هذه الاشاعة وخمدت كأنها لم تكن واستمر نائبا على حكمه وكانت هذه الاشاعة من الكلام المختلق من جملة كذب الناس وصار غالب أهل مصر فى هذه الايام يختلقون الكلام الكذب ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ثم يبطلونه وينقضونه ويأتون بكلام غيره والكل ليس له صحة وهو من جملة المختلق وقال القائل فى المعنى

أبناء مصر مقالهم عجب * تواتر الصدق منه مرفوض
مقالهم لا يزال مختلقا * وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى القضاة الشافعى محب الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور بان يتقلد بمذهب الامام أبى حنيفة ويترك مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير قاضى قضاة الحنفية لا غير كما هى عادة بلاد الروم وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتفاءل الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة ونوابهم فلما بلغ ملك الامراء خاير بك ذلك رسم لقضاة القضاة بمصر أن يخفوا من نوابهم فرسم لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب وقاضى القضاة الحنفى بأربعة من النواب وقاضى القضاة المالكى بثلاثة من النواب وقاضى القضاة الحنبلى باثنين من النواب من غير زيادة على ذلك ثم ان ملك الامراء خاير بك رسم لنواب القضاة أن يبطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة الصالحية وأن نواب القضاة لا يحكمون الا فى بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء فلم يتم هذا الامر ولم يسمع له شئ ومما وقع فى هذه الايام من الحوادث الشنيعة أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر وحوله جماعة من الانكشارية فكان لا يقضى أمر من الاحكام الشرعية حتى

يعرض عليه فكان يقف بين يديه الشاكى والمشتكى ويخاطبونه بترجمان بينهما عن أمر الشكاية فكان يقرر على كل محكمة فى كل أشرفى ستة دراهم نقرة يأخذها لنفسه من الشاكى والمشتكى يسمون ذلك مصلحات وكان اذا أمر بشئ لا تعارضه القضاة وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة فى الامور الشرعية وكان يضرب من يستحق الضرب ويسجن من يستحق السجن ولا يراجع القضاة فى ذلك فكان يتحصل له فى كل يوم من ذلك القدر المعلوم مال له صورة يأخذه من الشاكى والمشتكى ثم انهم أحدثوا مظلمة أخرى وهى أنهم قرروا أنصاف على كل دكان من الشهود ومجالس القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ويزعمون أنهم يوردون ذلك القدر لبيت مال المسلمين ويجهزونه الى السلطان ابن عثمان وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الايام جدا وقد قال القائل فى المعنى

يارب زاد الظلم واستحوذوا * والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا الا اليك فانظر لنا * ونجنا منهم وخذهم اليك

ولما حضر الامير جانم الحمزاوى دوادار ملك الامراء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما دخل الى الشام استقر بالامير جان بردى الغزالى نائب الشام وجعل له التحدث من غزة الى الشام وأعمالها يولى من يختار ويعزل من يختار وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام طردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا فيها كما فعلوا بمصر وأخربوا عيطانها وزروعها وقطعوا أشجارها وأكلوا جميع فواكهها وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الاول أشيع بين الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخشكار سليم شاه على يد الامير جانم الحمزاوى فكان مضمونها أنه أرسل يقول لملك الامراء خاير بك اصرف لاولاد الناس جوامكهم على العادة وكذلك المماليك الجراكسة وكل من له جامكية يصرفها له ويجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير فشكر له الناس ذلك ودعوا له فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلعوا الى القلعة ونزلوا أسماءهم عند القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك حتى كل من كان له جامكية أشرفى أو مائتا درهم وأرسل يقول له احتفظ بالرعية وفى يوم الاثنين عاشره طلع المماليك الجراكسة الى الميدان الذى تحت القلعة وحضر كاتب المماليك شرف الدين الصغير وأنفق على المماليك جامكية شهر واحد وبقى لهم شهران مكسوران ولم يحضر ملك الامراء تفرقة الجامكية بالميدان بل حضر شرف الدين الصغير وجماعة من كتاب المماليك وشرع شرف الدين كاتب المماليك يقول للمماليك يا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل برقه للسفر ويقول له اذا طلبت منك هؤلاء المماليك للسفر فاحضر بهم فنزلوا من القلعة على ذلك وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول كانت ليلة المولد النبوى فصنع له ملك الامراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس فقيل أحضر عنده عشر جوخ للمقرئين فضجوا من ذلك وقالوا

نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد منا مائة شقة فكيف نأخذ فى مولد ملك الامراء جوخة بأشرفيين فرسم لكل منهم بجوخة بأربع أشرفيات لاغير ثم بعد العصر مدسماطا فى المقعد الثانى الذى بالحوش ليس بكبير أمر تخاطفته العثمانية فى لمح البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء واين الحسام من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الاسمطة الحافلة والشقق الحرير التى كانت تدخل على المقرين والوعاظ ولاسيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى فكان يصرف على مولده فوق الاربعة آلاف من الدنير ويحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم يسمح الزمان بمثلها أبدا القضاة الاربعة ومن الامراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف غير بقية الامراء والعسكر وهم بالشاش والقماش فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم فيا أسفى على تلك الايام كأنها منامات أحلام وقد قال القائل فى المعنى

يادهر بع رتب المعالى مسرعا * بيع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من أردت من الورى * مات الذى قد كنت منهم تستحى

وفى يوم السبت خامس عشر ربيع الاول خلع ملك الامراء خاير بك على الزينى بركات بن موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحمل الشريف وكانت هذه الوظيفة لايستقر بها الا أمير مقدم ولعمرى ان هذه الوظيفة قد هانت حتى سامها كل مفلس فخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أعيان المباشرين والامراء العثمانية وجماعة من الامراء الجراكسة والمماليك الجراكسة فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم وزينت له الدكاكين بالشموع وعلقت له الاحمال بالقناديل ولاقته مشايخ العربان من بنى هلال وكاشف الشرقية ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى انسان يرمون بالنفوط ومشى قدامه جماعة من القواسة نحو ثلثمائة انسان ومشى قدامه السقاؤن يرشون الماء بطول الطريق ومشى قدامه الضوية بالمشاعل وعليها الفوط الزركش ومشى قدامه جميع الرسل قاطبة و بأيديهم العصى ولاقاه الشعراء والشبابية السلطانية مثل مواكب السلاطين ولاقاه المغانى من النساء بالطارات وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وساق قدامه البرجاس عربان بنى حرام وكان ذلك اليوم من الايام المشهودة قل ان يقع لاحد من الامراء مثل ذلك فلهج الناس بهذا الموكب وقالوا لعل هذا نهاية سعد الزينى بركات بن موسى ولم يقع مثل هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه بن عثمان لما دخل الى القاهرة حين ملكها فلما نزل الزينى بركات بن موسى الى داره أنعم على الانكشارية بثلثمائة دينار فحصل لكل واحد منهم أشرفى وأنعم على القواسة والسقائين أيضا بمبلغ جيد وقد قلت فى هذه الموكب أبياتا

ان ابن موسى لم تزل حركاته * تأتى بسعد خارق بين الورى
عاينته فى موكب حفل فلا * سمعت به أذن ولا عين ترى
فى يوم سبت شرفوه بخلعة * فاق الملوك وصار يزهو منظرا
لما استقر أمير محمل سرنا * واستبشرت لقدومه أم القرى
وتفاءل الحجاج أن بكعبه * يلقوا الرخا والامن ممن بشرا
يا ربنا فأطل بقاه بنعمة * تحمد بها الركبان عاقبة السرى

وفى يوم الاحد ثالث عشريه أنفق ملك الامراء على جماعة من الامراء الجراكسة فأعطى لكل أمير طبلخانات أربعين دينارا وأعطى لكل أمير عشرة عشر أشرفيات وقيل خمسة وعشرين أشرفيا فى نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم وأعطى المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألف درهم من غير زيادة على ذلك وفى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الاول وافق ذلك اليوم دخول أول يوم من الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم ومن جملة انعام الله تعالى انه لم يقع فى هذه الخماسين طاعون بمصر ولا غيرها من البلاد وفى ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد بن منكلى بغا وكان موته فجأة وكان لطيف الذات فكه المحاضرة حسن العبارة فى كلامه رقيق الطباع عشيرا الناس وكان لا بأس به وفى هذا الشهر حضر الناصرى محمد المعروف بابن الورد لاعب الشطرنج وكان بالشام من حين أرسل خلفه السلطان سليم شاه وكان السلطان أرسل له مبلغا له صورة يتسفر به فلما توجه الى الشام وجد الخنكار غير منشرح بسبب الصوفى فأقام مدة بالشام ثم استأذن السلطان فى عوده الى مصر فأذن له بالعود الى مصر فأخبر الناصرى محمد بن الورد أن قصاد الصوفى قدموا على ابن عثمان وهو بالشام من مكان غير الطريق السالكة فاشعر بهم ابن عثمان الاوهم بين يديه فدفعوا اليه مطالعة من عند الصوفى وتقدمة حافلة فلما قرأ تلك المطالعة وجد فيها عبارة لطيفة وألفاظا رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصوفى ونعته بنعوت عظيمة فى المطالعة فلما قرأ المطالعة اضطرب لذلك وقال هذا كله مخادعة من الصوفى حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ثم يطرقنى على حين غفلة كما فعلت أنا مع السلطان الغورى فرحل من الشام على الفور وقصد التوجه الى حلب وقال لوزرائه أنا أعلم من حيل اسمعيل الصوفى ومخادعته مالا تعلمونه فكان كما يقال فى المعنى

توقع كيد من خاصمت يوما * ولا تركن الى ود الاعادى
فان الجرح ينكث كل حين * اذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى حلب أخذ فى أسباب تحصين المدينة ثم قبض على جماعة من أهل بانقوسه ممن كان مشهورا بالفساد فشنق منهم جماعة ثم أشيع أنه صادر جماعة

من أهل حلب وأفرد عليهم الاموال الجزيلة وحصل لاهل حلب منه ومن عساكره غاية الضرر والامر لله واستهل شهر ربيع الآخر وكان أوله يوم الاحد ففي يوم الخميس خامسه قدم الى الابواب الشريفة مصلح الدين بك خازندار ابن عثمان وكان توجه الى مكة من البحر المالح صحبة الشهابي أحمد بن الجيعان فلما نزل ببركة الحاج خرج الامير قايتباي الدوادار الى ملاقاته وكذلك أعيان المباشرين فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الامراء خلع عليه ونزل الى منزله في موكب حافل وقدامه الامراء العثمانية والجراكسة والجم الكثير من العساكر وفي يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة وهي أن ملك الامراء خاير بك أشهر النداء في القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه على دكانه فبادر الناس بالقبض على الكلاب وصارت التراكمة يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم بالسيوف نصفين فقتلوا في ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب حتى قيل انهم قتلوا في ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على ما أشيع وصار العياق يمسكون الكلاب من الحارات والازقة ويقتلونها أشر قتلة وصاروا يعلقونها على الدكاكين ولم يعلم ما سبب ذلك ثم أشيع بأن عادة التراكمة في بلادهم باسطنبول اذا كثرت عندهم الكلاب في المدينة يقتلون منهم جانبا كبيرا في أيام الخماسين يزعمون أن بذلك يخف الطاعون من المدينة فصارت عندهم عادة ثم استمر السيف يعمل في الكلاب يوما وليلة حتى هجت الكلاب عمادها الى التربة والصحراء وقد قلت في المعنى

تأملوا ما جرى بمصر * من حادث عم بالعذاب
فما رعى التركي في دماء * فكيف يرعو ادم الكلاب

فلما تزايد الامر في قتل الكلاب طلع الزيني بركات بن موسى المحتسب الى ملك الامراء خاير بك وشفع في الكلاب من القتل وقال لملك الامراء لا تتعرض لقتل الكلاب لان أزبك أمير كبير تعرض لقتل الكلاب التي كانت بالازبكية فلم يعش بعد ذلك غير سنة واحدة ومات فرجع ملك الامراء عن قتل الكلاب ونادى في القاهرة بأن يرفعوا القتل عن الكلاب وكل من قبض على كلب يطلقه الى حال سبيله فدعا الناس للزيني بركات بن موسى الذي شفع في الكلاب من القتل ثم سكن الاضطراب الذي كان بالقاهرة بسبب قتل الكلاب وفي هذه الايام أشيع أن ملك الامراء أخذ في أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا وحصن الابراج التي بها وركب عليها المكاحل وشرع في عمل عجلات وعمل مكاحل ومدافع وعمل نشاب ولم يعلم ما سبب ذلك ثم أشيع أن ملك الامراء أحضر مصحفا شريفا وأحضر الامراء العثمانية الذين بمصر وحلفهم بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه وأن يكونوا هم واياه على كلمة واحدة ثم انه حلف الامير قايتباي الدوادار بمعنى ذلك فأقام الامراء في

القلعة على ذلك الى بعد الظهر وهم فى ضرب مشورة بينهم ومن الوقائع الغريبة أنه فى يوم الثلاثاء سادس عشره وقعت نادرة وهى أن شخصا ظهر بالنحارية وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى وصار يفسد عقول الفلاحين ويقول لهم أنا السلطان الغورى وصار يكتب كتبا ويرسلها الى مشايخ العربان وهى مخلقة بالزعفران فصدق غالب الناس بان السلطان الغورى قد ظهر وهو فى قيد الحياة فامتلأت القاهرة بهذه الاشاعة فلما قويت أخباره هذا الرجل أرسل ملك الامراء بالقبض عليه من النحارية فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى ملك الامراء فلما مثل بين يديه عرفه وكان نصب عليه قبل ذلك وهو نائب وادعى أنه قانصوه خمسمائة الذى تسلطن وأفسد عقول الناس أيضا بحلب فضربه ملك الامراء فى حلب بالمقارع وقطع أنفه ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الامير محمد بك قريب السلطان الغورى الذى قتل فى غزاة الفرنج وقد نصب بسبب ذلك وأخذ من الكشاف ومشايخ العربان جملة تقادم وقد قرب الى عقولهم أنه الامير محمد بك قريب السلطان فقبض عليه السلطان الغورى وضربه وسجنه بالمقشرة فأقام بها مدة وقيل كان أصله من القواسة ببعض جهات دمشق فلما سافر السلطان الغورى الى حلب واستقر الامير طومان باى الدوادار نائب الغيبة أطلقه من المقشرة مع جملة من أطلقه فلما ادعى أنه السلطان الغورى وقبض عليه ملك الامراء خاير بك وقال له أنا ما قطعت أنفك فى حلب وقلت لى انى تبت عن الكذب على الملوك ثم انه رسم بتكليبه على باب الشعرية فنزلوا به من القلعة وربطوا رجله فى ذنب أكديش وصار يسحبه على وجهه الى باب الشعرية والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم وكان يوما مشهودا فى الفرجة عليه والناس تقول قد مسكوا السلطان الغورى فلما وصل الى باب الشعرية كلبوه على الباب بين البرجين فاستمر مكلبا ثلاثة أيام لم يمت فلما بلغ ملك الامراء انه لم يمت الى الآن رسم بأن ينزلوه ويوسطوه فأنزلوه ووسطوه عند باب الشعرية فى مفرق الطرق بعد أن قاسى أنواع العذاب ودفنوه ومضى أمره وكفى الناس شره وفيه كانت كائنة الشيخ أبرك الرومى وقد تغير خاطر ملك الامراء عليه فوضعه فى الحديد وقيل ضربه بالمقارع وأشيع أنه قصد شنقه فشفع فيه بعض الفقراء ولم يعلم ماذنبه حتى تغير خاطر خاير بك عليه وقد اختلفت الاقوال فى أمره وكان عنده تحشرز ائد فى الاكابر وآخر الامر وقع فى هذه الكائنة المهولة وفى يوم الاربعاء سابع عشره نزل ملك الامراء من القلعة وعدى الى الروضة وأقام بالمقياس وكان صحبته الامير قايتباى الدوادار وجماعة من العثمانية وأضافهم ضيافة حافلة ومد لهم أسمطة وطوارى وسبب ذلك أن ملك الامراء خاير بك كان بينه وبين الامير قايتباى وحشة وقد صار بعض الوسائط يرمى

بينهما الفتن ثم ان ملك الامراء خاير بك حلف الامير قايتباى الدوادار على مصحف شريف بأن يكون هو واياه على كلمة واحدة ولا يخون بعضهم بعضا وقد تقدم القول على ذلك فلما تحالفا زال ما كان بينهما من الوحشة وكان نقل الى ملك الامراء أن الامير قايتباى الدوادار متفق مع المماليك الجراكسة على زواله وكانت هذه فتنة من الاعداء ثم أشيع بين الناس أن الشيخ ابرك كان يسعى بينهما بالفتن وينقل الكلام الباطل فصنع ملك الامراء تلك الوليمة فى المقياس وعزم على الامير قايتباى وجماعة من الامراء العثمانية وأقام ملك الامراء بالمقياس الى آخر النهار فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى هنالك مدة حافلة على رؤس الحمالين وصار كل واحد من المباشرين يهدى اليه شيأ من المأكول الفاخر وكان يوما سلطانيا ثم عاد ملك الامراء الى القلعة بعد العصر من يومه وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب فى بركة القرع التى بالجسينية صوارى وحبالا وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الكثير من الخلائق فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة البهلوانية وهو واقف على الحبال منها انه نصب له أدماج وسية ورمى بالنشاب فى السية وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطة بخرقة ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون ورمى فى الادماج وهو واقف على سيوف مسلولة ومنها أنه مشى على الحبال مقلوبا وهو مغمى العينين وأظهر من هذه الالعاب العجائب والغرائب وكان لمصر مدة طويلة من أيام الاشرف برسباى لم يدخلها مثل هذا فى صنعة البهلوانية وكان هذا البهلوان يدعى يوسف وقيل انه من أبناء حلب وقيل انه نشأ باللاذقية وكان شابا جميل الصورة وله عبيد علمهم صنعة البهلوانية يمشون على الحبال أيضا ويظهرون الفنون الغريبة مثله وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين بك والشهابى أحمد بن الجيعان وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه هنالك فلم يصح ذلك وانما كان توجه الى مكة وحضر من البحر المالح أيضا وفيه توفى العلائى على بن طوغان الذى كان دوادار الاشرف قانصوه خمسمائة وكان من أعيان أولاد الناس وكان رئيسا حشما لين الجانب سيوسا فى أفعاله وقاسى فى آخر عمره شدائد ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مقيم بحلب وأن شاه اسماعيل الصوفى متحرك على ابن عثمان وهو فى جمع كبير من العساكر وان ابن عثمان أخذ حذره منه وأشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى الغزالى تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الاعراب والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق فلما تحايل عليه وتمت حيلته عليه قتله وقتل شخصا آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش وكان

ناصر

ناصر الدين بن الحنش كثير العصيان على نواب حلب بل وعلى سلاطين مصر أيضا وكان لما
ملك ابن عثمان دمشق امتنع من المقابلة به فتحايل عليه جان بردى الغزالى حتى أخذه بغتة
وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وأرسل رأسهما الى ابن عثمان وهو بحلب فعد ذلك من
جملة سعد بن عثمان ولولا تحيل الغزالى على قتل ابن الحنش بحيلة صعدت من يده لما قدر
على قتله ابن عثمان أبدا وقد عجز عن ذلك سلاطين مصر وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه
لما توجه الى حلب أرسل سيدى محمد ابن السلطان الغورى الى اسطنبول من هناك وأرسل
صحبته آخرين من أمرائه يتحفظون به الى أن يدخل الى اسطنبول وأشيع أن الخنكار
لما دخل الى حلب أقام بها مدة وحصن سورها وأبراجها وأبوابها وعمر فيها ما يحتاج اليه من
العمارة وقتل من أهل حارة بانقوسة جماعة من شرار أهلها وقيل وزع على جماعة من أعيان
حلب مالا له صورة وعمل فيهم البطيط فلما بلغه أن شاه اسمعيل الصوفى يقصد أن يزحف على
البلاد الحلبية أخذ يتلافى خواطر أهل حلب ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم وقد
تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق طرقته قصاد الصوفى على حين غفلة
من طريق غير الطريق السالكة وهى أسربة قليلة السالك وهى طريق يقال لها الحلوية
بالقرب من تدمر فما شعر ابن عثمان الا وهم بين يديه فقال لهم لم لا أتيتم من الطرق السالكة
فقالوا له ان شاه اسمعيل الصوفى أرسل اليك عدة قصاد ونوابك الذين فى البلاد يقتلونهم فقال
لنا توجهوا من هذه الطريق ثم قدموا اليه مطالعة الصوفى فأشيع أن مضمونها أنه أرسل
يترفق له فى المطالعة ونعته فيها بنعوت عظيمة بأنك ملكت البلاد والعباد وملكت مصر
وصرت خادم الحرمين الشريفين وأنت الآن اسكندر عصرك والماضى بيننا لا يعاد
فتتوجه أنت الى بلادك وأتوجه أنا الى بلادى ونصون دماء المسلمين بيننا ومهما كان
قصدك فعلته لك فلما وقف السلطان على مطالعة الصوفى قال لوزرائه ان هذه الهدية التى
أرسلها الينا وهذا الكلام الذى فى المطالعة كله حيل وخداع حتى يبطل عزمى عن ملاقاته
ويطرقنى على حين غفلة كما فعلته قصاده فقيل انه أخذ الهدية التى أرسلها وقتل القصاد
وما أبقى منهم سوى كبيرهم فكان كما قيل فى أمثال الصادح والباغم

وان من يستنصح الاعادى * يردونه بالغش والفساد

ثم ان ابن عثمان لما وردت اليه قصاد الصوفى وهو بالشام رحل عنها وتوجه الى حلب وأخذ
فى أسباب تحصينها كما تقدم وفى جمادى الاولى وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء
طلع القضاة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر وعادوا الى منازلهم وفى يوم الاربعاء
ثانيه توفيت زوجة الامير قايتباى الدوادار وهى سرية الملك الاشرف طومان باى التى
تدعى نال باى فلما ماتت دفنت فى حوش مدرسة السلطان الغورى وفى يوم الخميس ثالثه

قدم القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان فسبقه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حضر فلما حضر طلع الى القلعة وقابل ملك الامراء فخلع عليه قفطانا أحمر مخملا مذهبا ونزل من القلعة فى موكب حفل وقدامه علاء الدين بن الامام كاتب السر وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف وركب قدامه نقيب الجيش الشرفى يونس وجماعة من الامراء العثمانية ومن الامراء الجراكسة فزينت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين وتخلقت جماعته بالزعفران وكان ذلك اليوم مشهودا فى القصف والفرجة وفيه رسم ملك الامراء بالافراج عما بايدى أولاد الناس والنساء من المربعات التى كانوا أوقفوها من أول السنة ولم يمضها المباشرون فحصل لاولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك وعمل المباشرون بجملة مال له صورة وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس غاية النفع ولم يشعر ملك الامراء بشئ من ذلك وفيه وقعت حادثة شنيعة وهى أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا فدخل فى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفة فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره فطلع به الوالى الى ملك الامراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التى فيها الخيار الشنبر فلما علم ملك الامراء بذلك وكان ملك الامراء حرج على بيع خيار الشنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه ثم ان ملك الامراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار الشنبر فاشهره فى القاهرة وعلق القفة التى فيها الخيار الشنبر فى رقبته وشق به من القاهرة حتى أتى به الى القنطرة التى برقاق الكحل فشنقه هناك وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار شنبر ما تساوى أربعة انصاف فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شئ ما يستحق هذا كله وكان له أولاد وزوجة وكان ملك الامراء يبيت يسكر طول الليل ويصبح فى خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ولم يظهر العدل فى محاكمه قط منذ ولى على مصر وفى يوم الثلاثاء خامس عشره فى تلك الليلة خسف القمر وأقام فى الخسوف ثمانية وأربعين درجة وفيه أنفق ملك الامراء الجامكية على الامراء الطبلخانات وعلى الامراء العشراوات وعلى المماليك الجراكسة فأعطى الامراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا وأعطى الامراء العشراوات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا كما أنفق عليهم فى الشهر الماضى وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه فى الديوان فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم فى الديوان من غير لحوم ولا عليق وفى يوم السبت تاسع عشره توفيت والدة الشهابى أحمد بن الجيعان

وكان لها جنازة حافلة وفى يوم الاحد عشريه وقعت حادثة مهولة وهى أن ملك الامراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية فى تلك الليلة وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على جمية وتوجهوا الى مصر العتيقة فنزلوا فى المراكب البكار ثم أخذوا جماعة من النواتية وسافروا فى المراكب وقصدوا أن يتوجهوا الى جهة الصعيد فلما بلغ ملك الامراء ذلك أرسل يقول للامير قايتباى الدوادار اخرج فى هذه الساعة وسافر خلف الانكشارية وكل من ظفرت به منهم اقتله فصلى الامير قايتباى صلاة الصبح وركب وخرج على جمية وصحبته الامير جانم الحمزاوى والامير على العثمانى وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وجماعة من العساكر العثمانية فعدوا الى بر الجيزة فأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل خروج العسكر وخرجوا أفواجا أفواجا فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك واضطربت أحوال العثمانية فى بعضهم وصاروا فرقتين فرقة مع ملك الامراء وفرقة منهم عليه ثم ان الامير قايتباى رحل من الجيزة هو والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقرب من جزيرة بنى على فتلاقوا هناك مع الانكشارية والاصباهية الذين هربوا هناك ثم ان الزينى بركات بن موسى المحتسب رسم له ملك الامراء خاير بك بان يتوجه الى مصر العتيقة ويمسك مراكب ويرسل فيها زوادة للامراء والعسكر الذين توجهوا الى الميمون فأوسق عدة مراكب فيها زوادة ما بين بقسماط وجبن حالوم ورز وسمن وعسل وغير ذلك من الزوادة وأرسل ذلك الى العسكر ثم فى يوم الاربعاء ثالث عشريه وردت الاخبار بان الامير قايتباى الدوادار قد انتصر على الانكشارية والاصباهية الذين هربوا فلما تلاقوا معه عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الامير جانم الحمزاوى والامير على العثمانى فحاصروا الانكشارية فى المراكب ورموا عليهم بالمدافع والبندق الرصاص فأحرقوا مراكبهم فطلبوا الامان من الامير على والامير جانم الحمزاوى وقد وقع غالبهم فى البحر فغرق من غرق وقبضوا على الباقى وأسروهم فحزوا رؤس جماعة منهم وكانوا نحو ستة وثلاثين رأسا وأسروا الباقين بالحياة ثم ان الامير قايتباى أرسل تلك الرؤس والاسارى الى ملك الامراء فى مراكب فلما طلعوا بها علقوها على مدارى كما فعلوا برؤس الجراكسة والمجازاة من جنس العمل فلما طلعوا بهم الى القلعة قصد ملك الامراء أن يعلق تلك الرؤس على أبواب المدينة فشق ذلك على بقية العثمانية ومنعوا ملك الامراء من ذلك وأما بقية الانكشارية الذين أسروا بالحياة فقطعوا رؤسهم أجمعين فقيل كانت عدة الانكشارية الذين قتلوا والذين هربوا والذين غرقوا نحو مائة وخمسين انسانا ومن العجائب أن التراكمة كانت فى العام الماضى تقتل

أولاد الجراكسة فعما قريب صارت المماليك الجراكسة تقتل التراكمة في الليل والنهار وهذا عجيب وقد ورد في بعض الاخبار لا تكرهوا الفتن فان فيها حصاد المنافقين وقد قيل في المعنى

لا تكرهوا الحرب ان فيه * حصاد نذل مع الخبيث
فستريح ومستراح * منه كما جاء في الحديث

وفيه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان الذي قدم من مكة فتوجه الى الريدانية وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان وقد أشيع أن ابن عثمان كان قد أرسل خلفه فلما أقام بالريدانية نزل اليه ملك الامراء وودعه ثم رجع ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما ثم عاد الى القاهرة فأشيع ان سبب ذلك ان قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان فلما بلغ ذلك ملك الامراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن و يأخذه صحبته مع التقدمة ويمضي الى الخنكار فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة وفيه رسم ملك الامراء للقضاة بان يتوجهوا الى مقام الامام الشافعي رضي الله عنه ويقرؤا هناك ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسمعيل الصوفي فتوجه قضاة القضاة الى مقام الامام الشافعي رضي الله عنه وقرؤا هناك ختمة وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين فقرؤا أجزاء الربعة عشر مرار وأهدوا ثواب ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصوفي وفي يوم السبت سادس عشريه حضر الامير قايتباي الدوادار والامير جانم الحمزاوي والامير علي بك العثماني وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا كما تقدم فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة فخلع عليهم ملك الامراء ونزلوا الى منازلهم وفيه حضر الى القاهرة الامير أرزمك الناشف أحد الامراء المقدمين وكان لما ظهر أرسل الخنكار طلبه وهو بحلب فتوجه اليه هو والامير قانصوه العادلي والامير تمربای العادلي وأقام عنده مدة ثم رسم له بالعود الى القاهرة وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره في الاتابكية بمصر فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة واستمر بطالا مقيما بمنزله ولما حضر حضر بصحبته الامير شادبك نائب المهمندار والامير جانم الطويل أحد الامراء العشراوات وكان أشيع موتهما بحرج دابق فلما ظهر انهما في قيد الحياة حضرا الى مصر وفي آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بان عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى وقد قصدوا حرب ابن بقر وأظهروا غاية الفساد بالشرقية

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الخميس ثامنه رسم ملك الامراء بقراءة سبع ختمات واحدة فى مقام الامام الشافعى وواحدة فى مقام الامام الليث وواحدة فى مقام الشيخ عمر بن الفارض وواحدة فى مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى وواحدة فى مقام الشيخ أبى الخير الكلياتى رضى الله عنهم أجمعين وواحده فى المقياس وواحدة فى الجامع الازهر ورسم بان يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه بن عثمان فانه خرج الى ملاقاة اسمعيل شاه الصوفى فلما قدم رسول صاحب اليمن وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين كما سيأتى الكلام على ذلك وفى يوم الاحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرة أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وستة أصابع فانه كانت القاعدة فى السنة الخالية ثمانية أذرع وستة عشر اصبعا وفى يوم السبت سابع عشره طرق ملك الامراء أخبار رديئة بان عربان السوالم قد طفشت حتى وصلت الى بركة الحاج ووصل أوائلهم الى المطرية فلما بلغ ملك الامراء ذلك تنكد وأرسل الى الامير قايتباى الدوادار يقول له اخرج فى هذه الساعة واطرد العربان فخرج من يومه هو والمماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ورماة من الانكشارية فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج فقيل حصل بين الترك والعربان عركة يسيرة فقتل فيها جماعة من العربان وأسروا منهم جماعة وقطعوا رؤس أربعة ثم رجع الاتراك بعد المغرب وقد وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ومار أوا خيرا فهربت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبل ثم رسم ملك الامراء بشنق من أسر منهم على باب قنطرة الحاجب وعلقوا عليه تلك الرؤس التى قطعوها من العربان وقيل قتلوا من الاتراك جماعة ورجعوا من غير طائل من العربان وفى يوم الاربعاء حادى عشريه وقعت حادثة شنيعة وهى أن شخصا يقال له حسين وكان طشتدار عند الامير نوروز أحد الامراء المقدمين ثم بقى فى طشتخانات السلطان الغورى وهو رجل شيخ مسن زعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين بسبب اسمعيل شاه الصوفى وادعى أن ابن عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه ثم أن ذلك الرجل الى ملك الامراء خايربك وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خايربك بكلامه ثم ان ذلك الرجل قال لملك الامراء ارجع عن مظالم العباد أنت والمباشرون خربتم مصر بظلمكم ثم سب المباشرين بحضرة خايربك سبا قبيحا وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت فى هذه السنة ما يقبلك النبى صلى الله عليه وسلم فلما تزايد فى

القول حنق منه ملك الامراء فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه فى الميدان وقيل ان ذلك الرجل تكلم بكلام كثير وأظهر أنه كشف له عن أمور تأتى فى أواخر هذه السنة من الاهوال فان كان صادقا فيما قاله وادعاه من هذه الاخبار التى ذكرها فسوف تقع ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه وفيه أشهر ملك الامراء النداء فى القاهرة بأن لا أحد من الحجاج يسافر فى البحر المالح ولا يرسل له أحمال من البحر وموجب ذلك فساد العربان فى الطرقات وعبث الفرنج فى سواحل البحر المالح وفى يوم الخميس ثانى عشريه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانية وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان فخرج وقت صلاة الصبح وصحبته الامير قايتباى الدوادار وأعيان المباشرين والامراء العثمانية فكان له موكب حافل ثم خرج بعده تقدمة حافلة أرسلها ملك الامراء الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذى باسطنبول فكان مما اشتملت عليه تلك التقدمة من الخيول أربعين فرسا خاصات عليها عجمى قلعى يصحبها أربعون فرسا من الاكاديش واثنان وأربعون جملا محملة قماشا محزومة قيل ضمنها تفاصيل سكندرية وأبدان منزلاوية وقماش فارسكورى وغير ذلك من شاشات وارز وغير ذلك من مقاطع خمسينى وخام رفيع وغير ذلك ومن جملتها أربعة وستون جملا محملة سكرا ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض قيل جملة ذلك أربعمائة قنطار وقيل أن ملك الامراء كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام ومن جملة التقدمة جمال محملة عصفرا وحناء وغير ذلك ومن جملة التقدمة احمال شقادف ضمنها مرطبنات أشربة مربى وأشيع أن ملك الامراء أرسل الى الخنكار ابن عثمان جملا على ما مال من خراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ولم يعلم ما قدر ذلك فلما مضت تقدمة ملك الامراء طلع فى عقيب ذلك تقدمة صاحب اليمن وهى تقدمة حافلة تشتمل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطواشية وغير ذلك فلما مضت تقدمة صاحب اليمن طلعت تقدمة الامير على بن عمر صاحب جهات الصعيد وهى تقدمة حافلة منها مائتا قنطار سكر ورقيق ما بين عبيد وجوارى وخيل وجمال وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للملوك وفى يوم الجمعة ثالث عشريه رحل مصلح الدين من الريدانية وتوجه الى الخانقاه وأشيع انه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قماش قيل ان فيها ما مبلغه صورة وفى يوم الجمعة المذكور طرق ملك الامراء أخبار رديئة بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها فلما تحقق ملك الامراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة والعسكر العثمانى فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة وعين

صحبتهم عشر عجلات تكون قدام العسكر وعين الامير قايتباى الدوادار باش المماليك الجراكسة وعين أمير اخور باش العثمانية وفى هذه الايام اضطربت أحوال ملك الامراء جدا وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجويلى عن أرض البساط وملكوها منه واضطربت أحوال الغربية الى الغاية واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان السوالم وعبد الدائم بن بقر واخوته واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد وقد ضاعت مصالح المسلمين بينهم وخرب من الشرقية والغربية عدة بلاد وظهر الفساد والفتن براو بحرا والامر لله تعالى وفى يوم السبت رابع عشريه أرسل شكر أخو حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الامان له من ملك الامراء فأرسل اليه ملك الامراء منديل الامان وصورة حلف على يد القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل اليه قفطان حرير مخملا وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذى جاء يطلب الامان من ملك الامراء وفى يوم الاحد خامس عشريه خرجت التجريدة التى كانت تعينت الى حسن بن مرعى وكان باش العسكر أمير اخور أخا ملك الامراء وصحبته جماعة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص وخرج صحبة العسكر تلك العجلات التى عينت لهم وكانت عدتها عشر عجلات وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبتهم الامان والخلعة الى شكر بن مرعى وفى هذا الشهر وردت الاخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبثون فى البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين فى البحر وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الامراء بأن يرسل له تجريدة بسرعة وقد خشى على بندر جدة ان تطرقه الفرنج على حين غفلة ويملكونه من المسلمين وفى يوم الثلاثاء سابع عشريه نزل ملك الامراء الى الميدان الذى تحت القلعة وعرض العسكر وعين منهم جماعة يسافرون الى جدة بسبب حفظ البندر فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناس ومغاربة وغير ذلك وكان مجموع ما كتبه من العسكر فى ذلك اليوم نحو مائتين وخمسين انسانا وأنفق فى ذلك اليوم على طائفة المغاربة على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان الغورى فنزلوا من القلعة وشرعوا فى أسباب عمل برقهم الى السفر وأما بقية العسكر فلم ينفق عليهم شيأ وقد صبر حتى يرد عليه من مكة خبر آخر فى أمر الفرنج يعتمد عليه وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الجمعة طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر وعادوا الى دورهم وفى يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوادار الامير قايتباى والامير بخشى باى قرا الذى كان شاد الشون والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين وكان هؤلاء توجهوا نحو الشرقية بسبب انهم مسحوا جهات الشرقية وميزوا الشراقى من الرى ومسحوا الاقاطيع والرزق وعملوا بالباع والذراع فى الشرقية وجاروا على المقطعين

فى المساحة ثم انتقلوا من الرزق والاقاطيع الى جهات الاوقاف فمسحوها وصاروا ينزلون الى البلاد و يفردون عليها المال و يضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم و يقررون على كل بلد ما يختارونه من الاموال فجبوا من الشرقية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ورحل منها الفلاحون وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس فمست هذه الحادثة أصحاب الرزق والاوقاف من الرجال والنساء حتى الارامل والايتام والمستحقين وقد تعطلت الاوقاف بسبب ذلك وكان هذا كله بواسطة ملك الامراء خاربك فانه كان سببا لذلك فعد هذا من جملة مساويه فى حق أهل مصر وحصل فى هذه الحركة غاية النفع للباشرين الذين تكلموا فى أمر هذه المساحة بالشرقية والامر لله وحده وفى يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الامراء خاربك المناداة فى القاهرة بان المماليك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ولا يمشون بقباقيب فى الاسواق ولا يجلسون على المساطب فى الحارات ولا على أبواب الجوامع وكان ملك الامراء سامح لهم أولا فى ذلك ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الافعال فيما بعد وفى يوم السبت سادس عشره رسم ملك الامراء بشنق شخص عجمى فشنق وكان هذا الشخص تاجرا فى سعة من المال فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له صورة طمع ملك الامراء فى ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصوفى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها و يطالع الصوفى بذلك فشنقه ظلما واحتاط على جميع أمواله و جعل له ذنبا انه جاء من عند الصوفى جاسوسا وفى يوم الاربعاء عشريه حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صحبة القاضى فخر الدين بن عوض وقد تقدم القول بأن ملك الامراء كان أرسل له منديل الامان على يد ابن عوض فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الامراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى وأرسل له ملك الامراء منديل الامان على يد القاضى بركات المحتسب ثم فى أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه منديل الامان وصحبته جماعة من العثمانية وأميرا خورا خو ملك الامراء والزينى بركات المحتسب ونخر الدين بن عوض وجماعة كثيرة من العربان فشق من القاهرة ومنديل الامان على رأسه فلما طلع الى ملك الامراء بالقلعة وقابله خلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ونزل من القلعة فى موكب حافل وكان أشيع أن ملك الامراء سيقبض عليه فانه وقع فى ذنب عظيم وسبب ذلك انه كان مسجونا بالقلعة من حين قبض عليه الخنكار وسجنه بها فتسحب من هناك ليلا وهرب واستمر فى عصيان وهياج مدة طويلة وكثر القيل والقال بسببه والتف عليه جماعة كثيرة من عربان الغربية فلما

طلع وقابل ملك الامراء وخلع عليه بطلت تلك الاشاعات التى كانت تشاع بين الناس بسبب عصيانه وفى يوم الاثنين خامس عشرى شهر رجب كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الزيتونى العوفى رحمة الله عليه وكان أحد نواب السادة الشافعية وكان فاضلا عارفا بصنعة القضاء والتوقيع ماهرا فى الخطب وكان فكها لمحاضرة كثير العشرة للناس وكان علامة فى فن الزجل وكان ينظم الشعر على فنون وهى الشعر والدوبيت والمواليا والموشحات وكان له شعر جيد ونظم ارجوزة مفيدة فى الفقه وشرحها شرحا على الاوضاع مفيدا فى معناه ومن شعره الرقيق قوله ملغزا فى اسم خمرة

ياسائلى عن اسم من * خدوده كالعندم
فى خده وثغره * وفى فؤادى المغرم

وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وذلك فى شهر شعبان فى سادسه فكانت مدة حياته أربعا وتسعين سنة الا يوما فلما مات حضر القضاة الاربعة وصلوا عليه وكانت له جنازة حافلة ودفن بحوش تربة الصوفية رحمه الله تعالى ولما توفى الشيخ بدر الدين الزيتونى رثاه ولده القاضى بدر الدين محمد بهذه القطعة الزجل اللطيفة وهى قوله

يحق لى أن أرثى لموت والدى * كان أفصح النظام وعقلو رجيح
فى درج الاكفان للقيا ما اندرج * واجب على فقدو بعزمى أصيح
كان والدى فى فن الازجال تقصدوا * حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفى جميع العلوم مالو نظير * فقيه مدرس فى جميع الفنون
يدرى الاصول والنحو معرب خطيب * ومنطق فى الصرف عاقل مصون
جا الموت خدوا واصبحت بين الورى * فريدو جمع الناس بحزنى تنيح
وينددبوا همى عليه بالفراق * وماجرى من جفن عينى القريح
قوموا بنا جمع الموالى والصحاب * نرثى الذى قد كان وكان فى الدهور
زين الوجود مالو وجود فى الورى * عارف بفن الشعر والكل زور
أصحابنا زيدوا النواح والنحيب * على أديب يدرى أصول البحور
مثلو أحد يحسن زجل فى الانام * ولا موشح لوود وبيت صحيح
والفرق ظاهر مثل صبح الدجى * مابين قاضى الكل والزمريح
كان فى الادب ناظم وناثر فصيح * وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان قلت فى التحرير حريرى النظام * بل سيد ولما تعد الفصاح
أو عنترا العبسى نهار المجال * أو نشر حاتم طى عند السماح
ومالشماخ رقتوا فى البديع * وقس ماينقاس بنطقو الفصيح

وسائر الحفاظ تراهم لديه * مايقتدوا الابقولوا الصحيح
يامن روى الاخبار كان والدى * مختص بالآداب وكان لى مفيد
مفتاح لباب الرزق للضيق فرج * وجهو سرور كعبو مبارك سعيد
مختار لفعل الخير بشير الفرح * مرشد ومحسن كل مافيه مليح
يافوتيا الحظ و بجوهراتى * فرقو صباح ظاهر ووجهو صبيح
كان آخر النظام وبحر العلوم * وروض تربه زاهر بديع الصفات
ونقلدان مع راح وريحان وروح * جمع ضريحو ذى المعانى الشتات
كيف لاأحرك للضريح ساكنى * وابكى عليه طول الحيا للممات
ومشتكى حزنى وروضى الترب * والنقل والراح الذى لى يريح
والروح والريحان وماقد عدم * من الوجود موجود بذا الضريح
بعدو على الدوم قد ألفت النواح * والحزن عن يعقوب ورثت النحيب
أصبحت من مانوح سفينى غريق * والدمع طوفان ماطفالى لهيب
يارب هب لى صبر أيوب عليه * وارسل اليه رحمه بطه الحبيب
قلبى من اجلو صار بحزنى كليم * والدمع لوفى صحن خدى مسيح
وناغريق محروق بنار الخليل * وشبه اسماعيل بحزنو ذبيح
قد نظم الجوهر بتأليف كتاب * حاوى علوم الفقه سهل البيان
وقد شرح لوشرح واضح مفيد * وصار لو بيه تذكار بطول الزمان
وقال ذخيرة لى ليوم النشور * أسكنه ربى فى فسيح الجنان
دار النعيم فيها مقيم لم يزل * مابين أشجار وكوثر يسيح
والحور والولدان ومايشتهيه * من الفواكه مع مقام فسيح
وناابن زيتونى عريق النسب * يارب الارباب يالطيف ياخبير
اجبر بلطفك كسر قلبى الحزين * ياجابر العظم الرميم الكسير
واعطف علىّ بجمو الورى * وما تعسر فاجعلو لى يسير
مدح المجد للخلائق شفا * به يهتدى قلبى ويو أستريح
وناأريد أمدح محمد عسى * يطفى لهيبى واهتدى بالمديح
صلوا على المختار حبيب الاله * من أرسلوالله للخلائق شفيع
يوم القيامة والخلائق زمر * ياتوا لآدم يقول ماأستطيع
اشفع تشفع فى امتك يسمع المولى ويغفر كل ذنب قبيح
ويدخلوا الجنة كذا قد ورد * عن النبى مسند حديث صحيح

وفى هذا الشهر توقف النيل وسلسل فى الزيادة وصار يزيد فى كل يوم اصبع وتارة اصبعين وقد مضى من مسرى عشرة أيام ولم يصل النيل الى عشرة أذرع فاضطربت أحوال الناس فى تلك الايام وتشحطت الغلال وبلغ سعر البطة الدقيق اثنى عشر نصفا فعند ذلك رسم ملك الامراء بان ينزل الوالى ويكبس الروضة فنزل هو وجماعة من الامراء العثمانية وكبس الروضة وفك الخيام التى كانت بها وأشهر المناداة هناك بان لا أحد يتجاهر بالمعاصى ولا يجمع جموعا ولا ينصب خيمة على شاطئ البحر ومن يفعل ذلك يشنق على باب داره من غير معاودة فى ذلك فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصى بالروضة فنزل فى ذلك اليوم غالب الناس من الروضة وفى شهر شعبان وكان مستهله يوم الاحد طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الاثنين تاسع الشهر كانت وفاة الشيخ الصالح القطب العارف بالله تعالى الورع الزاهد الناسك الشيخ محيى الدين عبد القادر ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى حسن ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين المدعو شرف الدين موسى الدشطوطى رحمة الله عليهم أجمعين وكان الشيخ عبد القادر شافعى المذهب مجذوبا واعيا وكان مكشوف الرأس وكان دائما شعره فى رأسه وعلى جسده جبة خشنة دائما وكان سوّاحا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة ولا ولدا ولا عيالا وكان يتغذى بالفراقيش والزعتر دائما وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلاطين وأعيان الناس وكانت رسالته عندهم لا ترد وكان فى أواخر عمره حصل له كفاف فى عينيه واستمر على ذلك حتى مات وقد عاش من العمر نحو ثمان وثمانين سنة أو فوق ذلك وكان محببا للناس وكانت النذور التى تدخل عليه من عند الاكابر ينشئ بها جوامع يخطب ومساجد وله عدة جوامع ومساجد فى أماكن شتى ولما توفى ارتجت له القاهرة ونزل ملك الأمراء والعثمانية والاميرقايتباى الدوادار والقضاة الاربعة وأعيان الناس وأرباب الدولة وخرج نعشه من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب الشعرية ورفعت له الاعلام على نعشه وحضر أطفال المكاتب وعلى رؤسهم المصاحف ومشوا حول نعشه واستمر على ذلك حتى وصل الى مدرسته التى أنشأها تجاه سيدى يحيى البلخى فدفن بها وكانت جنازته حافلة رحمة الله عليه وكان بقية السلف من الاولياء وفى هذا الشهر قبض ملك الامراء على يوسف البدرى الوزير ورسم عليه وعلى زوجته وعلى عياله وغلمانه وحاشيته وقرر على يوسف البدرى مالا له صورة وعلى زوجته وجماعته وتمادى أمره فى المصادرة حتى ذهب ما يملكه جميعا من صامت وناطق حتى باع أثاث البيت من قطار ميز وزلع حتى الحصر وغير ذلك واستمر فى المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما فى الترسيم وعياله وآخر الامر أرسلوه الى اسطنبول وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه وفيه نادى ملك الامراء

فى القاهرة للمباشرين والعمال بانهم لايستخرجون من بلاد الشرقية والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيأ الا بمرسوم من عند ملك الامراء فاضطربت أحوال المسلمين والمباشرين وكثر بينهم القيل والقال بسبب ذلك وفى يوم الجمعة ثالث عشره الموافق لسابع عشرى مسرى وفى النيل المبارك الستة عشر ذراعا ولم يزد من الذراع السابع عشر شيأ فلم يفتح السد فى ذلك اليوم وفى يوم السبت رابع عشره وفى النيل المبارك وزاد اصبعا من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم فلما وفى نزل ملك الامراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة وحضر الامراء العثمانية ثم نزل فى الحراقة وصحبته الامراء العثمانية وتوجه الى السد وفتحه وكان يوما مشهودا وأوكب وهو طالع الى القلعة موكبا حافلا وكان وفاء النيل فى هذه السنة على غير القياس لانه كان نيلا شحيحا وسلسل فى الزيادة ويوقف أياما وتشحطت أسعار الغلال جميعها ثم وفى بعد ذلك ففرح به كل أحد من الناس وكان الامر كما قاله المعمار

النيل وافى وزال الهمّ وانفرجت * عنا الهموم وهان القمح ثم رمى
وراح خزانه للنيل يتظره * فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحوادث فى يوم وفاء النيل أن شخصا من العثمانية غرق فى البحر فتنكد ملك الامراء والعثمانية بسببه وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصد من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ولم يعلم ما قد جاء فيه وما سبب مجيئه وكثر القيل والقال فى ذلك ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى ولما فتح السد وجرى الماء فى الخلجان لم تسكن البيوت التى فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكى أصحاب الاملاك من ذلك الى والى القاهرة فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى والذى لايسكن فى بيته ولا يعمره يضرب عليه ملك الامراء رنكه ويصير ملكه فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متوالية فسكن فى الجسر بعض بيوت ودخل بركة الرطلى بعض مراكب البياعين وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لاغير وابتاع أصحاب الاملاك بيوتهم أنقاضا وكان السلطان الغورى سد خليج الزريبة بجسر عند قنطرة موردة الجبس فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ وخلت بيوتها من السكان وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية وكان مبتدا منشئها فى دولة الاشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ولازالت الناس تنشئ فيها الاملاك الجليلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ونزل فى برا الجيزة على رملة البحر فصار عسكره يخرب بيوت الجزيرة ويأخذ سقوفها وأبوابها وطيقانها فخربت بالكلية

من

من يومئذ وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا والاصل فى ذلك انها أسست على غير تقوى وكانت بقعة فسق وزنا فآل أمرها الى الخراب سريعا وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر وافق ذلك اليوم يوم النوروز والنيل فى ستة عشر ذراعا ولم يدخل فى الذراع السابع عشر وكان من مبتداه الى منتهاه نيلا شحيحا وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه توفى سودون نائب دمياط وهو أحد الامراء العشراوات مات بطالا وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالصوم ثم عادوا الى دورهم ولما دخل شهر رمضان كانت الاسعار مشحطة فى سائر البضائع وقد تناهى سعر القمح الى اشرفيين كل اردب والبطة الدقيق الى أربعة عشر نصفا والسكر تناهى سعره الى أربعة وعشرين أشرفيا كل قنطار والقطر النبات بخمسة أنصاف كل رطل والقطر المكرر باربعة أنصاف كل رطل والعسل النحل بثلاثة أنصاف كل رطل والعسل الاسود بنصفين كل رطل والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل والجبن المقلى بثلاثة أنصاف كل رطل والجبن الحالوم بنصفين كل رطل والجبن الازرار الذى فى مائه بنصف فضة كل رطل وتشحط اللحم الضأنى واللحم البقرى حتى صار لا يوجد الا قليلا فابتيع اللحم الضأنى بثمانية عشر كل رطل والبقرى بثمانية كل رطل وابتيعت الحلوى المشبك من القادرى بخمسة أنصاف كل رطل والمنفوش بستة كل رطل وعمت هذه التشحيطة سائر البضائع وسائر الحبوبات حتى الخضر وسبب ذلك ان الزينى بركات بن موسى كان مشغولا بعمل برق الحجاز وقد أهمل أمور الحسبة ولم يلتفت اليها فجارت السوقة على الناس وهم فى أمر مريب بسبب هذه التشحيطة التى وقعت فى تلك الايام وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضا وفى يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الامراء فى المقعد الذى بالحوش فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة فى المقعد فخرق منهم فقال للانكشارية الذين حوله اضربوهم واطردوهم من المقعد فلما سمعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى على وجوههم ضربا فاحشا فجاءت ضربة على أكتاف جانى بك دوادار الامير قايتباى الدوادار فانزعج كتفه فصل للمماليك الجراكسة فى ذلك اليوم كسر خاطر ونزلوا من القلعة على أقبح وجه ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة الى الميدان بسبب تفرقة الاطلاق فحضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وفرق الاطلاق فاعطى لجماعة من المماليك فدان طين ونصف وبعض قدانا وبعض نصف فدان فتضرر المماليك من ذلك وقالوا ايش يكفينا النصف فدان وشكوا من ذلك فسبهم القاضى شرف الدين سبا قبيحا وقال لهم يا كلاب يا زرابين أنتم بقى لكم باب والا رأس حتى تتكلموا بين يدى وجهكم

فى ايش حتى تستحقوا اطلاقات وبهدلهم غاية البهدلة فنزلوا من الميدان على أقبح وجه وقد قلت أبياتا فى هذا المعنى

لما تكبرت الجراكسة التى * كانت بمصر أذلهم رب الورى

وأذاقهم ذل السؤال وفاقة الأيدى وأدبهم بما لهم موجرى

وفى هذا الشهر وقعت بين ملك الامراء وبين الامير قايتباى الدوادار فتنة وصار كلما طلع اليه يقتله وسبب ذلك ان شخصا من عربان السوالم كان عند قايتباى فأرسل خاير بك اليه انكشاريا أخذه من عنده ووضعه فى الحديد فصار بينهما حظ نفس فى الباطن وفيه قدمت الاخبار من اسطنبول على يد شخص من العثمانية وصار يفرق مراسيل على عيال من توجه الى اسطنبول فذكروا فى كتبهم وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول لم تحضرنى أسماؤهم الآن وأشيع أن الخشكار لما زحل عن حلب الى بلاد على دولات نزل بمرعش وأقام بها مدة ثم رحل من هنالك وتوجه الى اسطنبول وهى القسطنطينية العظمى محل كرسى مملكة ابن عثمان فقيل ان أمير المؤمنين محمدا المتوكل على الله لما بلغه مجىء الخشكار خرج من اسطنبول ولاقاه هو وأولاد عمه والعلائى على ابن الملك المؤيد وأولاد الامراء الذين هنالك والمباشرون وأولاد الجميعان الذين هنالك وأولاد الناس من أهل مصر الذين توجهوا الى اسطنبول فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ينزل له عن فرسه فخاف عليه الخشكار ومنعه من النزول اليه وقيل انه عظمه غاية التعظيم وأما بقية أعيان أهل مصر الذين هنالك فلم يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه هكذا أشيع بين الناس وكانوا يظنون أن الخشكار اذا دخل الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى مصر فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل فى موكب حافل فأقام نحو ستة أيام ورحل عنها وتوجه الى بلد من أعمال مملكته يقال لها أدرنه فأقام بها وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها فناء عظيما وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ومات به من عسكره ما لا يحصى وقيل مات من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين انسانا منهم أعيان وغير أعيان ولكن لم أقف على حقيقة أسماء من مات هنالك من الاعيان وسيظهر فيما بعد من توفى هنالك من الاعيان ومن العجائب أن الفلكية وأرباب النجوم حكموا بأن سليم شاه بن عثمان ما بقى يدخل الى بلده اسطنبول فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ودخلها وأقام بها أياما وبطلت أقوالهم الكاذبة كما يقال فى المعنى

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله * فالله يفعل لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر * فلا يضرك مريخ ولا زحل

وقيل بلغ الخشكار أن شاه اسماعيل الصوفى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى كان

ملكها

ملكها واستناب بها جماعة من العثمانية فطردهم الصوفى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم فلما بلغ ابن عثمان ذلك خرج من اسطنبول مسرعا وأقام بأدرنه حتى يرى مايكون من أمر شاه اسماعيل الصوفى هكذا أشيع بين الناس والله أعلم بحقيقة ذلك وفى يوم الخميس مع ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان صنع الزينى بركات بن موسى مسايرة حافلة وركب معه جماعة من المباشرين فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة وقدامه انكشارية وقواسه ومشاة بفوانيس ومشاعل كثيرة فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت له الاصوات من العوام بالدعاء وكانت من الليالى المشهودة وارتجت له القاهرة فى تلك الليلة وكان محببا للناس قاطبة وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العثمانية كان فى خان الخليلى قد قبض على شخص من العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف فلما قبض عليه طلع به الى ملك الامراء فلما أوقفه بين يديه قص عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى وانه قبض على يده وهى فى جيبه وأخذ من جيبه وهو ماش أربعة أنصاف فلما سمع ملك الامراء ذلك رسم للوالى أن يقطع يده فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راحت ظلما وقد تقدم القول أن ملك الامراء شنق رجلا على عيدان خيار شنبر وكان ملك الامراء يصبح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم مما لا يسوغ الشرع الحكم به وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى أفعاله كلها وفى يوم الخميس خامس عشريه حضر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وكان ملك الامراء أرسل اليه منديل الامان وخلعة بان يستقر فى شياخة الشرقية فلما حضر وقابل ملك الامراء تقدم اليه والده شيخ العرب الامير أحمد بن بقر ومسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدى ملك الامراء ثم التفت الى ملك الامراء وقال له يا ملك الامراء متى أطلقت هذا صار فى ذمتك الى يوم القيامة وأخرب الشرقية عن آخرها فتعصب للامير أحمد خير الدين بك نائب القلعة وقال لملك الامراء اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت فساعده على ذلك سنان باشا فاوسع ملك الامراء الا أنه وضعه فى الحديد وسلمه الى خير الدين نائب القلعة ثم ان ملك الامراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ووضعهم فى الحديد وأرسلهم الى السجن ثم أحضر قفطان حرير أخضر وخلعه على الامير بيبرس ابن الامير أحمد بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس فانه كان من المفسدين فى الارض ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقطع الطريق على القوافل التى تأتى من الشام وقتل التجار وأخذ أموالهم وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفشوا فى البلاد وأخذ

سلاحهم وخيولهم وقد فعل من هذه الافعال القبيحة مالا يحصى ووضع يده على خراج بلاد الاوقاف واستخرجها وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة ثم ان ملك الامراء أرسل ضرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك والذى خبث لا يخرج الا نكدا وفى يوم السبت سابع عشرى شهر رمضان ثبت النيل المبارك على ستة أصابع من تسعة عشر ذراعا وهبط سريعا ولم يزد فى بابه غير خمسة أيام ونقص وكان نيلا شحيحا من مبتداه الى منتهاه وفى ذلك اليوم نزل ملك الامراء وشق من القاهرة وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز فى الاسواق وانطلقت الالسن فى حق ملك الامراء بالكلام القبيح وقالوا له انظر فى أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك فى ذمتك فتنكد ملك الامراء فى ذلك اليوم الى الغاية وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب فقاسى فى ذلك اليوم من ملك الامراء مالا خير فيه وقال له قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر ثم ان ملك الامراء لما طلع الى القلعة رسم بفتح شونتين وأن تفرق على الطحانين ففعل ذلك وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان أرسل ملك الامراء أمير علم الى بيت الامير قايتباى وقال له قد رسم لك ملك الامراء أن تدق على بابك فى هذه الليلة طبلخانات وكؤوسات فلما سمع ذلك الامير قايتباى أرسل يقول لملك الامراء أدق الطبلخانات على بابى دائما والا فى هذه الليلة فقط فلما عاد الجواب الى ملك الامراء قال قل له فى هذه الليلة فقط فلما بلغ الامير قايتباى ذلك لم يوافق على دق الطبلخانات على بابه فى هذه الليلة فقط وقال أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة حتى تضحك على الناس وامتنع من ذلك ولم يدق الطبلخانات على بابه فى تلك الليلة وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الامراء من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقد قلت فى ذلك

لهفى على الكاسات قد دقت على * باب بسعد أميره قد بشرا

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الاربعاء فخرج ملك الامراء وصلى صلاة العيد فى جامع القلعة وخطب به قاضى القضاة كمال الدين الشافعى وانفض موكب العيد كأنه لم يكن ولم يخلع فيه ملك الامراء على أحد من أرباب الوظائف ولا على قضاة القضاة ولا على أحد من المباشرين ولا على الامير قايتباى الدوادار وبطل ما كان يعمل فى يوم العيد من تلك المواكب الجليلة والخلع المثمرات والتشاريف السنية وبطلت تلك الطرز البلغاوية العراض والفوقانيات الحرير الاخضر وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة ووقع لى فى المرثية التى قلتها فى مصر أبيات فى معنى ذلك وهى

لهفى على أعياد مصر كيف قد * أفنت تشاريفها ومتمرا

وكذا الكنابيش التى قد زخرفت * كانت تشد خيولها عند السرى
وكذا السروج المفرقات بلمعها * كانت كبرق أو كليل أقمرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد * كانت بها تزهو على كل القرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة فى موكب حافل وقدامه الملالية والمشاعل بالفوط الزركش عليها والانكشارية بالنفوط قدامه والقواسة قدامه مشاة فشنق من القاهرة فى ذلك الموكب وفى يوم الخميس ثانى شوال طلع جماعة من أعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة فلما تكاملوا أخرج اليهم ملك الامراء مرسوم الخنكار ابن عثمان الذى أرسله على يد صوباشى من العثمانية الذى تقدم ذكر حضوره من البحر المالح وكان من مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول وهم العلائى على ناظر الخواص الشريفة والشرفى يونس النابلسى والقاضى بركات أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجع والقاضى فخر الدين بن عوض والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل وأرسل يطلب الامير يوسف البدرى الوزير الذى كان كاشف الغربية وأرسل يطلب الشرفى يونس نقيب الجيش فلما تحققوا ذلك اضطربت أحوالهم ورسموا عليهم بالقلعة وقالوا لهم اكتبوا وصاياكم ويوم الجمعة تسافرون من البحر ثم فى ذلك اليوم خلع ملك الامراء على القاضى شهاب الدين بن الجيعان واستقر به فى كتابة السر عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص وخلع على القاضى شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات الشرقية وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة على عادته وجعله متحدثا على الاستادارية عوضا عن يونس النابلسى وأشرك معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الامراء وخلع على القاضى أبى بكر بن الملكى وقرره على عادته مستوفى ديوان الجيش وخلع على يوسف بن نقيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا عن أبيه فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الامراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الامير قايتباى الدوادار والامير سنان باشا وفائق بك وجماعة من الامراء العثمانية وجماعة من المماليك الجراكسة ولما وصل الى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيل الجنائب وساقت معهم خيول الامراء فسبق فرس الامير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا وقيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ويسوقون قدامه بالخيول فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار بمائة دينار والذى تقصر فرسه عن السباق ينعم عليه ببطيخة وهذا من أنواع المماجنة فانشرح ملك الامراء فى ذلك اليوم الى الغاية وفيه قبض ملك الامراء على الخواجا شهاب الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ووضعه فى الحديد وقرر عليه مالا له صورة وأشيع أن الخنكار

أرسل بطلبه الى اسطنبول فاضطربت أحواله بسبب ذلك الى الغاية وفيه خلع على محيي الدين بن يوسف بن أبي اصبع وقرره على عادته استادار الذخيرة الشريفة وفي يوم الجمعة عاشره حضر القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك الى الميدان وعرض جماعة من أولاد الناس ومن المماليك وكتب منهم جماعة بأن يتوجهوا الى عقبة أيلة ويقيموا بالازلم فيكتب منهم جماعة في ذلك اليوم نحو ستين انسانا أو فوق ذلك فحصل لاولاد الناس بسبب ذلك غاية الضرر لاجل قلة العليق وكانت القاهرة في تلك الايام في غاية الانشحات من قلة العليق وعدم الجمال بسبب خروج الحجاج وفي يوم السبت حادي عشره نزل ملك الامراء وجلس بالميدان وعرضت عليه كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم والمحمل وشقوا بهم من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا وفي يوم الاحد ثاني عشره أشيع أن ملك الامراء أفرج عن القاضي نور الدين علي الفيومي الحنفي وكان له مدة وهو في الترسيم بالقلعة بسبب مكتوب ثبت عليه وكان غير محمود السيرة في أفعاله وجرت له وقائع كثيرة وفي يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الامراء على العساكر الذين تعينوا للعقبة والازلم فاعطى لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر مجملا وهي عبارة عن ستة آلاف درهم وقيل رتب لكل واحد منهم في كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم في العقبة ورسم لهم بأن يجيئوا مع الحجاج اذا حضروا الى القاهرة ويتوجه هذا العسكر الى هناك لاجل حفظ ودائع الحجاج وملاقاتهم التي تتوجه لهم من مصر فان العربان تزايد فسادهم في حق الحجاج وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند عودهم الى مصر وفي يوم الاربعاء خامس عشره رسم ملك الامراء بشنق عشرة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بقر فانهم كانوا من المفسدين فشنقوا وعلقوا في أماكن شتى من القاهرة فشئ في قنطرة الحاجب وشئ في رأس الحسينية وشئ في باب النصر وقد وسطوا منهم جماعة وشنقوا منهم جماعة وشئ خوزقوهم وفي يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا في الترسيم وقد تقدم القول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول فأنزلوهم من القلعة بعد صلاة الصبح منهم من هو راكب على بغلة ومنهم من هو راكب على حمار فشقوا بهم من الصليبة وتوجهوا بهم الى بولاق وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة بالسيوف في أوساطهم والصوباشي الذي هو متسفر عليهم راكب قدامهم فكثر عليهم الاسف والحزن والبكاء من الناس فكانت عدتهم سبعة أنفس وهم القاضي علاء الدين بن الامام ناظر الخاص والشرفي يونس النابلسي الاستادار والقاضي بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب المماليك والقاضي فخر الدين بن عوض والقاضي أبو البقاء ناظر الخاص والاسطبل والشرفي يونس نقيب الجيش والامير يوسف البدري وزير الديار المصرية وأصله من مماليك الامير يشبك بن

مهدى الدوادار كان قدّمه للاشرف قاينباى ولازال يترقى حتى رأى من العز والعظمة غاية العلاء وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن وآخر الامر نفى الى اسطنبول فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر الخاص الذى هنالك حتى تنتهى أشغالهم فحصل لنساء القاضى أبى البقاء والقاضى أبى البركات كاتب الرجع على أزواجهن غاية الحزن فقاموا النعيهم ودقوا عليهم بالطارات وكذلك زوجة يوسف البدرى وبقية المباشرين وكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث التى لم يقع قط مثلها فيما مضى من الزمان فاستمروا بقصر ناظر الخاص ببولاق الى يوم الاثنين عشرى شوّال فنزلوا وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية وكان هؤلاء المباشرون لما صفا لهم الوقت طاشوا وصاروا كأنهم هم الملوك بمصر يتصرفون فى أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد واستغرقوا فى اللذات وعكفوا على شرب الخمور وسماع الزمور ولم يتفكروا فى عواقب الامور فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم الاخبار الردية وأحاطت بهم كل رزية فكانوا كما قيل فى المعنى

من يرتشف صفو الزما * ن يغص يوما بالكدر

ثم فى عقيب ذلك سافر الى اسطنبول الناصرى محمد بن الوردلاعب الشطرنج ورفيقه الشهابى أحمد الاسكندرانى وقيل ان الخنكار سليم شاه أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا يونس العادلى وأرسل لهما مبلغا له صورة بسبب كلفة السفر وعمل الزوادة ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى اسطنبول سألوا ملك الامراء بأن يعطوه مالا له صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول فما قدر على ذلك وفى يوم السبت ثامن عشر شوّال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم وكان أمير الركب الزينى بركات بن موسى المحتسب فخرج بطلب حافل فكان ما اشتمل عليه الطلب خمسة عشر نوبة من الهجن عليها أكوار مابين مخمل وملون وجوخ أصفر وبعض جنائب ببركستوانات فولاذ وطبول ومحفتين جوخ لنسائه وثلاثة خزائن على العادة وكاسات على العادة وطبلين وزمرين وعلى رأسه صنجق عثمانى حرير أحمر وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا بمصر وهم الشهابى أحمد بن الجيعان والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك والقاضى تقى الدين أبو بكر بن الملكى والقاضى عبد العظيم الصيرفى وآخرون من المباشرين وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسة نحو مائتى انسان فلما شق من القاهرة دعا له العوام وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكان ذلك اليوم مشهودا فلهج الناس بان ذلك سيكون آخر سعده وخرج فى هذه السنة حجاج كثيرة وغالبهم فلاحون وريافة واشيع ان العربان وقفت لهم فى الطريق وان الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر وكذلك العليق كان مشحوتا فلما خرج الحجاج وقف جماعة من أولاد

الناس والمماليك الذين عينوا الى العقبة الى ملك الامراء وشكوا له من عدم الجمال وانها لم توجد فرسم بابطال جماعة منهم نحو ثلاثين انسانا وكان الذين تعينوا فى الاول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك وأشيع ان أرباب الادراك من العربان وقفوا الى القاضى بركات بن موسى بسبب عاداتهم من الصرر فنفر فيهم ونهرهم وسبهم فخرجوا من عنده على غير رضا وقيل ان ناظر الخاص لما حج فى السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الادراك بالف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم وبيض وجهه عند الناس وفى شهر ذى القعدة وكان مستهل يوم الجمعة طلع القضا الاربعة للتهنئة بالشهر فلما تكامل المجلس وقع تشاجر بين قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى وبين قاضى القضاة نور الدين على الطرابلسى الحنفى فتفاوضا الكلام فى ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقف الامير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير فانه شرط فى وقفه النظر والتكلم للامير تغرى بردى الاستادار وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء من المستحقين ويستمر ذلك حتى يتوفى الامير تغرى بردى فسعت ابنة الامير يشبك عند قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة فى ابطال ما كان شرطه والدها للامير تغرى بردى ويجعل لها النظر على ذلك والتحدث على وقف والدها فحكم بنفسه فى ذلك وقد ساعدها على ذلك السلطان الغورى فلما ثبت ذلك على يد القاضى عبد البر وحكم بما فيه أبطل ما كان اشترطه الامير يشبك لتغرى بردى فلما توفى قاضى القضاة عبد البر وتوفيت ابنة يشبك سعى جماعة من معاتيق يشبك الدوادار لتغرى بردى فحكم بصحته وتبع فى ذلك شرط الواقف فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك لكونه نقض حكم قاضى القضاة عبد البر فحضر فى ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر وقال لقاضى القضاة نور الدين الطرابلسى انتقض حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض طلبته وساعده قاضى القضاة على ذلك وحط عليه ملك الامراء خاير بك وكان المجلس كله عليه فما وسعه فى ذلك المجلس الا انه قال رجعت عن حكمى وأبقيت حكم قاضى القضاة عبد البر على ما كان عليه فشهدوا عليه فى ذلك المجلس بابطال ما كان حكم به فعد ذلك منقصة فى حق قاضى القضاة نور الدين الطرابلسى ولامه الناس على سرعة نقضه لحكمه فى الحال فعد ذلك من النوادر الغريبة وصارت الوحشة عمالة بين قاضى القضاة المالكى والحنفى فى الباطن فنزل قاضى القضاة الحنفى من القلعة فى ذلك اليوم وهو فى غاية التعبس وفى عقيب ذلك عزل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ولم يبق منهم سوى أربعة أنفس لاغير فاستمروا على ذلك مدة ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره وفى مستهل هذا الشهر خلع ملك الامراء على القاضى عبد العظيم الصيرفى وقرره فى نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى ان يحضر من الحجاز فلما ولى القاضى عبد العظيم أمر الحسبة

اظهر

اظهر النتيجة العظمى فى انحطاط سائر أسعار البضائع بعد ما كانت تشحطت الاسعار
فى تلك الايام وصارت غلوة كبيرة بمصر واضطربت أحوال الناس وارتفع الخبز من
الاسواق وغلقت الطواحين وارتجت القاهرة بسبب ذلك وكان عقيب ذلك خروج الحجاج
وسافر المحتسب فجارت السوقة على الناس فى سائر البضائع فلما ولى القاضى عبد العظيم
صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضربا مبرحا
ويشهرهم فى القاهرة وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزقة حتى انحطت
أسعار البضائع قليلا وسكن ذلك الاضطراب الذى كان بمصر ثم رسم للجبانين
والسماكين بان يقلعوا بالسيرج الطرى دائما وكتب قسائم على المعصرانيين ان
لا يصنعوا الزيت الحلو أبدا ثم نادى فى القاهرة بتسعير اللحم الضانى والبقرى والجبن
وسائر البضائع ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفا وكانت البطة الدقيق
وصلت الى ستة عشر نصفا فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة
فارتفعت له الاصوات بالدعاء من الناس قاطبة ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم
فى بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الابيض قاطبة فهابته التجار والسوقة
ودخل فى الحسبة دخولا مهولا وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة وفيه توفى الامير ماماى
أمير اخور ثانى كان وكان من الامراء الطيلخانات وأصله من مماليك الامير ثانى باى
أمير اخور كبير وكان موته فجأة على حين غفلة وقيل انه كان صحبة جماعة من العثمانية
فوقع بينهما تشاجر فضربه أحدهم فمات فى ليلته وفيه ثارت العثمانية على ملك الامراء
وقالوا له زد فى جوامكنا والا اعطنا دستورا نرجع الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا
وان فى مصر غلاء وكل شئ غال وهذه الجوامك ما تكفينا فوعدهم انه يرسل يشاور الخشكار
وأمهلهم الى شهرين وكان القائم فى هذه الحركة جماعة الاصباهية وفيه قدمت
الاخبار من بلاد الصعيد بانه قد فشى الموت هنالك فى الابقار والاغنام فمات منها ما لا يحصى
عدده ووقع مثل ذلك بالشام ونواحيها ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية وزيادة على
ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الاراضى التى زرعت بدريا ووقع
فى أواخر هذه السنة تشحيطة عظيمة فى سائر الغلال وفى يوم الاربعاء سادسه رسم ملك
الامراء بشنق ستة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بقر فشنقوا فى عدة أماكن وفى
يوم السبت تاسعه نودى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ولا مغانى عرب
ولا غير ذلك ولا يبطى برقة عريس الى بعد العشاء ولا يمشى فى الاسواق من بعد العشاء وان
الاسواق تغلق من بعد المغرب وسبب ذلك أن العثمانية صاروا يشوشون على الناس فى الليل
ويخطفون العمائم والشدود ويخطفون النساء والمردان من الطرقات ليلا ونهارا وحصل

للناس منهم غاية الضرر الشامل وصارت المماليك العثمانية تؤذى الناس وصارت الطرقات من بعد المغرب مقفرة من قلة السالك بها وصار على الوجود خدة وفيه قدمت الاخبار من ثغر الاسكندرية بان الجماعة الذين توجهوا هنالك من المباشرين لما نزلوا فى المراكب وسافروا فى البحر المالح غابوا فيه ثلاثة أيام ثم عادوا الى ثغر رشيد وسبب ذلك أنه فى تلك الايام ثار ريح عظيم فرد المراكب من حيث جاءت فأقاموا فى رشيد أياما حتى طاب الريح ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول وفيه أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب يطلب من ملك الامراء تجريدة تلاقيه من الازلم عند عودا لحجاج فان العربان شوشوا على الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بما عليها من الاحمال وحصل منهم غاية الفساد فى حق الحجاج فلما بلغ ملك الامراء ذلك نزل الى الميدان وعرض جماعة من العساكر وعين تجريدة تلاقى الحجاج من الازلم فكتب جماعة من المماليك الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد الناس واستحثهم فى سرعة الخروج الى الازلم وفى يوم الاثنين خامس عشريه نزل ملك الامراء من القلعة بعد صلاة الصبح وعدى الى بر الجيزة وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة وذلك على سبيل التنزه فصنع له الشهابى أحمد بن الجيعان هنالك مدة حافلة وكذلك القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وكان صحبته الامير قايتباى الدوادار والامير زمك الناشف وسنان باشا وفائق بك وجماعة من الامراء العثمانية وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة فاستمر هنالك الى ما بعد العصر وركب وعدى من بر الجيزة وطلع الى القلعة وأشيع انه كان بين ملك الامراء وبين الامير قايتباى الدوادار حظ نفس فى الباطن فعزم عليه هنالك وزال ما كان بينهما من تلك الوحشة وطابت الخواطر منهما وفى يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الامير قايتباى الدوادار وسافر الى نحو العباسة وسبب ذلك أنه تغيب من المماليك الجراكسة من خشداشينه لاجل تفرقة الاضحية فانها كانت غالية ومشحوتة ولا توجد وفى شهر ذى الحجة وكان مستهله يوم السبت طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر وعادوا الى دورهم وفى يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين الى الازلم وكان باش هذه التجريدة شخص يسمى اياس فخرج مع العسكر وفيه قدمت الاخبار من الصعيد بان الامير على بن عمر خرج يغزو صاحب النوبة وان الصعيد أحواله مضطربة وفى يوم الجمعة سابعه خرج الامير جانم الحزاوى دوادار ملك الامراء وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية وسبب ذلك أن ملك الامراء أرسل على يده تقدمة حافلة الى شخص من امراء ابن عثمان يقال له برى باشا وكان من أعيان أمراء ابن عثمان وكان مقيما على البيرة وقيل بحلب فلما خرج الامير جانم الحزاوى ووصل الى العكر شا وردت عليه الاخبار من هنالك بان الامير برى باشا الذى خرج بسببه

قد

قد توجه الى نحو اسطنبول وقد تغلب عليه العسكر الذين كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد فرجع الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء فلما تحقق الامير جانم الحمزاوى رجوع الامير برى باشا الى اسطنبول أرسل يشاور ملك الامراء فى أن يرجع الى مصر أو يسافر الى حلب فرسم له ملك الامراء بالعود الى مصر فرجع من العسكر شاوصحبته التقدمة التى عينت لبرى باشا ومن الحوادث أن ملك الامراء رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة بسد قناطر الخروبى الثلاثة فوزعوا سد هذه القناطر على السكان الذين بيوتهم فوق السور فحصل للسكان الذين بيوتهم فوق السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك وأشيع سد قناطر السباع أيضا وقنطرة الموسكى ولم يعلم ما القصد من ذلك فسدوا قناطر الخروبى الثلاث بالحجارة فعد ذلك من النوادر الغريبة وكثر القيل والقال فى ذلك وفى يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر فلم يفرق ملك الامراء على أحد أضحية لا على الامراء ولا على العسكر وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين حتى ضحايا الزوايا والمزارات التى فى القرافة وغيرها وقال أنا ما أمشى الا على طريقة ابن عثمان فى سائر أفعاله وقطع الاضحية التى كانت تفرق فى الاعياد وفى أواخر هذا الشهر وقع بين ملك الامراء وبين الاصباهية من عسكر ابن عثمان وقالوا له أعطنا دستورا لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا فقال لهم حتى أرسل أشاور الخنكار فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور وأغلظوا على سنان باشا فى القول وقالوا له هذا كله شغلك فاتفق معهم ملك الامراء أنه بعد مضى الشتاء يأذن لهم بالسفر والعود الى بلادهم انتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير وكانت سنة كثيرة الحوادث منها خسة النيل ووقوع الغلاء فى سائر البضائع والغلال واستمرت هذه التشحيطة تتزايد الى أواخر السنة ووقع من الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول وغير ذلك حوادث كثيرة تقدم ذكرها

❁ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وتسعمائة وكان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالعام الجديد ثم عادوا الى دورهم وفى يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطرا غزيرا فتفاءل الناس بان ذلك العام يكون مباركا خصبا وفى يوم الخميس رابع المحرم وصلت من ملك الامراء نائب الشام جان بردى الغزالى إلى ملك الامراء خايربك تقدمة ليست بعظيمة أمر وهى أربعة أرؤس خيل وثمانية شقادف تشتمل على بطاريز ضمنها مخمل وفى بعض الشقادف كمخا وتفاح وسواقه وأرسل ملك الامراء جان بردى الى الامير قايتباى الدوادار فرسا وأربع شقادف ومثل ذلك للامير ازمك الناشف ومثل ذلك الى جماعة من الامراء العثمانية فشكروا له ذلك وفى يوم الجمعة خامس المحرم حضر مبشر الحاج وأخبر بالامن والسلامة لهم غير أن معهم الغلاء الشديد وموت الجمال فوصل

كراء الجمل الى مائة وعشرين دينارا وأن مكة فيها غلاء شديد ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب الغلاء وان العربان جائرة فى الطرقات وكانت سنة صعبة شديدة على الحجاج وفى يوم الاحد سابع المحرم قدمت الاخبار من قطيا بأن والى قطيا وهو شخص من الاتراك يقال له قان بردى وأصله من مماليك الظاهر برقوق وقيل من مماليك الغورى فانصوه أرسل اليه ملك الامراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا فلم يعطهما شيأ فأغلظا عليه فى القول وقالا له أخذك معنا فى الحديد الى ملك الامراء فبطحهما على الارض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت وقيل مات أحدهما من الضرب وقال لهما امضيا الى أستاذكما وقولا له ايش ماطلع من يدك افعله فحضر أحدهما وأخبر ملك الامراء بذلك فلما سافر امن قطيا أخذ والى قطيا ماله وغلمانه وتوجه الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقاة الحاج وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة فلما توجه الى الغزالى توجهوا معه اليه فلما بلغ ملك الامراء ذلك خلع على شخص من الاتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضا عن قان بردى بحكم غيبته كما تقدم وفى يوم الاربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم الصيرفى نائب المحتسب ونادى فى القاهرة بأن أرباب الدكاكين من السوقة يبيضون دكاكينهم ويزخرفونها بالدهان ويبيضون آلات النحاس التى عندهم فى الدكاكين لاجل مجىء القاضى بركات بن موسى المحتسب من الحجاز وفى يوم الاربعاء المقدم ذكره وقعت حادثة مهولة وهى أن ملك الامراء نزل من القلعة وتوجه الى نحو بركة الحبش وعزم على وردبش دوادار نائب الشام الذى حضر بالتقدمة فصنع له هناك مدة حافلة ونصب سيباى له هناك سحابة عظيمة وحضر عنده الامير قايتباى الدوادار وجماعة من الامراء الجراكسة وحضر جماعة من الامراء العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك وحضر الامير كمشبغا والى القاهرة وجماعة من المماليك الجراكسة فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الامراء سفرة الشراب فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الخمر فى رؤسهم طفح ما كان فى قلوبهم من الغدر فقال فائق بك لكمشبغا الوالى الجراكسة خائنون وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لا يليق فقال له كمشبغا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو أنتم وقد كتبتم أمانكم فى أوراق وفرقتموها على الامراء ووضعوها على رؤسهم وطلعوا اليكم بالامان فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان نحن أو انتم ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى خرجا فى ذلك عن الحد فوثب فائق بك على كمشبغا الوالى بخنجر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطانه فانخرق فوثب كمشبغا على فائق بك ليقتله فحال بينهما الحاضرون ثم ركب كمشبغا وركب جماعة من المماليك الجراكسة وسلوا سيوفهم وركب جماعة من العثمانية وسلوا سيوفهم وقصدوا الوثوب على بعضهم وكادت ان تكون فتنة عظيمة تذهب فيها الارواح فتنكد ملك

الامراء لذلك وركب على الفور وحال بين الفريقين وخمدت هذه الفتنة قليلا ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر العتيقة ومضى هو والامراء الجراكسة على طريق القرافة واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة من الميدان فارأى نفسه فى القلعة وفى عينه قطرة وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع فقيل انه حلف لا يشرب خمرا فى هذه السنة واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك وبين كشبغا الوالى وهذه الحادثة أول حوادث سنة خمس وعشرين وتسعمائة ثم ان ملك الامراء بعد وقوع هذه الحركة انحجب عن الناس ثلاثة أيام لم يظهر لاحد من شدة نكده مما قاساه فى ذلك اليوم وفى يوم الاثنين ثانى عشريه خرجت المدورة الى بركة الحاج بسبب الملاقاة فلما أقامت المدورة هناك يوما وليلة أشيع أنهم رجعت الى القاهرة وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسل هجانا الى ملك الامراء وأخبره أن الحجاج وصلوا الى عيون القصب وأنهم فى غاية ما يكون من الانكاد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك فتنكد الناس لذلك ورجع من كان طلع الى بركة الحاج من الملاقين وفى يوم السبت سابع عشريه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان وحضر صحبته الناصرى محمد الحلبى مهمندار ملك الامراء الذى كان توجه صحبة التقدمة المتقدم ذكرها وهى التى أرسلها ملك الامراء الى ابن عثمان وحضر قاصد الامير على بن عمر شيخ عربان جهات الصعيد وكان قد توجه صحبة التقدمة التى أرسلها الى ابن عثمان فلما بلغ ملك الامراء وصول القاصد الى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه من تربة العادلى التى بالمطرية وخرج صحبته الامراء العثمانية والامراء الجراكسة وأعيان المباشرين والعسكر العثمانى والانكشارية قدامه مشاة يرمون بالنفوط فلما وصل الى تربة العادلى نزل وجلس على المسطبة التى هناك ثم حضر القاصد وأخرج قفطانا مخملا بتماسيح على أحمر أرسله اليه الخنكار ابن عثمان بالاستمرار على نيابة مصر فلبسه ملك الامراء وقبل الارض مرارا وأرسل قفطانات تماسيح الى فائق بك وسنان باشا وخير الدين بك نائب القلعة وأرسل قفطان تماسيح الى الامير قايتباى الدوادار باستمراره فى الدوادارية فلبسه ثم ركب ملك الامراء من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة فى موكب حافل ولاقاه قضاة القضاة الاربعة من باب النصر ثم مشت طائفة النصارى قدامه بالشموع وكان ذلك يوم السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليوم واستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع القلعة وكان ذلك اليوم مشهودا فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس انه حضر يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر وأشيع أن الخنكار ابن عثمان ارسل تقدمة حافلة الى الامير على بن عمر شيخ عربان الصعيد وأرسل اليه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ورسم بأن التقدمة والقفطان تتوجه اليه

صحبة قاصده الى الصعيد فتضاعفت عظمة الامير على بن عمر بسبب ذلك وفى يوم الاحد ثامن عشريه نزل الحاج بالبركة وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن موسى المحتسب أمير الحاج فتغدى فى بركة الحاج وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشريه ركب من هنالك وطلع الى ملك الامراء وقابله فخلع عليه قفطانا مخملا أحمر مذهبا ونزل من عنده وشق القاهرة فى موكب حافل وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط فكانوا نحو مائتى انسان فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط وهو ضارب لثاما ثم أشيع بين الناس أن الحاج قاسوا فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة ثم أشيع وفاة الطواشى الامير بشير رأس نوبة السقاة وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عثمان الى القاهرة فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى فأقام هنالك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الاعيان وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة فانه حمل مالا يطيق حيث طلع الى الحجاز أمير حاج وكانت هذه الوظيفة للامراء المقدمين وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان فى طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال فأعانه الله على ذلك ورجع مع السلامة وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن جماعة من الاصباهية غاروا على صبية فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى فى ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا انها كانت عند شخص نصرانى فقبضوا عليها وعلى ذلك النصرانى فلما عرضوا على ملك الامراء رسم بان تعرى المرأة من أثوابها وتكتف أيديها وأرجلها وأن تربط من رجليها فى ذنب اكديش وتسحب على وجهها من الكداشين الى باب زويلة ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة وقصدوا شنقها على باب زويلة فقيل انها ماتت فى أثناء الطريق وقيل بل غرقوها فى البحر عند الجزيرة الوسطى وقد مضى أمرها وقد قاست مالا خير فيه حتى ماتت واستهل شهر صفر بيوم الثلاثاء فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى أوائل هذا الشهر قدمت الاخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول فى البحر المالح لما وصلوا الى قريب جزيرة اقريطش خرج عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج فتحاربوا مع الجماعة العثمانية الذين خرجوا صحبة المباشرين فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الخواجا هاشم وكان من أبناء العجم وكان من أخصاء ملك الامراء خاير بك وكان قرره فى نظر المارستان ونظر جهات الجوالى فقتل فى هذه المعركة وكان

قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل فى المركب التى كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار والقاضى بركات كاتب الرجع أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وكان بهذه المركب يوسف البدرى الوزير والناصرى محمد بن الوردلاعب الشطرنج ايضا فلما خرج عليهم الفرنج رموا على مركبهم بالمدافع فانخرقت وغرقت وغرق كل من كان فيها من المباشرين وغيرهم فغرقوهم وأموالهم التى كانت معهم جميعها فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار وبركات كاتب الرجع ويوسف البدرى الوزير ومحمد بن الوردلاعب الشطرنج وقيل سلم من الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندرانى ثم أشيع بان المركب التى كان بها علاء الدين ناظر الخاص وفخر الدين بن عوض والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل والشرفى يونس نقيب الجيش وأحمد الاسكندرانى لاعب الشطرنج سلمت من الغرق فسار بها الهواء الى نحو جزيرة اقريطش فخرجوا وهم عراة حفاة مكشوفوا الرؤس ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من المشى وتورمت أقدامهم وأشرفوا على الموت مرارا وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش وأما علاء الدين ناظر الخاص فانه مرض وعجز عن المشى حتى حمله بعض الفرنج على أكتافه وكذلك أبو البقاء ناظر الاسطبل وفخر الدين بن عوض فاستمروا على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة اقريطش فلما رآهم أحسن اليهم وكساهم وأقاموا عنده مدة طويلة ثم جهزهم وأرسلهم الى اسطنبول هكذا أشيع والعلم لله تعالى فلما ثبت موت هؤلاء المباشرين خرج نعيهم وطيف بالقاهرة ودقوا عليهم بالطارات وكان هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس وضيقوا عليهم بسبب أرزاقهم وأوقافهم واقطاعاتهم ولاسيما ما فعله فخر الدين بن عوض فى جهات الغربية من وجوه الظلم فكثر عليهم الدعاء من الناس وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وكان كما يقال فى المعنى

فاستغن بالسمع عن مرآهم وعظة * فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم

وصاروا يفتحون على الناس أبوابا من المظالم شيأ بعد شئ ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة حتى على الاوقاف التى على الجوامع والمساجد والزوايا وضاع على الناس خراجهم وحصل لهم الضرر الشامل ثم انهم أبطلوا الاقطاعات التى بالمناشير وأدخلوها فى ديوان السلطان ثم فى السنة الثانية أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية التى بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك وصاروا يضعون أيديهم على بلاد الاوقاف ويستخرجون منها الاموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير لمن يأخذون برطيله وكانوا اذا قرروا مع ملك الامراء شيأ من أمر البلاد يطاوعهم على الفساد ويقول لهم افعلوا ذلك وهو فى أيديهم

مثل اللواب يدورونه كيف شاؤا وكان الوقت قد صفا لهم وصاروا يتصرفون فى أحوال المملكة بما يختارونه فأخذهم الله أخذ وبيلا ولم يجدوا لهم من الله سبيلا وتكدرت معايشهم بعد الصفا وخانهم الدهر بعد الوفا وقد قلت

اذا صفا الدهر يوما * الى التكدّر يرجع
هل من لبيب تراه * بأيسر الرزق يقنع
فليعتبر من يشاهد * لمصرع بعد مصرع

وفيه قدمت الاخبار من دمشق بان الحاج الشامى قد استولت عليه الأعراب وعوّقوهم عن الدخول الى البلاد الشامية ونهبوا أموالهم وجمالهم وغنموا منهم أموالا لها صورة فلما بلغ الامير جان بردى الغزالى ذلك خرج الى العربان من يومه وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ونائب الكرك فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة وغنم أموالهم وما كانوا غنموه من الحاج الشامى وهو شئ لا ينحصر فاحتاط على جميع ما معهم وهربوا من وجهه الى الجبال وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء وصبيان وغلمان فكان له الشكر على ذلك وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس وصاروا يخطفون النساء من الطرقات وكذلك الصبيان المرد حتى قيل انهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع الكعك والناس ينظرون اليهم وهم يفسقون بها فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ثم صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين وعلى البياعين وصار أهل مصر منهم فى غاية الضنك والامر لله تعالى وفى يوم الاثنين ثامن عشريه نزل ملك الامراء الى الميدان وأحضر سنان باشا اغات الاصباهية وقد صار بينه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم فكان يأخذ من ملك الامراء المال ولا يصرف لهم شيأ فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا وثمانين ألف دينار فاعترف انها فى جهته وسيوصلها الى الخزنكار فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك اليوم تشاجر بسبب ذلك فقالت الاصباهية لا تعطوا سنان باشا من جوامكنا شيأ من الآن واصرفوا النا مثل جوامك المماليك فى كل شهر على البساط ثم فى يوم الثلاثاء ويوم الاربعاء سلخ الشهر عرض ملك الامراء الاصباهية فقل ما وجد عند سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال وقال مثل قوله فكثر بينهما القيل والقال بسبب ذلك وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان باشا وفائق بك وأوعدوا سنان باشا بالقتل غير مامرة وفى شهر ربيع الاول وكان مستهل الشهر يوم الخميس طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الاثنين خامس الشهر نزل ملك الامراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد منهم ومن بقى ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا وفائق بك من

جوامك الاصباهية وليس لهم وجود فظهر زيفه فى هذه الحركة وفى يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الامراء على طيلان رأس نوبة وضربه بين يديه بالمقارع فى الحوش ضربا مبرحا وكان سبب ذلك أن أخت السلطان طومان باى رافعته وذكرت أن السلطان طومان باى أودع عنده ثمانية آلاف دينار فأنكر طيلان ذلك وحلف أنه ما أودع عنده شيأ من ذلك فلما تزايد الامر من أفواه الناس بسبب هذه الوديعة وصار طيلان ينكر ذلك حنق منه ملك الامراء وأمر بضربه بالمقارع وهو لم يقر بشئ فنزل من القلعة وهو فى الترسيم حتى يحقق ذلك وفى يوم الاحد حادى عشره مع ليلة الاثنين كان المولد الشريف النبوى فجلس ملك الامراء فى المقعد الذى فى الحوش السلطانى واجتمع عنده بعض المباشرين وخير الدين نائب القلعة وبعض أمراء عثمانية واجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ثم فى أواخر النهار مد سماطا لا يسمن ولا يغنى من جوع وأين هذا مما كان يعمل فى موالد من تقدم من السلاطين ثم انه خلع على الوعاظ قفطانات واستردها بقدرهين وفى يوم الاثنين ثانى عشره خلع ملك الامراء على مملوكه برسباى واستقر به أمير ركب الحاج الشريف فنزل من القلعة فى موكب حافل وفى يوم الخميس خامس عشره حضر قاصد من عند نائب حماه وصحبته تقدمة حافلة الى ملك الامراء وأشيع أن الاميرجان بردى الغزالى نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس منهم قراجا بن طرا باى فلما قبض عليهم حز رؤسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنه فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس وصارت العربان ينهبون الضياع التى حول جبل نابلس ويقتلون أهلها وتزايد الغلاء بالشام من قلة الجالب اليها وفى يوم الثلاثاء عشريه قدمت الاخبار من الغربية بأن اينال السيفى طرا باى كاشف الغربية قد احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر شيخى عربان الغربية وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باى وقد تقدم ذكر ذلك فعزم اينال على حسن ابن مرعى وأخيه شكر فى مكان بالقرب من سنهور فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسى مما قد فعلاه فكان كما يقال فى المعنى

قالت ترقب عيون الحى إن لها * عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب فلما شربا ودخلا فى السكر هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال فعاجلوا حسنا وشكرا بالحسام قبل الكلام فقطعوا رؤسهما واشتفوا منهما حتى قيل ان بعض المماليك الجراكسة شرب من دمهما وبعضهم جزل لحومهما بالسيف والمجازاة من جنس العمل وكما تدين تدان وفى يوم الاربعاء حادى عشريه حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعى ورأس شكر فرسم ملك الامراء للوالى أن يعلقوهما على باب النصر وقيل ان

رأس حسن بن مرعى لما دخلوا بها وبرأس شكر علقوهما فى رقبة فرس السلطان
طومان باى الذى كان راكبا عليها لما قبضوا عليه فى تروجه فصودف أن هذا الفرس
كان تحت حسن بن مرعى لما أتى الى اينال فعد ذلك من النوادر الغريبة وقيل ان عيال
السلطان طومان باى لما علقت رأس حسن وشكر على باب النصر أظهروا فى ذلك
اليوم الفرح والسرور وأطلقوا الزغاريت وتخلقوا بالزعفران وأشيع أن أخا حسن بن
مرعى كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه فمز عليه فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه
وفى يوم الجمعة ثالث عشريه قدمت الاخبار من ثغر دمياط بأنه قد وصل الى الثغر قاصد من
البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك فلما سمعا ذلك تنكدا لهذا
الخبر وقالا لملك الامراء خاير بك هذا كله شغلك أنت تكاتب فينا الخنكار فى الدس
وترافع فينا عنده فلما وردت الاخبار بمجىء القاصد من دمياط رسم ملك الامراء
خاير بك للقاضى بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته فخرج الى قليوب ورمى على البلاد
من الشرقية والغربية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا فجمع فى هذه الحركة فوق ألف رأس
من الغنم غير البقر والاوز والدجاج فغدا القاضى بركات بن موسى للقاصد فى قليوب مدة حافلة
فأشيع أنه صنع له فى تلك المدة أربعمائة رأس غنم ومثلها أوز ومثلها دجاج وخمسمائة مجمع
حلوى وقيل ألف مجمع ثم مد له فى أبى الغيث مدة ثانية مثل الاولى فلما وصل القاصد الى
هنالك فاذا هم أميران أحدهما يسمى اسكندر باشا والآخر يسمى فرحات بك وصحبتهما من
الغلمان نحو مائة انسان فلما انتهى أمر المدة أحضر القاضى بركات بن موسى بين أيديهما
وقالا له الخنكار يسلم عليك ويقول لك بيض الله وجهك حيث رجعت بالحجاج سالمين
بخلاف ما جرى على الحاج الشامى فقام وقبل الارض عدة مرار وكشف رأسه فلما
وصل القاصد الى شبرى خرج الامير قايتباى الدوادار الى ملاقاتهم وجماعة من الامراء
الجراكسة فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم وفى يوم الثلاثاء سابع عشريه دخل القاصد
الى القاهرة وقت صلاة الصبح فطلعوا على الجزيرة الوسطى وأتوا من باب الخرق وأتوا الى
تحت الربع وتوجهوا على القربيين فأنزلوهم فى بيت الاتابكى قرقماس بن ولى الدين الذى
عند حوض العظام فأنزلوا به اسكندر باشا وأنزلوا فرحات بك فى بيت الامير كسباى
المحتسب الذى عند مدرسة سودون بن زاده فغدا لهما القاضى بركات بن موسى هنالك مدة
ثالثة لكل واحد منهما على انفراده واستمروا هنالك يوم الثلاثاء سابع عشريه وطلع
القضاة الاربعة الى القلعة واجتمعوا بملك الامراء وقرؤا مطالعة الخنكار فكان من
مضمون تلك المطالعة طلب سنان باشا وفائق بك وخير الدين نائب القلعة وأرسل يقول لملك

الامراء

الامراء خاير بك بأن يتوصى بالجراكسة وأن يصرف لهم جوامكهم على العادة ولحومهم وعليقهم وأن يتطرف فى أحوال المعاملة ويزيل عنها الغش من الذهب والفضة وأن يحفظ الثغور فلما تحقق سنان باشا وفائق بك أن السلطان أرسل يطلبهما اضطربت أحوالهما وهموا بقتل ملك الامراء خاير بك وعلموا أن هذا كله مما كان يراسل به الخنكار يشكو له منهم فاختفى ملك الامراء فى الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لاحد من الناس حتى أشيع أنه قد هرب من القلعة فاضطربت أحوال القاهرة ووزع الناس أمتعتهم فى الحواصل ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب فيها القاهرة وتنهب عن آخرها من الاصباهية والكملية فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام ثم طلع القاضى بركات بن موسى الى ملك الامراء وقال له ارسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للناس بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وأن الاسواق والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكثر كلامه ولا يتحدث فى شئ لا يعنيه ومن تكلم فى شئ لا يعنيه يشنق من غير معاودة فطاف الوالى فى القاهرة وأشهر النداء بذلك وصار ملك الامراء على رأسه طيرة من الاصباهية فبنى حائطا تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهية وكانت عدتهم نحو ألفى انسان غير الكملية وصاروا يركبون فى كل يوم ويقفون فى الرميلة ويسبون ملك الامراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه وفيه قدمت الاخبار من الشرقية بقتل شيخ العرب على الاسمر ابن أبى الشوارب وقد احتال عليه كاشف المنوفية وعزم عليه وأسكره وهجم عليه دواداره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف فلما جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن بغداد على نفسه فاختفى مدة أيام وقد قوى عزم المماليك الجراكسة من حين قتل الاسمر اينال كاشف الغربية حسن بن مرعى وشكرا أخاه وفيه تغير خاطر ملك الامراء على يونس الجلبى قيل ان أصله فلاح من الشرقية فبقى استادارا وكان له مقدار عند ملك الامراء بسبب انسحاب المال على الجامكية فبطحه فى الحوش وضربه ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا فنزل الى بيته وهو مبطوح على حمار فأقام أياما ومات من الضرب وفى شهر ربيع الآخر فى يوم الاثنين رابعه وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية والانكشارية من عسكر ابن عثمان قتل فيها من الاصباهية شخص وقيل اثنان فرسم ملك الامراء للانكشارية بان يقيموا بالقلعة دائما ولا ينزلوا الى المدينة فبطل أمر الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب المدينة وتشتكى الناس فى خلاص الحقوق منهم فرسم لهم ملك الامراء بان يسكنوا باطباق المماليك التى بالقلعة ولا ينزلوا الى المدينة أبدا وكان يحصل منهم غاية الفساد فى حق الناس من خطف النساء والصبيان والضيافات والبضائع من أيدى المتسببين وضج الناس من ذلك وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك

قد برز اخيامهما فى الرايدانية بسبب السفر الى اسطنبول وأشيع أن سنان وفائق يتوجهان من البحر وبركهم يتوجه من البر وفى يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا وفائق بك وتوجها الى بولاق وشقا من الصليبة فى موكب حافل وقدامهما الاصباهية قاطبة والانكشارية وألبس كل منهما قفطانا مخملا وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار فاستمر معهما العسكر العثمانى حتى أنزلوهما فى المراكب من بولاق وساروا فى البحر الى ثغر دمياط ومن هناك نزلوا فى الاغربة وفى يوم الجمعة خامس عشره انتهى العمل من الجامع الذى أنشأه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان الذى عند بركة الرطلى بالقرب من حدرة الفول وخطب به فى ذلك اليوم وكان مسجدا قديما بنى فى دولة الناصر محمد بن قلاون سنة أربع وأربعين وسبعمائة ودفن به الشيخ خليل الرطلى وهو الذى تنسب اليه بركة الرطلى فاستمر على ذلك حتى خرب فجدده الصاحب سعد الدين بن ابراهيم البشيرى فى دولة الملك المؤيد شيخ فأقام مدة طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذى بالبركة فاستمر على ذلك الى أن خرب وأقام مدة طويلة وهو خراب فجدد بناءه القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر فى هذه السنة فاجتمع به فى ذلك اليوم القضاة الاربعة وأعيان الناس من المباشرين وغيرهم وخطب به ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل فخطب به خطبة بليغة فى معنى انشاء الجوامع فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابى أحمد بن الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبدية فطاف بها على الناس ثم قامت جماعة من المنشدين وأنشدوا قصائد فى انشاء هذا الجامع من نظم جمال الدين السلمونى الشاعر وعبد اللطيف الدنجيهى وغيرهما من الشعراء ثم ان الشهابى أحمد بن الجيعان قرر بهذا الجامع حضورا من بعد العصر وصوفية وجعل شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر شيخ حضور الشافعية وشيخ الحنفية هو شهاب الدين أحمد بن الصائغ وقرر شيخ الحديث الشريف الشيخ شمس الدين الضيروطى وفى يوم الاحد سابع عشره أشيع أن المملوك الذى قتل على الاسمر ابن أبى الشوارب قد قبض عليه الكاشف وأحضره الى ملك الامراء فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة وقيل ان أصله من مماليك الاتابكى سودون الدوادار فأرضى ملك الامراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك وفى يوم السبت ثالث عشريه وقعت فتنة كبيرة بين الاصباهية والانكشارية فأغلقوا باب السلسلة وباب الميدان فى ذلك اليوم واستمر الشر عملا بين الفريقين الى ما بعد الظهر فنزل الكيخية الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا وفى يوم الاثنين خامس عشريه كان يوم فطر النصارى وهو أول الخماسين واستهل شهر جمادى الاولى يوم السبت فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم ومن الحوادث فى ذلك

اليوم أن ملك الامراء أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ورسم لهم أن يحضروا بمكاحلهم والبندق الرصاص الذى عندهم فلما أحضروا ذلك رسم ملك الامراء بادخال تلك المكاحل والبندق الرصاص فى الزردخاناه ورسم للانكشارية بأن يقيموا فى الاطباق التى بالقلعة ولا ينزلون الى المدينة أبدا فشق ذلك عليهم الى الغاية وانتصفت عليهم طائفة الاصباهية وفى يوم الاربعاء خامسه نزل ملك الامراء فى مركب وعدى الى المقياس فأقام به الى آخر النهار ثم توجه فى المركب الى قصر ابن العينى الذى بمنشية المهرانى ثم توجه من هناك الى بولاق وأقام بالسبتية ثم طلع الى القلعة فى أواخر النهار وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية وفيه خلع على القاضى شرف الدين الصغير والقاضى شرف الدين بن عوض واستقر فى التحدث فى جهات الشرقية عوضا عن يونس الذى كان استدار اومات تحت العقوبة وفى يوم الاحد تاسعه خرج القاضى بركات بن موسى المحتسب الى مساحة بلاد الصعيد واستخراج المغل الذى بها وكانت هذه وظيفة الامير يشبك الدوادار والامير أقبردى الدوادار وغيرهما من الدوادارية تخرج فى موكب حافل وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط وسافر معه جماعة من المماليك الجراكسة وفعل فى أمر السنيح والخيام والبرك ما عجز عنه الامراء المقدمون وقد ساعدته الاقدار على بلوغ الاوطار ورأى من العز والعظمة فى دولة ابن عثمان ما لم يره فى دولة السلطان الغورى وفى يوم الخميس ثالث عشره توفى الشيخ الصالح المعتقد عبد الرحمن البهنساوى الذى كان مقيما بالمدرسة البرقوقية وكان للناس فيه اعتقاد وفيه عرض ملك الامراء خاير بك طيلان رأس نوبة وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا وسبب ذلك أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من المال الذى يورده ثم بعد الضرب أرسله الى سجن الديلم فأقام به وفيه قبض ملك الامراء على جماعة من اليهود من معلمى دار الضرب ومن الصيارف وسبب ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان فى الذهب والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا وزغلا فقبض على معلم دار الضرب وألزمه بأن يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار وأن المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة فلما جرى ذلك أغلظ عليه جماعة من اليهود وقالوا له أرنا مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول وأقاموا أياما بالسجن حتى يكون من أمرهم ما يكون وفيه تغير خاطر ملك الامراء على الامير كشبغا والى القاهرة فخنق كشبغا من ملك الامراء فلما نزل الى بيته أغلق الباب وطرد النقباء عن بابه ورفع دكته وأقام أياما لم يخرج من بيته فنزل اليه الامير جانم الحمزاوى وطلع به الى ملك الامراء وقابله به فخلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره على عادته بعد ما كان أشيع وقوع فتنة عظيمة وقيل انه أورد الى ملك الامراء ستة آلاف دينار وفيه أشيع أن ملك الامراء خاير بك قد

ضرب زوجته خوند مصر باى الجركسية ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ولم يعلم ما سبب ذلك وكثر فى ذلك القال والقيل وفى يوم الاثنين سادس عشريه حضر من عند الخنكار أولاق يبشر بمجىء عسكر عوضا عن الاصباهية الذين بمصر وقد عين الخنكار عسكرا وهو فى أدرنه بأن يحضروا الى مصر وزعم هذا القاصد أنه أتى من أدرنه الى مصر فى أحد وعشرين يوما وكانت الاصباهية قد تقلقوا من الاقامة بمصر فجاء هذا الاولاق يبشر بمجىء العسكر حتى تطمئن الاصباهية بذلك وفى شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم الاثنين طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى طيلان رأس نوبة وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم فاستمر عليلا حتى مات وكان من وسائط السوء ظالما عسوفا من جملة أعوان الظلمة وفى يوم الثلاثاء سادس عشره حضر قاصد أيضا من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على الخنكار وأرسل يقول لملك الامراء بأن يحفظ الثغور ويحصن ثغر الاسكندرية وثغر دمياط بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك وفى يوم السبت عشريه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرين اصبعا أرجح من العام الماضى بعشرة أصابع وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع فتفاءل الناس بذلك وفى يوم الاثنين ثانى عشريه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان وزعم أنه قد قرره فى نقابة الاشراف وأظهر مرسوم الخنكار بذلك وأشيع أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا الى اسطنبول فأخذوا فى أسباب عمل برقهم وفى يوم السبت سابع عشريه خلع ملك الامراء على القاضى عبد العظيم واستقر به فى التحدث فى نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزينى بركات ابن موسى وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه فى الحسبة الى أن يحضر من السفر فضاعت أحوال المسلمين فى هذه الايام ووقع الغلاء بالديار المصرية وتشحطت الغلال وعز وجود الخبز فى الاسواق وتناهى سعر الاردب القمح الى ألف درهم وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين نصفا وعز وجود الشعير والفول والتبن فضج الناس من ذلك وعز وجود الاجبان والسمن والشيرج وغير ذلك فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى وضربوا المباشرين والرسل الذين على الباب وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم وهجموا عليه فى حريمه وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الامراء وقالوا له ان لم تول هذا الحسبة والا تخرب مصر على أيامك وتنهب المدينة عن آخرها فاوسع ملك الامراء الا أن أحضر له قفطانا وأفاضه عليه واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى فنزل من القلعة بعد العصر وشق من القاهرة وارتفعت

له الاصوات بالدعاء من الناس وكان محببا الاهل مصر قاطبة ففرح كل أحد من الناس بولايته وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وتفاءل الناس بكعبه بالرخاء وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا وفى هذه الايام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك وفى يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الاصباهية على الامير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعة وعينوا له الضرب وقالوا له قل لملك الامراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود فلا نلتقى فى الاسواق خبزا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفينا من القوت فما خلص منهم الامير جانم الحمزاوى الا بعد جهد كبير وذكروا أن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الثلاثاء طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر وعادوا الى دورهم وقد قلق الناس من أمر الاصباهية ثم ان النيل استمر فى التوقف لم يزد شيأ فأمر ملك الامراء بابطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ثم ان الوالى قبض على امرأة يقال لها انس وكانت ساكنة فى الازبكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة وكان عليها مبلغ مقرر توردە كل شهر للوالى وكان أمرها مشهورا فرسم ملك الامراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية زوجة أحد من الناس يقال له البغيضى كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جمعها البنات الخطا فلما قبض الوالى على أنس توجه بها الى قصر ابن العينى الذى فى المنشية وغرقها هناك بعد العصر فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها وكان يوما مشهودا فغرقت على النداء والاجهار وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الارض منها وفى يوم الجمعة رابع الشهر صلى ملك الامراء صلاة الجمعة بالقلعة ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد مدة حافلة للفقراء واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيأ وأشيع أنه نقص أربعة أصابع فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف وفى يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ففرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه

قد أصبح الخزان مذ زادهـ * ـذا النيل بعد النقص فى بوسى
وقد غدا يقرا على قحه * قراءة تنسب للسوسى

فلما زاد النيل هذا الاصبع وسكن الاضطراب شرع القاضى عبد العظيم المحتسب فى تسعير البضائع قاطبة فانصلحت أحوال الديار المصرية قليلا ووقع الرخاء وتفاءل الناس بكعبه بالخير وقد قلت فى المعنى

يا قاضيا قد غدا بالله محتسبا * على الاعادى ولا يخشى من الباس
رخصت أسعارنا من بعد ما غليت * وحزت حسن الثنا من ألسن الناس

لما تولیت زاد النیل وانفرجت * وقد خزی کل خزان ودراسی
ان زال هذا الغلا من مصر لا عجب * فکعبکم أخضر یزهو علی الآس

ومن الحوادث أنه فی یوم الخمیس عاشر رجب وقعت واقعة شنیعة وهی ان اسکندر بك أحد أمراء ابن عثمان الذی کان حضر الی مصر عوضا عن سنان باشا لما أقام بمصر صار یعارض قضاة القضاة فی الاحکام الشرعیة فوقع بینه وبین نور الدین علی المیونی نقیب قاضی القضاة الشافعی ثم انه فی یوم الخمیس رسم بعزل علی المیونی من النقابة ولم یکتف بذلك حتی انه تکلم مع ملك الامراء فی نفیه فنفاه الی دمنهور وأخرجه من یومه ثم ان ملك الامراء رسم بابطال نقباء قضاة القضاة الاربعة فعزل من النقابة شهاب الدین أحمد بن سیرین نقیب قاضی القضاة الحنفی وعزل نقیب قاضی القضاة المالکی شمس الدین الدمیری وعزل من النقابة ابن قاضی القضاة الحنبلی ومنع جماعة من الوکلاء ومن الرسل أیضا وحصل لقضاة القضاة منه غایة الضنك بسبب نقبائهم وقد تقدم القول ان ملك الامراء لما توقف النیل سبعة أیام أمر بابطال بیوت الحشیش وبیوت الخمر وبیوت البوزة وغرف أنس التی کانت تجمع عندها بنات الخطا اللاتی کن یعملن الفاحشة من أمر الزنا فلما زاد النیل رجع کل شئ علی حاله وسبب ذلك أن العثمانیة تعصبوا فی اعادة ذلك فان أکثرهم کان یبیع البوزة فی الدکاکین ورسم ملك الامراء بأن أولاد أنس لا یعارضون فیما یفعلون من جمع بنات الخطا کما کانت تفعل أمهم أنس وفی هذا الیوم قدمت الاخبار من حلب بأن الخنکار أرسل عسکرا یقیمون بمصر عوضا عن الاصباهیة الذین کانوا بها وفی یوم السبت ثانی عشره رسم ملك الامراء بشنق شخص سروجی فشنق عند باب خان الخلیلی وسبب ذلك انه کان له عبد فباعه لبعض الممالیك الجراکسة فهرب وخدم عند بعض الترکمان ثم ان السروجی توجه الی سیدی أحمد البدوی فصادف ذلك العبد هناك فقبض علیه وأحضره الی القاهرة فهرب ذلك العبد من بیت السروجی وأتی الی الترکمانی وادعی أنه لم یکن فی ملك السروجی وأنه معتوق فطلع الترکمانی وقص خبر العبد علی ملك الامراء فاحضر ذلك السروجی وأخبر انه قد باعه لمملوك جرکسی وقتل فی الواقعة ومضی أمره فلم یثبت للسروجی علیه حق فأغلظ السروجی علی ملك الامراء فی القول فخنق منه ملك الامراء ورسم بشنقه فشنق عند خان الخلیلی فقیل ان السروجی سأل ملك الامراء أن یفدی نفسه من الشنق بخمسمائة دینار فأبی ملك الامراء من ذلك وشنق فراح ظلما وفی یوم الاثنین رابع عشره وقعت حادثة مهولة وهی ان جماعة من الکملیة والاصباهیة وقفوا الی ملك الامراء یطلبون منه جوامکهم عن ثلاثة أشهر ویأذن لهم بالسفر الی بلادهم فلم یلتفت الیهم فنزلوا من عنده ووقفوا بالرمیلة فلما طلع الامیر جانم الجزاوی أحاطوا به وضربوه وأنزلوه

عن فرسه وأرادوا قطع رأسه فهرب ودخل الى الميدان وهو مكشوف الرأس فوقف فى وجوههم شخص من أمراء الجراكسة يقال له الامير بخشباى الذى كان كاشف البهنسا فرموا غبنهم فيه فضربوه بالسيوف حتى أشيع موته فحملوه وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس ثم ان الكملية استمروا بالرميلة طالبين ثرا مع الجراكسة وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم الحمزاوى ثم أنزلوا الامير بخشباى الى بيته فأقام الى يوم الاحد عشريه ومات وقد جرح فى رأسه جرحا بالغا ومات به وأشيع أن ملك الامراء كتب محضرا بأن الكملية قتلوه وأرسل ذلك المحضر الى الخنكار بادرنه ثم حضر جماعة من الامراء الجراكسة وصلوا على الامير بخشباى وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة وفيه قدمت الاخبار من حلب بوفاة القاضى محب الدين محمود ابن القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى وكان رئيسا حشما أصيلا عريقا فاضلا ولى قضاء الحنفية بحلب ثم ولى كتابة السر بالديار المصرية وأقام فى هذه الولاية ست عشرة سنة وهو عزيز فى مصر نافذ الكلمة وافر الحرمة وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية ولم يوجد بعده من يناظره فى الرياسة والتعاظم والنظام ومشى مشى الرؤساء المتقدمين فى كتابة السر (١) وكان مولده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ومات وهو فى ست وأربعين سنة وكان كثير الامراض فى جسده وأكثر اقامته فى داره والناس تسعى اليه فى أشغالها ولما مات رثاه الاديب ناصر الدين محمد بن قانصوه بهذه المرثية

ألا فى سبيل الله نجل أجا الذى * يكل اذا عدت فضائله الفكر
فضائله كالزهر والزهر ذكرها * ومنظرها اذ فيهما النشر والبشر
كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى * به من بليل الهم ضل به الحجر
كتابة سر الملك ماتت لكونها * بموته ختمت والسر من بعده جهر
لذا كان محمودا وبالقلب ذكره * رعى الله محمودا له الحمد والشكر
فمن مثل محمود ومن مثل قلبه * وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر
لقد كان كالنعمان فى العلم والسخا * وفى الفخر نعم العلم والجود والفخر
له فكرة كانت تمد يراعه * بدائع لفظ نظم ابداعها الدر
لعمرك ما فى الفصل والوصل مثلها * بيان معانيها الرب الحجا سحر
أرى الله منه الروح روحا تفضلا * عليه وريحانا وزيد له الاجر
وصير قبرا ضمه خير روضة * يطيب بها فيه له اللف والنشر

وفى يوم الخميس رابع عشريه ثارت الاصباهية على ملك الامراء وطلعوا الى الرميلة ووقفوا

(١) فى الشذرات ان محمود بن اجا ولد سنة ٨٥٤ وتوفى فى العشر الاول من رمضان سنة ٩٢٥

بها فأغلقوا فى وجوههم باب السلسلة وباب الميدان فصاروا يسبون ملك الامراء سبا فاحشا وكان سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد فقالوا ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر والا نزلنا فنهبنا المدينة وشوشنا على الناس فوقع الاضطراب بالقاهرة وغلقت الاسواق والدكاكين فى ذلك اليوم ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الامير قايتباى الدوادار وأركبوه من بيته غصبا وطلعوا به الى ملك الامراء وطلعوا أيضا بالامير كمشبغا الوالى فاجتمعا بملك الامراء وحدثاه فى أمر الاصباهية بان ينفق عليهم ذلك الشهر الذى تأخر لهم فتوقف فى ذلك ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر فيما بعد وأخذوا فى أسباب عمل برقهم والتوجه الى اسطنبول وفيه أشيع أنه حضر من اسطنبول جماعة ممن كان بها من السيوفية والحدادين والبنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك من الصناع وأشيع أن الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما فلما انتهى العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا وعيالا وقد أنهينا العمل الذى رسم به الخنكار وما بقى لنا شغل فرسم لهم بالعود الى بلادهم وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة له وحضر صحبتهم أيضا الجمالى يوسف ابن نقيب الجيش بن أبى الفرج وشخص من أقارب ابن الطولونى وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بان يتوجهوا الى مصر ويقضوا اشغالهم ثم يعودوا الى اسطنبول وأخبر الجمالى يوسف بوفاة جماعة كثيرة من الاعيان الذين توجهوا من مصر الى اسطنبول ولم تحضر فى أسماؤهم واستهل شهر شعبان بيوم الخميس فطلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر القاصد الذى أرسله الخنكار بطلب الاصباهية وقد أرسل عسكرا صحبة ذلك القاصد عوضا عن الاصباهية فلما وصلوا الى الريدانية رسم لهم ملك الامراء بأن يطلعوا من بين الترب ولا يشقوا من القاهرة قيل ان عدتهم دون ألف نفس والباشا الذى عليهم يقال له قراموسى فلما وصل تحت القلعة أنزله ملك الامراء بالميدان الذى تحت القلعة فنصب خيامه به وصارت التركمان الذين حضروا صحبته يهجمون على الناس فى بيوتهم ويسكنون بها فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر بك وخرج صحبته الاصباهية الذين كانوا بمصر قاطبة فكان هو الباشا عليهم فشق عليه خروجه من مصر وكان هو المشار اليه فى أمور الديار المصرية وصار يعارض قضاة القضاة فى الاحكام الشرعية فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا فلما خرج اسكندر نزل اليه ملك الامراء وودعه وأنعم عليه باشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منها راكب لاجل التركمان وفى يوم الاربعاء رابع عشره رسم ملك

الامراء بشنق سبعة أنفار من طائفة الكملية قيل هم الذين قتلوا الامير بخشباى كما تقدم فشنق منهم ستة أنفار على شجرة النبق التى عند مدرسة السلطان حسن والآخر شنق عند باب النصر فشق ذلك على الكملية ولم يطلع من أيديهم شئ وفى يوم الجمعة سادس عشر شعبان كان وفاء النيل المبارك ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق لعشرى مسرى فاوفى الله الستة عشر ذراعا وزاد من الذراع السابع عشر اصبعين وفتح السد فى العام الماضى ليلة النصف من شعبان فكان التفاوت بينهما يومين وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه

شاهدت عند النيل يوم الوفا * حرزا عظيما جانب الشط
للعين والنظرة فيه غدت * كتابة بالكسر والبسط

فلما طلع ابن الرداد وأخبر ملك الامراء بوفاء النيل المبارك نزل من القلعة وتوجه الى المقياس وخلق العامود ومد هنالك مدة حافلة ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس المنشية ففتحه وأظهر التعاظم فى ذلك اليوم وفرق المجامع الحلوى والمشنات الفاكهة وكان ذلك اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمور ثم ركب ملك الامراء من هنالك وتوجه الى القلعة ثم توجه الامير كمشبغا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد وفتح سد قنطرة قديدار ورجع الى داره وكان يوما مشهودا وقد عمت هذه الفرجة كل الناس وفيه أنفق ملك الامراء الجامكية على المماليك الجراكسة فأنفق لهم شهرين وكان لهم جامكية أربعة أشهر مكسورة ثم ان القاضى شرف الدين الصغير عوق جوامك جماعة من أولاد الناس بسبب ذلك وفيه تغير خاطر ملك الامراء على جان بك كاشف الشرقية فارسل بالقبض عليه واحضاره فى الحديد وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس واستغاثوا من ظلمه فلما حضر بين يدى ملك الامراء وبخه بالكلام ثم وضع جنزيرا فى عنقه وقيدا فى رجليه وأرسله صحبته جماعة من الانكشارية الى الشرقية ورسم باشهار المناداة فى الشرقية بان من ظلمه جان بك كاشف الشرقية عليه بملك الامراء يخلص حقه ثم عزل جان بك من كشف جهات الشرقية وقرر شخصا من الاتراك يقال له اياس وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قديما وقد تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم يتم له ذلك ثم ان ملك الامراء فى عقيب ذلك أرسل بالقبض على اينال السيفى طرابای كاشف الغربية وأحضره فى الترسيم واستمر على ذلك الى الآن لم يخلص من الترسيم وفى أواخر هذا الشهر قدمت الاخبار من مكة المشرفة بوفاة ابنة العلائى على بن خاص بك وهى أخت خوند زوجة الاشرف قايتباى وكانت رئيسة حشمة فى سعة من المال وقد تزوجت بعدة أمراء مقدمى

ألوف وهى حماة الاشرف طومان باى جاورت بمكة وتوفيت هنالك وفى يوم الخميس آخر الشهر كانت ليلة رؤية هلال رمضان فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة المنصورية التى بين القصرين وحضر القاضى عبد العظيم المحتسب فلما رؤى الهلال وانفض المجلس قام القاضى عبد العظيم وركب من المدرسة المنصورية فلاقته الفوانيس والمشاعل من هنالك وعلقت له القناديل على الدكاكين ومشت قدامه الشموع والسقاؤن بالقرب كما كان يصنع القاضى بركات بن موسى المحتسب فاستمر فى هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته الذى فى باب النصر والرسل قدامه بالشموع الموقودة وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة فى الفرجة والقصف وفيه يقول الاديب ناصر الدين محمد بن قانصوه

كعب عبد العظيم كعب رخاء * ريح تسعيره الرخاء رخاء
باشر الحسبة الشريفة فى المحـ * ـل فراح الغلا وجاء الرخاء
من كذا كعبه لدى المحل خصب * فهو طب للداء فيه دواء
دام فيها مدبر الحكم بالحكـ * ـمة ما قابل الصباح المساء

واستهل شهر رمضان يوم الجمعة فطلع القضاة الاربعة وهنؤا الملك الامراء بالشهر ومما وقع فى ذلك اليوم ان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل تكلم مع ملك الامراء فى ذلك المجلس بسبب نقيبه نور الدين على المعروف بالميمونى وقد تقدم القول أن ملك الامراء نفاه الى دمنهور فلما كلمه القاضى كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى مصر بشرط أن يكون بطالا ولا يتكلم فى النقابة بباب القاضى أبدا ومنع بقية القضاة أن يجعلوا لهم نقباء على أبوابهم ثم انفض المجلس على ذلك وقامت القضاة وفى يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم النوروز وهو أول السنة القبطية سنة خمس وعشرين وتسعمائة الخراجية وفيه قدمت الاخبار من مكة بأن فى البحر المالح قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات فلما بلغ ملك الامراء ذلك عرض جماعة من المماليك الجراكسة وغيرهم وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك وكملية يتوجهون صحبة الحجاج ويقيمون بجدة خوفا من ان يطرقها بعض الفرنج على حين غفلة وفيه أشيع بين الناس ان قاسم الشروانى الذى كان استقر فى نيابة جدة جمع المال الذى تحصل من جدة فوضع يده عليه وأخذ المكاحل التى كانت هنالك والسلاح ونزل فى مراكب وتوجه نحو بلاد هرمز فتنكد ملك الامراء لهذه الاخبار الردية وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن عثمان يقيم بمصر عوضا عن اغات الانكشارية الذى كان بمصر فانه أراد الحج فى هذه السنة الى بيت الله الحرام وفى يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض

على شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوى وكان قبيح السيرة مشهورا بأكل الربا وقد أنهوا فى حقه أنه يبيع الخمر والمجون للتركمان فى شهر رمضان وقد شهد عليه جماعة من الوراقين بذلك فلما عرض على ملك الامراء بالميدان رسم بتسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليعاقبه حتى يقر بما قيل عنه من بيع الخمر والمجون وقد أوعده ملك الامراء بالشنق بعد العيد فلما نزل به الوالى الى بيته قصدان يكتب محضرا بسيرته فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المجون فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه فى القول ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى وقصدوا نهب التجار فاغلقوا الدكاكين قاطبة فلما كان يوم الاربعاء عشرى رمضان طلع التجار الى ملك الامراء وأخبروه بما جرى من الانكشارية فخنق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان فوسطه هنالك مسرعا ولم تنتطح فى ذلك شاتان ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد أعتقه أستاذه قبل أن يتوسط فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله فعد ذلك من الحوادث المهولة وما كان يجب على المحلاوى توسيط فراح ظلما وفى يوم الجمعة ثانى عشريه وقع من الحوادث أن ملك الامراء كان وضع فى الرميلة عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين فلقين خشب نخل كهيئة المشنقة ووضع فيها حبالا وكلاليب حديد كبارا وأشيع بين الناس ان ملك الامراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان ويشنق جانى بك كاشف الشرقية واينال كاشف الغربية ويشنق جماعة من الكملية والانكشارية فجاؤا الى تلك المشنقة ورموا الاخشاب التى هنالك وقطعوا الكلاليب والحبال ثم توجهوا الى بيت كشبغا الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه وكادت ان تكون فتنة عظيمة وياتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الامراء وفى يوم السبت ثالث عشريه ثارت الكملية والانكشارية وطلعوا الى الرميلة وقصدوا نحو المماليك الجراكسة وكان الامير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة فلما رأى التركمان وتزايد الامر منهم سل السيف هو ومن معه من الامراء الجراكسة وقصدوا مقاتلتهم وأغلظ التركمان على المماليك الجراكسة وقالوا لهم ايش أنتم واقفون تتفرجوا علينا نحن فى بعضنا نفتتن ايش أدخلكم بيننا ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ونزل كل أحد الى داره ثم ان التجار نقلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى وفى يوم السبت المذكور توجه جماعة من الانكشارية والاصباهية الى بيت شخص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى فنهبوا كل ما فيه وقبضوا على

أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به ثم أشيع انهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم فى الحديد وقيل انهم ممن تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه فتنكد جميع التجار لهذه الواقعة وصار على رؤسهم الطيرة من التركمان وحولوا أمتعتهم من الدكاكين وصارت الناس على وجل خوفا مما يأتى منهم واستمر التركمان على ما هم عليه من اقامة فتنة عظيمة والامر لله تعالى وفى يوم الاثنين خامس عشريه نادى ملك الامراء بالقاهرة بان القلعى شيخ سوق الوراقين يظهر وعليه أمان الله تعالى وان لم يظهر بعد ثلاثة أيام وغرم عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة أيضا واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر وقد عين التركمان القتل لخمسة من تجار الوراقين وشخص من تجار الجملون يقال له ابن ظلام وهم الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم وتعصبوا عليه واستمر الاضطراب عما لا بسبب ذلك وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب وكان مسافرا نحو الصعيد بسبب ضم الغلال وغير ذلك وكان له نحو خمسة أشهر وهو مسافر فلما طلع وقابل ملك الامراء خلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره فزينت له سويقة اللبن ودكاكين الحشاشين وفى يوم الاربعاء سابع عشريه خلع ملك الامراء على الامير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية وكان له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة المحلاوى وقد وقع بينه وبين الكملية فتنة وعينوا له القتل فاختفى وأغلق عليه أبوابه أياما فلما تلافى ملك الامراء خواطر التركمان وأرضاهم وزاد فى جوامكهم وخمدت تلك الفتنة ظهر كمشبغا وخلع عليه واستقر على عادته فعز ذلك على التركمان ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون وخلصه من الحديد وألبسه قفطانا مخملا وأقره شيخ الجملون كما كان وضمنه فى مال له صورة يورده الى ملك الامراء وكان ابن ظلام صهر القاضى بركات بن موسى فبذل معه المجهود حتى خلصه وفى يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج العسكر المعين الى بندر جدة فخرجت تلك التجريدة فى ذلك اليوم وهم ما بين مماليك جراكسة وتركمان وكانت عدتهم نحو ثلثمائة انسان من الفريقين وكان الباشا عليهم شخصا من العثمانية يقال له أغات الكملية وقيل انهم يتوجهون الى السويس وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر المالح حتى يصلوا الى جدة وقد كثرت الاشاعات بسبب فساد الفرنج وعبثهم فى البحر على التجار وقد جاؤا نحو بندر جدة وفى شهر شوال وكان مستهله يوم الاحد طلع القضاة الاربعة الى القلعة وصلوا مع ملك الامراء صلاة العيد ثم نزلوا الى دورهم وبطل ما كان يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة والامراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة وزال ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أبدا وفى يوم الخميس خامس شوال وافق ذلك اليوم أول يوم من بابه فيه ثبت النيل المبارك على

ثمانية أصابع من عشرين ذراعا وكان أرج من نيل العام الماضى بذراعين واصبعين فانه ثبت فى العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا وهبط سريعا فشرق غالب البلاد وفى يوم الاثنين تاسع شوّال جلس ملك الامراء بالميدان وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا وفى يوم الجمعة ثالث عشر شوّال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطى رحمة الله تعالى عليه التى بالقرب من حدرة الفول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلخى وخطب فى ذلك اليوم بها فاجتمع هناك الامراء العثمانية والامير جانم الحمزاوى وقضاة القضاة الاربعة وأعيان المباشرين ومشاهير الناس فلما كان وقت الصلاة صعد المنبر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وخطب خطبة بليغة فى المعنى فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الامير جانم الحمزاوى زبادى صينى ضمنها سكروشى اقسمه فطاف بها على الحاضرين وكان يوما مشهودا وجاءت هذه المدرسة فى غاية الظرف وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمة الله عليه وفى يوم الخميس تاسع عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم وكان ذلك اليوم مشهودا وكان أمير ركب المحمل فى هذه السنة الامير برسباى دواداره ملك الامراء فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة كما هى عادة الاطلاب القديمة وشق من القاهرة فى موكب حفل وقدامه جماعة من الامراء الجراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين والجم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط وجماعة من القواسة وخرج صحبته سنجق عظيم من الزاد والماء وكانت الحجاج قليلة لاجل غلو العليق والكراء انشحط فى هذه السنة الى الغاية وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم الثلاثاء طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنوا ملك الامراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن الخليفة محمد المتوكل على الله لما توجه الى اسطنبول توجه صحبة أولاد ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد فوقع بينهما وبينه هناك فتنة فترافعوا الى الخنكار وقالا انه لما كان بمصر قعد على ودائع كثيرة ما بين مال وقماش أودعه عنده الامراء الذى قتلوا وأخذ من خوند زوجة السلطان طومان باى وأمها مالا كثيرا وكذا أخذ من نساء الامراء المقدمين الذى قتلوا من الاموال مالا يحصى ولم يطالع الخنكار على شئ وتكلما فى حقه بالباع والذراع وما أبقوا فى ذلك ممكنا فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل على الله وانحط قدره عنده وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا واشترى له جوارى يضربن بالجنوك ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك فلما حضر القاصد

رسم على مباشرى الخليفة وعلى دواداره بردبك وقال لهم أقيموا الناحساب معلوم أولا دخليل بغاية الانصاف وفى يوم السبت خامسه جلس الامراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى وحضر قدامه مصارعان وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشى وخصمه شخص أعجمى شنيع المنظر فى خلقته فتصارع مع الزريكشى فغلب الزريكشى ورماه الى الارض وركب فوقه وعصره فى الارض حتى كاد يموت فانتصر عليه وغلب أبا الغيث وألبس ملك الامراء الاعجمى قفطان حرير ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة وكان له يوم مشهود وفى يوم الاحد مع ليلة الاثنين رابع عشره خسف جرم القمر خسوفا فاحشا حتى أظلم منه الجو وأقام فى الخسوف فوق أربعين درجة وقد خسف أول ما أشرق عند طلوعه واستمر يتزايد فى الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير ووقع مثل هذا الخسوف فى السنة التى مات فيها السلطان الغورى وكان بين موته وبين الخسوف نحو شهرين وجرى ما جرى من الاهوال عقيب ذلك ونسأل الله اللطف فى هذا الخسوف الثانى وفى يوم الاربعاء سادس عشره نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى خليج الزعفران وسبب ذلك أن الامير كشبغا الوالى صنع له هناك مادة حافلة وأضافه فنزل اليه وأقام هناك الى آخر النهار ثم عاد الى القلعة وكان قبل ذلك بيوم توجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية وقيل انه أقام هناك الى ما بعد العصر وعاد الى القلعة من يومه المذكور وفى يوم الاثنين حادى عشريه وقع بين خير الدين نائب القلعة وبين قراموسى أغات الاصباهية بحضرة ملك الامراء بالقلعة فتنة وسبب ذلك أنه وقعت فتنة كبيرة بين الانكشارية وبين الاصباهية وصار فى كل ليلة يوجد فى الازقة والطرقات جماعة مقتولون بالسيوف فعز ذلك على قراموسى وقال لنائب القلعة خير الدين هذا كله فى ذمتك أنت الذى أطمعت الانكشارية فى حق الناس حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان ويخطفون عمائم الناس بأيديهم ويعرونهم ويقتلونهم ويخطفون بضائع السوقة والخسكار ما يدرى بشئ من ذلك وان بلغه ذلك فما يحصل لك خير ثم فى عقيب ذلك صار الكيخيه أغات الانكشارية يركب فى كل يوم ويشق من القاهرة فان وجد فى طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرها ويقول له اطلع الى القلعة واقعد فى الطبقة ولا تنزل الى المدينة أبدا وقيل انه منع الناس ان لا يشتكوا أحدا من الانكشارية مطلقا واستمرت الفتنة ثائرة بين الاصباهية والانكشارية الى الآن وكل منهما على حذر من رفيقه ومما وقع فى الشهر من الحوادث أن جماعة من المماليك الجراكسة نحو عشرة مماليك قيل فيهم شخص من قرابة الامير قانصوه ابن الامير جركس وشخص آخر كان والى قليوب خرجوا على حين غفلة وقصدوا ان يتوجهوا الى الامير جان بردى الغزالى نائب الشام فلما وصلوا الى قطيا

قبض عليهم نائب قطيا ووضعهم فى الحديد وأرسل كاتب ملك الامراء فيهم فأرسل اليه ملك الامراء جماعة من التركمان ليحضروهم فلما وصلوا الى قطيا أظهروا مرسوما من عند ملك الامراء الى نائب قطيا بان يضرب رقابهم أجمعين فامتثل ذلك وضرب رقاب العشرة مماليك وكان فيهم شخص من العربان يرشدهم الى الطريق فضرب عنقه أيضا وكان قتلهم فى مكان بين الصالحية وقطيا يسمى حيرة والعاقولة فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على جماعة من المماليك الجراكسة وشق ذلك على نائب الشام أيضا ووقعت الوحشة بينه وبين ملك الامراء خاربك من يومئذ ودبت بينهما عقارب الفتن وفى يوم الاثنين ثامن عشريه كانت وفاة الكاتب المجيد أبى الفضل محمد السنباطى المعروف بالاعرج قيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان له حظ ومن الحوادث العجيبة الغريبة التى لم يسمع بمثلها ماوقع فى أواخر هذا الشهر وأشيع واستفاض بين الناس أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضى هذه المدة الطويلة وانه باق فى قيد الحياة وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه وقد ابيضت لحيته فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب ويقول لها أنا أبوك فترسل اليه ما ينفقه فاقام على ذلك مدة طويلة ثم انه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشى فطلع الى باب السلسلة وكانت تزوجت بأمير اخور كبير مملوك ملك الامراء فلما فشا أمره ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة فقبض عليه ووضعه فى الحديد وسجنه فى البرج الذى بباب السلسلة حتى يعرضه على ملك الامراء ويتبين ما يكون من أمره وقد أنكر ذلك الناس قاطبة فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة وكان من أمره ما كان مع الامير اقبردى الدوادار وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد ابن الاشرف قايتباى وعلقت على باب زويلة فكان أمر وجوده من الامور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة وفى شهر ذى الحجة وكان مستهله يوم الخميس طلع القضاة الاربعة وهنوا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم فلما كان يوم السبت ثالثه نزل ملك الامراء الى الميدان وجلس به وأحضر مماليك الاشرف قايتباى ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة فاذا هو شخص أعجمى مربوع القامة أبيض اللحية وله ذؤابة شعر فى رأسه فقال ملك الامراء للحاضرين من مماليك الاشرف قايتباى أهذا قانصوه خمسمائة الذى كنتم تعهدونه فقال العسكر قاطبة ليس هذا قانصوه خمسمائة وهذا قصير القامة أخضر اللون ثم ان ملك الامراء ضيق على ذلك الشخص الذى زعم انه قانصوه خمسمائة فقال له ملك الامراء ما حملك على ذلك قال

الفقر والفاقة وقلة ما فى اليد فلما اعترف بذنبه رسم ملك الامراء بتوسيطه ثم بداله أن يضرب عنقه بين يديه فى الميدان فضرب عنقه ومضى أمره ثم أحضروا له تابوتا فحملوه فيه ليغسلوه ويكفنوه ويدفنوه فخمدت هذه الاشاعة التى أشيعت بسبب قانصوه خمسمائة وكان غالب الناس الذين ليس لهم عقول صدقوا بذلك وقد تبين أن ذلك الرجل نصاب شيطان أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة خمسمائة دينار ويقول لها أنا أبولة وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ويبلصهم غير مامرة فاراح الله الناس منه وفى يوم الخميس ثامنه خرجت تجريدة الى الازلم تلاق الحجاج وكان بها نحو مائة مملوك وكان الباشا عليهم اياس كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر وكانت الاضحية فى غاية الغلو وقد لا توجد فلم يضح من الناس الا القليل وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الايام بنصف فضة كل رطل فلم يفرق ملك الامراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة وقطع أضحية الزوايا قاطبة وعادة الفقهاء والاتراك قاطبة كما فعل فى السنة الماضية وفى يوم الاحد ثامن عشره نزل ملك الامراء من القلعة وعدى برا الجيزة وتوجه الى نحو شبرا منت على سبيل التنزه فاقام هنالك من يوم الاحد الى يوم الثلاثاء وأخذ معه خياما كثيرة وسنيحا وصنع له هنالك القاضى شرف الدين الصغير مدة حافلة وكان صحبته جماعة من الامراء العثمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة فلما رجع من شبرا منت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ثم عزم عليه الامير كشبغا الوالى فى خليج الزعفران ومد له هنالك مدة حافلة وأقام عنده الى ما بعد العصر ثم عاد الى القلعة فى يومه وكان نهارا شعت وغبار وهوى مريسى فلم يتهنأ بالفرجة فى ذلك اليوم وفيه حضر قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة وجرى منه ما جرى كما تقدم ذكره فارسل ملك الامراء خلفه وأحضره فى الحديد فأحضره الشريف بركات أمير مكة فى البحر المالح فلما حضر سجنه ملك الامراء بالعرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى الى أن يكون من أمره ما يكون وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة وان الوقفة كانت عندهم بالجمعة وان الاسعار انحطت عما كانت عليه قليلا وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات وبين جماعة من العثمانية وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع وفيه توفى صاحبنا الشرف يحيى ابن الناصرى محمد الازبكى الذى كان اغات الغورى فاشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار فعد ذلك من النوادر فان أباه محمد الازبكى لم يكن فى سعة من المال ولا أجداده ولا أقاربه وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر توفى الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ زين الدين قاسم المالكى وكان

عالما فاضلا علامة فى مذهبه ولى قضاء المالكية فى أيام السلطان الغورى أخذها عن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف وفى ذلك اليوم وقع بالقلعة خباط هين وهو أن ملك الامراء وقف له طائفة من المماليك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة فلما وقفوا اليه وبخهم بالكلام وطفش فيهم وقال لهم لازلتم حتى أوقعتم بينى وبين نائب الشام وأنتم تغدوا وتروحوا وتشكونى عنده فقام الامير قايتباى الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء مماليكك وعبيدك وانما يفعلون ذلك من الجوع والقلة فقال ملك الامراء والله لولا أنا ماخلى الخنكار منكم مملوكا يلوح على وجه الارض فانى شفعت فيكم من القتل فقال له الامير قايتباى الكل صار وارعيتك ولهم أولاد وعيال وقد مسهم الفقر والفاقة والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك فرسم لهم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم وكان لهم شهران مكسوران فى الديوان انتهى ذلك وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وهم مرتابون من الغلاء وقلة الامن وجور التركمان عليهم وتناهى سعر الاردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثنا عشر نصفا كل أردب والبطة الدقيق بأشرفى وخمسة أنصاف وقد تشطت الاسعار فى سائر البضائع من المأكل والمشرب وصارت التركمان يخطفون عمائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ولم يجدوا من يمنعهم من ذلك ويقطعون الطريق على المتسببين والضيافات التى تطلع من البلاد وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ولم يجدوا من يخلصهم من أيديهم وحصل للناس من أيديهم غاية الضرر ووقف الحال بسبب المعاملة من الفضة فانها كلها غش ونحاس وزغل وصار الاشرفى القايتبايى يصرف بخمسة وستين نصف فضة والسوقة لا تقبل من الفضة الا القليل وكذلك الفلوس الجدد وقاسى أهل مصر فى هذه السنة شدة عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس والامر لله تعالى من قبل ومن بعد انتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس وعشرين وتسعمائة

ثم دخلت سنة ست وعشرين وتسعمائة فيها فى المحرم كان مستهل الشهر يوم السبت فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنوا ملك الامراء بالعام الجديد ثم رجعوا الى دورهم وفى يوم الثلاثاء رابعه كان ختان ولد قاضى القضاة المالكى يحيى ابن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه فكان له فى ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة فمشت من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ومشى فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ومشاهير الناس وغيرهم من الاعيان وأوقدت له الشموع على الدكاكين وكان يوما مشهودا وفى أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الامير جانم الحمزاوى وجماعة من الامراء العثمانية ومن الامراء الجراكسة وغير ذلك وفى يوم الاثنين رابع عشريه دخل الحاج الى

القاهرة صحبة المحمل الشريف وأمير الحاج الامير برسباى وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما فعله فى طريق الحج وكان معهم الامن والرخاء بطول الطريق واستهل شهر صفر يوم الاحد فطلع القضاة الثلاثة الى القلعة وهنوا ملك الامراء بالشهر ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب وفيه وقع من الحوادث أن ملك الامراء عزل الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى واستقر بشخص من أبناء العجم وقيل من العثمانية عوضا عن يحيى بن التاج وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم والفضيلة ليس له شهرة بين الناس فقامت الاشلاء على ملك الامراء من العلماء والفقهاء وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنحة ولا سبب وقرر بها من هو من غير أهلها ولم يكن يستحق ذلك وهذا من البدع المنكرة وفى يوم الخميس خامسه نزل ملك الامراء من القلعة وصحبته الامير قايتباى الدوادار وجماعة من الامراء الجراكسة ومن الامراء العثمانية وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو خمسمائة مملوك وقيل أكثر من ذلك ومن الاصباهية والكملية والانكشارية الجم الكثير وعدة رماة بالبندق الرصاص وأشيع عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرقية فصلى صلاة الصبح ونزل وشق من القاهرة وشق من بين الترب واستمر سائرا والامراء والعسكر حوله حتى نزل بالعكرشا ثم توجه الى شيبين ثم توجه منها الى مرصفة وقد اختلفت الاقوال فى ذلك فمن الناس من يقول انه خرج يسرح فى الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ومن الناس من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم والاول أصح فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة فلما كان يوم الثلاثاء عاشره حضر القاضى بركات بن موسى من عند ملك الامراء وعليه عمامة هوارية وقد خلع عليه قفطانا مخملا مذهبا وحضر صحبته ستة أنفار بتوقد سلخوا وحشوا تبنا فقيل انهم من عربان السوالم فاركبوهم على خيول وعليها بركستوانات مخمل وألبسوهم جوخا وشاشات على زنوط فوق رؤسهم وقدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة وهى على رماح قيل انهم من أعيان عربان السوالم فشقوا بهم من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا فعلقوا جماعة من المسلوخين ومن الرؤس على باب زويلة وعلقوا الباقى على باب النصر وكان من ملخص هذه الواقعة ما أشيع واستفاض بين الناس أن اياس كاشف الشرقية تحيل على مشايخ عربان السوالم وأرسل لهم بالامان فركنوا له وحضروا اليه فصنع لهم ضيافة فلما استقروا عنده أرسل اعلم ملك الامراء بذلك فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى ومعه جماعة من المماليك الجراكسة فتوجهوا نحو عربان السوالم وخرج صحبتهم عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق والمحروقة وغير ذلك فاوقعوا مع السوالم وكان بينهم واقعة مهولة فانكسرت السوالم وقبضوا على بقية مشايخهم ثم ان العسكر والعربان نهبوا وانجمع

السوالم عن آخره وغنموا منه مالا يحصى من جمال وخيول وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من عبيد وجوار حتى أخذوا نساءهم وأولادهم فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من بقي منهم الى الاودية والجبال فلما جرى ذلك سلح الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما تقدم ذكر ذلك قيل كان فيهم من هو من أولاد قراجا بن طرا باى شيخ جبل نابلس وأشيع أن ملك الامراء رحل من جهة مرصفة وتوجه الى بنها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى القلعة وأشيع عوده الى القاهرة وفي يوم الاربعاء حادى عشره رجع ملك الامراء الى القاهرة فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل من باب الشعرية وخرج من باب القنطرة وطلع على سوق مرجوش وشق من القاهرة في موكب حافل وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة وقدامه بعض جنائب ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية من باب الشعرية وكان عليه قفطان جوخ أحمر وكان قدامه ما اصطاده من الكراكي والاوز العراقي فاستمر في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا وكانت مدة غيبته في هذه السرحة سبعة أيام بلياليها ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد وهو في الحديد وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا مع عربان السوالم وهو من أغراضهم فقبض عليه ملك الامراء ووضعه في الحديد حتى يكون من أمره ما يكون ولم يكن في نزول ملك الامراء الى الشرقية خير للناس فرعى العسكر زرع البلاد وقد مت له مشايخ العربان نحو ألفي رأس غنم فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية وأحضروا له من شيبين ستمائة اردب شعير وذلك غير التقادم من خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة آلاف دينار وقيل ان ملك الامراء كان في هذه السرحة لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا حتى أشيع عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهي محملة نبيذا اقريطشي فكان في نزوله هنالك غاية الضرر في حق الناس ولولا أنهم أخذوا عرب السوالم بجميله لما قدروا عليهم أبدا انتهى ذلك وفي يوم تاريخه عاين مؤلف هذه الوقائع بالمشاهدة حضور القاضي بركات بن موسى المحتسب وطلوع ملك الامراء في ذلك الموكب المقدم ذكره فلما طلع ملك الامراء الى القلعة قدمت الاخبار من الشرقية بان عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا ما فيها وأحرقوها بما حولها من الضياع وحصل منهم غاية الضرر الشامل وهذا كله من سوء تدبير اياس كاشف الشرقية فانه استعجل بقتل مشايخ عربان السوالم وكانوا من نوابغ أعيان السوالم فسلح الجميع ومنها انه نهب نجعهم وأخذ أموالهم ومواشيهم وأسر حريمهم حتى قيل انه أسر ستين امرأة من أعيان نسائهم وأسر أولادهم فلما طفشوا في البلاد أرسل ملك الامراء يقول للكاشف أطلق نساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد وقد استدرك ملك الامراء ما وقع منه في حق مشايخ عربان السوالم وقد أشيع أمر هذه الفتنة من كل جانب واستمرت أرباب

هذه الدولة فى آراء معكوسة ليس لاحد منهم رأى سديد ولا له مستشار يرجع اليه وصار كل منهم يشير برأى غير صواب ويتكلم بكلام غير مفيد وقد ضاعت الكلمة بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الخراب وكل هذا من سوء تدبيرهم وقلة معرفتهم وعدم تجاربهم للامور وقلة نظرهم فى العواقب مما يؤول أمره الى خير أو شر فنسأل الله تعالى اصلاح الحال وحسن الخاتمة واخماد هذه الفتن عن قريب وفى يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الامراء على أخى نجم واستقر به شيخ العايد عوضا عن أخيه نجم وقد بلغه أن أحوال الشرقية قد اضطربت الى الغاية وثارت بها العربان للفساد فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقية بسبب هذا الفساد وفى يوم السبت رابع عشره أرسل ملك الامراء تجريدة الى الشرقية وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسة وغيرهم وعين جماعة من الكملية والاصباهية وجماعة من الرماة الانكشارية وجهز عجلات تخرج صحبتهم اذا خرجوا وقيل ان اياس كاشف الشرقية محاصر مع العربان فى بلبيس وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة وأشيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرون الناس فى رأس المطرية وعند تربة العادلى وفيه أشيع أن جماعة من الانكشارية هجموا على سوق النحاسين وأخذوا ما فيه من النحاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبندق الرصاص فحصل للتجار الضرر الشامل من ذلك وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد فى أحوال المملكة وانهم لو أبقوهم فى قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب وأربى لخمود هذه الفتن ولكن عجلوا بقتلهم حيث ظفروا بهم فكان كما يقال فى المعنى

أمور تضحك السفهاء منها * ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التى عينها ملك الامراء الى السوالم وكان الباشا عليها شخصا من أمراء العشراوات يقال له جان بردى الاشقر الذى كان كاشف البحيرة أخو تنم الذى كان خازندار الملك الناصر محمد ابن الاشرف قايتباى وكان بها من المماليك الجراكسة وغيرهم مائة مملوك وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية ستون مملوكا يقيمون عنده فخرجت التجريدة فى ذلك اليوم وتوجه من بها من المماليك الى خانقاه سرياقوس وفى يوم السبت حادى عشريه حضر اياس كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان عربان السوالم وقد أتوا الى اياس طائعين بعد أن رأوا عين الغلب فاحضرهم الى ملك الامراء فلما قابلوه خلع عليهم وأقرهم فى مشيخة عربان السوالم عوضا عمن قتل منهم وخمدت فتنة السوالم وكان ذلك على غير القياس من أمر هذه الفتنة وفى شهر ربيع الاول وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم وفى ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار سليم شاه ابن عثمان وقد حضر من البحر المالح

الى

الى ثغر الاسكندرية فلما طلع الى القلعة قرأ مرسيم الخنكار على ملك الامراء وأشيع بين الناس ان الخنكار أرسل يقول لملك الامراء أن يتوصى بالمماليك الجراكسة ويصرف لهم جوامكهم ولحومهم وعليقهم والاضحية والكسوة على العادة وأشيع أنه أرسل يقول لملك الامراء كل من شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من غير معاودة وأرسل يأمر ملك الامراء بأن ينادى للناس بقطع الطرقات والشوارع والاسواق قاطبة فأخذ الناس فى أسباب ذلك وشرعوا فى قطع الطرقات ثم أشهروا المناداة فى القاهرة على لسان الخنكار حسبما رسم بأن لا أحد من الانكشارية ولا من الاصباهية يشوش على أحد من الناس ومن فعل ذلك باحد يمسكه من طوقه ويتوجه به الى خير الدين نائب القلعة فأشهر المناداة بذلك أربعة مشاعلية اثنان ينادیان بالتركى واثنان ينادیان بالعربى وهم قدام الامير كمشبغا والى القاهرة وأظهروا العدل فى ذلك اليوم وليته دام ثم أشيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى ملك الامراء يطلب سنان باشا وفائق بك بان يحضرا هما والاصباهية الى اسطنبول سافروا فلما وصلوا هناك أحضر الخنكار سنان باشا بين يديه وأمر بشنقه فاقام مصلوبا ثلاثة أيام لم يدفن وأشيع أن طائفة من الاصباهية الذين كانوا بمصر وأرسل طلبهم لما دخلوا الى مدينة اسطنبول ضرب رقاب أربعمائة اصباهى منهم ممن أشيع عنه الفساد بمصر من جماعة سنان باشا وأشيع أن الخنكار أرسل يحط على ملك الامراء خاربك بسبب تراخيه فى حق طائفة الانكشارية والاصباهية حتى جاروا على الناس وصاروا يشوشون على الرعية وقد بلغ الخنكار ما يصنعونه بمصر من خطف النساء والمرد وبضائع المتسببين وخطف ضيافات الناس فلما حضر القاصد فى ذلك اليوم وقرؤا مرسوم الخنكار بحضرة قضاة القضاة شهدوا بأن ملك الامراء ناظر فى مصالح الرعية والناس عنه راضية وكانت هذه الشهادة عين الرياء واتباع الجاه لاجل المناصب ثم ان ملك الامراء قصد أن يكتب محضرا ويأخذ عليه خط القضاة الاربعة بان مصر فى غاية العدل والرخاء والامن فلم يوافقه القضاة على ذلك وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شئ باطل ويبلغ الخنكار بخلاف ذلك فنخشى على أنفسنا منه أن نذكر أن مصر فى غاية العدل والامن والرخاء وان التركمان لم يشوشوا على أحد من الرعية وهذا باطل لا يجوز فرجع عن ذلك وفى يوم الخميس حادى عشره عمل ملك الامراء المولد الشريف النبوى بالقلعة وجلس فى المقعد الذى بالحوش السلطانى وحضر القضاة الاربعة على حكم السنة الماضية وفيه قدمت الاخبار من مكة المشرفة بأنه وقع بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات الكملية الذى يسمى الكيخية واضطربت أحوال مكة الى الغاية وفى يوم الاحد رابع عشره خلع ملك الامراء على الامير جانم الحزاوى كاشف البهنسا والفيوم وقرره أمير الحاج بركب المحمل فنزل من

القلعة فى موكب حافل وفيه كانت كائنة الامير جان بردى الاشقر أحد الامراء العشراوات وهو أخو تمر الذى كان نائب الاسكندرية قيل انه عزم عليه شخص يسمى تمر الظاهرى فلما دخل عليهما الليل وقع بينهما تشاجر فثارت فى ذلك المجلس فتنة كبيرة فقتل فيها جان بردى الاشقر ولا يعلم من قتله من الحاضرين وقبضوا على من كان حاضرا واختفى تمر صاحب البيت وكانت واقعة مهولة فلما بلغ ملك الامراء ذلك شق عليه قتل جان بردى الاشقر فانه كان صاحبه فأخذ فى الفحص على من كان سببا لقتله والزم الوالى باحضار تمر الذى قتل فى بيته وفيه أخرج ملك الامراء تجريدة الى ثغر الاسكندرية بسبب عبث الفرنج هناك بالمسافرين وكان بها من العسكر نحو مائة انسان ما بين مماليك جراكسة وأولاد ناس وعثمانية وغير ذلك وفى شهر ربيع الآخر وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء طلع قضاة القضاة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الخميس ثالثه خرج الامير جانم الحمزاوى الى السفر وقصد التوجه الى اسطنبول فخرج فى موكب وصحبته الامراء الجراكسة والمباشرون وأرباب الدولة من الامراء العثمانية وقد أرسل ملك الامراء صحبته تقدمة حافلة الى السلطان الملك المظفر سليم خان وكان مما اشتملت عليه تلك التقدمة على ما قيل من الخيول الخاص خمسين فرسا وفيها بغلة قيل مشتراها خمسمائة دينار ومن القماش الحرير والتفاصيل السكندرى أشياء كثيرة ومن الشاشات المايني أشياء كثيرة منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا وأرسل اليه ملك الامراء من جملة هذه التقدمة خمسمائة قنطار سكر معمولة بمسك ومن الاشربة والمربات أشياء كثيرة وأرسل اليه من الفصوص والمعادن واللؤلؤ أشياء كثيرة ومن الصينى اللازوردى والشفاف أشياء كثيرة وغير ذلك من التحف الغريبة مما يهدى للملوك وفيه قدمت الاخبار من تونس ببلاد الغرب بانه قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت وكانت بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر وقتل فى هذه المعركة نحو أربعين ألف انسان وآخر الامر انتصر السلطان حسن بن محمد صاحب تونس على ابن تليس وغنم منه غنائم جزيلة ما بين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك وفيه نزل ملك الامراء الى بولاق وأقام بها الى قريب الظهر فاحضر اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ما بين خرفان شوى وقدور هريسة ومامونية وفاكهة وحلواء ومشموم ثم ان ملك الامراء عرض المراكب الاغربة التى أنشاها ولعبت قدامه فى البحر وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه انبابة وكان يوما مشهودا وفى يوم الاثنين حادى عشريه كان عيد النصارى وهو أول يوم فى الخماسين وكانت خماسين مباركة لم يظهر فيها الطاعون بمصر ولا فى غيرها من الثغور وفيه توفى شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الامير ازدمر الدوادار وباشر أيضا ديوان الامير كسباى المحتسب وكان لا بأس به

ومما وقع من الحوادث الشنيعة ان امرأة مسلمة كبست مع شخص يهودى فلما شاع أمرهما قبض على اليهودى وعلى المرأة وعلى المكارى الذى اركب المرأة وقبض على شخص اسكافى كان واسطة بين المرأة واليهودى فلما عرض أمرهم على ملك الامراء أمر بضربهم بالمقارع وسجن المرأة بالحجرة وسجن اليهودى بالديلم حتى يكون من أمرهم مايكون وفيه قدمت الاخبار من حلب ان عبد الرزاق أخا على دولات وثب على ابن أخيه سوار وقد التفت عليه جماعة من التركمان البياضة والاكراد فحصل بينهما واقعة مهولة فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان وأشيع قتل سوار فى المعركة وقد ملك عبد الرزاق من سوار الابلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين ثمانية أيام وانتصر عبد الرزاق على سوار ثم خمدت هذه الاشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن واستهل شهر جمادى الاولى بيوم الخميس فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب وبلغ سعر الاردب الشعير أربعمائة درهم والفول ستمائة درهم كل أردب وشطح السعر فى سائر الحبوب وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل والاجبان قاطبة فى غاية الغلو واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل وبلغ سعر العسل الاسود كل رطل ثلاثة أنصاف وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف وعلى هذا فقس سائر البضائع والغلال وغير ذلك حتى بلغ سعر الراوية الماء أربعة أنصاف وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة البياض والملون والحرير والصوف والجوخ وغير ذلك من القماش وسبب ذلك الغش فى المعاملة من الذهب والفضة وصار الاشرفى البرسبهى يصرف بثلاث أشرفيات فضة والاشرفى القايتباهى يصرف باشرفيين وثمانية أنصاف والاشرفى الغورى يصرف باشرفيين وأربعة أنصاف وكذلك الاشرفى العثمانى ضرب الخنكار وأما الفضة فجميعها فى غاية الغش والفساد وصار الناس فى أمر مريب بسبب ذلك وقد تغيرت أحوال الديار المصرية تغيرا فاحشا الى الغاية وفوق ذلك جور التركمان فى حق أهل مصر من الخطف والنهب وأخذ أموال الناس بغير حق وخطف النساء والمرد من الطرقات ومن الوقائع الغريبة كائنة الشيخ محمد الرشيدى الذى كان ناظر الكسوة وناظر الجوالى وغير ذلك من النظارات وكان الخنكار قرره فى ذلك وقد سعى له حليم چلبى فى ذلك وكان من جماعة الخنكار فاستمر على ذلك ثم سعوا فى الرشيدى من عند ملك الامراء فاخرج عنه ما كان بيده من النظارات فحصل له غاية القهر فاختفى وخرج فى الدس صحبة بعض الهجانة على انه يتوجه الى الخنكار يشكو له ملك الامراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار

قرره فيها فلما وصل الى قطيا قبض عليه نائب قطيا وعلى الهجان الذى كان صحبته وقال له أمعك مرسوم ملك الامراء فقال انما رسم لى مشافهة فضيق عليه نائب قطيا فاعترف الرشيدى انه خرج هاربا من ملك الامراء فقبض عليه نائب قطيا ووضعه فى الحديد وأشيع انه شنق الهجان هناك وأرسل الرشيدى فى الحديد الى ملك الامراء فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام وقال له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له ثم ان ملك الامراء رسم بسجن الرشيدى فى العرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى وفيه أرسل ملك الامراء بالقبض على شخص يسمى محرات مقدم كاشف الغربية وقد كثرت فيه الشكاوى من الفلاحين وأشيع عنه انه ضرب شخصا من الفلاحين حتى مات تحت الضرب فلما مثل بين يدى ملك الامراء أمر بتوسيطه فوسطوه فى باب زويلة وفى ذلك اليوم رسم ملك الامراء بشنق اثنين من الكملية لامر أوجب ذلك ومن الحوادث أنه فى يوم الثلاثاء سادسه وقع للامير قايتباى الدوادار واقعة مهولة وهى أنه سار الى نحو المطرية وعاد فلما دخل من باب النصر وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية قد أخذ من شخص يبيع الصابون خمسة أرطال ودفع اليه ثمانية أنصاف وكان الصابون قيمته أشرفيا فلما رأى صاحب الصابون الامير قايتباى الدوادار تعلق بلجام فرسه وقص عليه قصته وكان الانكشارى ضرب صاحب الصابون حتى أدمى وجهه فأرسل الامير قايتباى مع صاحب الصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى صاحب الصابون شيأ فوق ذلك القدر فلما قابل ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليه المملوك فى القول فحنق منه الانكشارى فضرب المملوك على وجهه فأدماه ثم ان المملوك ضربه على وجهه بدبوس فأدماه فاتسعت الفتنة بينهما فمضى الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع مملوك الدوادار فاجتمع الجم الكثير من الانكشارية وتوجهوا الى بيت الامير قايتباى الدوادار وهجموا عليه وبأيديهم سيوف مسلولة وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاختفى منهم فلما بلغ الكيخية أغات الانكشارية ركب ورد الانكشارية وخمدت تلك الفتنة فلما بلغ ذلك ملك الامراء شق عليه ذلك ولام الامير قايتباى الدوادار على ما فعله ثم ان ملك الامراء أرسل طلب المملوك الذى ضرب الانكشارى وأثار هذه الفتنة فلما مثل بين يديه أمر بضربه فضربوه ضربا مبرحا وسجن بالعرقانة فسكن ذلك الاضطراب قليلا وصار الامير قايتباى على رأسه طيرة من الانكشارية وهو مهدد بالقتل منهم فى كل يوم وزعم الانكشارى الذى ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف وادعى انه كان معه ثلاثون دينارا فسقطت منه فدفع اليه الامير قايتباى الدوادار عشرين دينارا على ما أشيع هكذا قيل وصار الامير قايتباى لا يأمن على نفسه أن يطلع القلعة وحده وكان يركب فى كل يوم ومعه جماعة

كثيرة

كثيرة من المماليك الجراكسة ويتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ويقيم بها الى آخر النهار ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة فاستمر على ذلك أياما ثم خمدت تلك الفتنة ولله الحمد وفى يوم الجمعة تاسعه قدمت الاخبار من حلب بأن خارجيا من التركمان يقال له جلال المهتدى قد تصدى لمحاربة الامير على بن شاه سوار والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شرى بوز فكان بينه وبين الامير على بن سوار واقعة مهولة وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان وأشيع ان الامير على ابن سوار قد جرح فى وجهه بطبر وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدى وفر منه الى بلاده فخلع ملك الامراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن وفى ليلة الخميس خامس عشره خسف جرم القمر وأظلمت الدنيا فأقام فى الخسوف نحو ساعة ثم انجلى عنه ذلك الخسوف وفى ذلك اليوم قبض القاضى بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خبير وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ثم أشهره فى بولاق وكان سبب ذلك انه حجز على بيع الفول وصار يشتريه على ذمته ويخزنه فشطح سعر الفول فى تلك الايام وكان أخوه محمد بن خبير متحدثا فى أمر الغلال التى كانت ترد من البلاد قاطبة وكان محتميا بالامير جانم الحزاوى فجار على الناس بسبب بيع الغلال فخنق منه القاضى بركات بن موسى وضربه كما تقدم ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الامراء كان سعر الذهب العثمانى أن يصرف بأشرفيين وكان قبل ذلك يصرف بأشرفين وخمسة أنصاف وصار البيع يعين بيع بالذهب وبيع بالفضة فوقفت أحوال الناس بسبب ذلك ثم ان ملك الامراء نادى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد معاملة الفضة وكل من ردها شنق من غير معاودة وكانت الفضة يومئذ فى غاية الغش كلها نحاس اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها وكانت الانكشارية تدخل الاسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار فكل من ردّ منها شيأ تنهب دكانه ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغم أنفه فيأخذون منه أشرفيا ذهبا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس فحصل للناس فى ذلك غاية الضرر الشامل وفى يوم الجمعة سادس عشره خطب فى مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف التى بالقرب من جامع التركمانى عند طاحون السدر فاجتمع هناك قضاة القضاة الاربعة وأعيان المباشرين وأعيان الناس وخطب بها فى ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وكان ذلك اليوم مشهودا وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ثم بدا لابنته خديجة أن تجعلها مدرسة فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة وجعلت فيها خلاوى للصوفية ثم انها وقفت عليها جميع جهاتها المخلفة عن والدها فجاءت من محاسن الزمان وكان ذلك عين الصواب وقصدت بذلك

الاجر والثواب وفى هذا الشهر قدم جماعة كثيرة من اسطنبول ممن كان نفى اليها من الاعيان بالديار المصرية منهم كمال الدين بن معين الدين الموقع وابن نصر الله ومرعى الذى كان من جماعة الاتابكى سودون العجمى وأحمد الضير وطى ومحمد بن فروشيخ جهات الاميرية وحضر محمد بن ابراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية وحضر محمد ابن القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك وحضر محمد بن على كاتب الخزانة وحضر ابن العمريطى وحسام الدين بواب الدهيشة وآخرون منهم لم يحضرنى أسماؤهم الآن والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من الخنكار ابن عثمان وحضر جماعة من السيوفية والحدادين والنجارين والبنائين والمرخمين وغير ذلك ممن كان توجه الى اسطنبول فحضر الكل هاربين من غير علم السلطان فلما حضروا أشيع موت ابن شقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش وأشيع موت جماعة كثيرة هنالك من أعيان أهل مصر قبل ذلك وقدمت الاخبار بوفاة جان بك دوادار الاميرطراباى وكان من وسائط السوء وتوفى محمد بن يوسف الذى كان ناظر الاوقاف وكان من وسائط السوء أيضا وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الوراقين وتوفى هنالك جماعة كثيرة لم يحضرنى أسماؤهم الآن وفيه قبض ملك الامراء على شخص من اليهود الصيارفة من جماعة المعلم يعقوب اليهودى فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها فى عنقه وأشهره فى القاهرة وكان سبب ذلك ما أشيع عنه انه يشترى الفضة النحاس المغشوشة ويضعها فى الجامكية وقد قلق العسكر من ذلك وفى يوم الخميس ثانى عشريه كان دخول الشرفى يحيى ابن الاميرطراباى رأس نوبة النوب على ابنة الاميريبرس ابن بنت سيرين واستاعلم اسم أبيه ولا جده وهو يزعم انه ينتسب الى الملك الظاهر برقوق بقوله فكان كما يقال فى المعنى

وما هو الا كالعقاب فامه * معلومة وله أب مجهول

وكان له مهم حافل من المهمات المشهورة فصرف على المخبوز فى السماط ألف دينار وذبح فيه اثنى عشر بقرة ومن الخيل ثلاثة أرؤس ومن الغنم مائة رأس ومن الدجاج ألف طير ومن الاوز مائتى زوج وصرف على الشمع المزهر مائة دينار وصرف على الخيام والتعاليق أربعين دينارا وعلى السقائين عشر أشرفيات وكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الامراء الجراكسة والامراء العثمانية فشوا فيها من بيت الاميرقايتباى الدوادار الى بيت القاضى عبد العظيم الذى عمل فيه العرس وكانت ليلة حافلة وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص من عمال البلاد فشنق على قنطرة الحاجب بعد العصر وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض المباشرين باستخراج الرزق التى بالغربية فلما بلغ ملك الامراء ذلك أرسل أحضره فلما حضر أمر بشنقه من يومه فشنق بعد العصر وأراح الله الناس منه واستهل شهر جمادى الآخرة بيوم الجمعة فطلع القضاة الاربعة الى

القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الاثنين رابعه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم خان ابن عثمان فكان من مضمونها انه أرسل يطلب الامير كمشبغا والى القاهرة وقد بلغه ما فتحه من أبواب المظالم بمصر وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس عند الخنكار فطلبه من ملك الامراء عدة مرار وهو يتناسى عليه فلما رأى الطلب حثيثا فى أمره فاوسعه الا ان أرسله فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر وسافر الى اسطنبول من البرّ دون البحر وكان من وسائط السوء ظالما غشوما عسوفا سفاكا للدماء استباح أموال المسلمين ودماءهم فلم يتأسف لخروجه أحد من الناس وفرح غالب الناس لخروجه من مصر وكان أصل كمشبغا هذا من مماليك ملك الامراء رومى الجنس سيئ الخلق شديد البأس فلهج الناس بعدم عوده الى مصر وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل العزيز وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد الطريني فكانت لها جنازة مشهورة ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد الطريني بسبب القتيل الذى قتل واتهموا به جماعته واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن تخرب دياره فى هذه الحركة وأمرها مشهور بين الناس بما وقع له بالمحلة واتصل خبرها بملك الامراء وكان من أمرها ما يطول شرحه وتعصب لابى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى وآل أمر هذه الكائنة الى مال له صورة غرمه الشيخ عبد المجيد الطريني وفيه قدمت الاخبار من دمشق بأن نائب الشام الامير جان بردى الغزالى تغير خاطره على قاضى القضاة الشافعى ولى الدين محمد ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى فهمّ بقتل القاضى ولى الدين غير مرة ففر منه واختفى مدة طويلة ثم ظهر بعد ذلك بمدينة حلب قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع الغزالى فأرسل اليه مرسومه بأن يلى قضاء الشافعية بحلب فاستقر بها وأرسل أحضر عياله وأولاده من دمشق وتزوج بالست حامية زوجة القاضى محمود كاتب السر بن أجا وصار صاحب الحل والعقد بمدينة حلب فشق ذلك على جان بردى الغزالى نائب الشام ولولا ان تدارك القاضى ولى الدين وفعل ذلك لقتله الغزالى لامحالة وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالى ان الغزالى قبض على شخص من المباشرين فوجد معه ثلاث مطالعات متوجهات الى الخنكار احداها بخط القاضى ولى الدين الشافعى والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ المدرسة التى أنشأها الخنكار بدمشق والأخرى من عند نائب دمشق فكان من مضمون قلك المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالى نائب الشام بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل فى برق عظيم وقد التفت عليه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة فلما بلغ ذلك القاضى ولى الدين فرّ من الشام واختفى حتى ولى قضاء حلب وأمره مشهور وصار

الغزالى فى قهر من القاضى ولى الدين وقيل انه شنق المنطفرى وشنق الهجان الذى وجدت معه تلك المطالعات ولو ظفر بالقاضى ولى الدين لشنقه أيضا وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى محيى الدين البلبيسى أحد نواب الشافعية وكان لا بأس به وفى يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر الشهابى أحمد بن الجيعان وكانت جركسية الجنس تدعى شهدد ار وكانت بديعة فى الحسن والجمال من أجل النساء حسنا فافتتن بها المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال المملكة قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة وهى الجنك والعود والصنطير والقانون والدربج والكمنجا والصينى وكان أصل شهدد ار هذه من جوارى ابنة الامير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير فادعت انها معتوقة فتزوجها الشهابى أحمد بن الجيعان وأمهرها مائتى دينار ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون نسائه وافتتن بها الى الغاية وأقامت عنده مدة طويلة ثم تبين بعد ذلك انها فى رق ابنة الامير يشبك الدوادار ولم تعتق وصار الحق فيها الى بنت الامير يشبك الدوادار فاشتراها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان من الورثة بخمسمائة دينار وقامى بسببها مشقة عظيمة زائدة فاقامت عنده مدة ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى ماتت فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها حتى كاد أن يموت من الحزن واستمر مقيما بالتربة أياما وبادر اليه الناس بالتعزية والسلام عليه وصنع عدة مآتم واجتمع هنالك القراء والوعاظ وعمل فيها الشعراء عدة مراث بديعة قيل لما توفيت زوجة زين الدين عمر بن الوردى أنشأ يقول

اذا ما زوجة الانسان ماتت * فما بقيت لمسكنه سكينه

وكيف يطيعه نظم ونثر * ولا بيت لديه ولا قرينه

ويقرب من هذه الواقعة التى وقعت للشهابى أحمد بن الجيعان ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن مروان وذلك ان أحد الخلفاء الاموية قد اشترى جارية مولدة من مولدات البصرة وكانت تسمى حبابة اشتراها بألف دينار وكانت تشتمل على جملة من المحاسن منها انها كانت تضرب بالعود والجنك والقانون وسائر آلات الطرب وتحسن الغناء الجيد وتنظم الشعر وتحسن العربية ولها خط جيد وتلعب بالنرد والشطرنج وكانت بديعة الجمال فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها حبا شديدا حتى انها شغلته عن أمور الخلافة والنظر فى أحوال الرعية فاتفق له فى بعض الايام انه توجه الى بستان فى دمشق وصحبته تلك الجارية وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا يخبرنى أحد منكم بشئ من أمور المملكة ولا بكتاب يرد من سائر الجهات قاطبة فلما استقر بالبستان أحضر سفرة الشراب ودارت بينهما الكاسات ولم يكن فى المجلس غير يزيد وحظيته حبابة فبينما هما فى أرغد عيش اذ تناولت حبابة رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من الرمان فوقفت فى حلقها فانخنقت واضطربت

اضطرابا شديدا فخرجت روحها فى الوقت والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن تزهق من جسده وتأسف على حبابة غاية الاسف قيل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهى بين يديه يشاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها فى عينى أحسن من اليوم فلما جافت وتغيرت هيئتها ركب اليه أقاربه وابن عمه وعنفوه على ما فعله وأخذوا تلك الجارية ولفوها فى نطع ودفنوها واستمر يزيد فى التأسف والحزن حتى مات بعدها بمدة يسيرة انتهى ذلك وفى هذا الشهر اضطربت أحوال القاهرة وغلقت الاسواق بسبب المعاملة فى الذهب والفضة وجعل ملك الامراء على الاسواق انكشارية بسبب صرف الدنانير الذهب باكثر من أشرفيين فضة وأشيع أن شخصا حجازيا من الصيارفة صرف أشرفيا ذهبا باشرفيين فضة وخمسة أنصاف فرسم ملك الامراء باشهاره فى القاهرة وخزم أنفه وعلق فيها الميزان ثم شنقه فراح ظلما وفيه توفى محمد الريس فتات العنبر رئيس المحبظين وكان أستاذا فى صنعة الخيال وكان فاق على بريوه فى هذا الفن وفى يوم الاثنين خامس عشريه قدم ابن الشريف بركات أمير مكة وهو الذى يسمى تقية وصحبته صهره عرار فلما حضر خرج أمراء الجراكسة والامراء العثمانية الى ملاقاته فدخل القاهرة فى موكب حافل وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط فلما صعد الى القلعة تلقاه ملك الامراء من وسط الحوش السلطانى وبالغ فى اكرامه الى الغاية وخلع عليه قفطانا وخلع على من معه من العربان وأنزلهم فى مكان أعده لهم وفيه توفى الامير طقطباى استادار الصحبة أحد الامراء العشراوات فلما مات دفنه ملك الامراء فى مدرسته التى بباب الوزير واستهل شهر رجب بيوم السبت فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى ذلك اليوم قرئ كتاب الشريف بركات أمير مكة بحضرة القضاة فكان من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الامراء استقرار قاضى القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين بن ظهيرة على عادته فأجيب الى ذلك ثم عين فى ذلك اليوم قاضى مالكى وقاضى حنبلى الى المدينة الشريفة وانفض المجلس على ذلك وفى يوم الاربعاء خامس رجب طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرة أصابع وكانت فى العام الماضى أرجح من ذلك بعشرة أصابع وفى يوم الخميس سادسه رسم ملك الامراء بشنق شخص من أعيان الاصباهية وكان من أكبر المفسدين يخطف النساء والمرد والعمائم الظهر الاحمر ولا يجد من يرده عن ذلك فلما كثرت فيه الشكاوى تعصب على شنقه ملك الامراء وقرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقام فى ذلك غاية القيام وأغلظ على ملك الامراء فى القول وقال له الخنكار ما يدرى بشئ من ذلك فلما شنق ذلك الشخص عز على الاصباهية وتأسفوا عليه وأنزلوه عن المشنقة وغسلوه وكفنوه ودفنوه وقيل شنق معه فى ذلك

اليوم اثنان من الاصباهية وكانا من كبار المفسدين وهما اللذان توجها الى بيت شاد البرلس ونهبا مافيه وسبيا حريمه ولم يكن له ذنب يوجب ذلك وتقدم القول على هذه الواقعة وفى يوم الثلاثاء حادى عشره خرج قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة وعزل عنها وجرت عليه شدائد ومحن وسجنه ملك الامراء بالعرقانة وقيده ثم ان الخنكار ابن عثمان أرسل طلبه فتوجه الى اسطنبول وسافر اليها فى ذلك اليوم ومن الحوادث فى هذا الشهر أن ملك الامراء تكلم مع القضاة الاربعة بأن يخففوا من نوابهم وأغلظ عليهم فى القول فاقتصر قاضى القضاة الشافعى على خمسة عشر نائبا وأما القاضى الحنفى فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنين وهما شهاب الدين بن شيرين وابن بنت البدرى محمد بن الدهان الذى كان شيخ الجامع المؤيدى فاما القاضى المالكى فاقتصر على سبعة من النواب وأما القاضى الحنبلى فاقتصر على سبعة من النواب أيضا ولم يتم ذلك فيما بعد وحصل للنواب فى هذه الحركة غاية الضرر وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضى الحنفى طلب امرأة الى الشرع فامتنعت من الحضور فقبض عليها القاضى وضربها نحو ثمانين عصا وقع له مثل ذلك مرتين ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الامراء ففقت القضاة بسبب نوابهم وما يفعلونه وقال لهم اعزلوا جماعة من نوابكم المناجيس وفيه توفى الامير ماماى الساقى أحد الامراء العشراوات الطبلخانات وكان أصله من مماليك السلطان الغورى وكان رئيسا حشما لا بأس به فنزل ملك الامراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره كان ختان ولد القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين أحد نواب الحنفية فكان له زفة حافلة مشى فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك واستهل شهر شعبان بيوم الاثنين فصعد القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفيه كانت كائنة محب الدين بن أصيل الكفيف فكان من ملخص واقعته أنه كان بيده مشيخة المدرسة الشيخونية والجمالية أخذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ثم انتدب له من رافعه وقال له شرط الواقف أن تكون مشيخة الجمالية لاعلم علماء الشافعية وأنت شخص عار عن العلم فأخرجه ملك الامراء وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعى فشق ذلك على محب الدين بن أصيل وحصل له غاية البهدلة من ملك الامراء وقصته مشهورة بما جرى له وفيه وقعت كائنة عظيمة للامير الماس أخى أمير اخور كبير قرقاس ابن ولى الدين وكان من ملخص هذه الواقعة انه كان عند الامير الماس مملوك عايق يتزيا بزى العثمانية ويخرج بالليل يقطع الطريق ويخطف العمائم وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق فى بولاق وغيرها من الاماكن فقال ملك الامراء هذا مملوك من فقيل له مملوك الامير الماس فقال له ملك الامراء ليش ما كنت ترجع مملوكك عن الفساد فقال الماس

ما كان يسمع لى فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لى وانا كنت أنصفك منه فطال بينهما الكلام ثم ان الامير الماس أغلظ على ملك الامراء فى القول فخنق منه فبطحه على الارض وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت قيل ضربه عشرنوب ثم رسم بنفيه الى منفلوط وقيل الى قوص ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالى ليعاقبه وخرج الامير الماس منفيا من يومه وفيه قبض ملك الامراء على شخص من الصيارف الحجازيين وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين فلما قبض عليه رسم بشنقه فشفع فيه خير الدين نائب القلعة وغرم مبلغا له صورة حتى سلم من الشنق ولا ذنب عليه يوجب ذلك سوى انه خالف المناداة وصرف أشرفيا ذهبا بخمسة وخمسين نصفا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما وفيه رسم ملك الأمراء بشنق خمسة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب زعم انهم كانوا من أكابر المنسر وأعيان المفسدين فلما قبض عليهم ابن أبى الشوارب أرسل كاتب ملك الامراء بذلك فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب فأحضرهم الى القاهرة فرسم ملك الامراء بشنقهم فشنقوا وشنق فى ذلك اليوم شخص من الناس زعموا انه سرق ازارا ونقابا وشعرية فراح ظلما وكان ملك الامراء عجولا فى أمر القتل وفيه نزل ملك الامراء وسار الى نحو بلقس ثم رجع من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة فلما شق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ولا زغرتت له النساء من الطيقان بل أغلظ عليه بعض العوام وقال له انظر فى أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدقيق وسائر الاسعار فان البضائع متسحطة وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى القاضى شمس الدين محمد بن عبد الكافى أحد نواب الشافعية وكان من أعيان النواب وكان ضخم الجسد مثقلا بالشحم جدا وفى يوم الاربعاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ففيه زاد الله فى النيل المبارك عشر أصابع فسر الناس بذلك وكان فى أول الزيادة صار يسلسل فى الزيادة اصبعا اصبعا على عشرة أيام متوالية ثم فى اليوم الثانى من مسرى زاد الله فى النيل المبارك خمس عشرة اصبعا فى دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية وفى يوم الاحد مع ليلة الاثنين كانت ليلة النصف من شعبان فأقر أملك الامراء فى تلك الليلة ختمة بالقلعة واستدعى القضاة الاربعة فلما تكامل المجلس شرع قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكى يتكلم مع ملك الامراء بان يشفع فى القاضى نور الدين على الفيومى وقد تقدم القول أن ملك الامراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور وأقام بها مدة طويلة فلما شفع فيه القاضى المالكى رسم باحضاره من دمنهور وكان أحد نواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى وكان غير محمود السيرة

ثم فى ذلك المجلس شفع قاضى القضاة المالكى أيضا فى شمس الدين محمد السرماجى فتوقف ملك الامراء فى أمره قليلا وعدله جملة مساوى فلا زال قاضى القضاة يتلطف به حتى رضى عليه وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيته دائما فكتب عليه قسامة بذلك فرضى ثم ان قاضى القضاة شفع فى نور الدين على الحسنى المعروف برصاص المؤذن بان تعاد له وظائفه التى كانت فى المدرسة الغورية وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها فلما شفع فيه رسم له باعادة وظائفه التى كانت بالغورية وكان قاضى القضاة المالكى عند ملك الامراء من المقربين وكان يحضر مجلس محاكماته فى كل يوم سبت ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الامراء ورأى فى أيامه غاية العز والعظمة فوق ما رآه قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فى أيام الملك الاشرف قانصوه الغورى فعد من النوادر اطاعة ملك الامراء لقاضى القضاة المالكى فى جميع ما كلمه فيه فى ذلك المجلس بالاجابة ولم يرد له شفاعة فى ذلك المجلس فى أمر من الامور وفيه قدمت الاخبار من اسطنبول بأن الامير جانم الحمزاوى لما وصل الى اسطنبول قابل الخنكار وقبل منه الهدية التى أرسلها معه ملك الامراء وأكرمه الى الغاية وأذن له بالعود الى مصر وهو واصل عن قريب وأشيع فى الاخبار الواردة من اسطنبول أن جماعة من الاعيان تسحبوا من اسطنبول منهم القاضى علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام وأخوه محمد والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى وبهاء الدين بن البارزى وجلال الدين بن الشبراوى وآخرون من المباشرين الذين هناك فلما بلغ الخنكار تسحبهم من اسطنبول شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاويشا فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ووضعوهم فى الحديد وقاسوا من البهدلة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ودخلوا بهم الى اسطنبول وهم مشاة فى الحديد ثم سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك وفيه قدمت الاخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج توجهوا الى مدينة جربة وهى من أجل المدن ثم ان جماعة من مماليك الفرنج حاربوا من بها من مماليك الغرب فكان بين الفريقين واقعة مهولة قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا وكانت النصرة لصاحب جربة على مماليك الفرنج وغنموا منهم أشياء كثيرة وفى يوم السبت عشريه خلع ملك الامراء على ابن الشريف بركات أمير مكة وخلع على صهره عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما فكان لهما موكب حافل فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما الامراء الجراكسة والامراء العثمانية والجم الكثير من الانكشارية يرمون بالنفوط وكان يوما مشهودا وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد قاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين الفتوحى المعروف بابن النجار فكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الاعيان لكن قصر وصفها عن زفة أولاد قاضى القضاة

محيي الدين الدميرى المالكى وابن الحسام المنجلى ومن الحوادث الشنيعة أن شخصا يقال له محيي الدين بن مثرى البزدار له ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين وكان أبوها ساكنا فى المراغة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة وكان لهم جار صبى أمرد يعمل صنعة القمريات فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت فلعب بعقلها وقال لها أمدك فى السيدة نفيسة وأرسلت تطلبك هنالك فمضت معه وأخذ معه عبدا أسود فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة فذبحوها هنالك وحملوها وألقوها فى فسقية موتى هنالك وأخذوا الكوفية التى على رأسها وتركوها تتلعبط فى دمها فأقامت هنالك يوما وليلة فكثر التفتيش عليها من أمها وأبيها فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار على الكوفية الذهب التى كانت على رأس ابنته فاذا رآوها فليأتوه بها فبينما هو فى الصاغة واذا بالصبى الامرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت فى الصاغة ومعه الكوفية فأشهرها فى المناداة فتناهى سعرها الى أربعين أشرفيا فقال له بعتك فقال له الدلال أحضر لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه فقبضوا عليه وأحضروا أبا البنت فقبض عليه وتوجهوا الى باب الامير كشبغا فلما عرضوه على الوالى ضربه بعض عصى فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس البنت وذبحها ورماها فى فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها فقالوا له امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه فخرج معهم وهو فى الحديد وأتى بهم الى تلك الفسقية التى رماها بها فنزل أبو البنت اليها فوجد هارا قدة وهى مذبوحة وفيها بعض روح ولم ينقطع وريدها من الذبح فحملها وطلع بها من تلك الفسقية فلما بلغ ملك الامراء ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه وقصوا عليه قصة الصبى وما جرى له مع البنت فحزن عليها ملك الامراء وقال لها من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبى والعبد الاسود الذى على باب البيت الذى منه البنت وأحضروا اللبنت من قطب لها مكان الذبح الذى برقبتها وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح فعد ذلك من العجائب والنوادر الغريبة قيل ان البنت لما رماها الصبى فى الفسقية وهى مذبوحة حكت لامها وقالت لما بت فى الفسقية دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع وقالت لا تخافى أنا السيدة نفيسة وغدا أخلصك من هذا المكان ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال وسكن روعى مما كنت فيه وهذه الواقعة قد اشتهرت فى القاهرة وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم وفى ليلة الرؤيا توجه القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الاربعة هنالك فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد العشاء فلما رجع القاضى المحتسب الى داره لاقاه ابن

عوض بالفوانيس وعدة مشاعل كثيرة وكانت له ليلة حافلة ومن العجائب أن النيل المبارك كان على وفاء ولم يتأخر عليه غير أربع أصابع فأشيع بعد العصر أن النيل نقص فى تلك الليلة اصبعين فاضطربت أحوال الناس بسبب ذلك وكان قد مضى من مسرى احد وعشرون يوما ولم يف النيل وكانت أسعار الغلال والبضائع كلها فى غاية الارتفاع فكان كما يقال فى المعنى

رب وفّ النيل انا * منه فى كرب وبلوه
مابقى للناس صبر * يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل فى هذا التوقف على أربع أصابع وقيل نقص بعد ذلك أربع أصابع فاستمر على ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيأ فرسم ملك الامراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ويبتهلوا الى الله تعالى بالدعاء فى وفاء النيل فتوجه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل والقاضى الحنفى الطرابلسى والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغيرهؤلاء من مشايخ الصوفية فلما توجهوا هنالك وباتوا بالمقياس نقص النيل فى تلك الليلة اصبعين فصار النقص ستة أصابع ثم نقص عشرة أصابع وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ونقص من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة اصبعا عن الوفاء فلما كان يوم الاحد سادس رمضان نزل ملك الامراء وتوجه الى المقياس وكان قد مضى من مسرى ستة وعشرون يوما فأقام ملك الامراء فى المقياس ذلك اليوم وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين من الفقهاء فقرؤا فيها عشرين دورا ثم قرؤا صحيح البخارى هنالك وأشيع أن ملك الامراء فرق هنالك على الفقهاء مالاله صورة وأحضر الاطفال الايتام وفرق عليهم مبلغاله صورة وأحضر من الآثار الشريفة القميص من المدرسة الغورية ووضعه فى فسقية المقياس وغسله فى الماء الذى بها وكثر هنالك الضجيج والبكاء والتضرع الى الله تعالى بالزيادة فأقام ملك الامراء فى المقياس الى قريب الظهر ثم طلع الى القلعة فلما طلع أمر باطلاق من فى السجون من الرجال والنساء والاطفال فأطلق منهم نحو ثمانين انسانا ونزل الى القرافة وزار من بها من الصالحين وفرق على الزوايا التى هنالك مالاله صورة وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة وما أبقى فى ذلك ممكنا فلما كان يوم الاربعاء الموافق لتاسع عشرى مسرى عول ملك الامراء على أن يخرج الى الاستسقاء وصحبته الناس قاطبة يوم الخميس وقد تزايد قلق الناس الى الغاية واشتد الامر عليهم بسبب نقص النيل عند ليالى الوفاء وقد قال القائل فى المعنى

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا * ودب القحط فينا من أيب

ولم أضرع لمخلوق لأنى * وجدت الله أشفق من أبى بى

وفى هذه الواقعة يقول الاديب البارع الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال

أسبل النيل من عيونى عبره * مذ رأنى من النقص عبره
يالها عبرة ثوت بفؤادى * ورمت بالهموم فى القلب جمره
شهر مسرى تسع وعشرون يوما * فيه فات الوفا فاين المسرّه
ربنا الطف بالخلق فى النيل واطلق * بزيادانه من النقص أسره
واشرح الصدر بالوفا منك واسبل * ياسميع الدعا بفضلك ستره
واجعل الارض منه فى خير خصب * ورخاء واجبر بلطفك كسره

فلما كان يوم الاربعاء تاسع عشرى مسرى طلع ابن أبى الرداد الى ملك الامراء بعد الظهر وبشره بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع فسر ملك الامراء بذلك وقيل أنعم عليه بمائة دينار وفرس وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وأنعم على الصبى الصياح الذى ينادى على البحر بجوخة حمراء فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبة وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان وكانت فرحة عامة لجميع الناس قاطبة فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق لاول أيام النسىء زاد الله فى النيل المبارك خمسة أصابع فسر الناس بهذه الزيادة وقد تأخر عن الوفا ست أصابع فكانت مدة توقفه عن الزيادة ثمانية أيام متوالية حتى أيس الناس من طلوعه فى هذه السنة ثم فى ليلة السبت وفى الله الستة عشر ذراعا وفتح السد فى يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان الموافق للثانى من أيام النسىء فأوفى الله الستة عشر ذراعا وأصبعين من السابع عشر وقد فات الوفا عن ميعاده حتى مضت مسرى ودخلت أيام النسىء ولكن تقدم ان النيل تأخر عن الوفا الى سادس أيام النسىء وذلك فى سنة أربع وتسعين وستمائة وبلغت الزيادة فى تلك السنة ستة عشر ذراعا ثم هبط سريعا ولم يثبت فشرقت البلاد ووقع الغلاء واتفق مثل ذلك ان النيل وفى فى آخر أيام النسىء فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وكان نيلا شحيحا لم يثبت وشرقت البلاد ووقع الغلاء نقل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه فلما وفى النيل نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى المقياس وخلق العامود ونزل فى الحراقة وفتح السد وكان يوما مشهودا كما وقع له فى السنة الخالية وكان الوفا على غير القياس مما جرى على النيل فى هذه السنة وقد قال الناصرى محمد ابن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال فى المعنى

الحمد لله زاد النيل وانشرحت * صدورنا وأرانا بشره فرحا

والقلب أصبح بعد الكسر منجبرا * والامر أمسى عقيب الضيق منفسحا

﴿وقال آخر﴾

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم * ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الاله علينا لا يزال فما * أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفي يوم الاربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز وهو أول يوم من السنة القبطية وهي سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ففي ذلك اليوم زاد الله في النيل المبارك سبع أصابع فاوفى الله السبعة عشر ذراعا واصبعا من الذراع الثامن عشر فسر الناس بذلك وفي يوم السبت سادس عشريه قدمت الاخبار بأن الامير جانم الحمزاوي قد وصل الى قطيا وقد تقدم القول أنه كان توجه الى السلطان سليم خان ابن عثمان وصحبته تقدمة حافلة من عند ملك الامراء الى الخنكار ابن عثمان فلما قابله أكرمه وخلع عليه وقبل منه تلك التقدمة فأقام هنالك مدة ثم ان ابن عثمان رسم للأمير جانم بعوده الى مصر وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده الى مصر فجاء الامر بخلاف ذلك فلما أشيع وصوله الى قطيا خرج أعيان الناس الى ملاقاته وخرج الامير ناصر الدين محمد المهمندار والامير برسباى الدوادار وسائر المباشرين قاطبة فلما كان يوم الاحد سابع عشري رمضان ختم صحيح البخاري بالقلعة على العادة وفرقت الصرر على الفقهاء ومن له عادة وخلع على قضاة القضاة وفي يوم الاثنين ثامن عشريه دخل الامير جانم الحمزاوي الى القاهرة ونزل بتربة العادلي وفي يوم الثلاثاء تاسع عشريه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي ونزل على المصطبة التي هنالك ولبس خلعة الخنكار التي أرسلها له على يد الامير جانم الحمزاوي باستمراره في النيابة بمصر وهي قفطان بتماسيح على مخمل أحمر فركب من هنالك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل وقدامه جماعة من الامراء الجراكسة ومن الامراء العثمانية والعساكر الاصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية ولما وصل الى قبة الامير يشبك التي في رأس الحسينية لاقاه القضاة الاربعة فكان القاضي الشافعي عن يمينه والحنفي عن يساره والمالكي والحنبلي قدامه والامير جانم الحمزاوي قدامه وعليه قفطان مخمل مذهب كان ألبسه له الخنكار فاستمر في ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا فكانت مدة غيبة الأمير جانم الحمزاوي في اسطنبول عند الخنكار ستة أشهر وقيل انه قابل الخنكار فيها مرة واحدة وأما ترجمة الامير جانم الحمزاوي فهو جانم بن يوسف بن اركماس السيفي قانباي الحمزاوي نائب الشام كان من أعيان أبناء الناس وقد رقي في دولة ملك الامراء خاير بك حتى صار صاحب الحل والعقد بمصر

وصار فى مقام أمير كبير بمصر ولما استقر الامير جانم الحمزاوى فى داره أشيع بين الناس أنه أخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على الله الذى توجه الى اسطنبول فلما تغير خاطره عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرضية وهو فى غاية ما يكون من البهدلة ونفاه الى مكان عسر يسمى السبع قلبات قيل ان بينه وبين اسطنبول سبعة أيام وهذا المكان الذى يضع فيه الخنكار أمواله وتحفه لكونه فى غاية التحصين وقد اختلف فى سبب تغير خاطره عليه فمن جملة الاقوال ان أولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب اقطاع الخلافة أن يعطيهم منها الثلث و يأخذ هو الثلثين فأبى من ذلك الثانى أن الخليفة طاش هناك وصار ينهم العيش جهارا واشترى له جوارى يضربن له بالجنوك وفتك فى البسط والانشراح غاية الفتك فبلغ ذلك الخنكار فتغير خاطره عليه وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه خليل ومحطين على الخليفة الثالث أن جماعة كثيرة من أهل مصر ممن كان باسطنبول تسحبوا من هناك منهم بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش وتسحب آخرون من الاعيان فخشيت الوزراء أن الخليفة يتسحب من هناك فضيقوا عليه والله أعلم وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس فطلع القضاة الاربعة وصلوا مع ملك الامراء صلاة العيد وخطب بهم قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة وكان موكب العيد موكبا حافلا وفى يوم الاحد رابع شوال جلس ملك الامراء بالدهيشة وأرسل خلف القضاة الاربعة وأرسل خلف أعيان التجار ومشايخ الاسواق بسبب أمر المعاملة فى الذهب والفضة فلما تكامل المجلس قام ملك الامراء ودخل الاشرفية التى بجوار الدهيشة ودخل معه القضاة الاربعة وأرسل خلف الامراء العثمانية وهم قراموسى وفرحات وخير الدين نائب القلعة والقاصد الذى حضر صحبة الامير جانم الحمزاوى فلما دخلوا الى الاشرفية لم يدخلها غير هؤلاء ولم يأذن للامراء الجراكسة بالدخول معهم ثم ان القاصد أخرج مرسوم الخنكار الذى أرسله صحبة الامير جانم الحمزاوى فاجلس القضاة الاربعة على أربعة كراسى وأجلس الامراء العثمانية على أربعة كراسى وقرئ عليهم مرسوم الخنكار وذلك على طريقة النسق العثمانى وكانت ألفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية فكان من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل يأمر ملك الامراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية وأن يصرف للمماليك الجراكسة جوامكهم ولحومهم وعليقهم على العادة القديمة وأرسل يقول لملك الامراء أن يتوصى بأولاد الناس قاطبة وكل من كان له جامكية وقطعت يردها اليه وأرسل يقول له فى اصلاح المعاملة من الذهب والفضة فأحضروا من حل تلك الالفاظ التركية التى فى المرسوم فكان هذا معناها ثم ضربوا مشورة فى أمر المعاملة فاشار الحاضرون على ملك الامراء أن يبقى كل شئ على حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخنكار

فى ذلك مرة أخرى بأن الذهب والفضة ينقص فى هذه الحركة الثلث فخرج ملك الامراء ورسم باشهار المناداة فى القاهرة بأن كل شئ على حاله وأن الاشرفى العثمانى والغورى لا ينصرف بأكثر من خمسين نصفا فضة من غير زيادة على ذلك وان النصف الفضة النحاس يرمى وما عدا ذلك يمشى ثم انفض المجلس على ذلك ونزل القضاة الى دورهم وسكن الاضطراب قليلا فى أمر المعاملة وفى يوم الجمعة تاسع شوال قدم من البحر المالح الى ثغر الاسكندرية جماعة نحو تسعة أنفار ممن كان أسر وتوجه الى اسطنبول فحضر فى ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعودى المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان وحضر الشيخ كمال الدين الذى كان بزددار الامير طومان باى وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير اخور كبير وحضر زين الدين حامل المزرة وحضر القاضى كريم الدين المجولى أحد نواب الشافعية كان وحضر الخواجا عمر بن معزوز المغربى وحضر المهتار بدر العادلى والخواجا زين الدين العجمى ويوسف مناخير والمعلم حسين معلم المحلة بدار الضرب وكان هؤلاء باسطنبول وشكوا الى الوزراء بأن وظائفهم التى بمصر خرجت عنهم وتعطلت جهاتهم وأخذ الناس أموالهم بموجب غيابهم فى اسطنبول فقال لهم الوزراء أقيموا لكم ضمانا وتوجهوا الى مصر صحبة جماعة من الانكشارية واكشفوا على جهاتكم ووظائفكم وارجعوا الى اسطنبول على وجه الصيف ففعلوا ذلك وحضروا الى مصر وصحبتهم الانكشارية وفيهم من ترك أولاده وعياله باسطنبول الى أن يرجع اليهم فى عقيب ذلك أشيع أنه حضر أيضا من اسطنبول جماعة منهم شمس الدين بن الموفق المباشر وفرج بن البريدى والطواشى مسك وقيل ان الطواشى أقام بالشام عند الغزالى نائب الشام ورتب له ما يكفيه كل شهر ومحمد بن على كاتب الخزانة وآخرون حضروا فى الخفية وصاروا يتسحبون من اسطنبول شيأ بعد شئ ويحضرون وكل ذلك من غير علم الخنكار فالله يلطف بهم وفى يوم الجمعة سادس عشره الموافق لاول يوم من بابه ثبت النيل المبارك على خمس أصابع من تسعة عشر ذراعا وكان فى العام الماضى ثبت على ثمانية أصابع من عشرين ذراعا فكان هذا النيل أنقص من النيل الماضى بذراع وثلاث أصابع وكان نيلا شحيحا من مبتدا زيادته الى حين هبوطه وقد شرق غالب البلاد واشتد أمر الغلاء بالديار المصرية وتكالبت الناس على مشترى القمح وارتفع القمح من السواحل وصار اذا وصلت مركب قمح لا تباع ولا تشترى الا بافراج من عند المحتسب ولو كان ضيافة أو من الخراج فحصل للناس الضرر الشامل وارتجت القاهرة بسبب منع القمح ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تكون غلوة كبيرة وفى يوم الاحد ثامن عشره توفى شخص من الامراء الطبلخاناة يقال له ماماى الصغير ودفن فى المدرسة الغورية وفى يوم الاثنين تاسع عشره

خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم وكان أمير المحمل الامير جانم كاشف منفلوط والبهنسا فطلب طلبا حافلا على العادة القديمة كعادة الامراء المقدمين وخلع على الامير باباى أحد الامراء العشراوات واستقر به فى مشيخة الحرم النبوى عوضا عن الشرفى يحيى بن البرديني بحكم انفصاله عنها وكان قاضى المحمل فى تلك السنة الشيخ فتح الدين أبو الفتح الوفائى المالكى أحد النواب بل من أعيانهم فحصل للحاج به غاية النفع ولم يحج فى هذه السنة من الاعيان الا القليل وكان أكثر الحجاج فلاحين وريافة من البلاد وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم السبت طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم مستهله وقع لقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى بين يدى ملك الامراء بعض توبيخ بسبب نائبه كمال الدين بن زريق وقد انكشف رخه فى مكتوب ظهر أنه زوره وجرى بذلك أمور يطول شرحها فحصل للقاضى بعض مقت من ملك الامراء فاوسعه الا أنه عزل كمال الدين بن زريق بحضرة ملك الامراء عزلا مؤبدا مادام حيا وانفض المجلس على ذلك وفى ذلك اليوم رسم ملك الامراء باشهار المناداة فى القاهرة بسبب المعاملة فى الذهب والفضة فاطلق أربعة مشاعلية فى القاهرة ومصر العتيقة بأن الاشرفى الذهب العثمانى والغورى يصرف بخمسين نصفا من غير زيادة على ذلك وان الاشرفى الذى هو ضرب جمال الدين يصرف باثنين وأربعين نصفا وان الفضة على حالها لا يرد منها الا النصف المكشوف وكل من خالف فى ذلك شنق من غير معاودة فسكن الاضطراب قليلا بهذه المناداة بعدما كان أشيع ابطال هذه المعاملة كلها وتخسر الناس من اموالها الثلث فتعطل الناس من البيع والشراء أياما وغلقت الاسواق فلما نادوا بابقاء كل شئ على حاله سكن الرهج الذى كان فيه الناس قيل ان ملك الامراء أرسل يشاور الخشكار ابن عثمان فى أمر المعاملة اذا بطلت يخسر الناس من أموالهم الثلث والامر فى ذلك معول على الجواب وفى يوم الاحد ثانى الشهر خلع ملك الامراء على شخص من العثمانية يقال له الامير على الكيخيه أغات الانكشارية واستقر به فى ولاية القاهرة عوضا عن كمشبغا الذى كان والى القاهرة وتوجه الى اسطنبول كما تقدم وفى يوم الخميس سادسه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى الروضة ونصب له خياما فى خرطوم الروضة تجاه قصر ابن العينى فنزل هناك وكان صحبته جماعة من الامراء العثمانية والقاصد الذى حضر مع الامير جانم الحمزاوى والامير قايتباى الدوادار وبعض أمراء من الجراكسة والجم الكثير من الاصباهية والانكشارية فلما استقر هناك أحضر اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة قيل صرف عليها نحو خمسمائة دينار فمن جملة ذلك أربعون خروفا شوى وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق ضمنها مامونية سكب ومامونية حوية محشوة بسكر وسنبوسك بسكر

ورخامية بسكر وسمك على أنواع مختلفة وأشياء غير ذلك مونقة وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى
وأطنان قصب واحمال قشطة وبطط جلاب وأحمال موز وغير ذلك وما أبقى ممكنا فيما صنعه
فى هذه المدة من الاشياء التى تصلح للملوك فشكره ملك الامراء على ذلك وأثنى عليه بحضرة
الامراء وكان القاضى بركات المحتسب عالى الهمة نافذ الكلمة مسعود الحركات فى سائر
أفعاله وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لاحد قبله من المباشرين ولا غيرهم ولا سيما ما كان
يصنعه للسلطان فأقام ملك الامراء الى ما بعد العشاء ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة
وانقضى ذلك اليوم السلطانى وفى يوم السبت ثامنه وقعت كائنة مهولة وسبب ذلك أن ملك
الامراء جلس للمحاكمات على العادة فعرض عليه ثلاث محاكمات فى ذلك اليوم الاولى أن
شخصا من الشهود يقال له شمس الدين محمد البساطى كان يجلس على رأس حارة زويلة وكان
يخطب فى جامع ابن قريمط الذى فى حارة زويلة فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية كانت على
ملك شخص من النصارى فابتاعها الشخص من الفرنج فهربت وأتت الى بيت الوالى وقالت
له أنا جارية مسلمة كنت عند شخص نصرانى فباعنى لشخص افرنجى وقصد أن يسافر بى
الى بلاد الفرنج فهربت من عنده وأتيت اليكم فعرض الوالى هذه الواقعة على ملك
الامراء خاربك فطلب النصرانى البائع فهرب وهرب الفرنجى المشترى فقبض على
شخص كان واسطة وعلى شمس الدين البساطى وقيل على النصرانى والافرنجى فيما بعد
وعوقبا وقرر عليهما مال له صورة فلما وقف شمس الدين البساطى بين يدى ملك الامراء قال
له ليش ما سألت الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة فاختلط فى الكلام وتلجلج لسانه عن
الجواب فاشتد غيظ ملك الامراء عليه فرسم بقطع يده اليمنى فقطعت وأن يشهر فى القاهرة
ففعل به ذلك وكان حاضرا فى المجلس قاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى
شهاب الدين ابن شيرين أحد نواب الحنفية والقاضى شمس الدين العبادى والامير ارزمك
الناشف وجماعة من الامراء العثمانية فلم يجسر أحد منهم أن يشفع فيه لشدة غضب ملك
الامراء عليه وكان يوما مهولا والمحاكمة الثانية عرض عليه شخص يقال له محمد بن عز الدين
كان أبوه من جملة رسل الصالحية وكان يعرف بابن بابه وكان ابنه قبيح الصورة والسيرة مشهورا
بتزوير المراسيم عن لسان المباشرين وسبقت له وقائع كثيرة عن لسان الاكابر فقيل انه
زور مرسوما على لسان القاضى شرف الدين بن عوض فقبض عليه ابن الغياثى وأحضره
بين يدى ملك الامراء فكثرت فيه من الناس الشكاوى فرسم بان يشنق فشنق وشهر فى
القاهرة وهو مخزوم الانف ومقطع الآذان فأراح الله تعالى العباد منه فانه كان كثير
النصب والحيل وتحكى عنه الغرائب والعجائب فى أمر الحيل والنصب والسرقة والمحاكمة
الثالثة عرض عليه شخص من الفلاحين سرق ثورا فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه وآذانه

وان يركب على الثور و يشهر فى القاهرة ثم يخوزق و كان ملك الامراء عجولا فى أمر القتل وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته على مصر مالا يحصى من الناس والغالب راح ظلما من غير ذنب وكان ملك الامراء شديد القسوة صلبا فى الامور جدا وكان الامر كما قيل فى المعنى

احذر تعاشر من يكن طبعهم * ظلم الورى دأبا وان أحسنوا
لقول رب العرش سبحانه * فى محكم الذكر ولا تركنوا

وفى يوم الخميس ثالث عشره رسم ملك الامراء بشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصب فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب فضربه أحد القواسة فجاءت الضربة صائبة فمات ذلك التركمانى فلما بلغ خشداشينه ذلك توجهوا الى شبرى ونهبوا مافيها ثم قبضوا على القواسة وعرضوهم على ملك الامراء فرسم بشنقهم فشنقوا فى ذلك اليوم ومضى أمرهم ويقال انهم أخذوا ظلما ليس هم الذين قتلوا التركمانى والذين قتلوه هربوا ولم يحصلوهم وراحوا ظلما وراحت فى كيسهم وقد وقع لملك الامراء انه قتل ثمانية أنفس فى هذه الجمعة فشنق منهم جماعة وخوزق منهم جماعة واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم وراح غالبهم ظلما والامر لله تعالى وفى يوم الجمعة رابع عشره أرسل كاشف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق فرسم ملك الامراء بشنقهما فشنقا وقد وقع لملك الامراء أنه شنق وخوزق فى هذا الشهر جماعة كثيرة بخلاف العادة وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات فعمل واحد منهم ملك الامراء وآخر والى القاهرة ونادوا أن لا أحد يخرج من بعد العشاء فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخر يعبث عليه فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الامراء فرسم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه و يخوزقه فدقوا له عصا فى الارض وأقعدوه عليها غصبا فمنهم من قال ان الصبى مات من وقته ومنهم من قال لم يمت فلما جرى ذلك تهاربت الصغار الى حال سبيلهم وقد هان القتل فى هذه الايام حتى عند الصغار وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره قدمت الاخبار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا مدينة بيروت وأقامت معهم ثلاثة أيام فلما بلغ ملك الامراء نائب الشام جان بردى الغزالى ذلك عين دواداره ومعه الجم الكثير من العساكر فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج وكان بين الفريقين واقعة مهولة قتل فيها مالا يحصى من الفرنج وأسر منهم ثلثمائة انسان وغنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاث برشات من بكارمراكبهم وكانت النصرة عليهم للغزالى نائب الشام بعد ما ملك الفرنج

بيروت فطردهم عنها بعون الله تعالى ﴿ومن الحوادث العظيمة الغريبة ماوقع يوم الاربعاء تاسع عشر ذى القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان بان السلطان سليم شاه قد توفى الى رحمة الله تعالى وحضر صحبة القاصد مطالعة من عند الرئيس شمس الدين محمد التوصونى الى صهره قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه بن عثمان وهى الاخبار الصحيحة فاخبر أن السلطان سليم شاه خرج يتصيد فرجع من الصيد وهو متوعك فى جسده وقد طلعت له فرخة جمر فتألم لها ولزم الفراش أياما وثقل فى المرض واشتد عليه الامر جدا فمات فى يوم الخميس تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة فلما مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول فلما حضر وقد جد فى السير حتى دخل الى اسطنبول وجلس على سرير الملك أشيع موت أبيه سليم شاه فاحضروه فى محفة وهو مصبر وصلوا عليه ومشت الوزراء والعسكر قاطبة قدامه وكان دفنه يوم الاحد ثانى عشر شوال أو يوم الاثنين كما قيل ودفن على جده السلطان محمد بن عثمان فى مدرسته باسطنبول ومضى الى رحمة الله تعالى كانه لم يكن وزال عنه الملك فى طرفة عين فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير وفى ذلك يقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق فى المعنى

عظم الله أجركم * فى مليك الورى سليم
عنه قد زال ملكه * وغدا فى الثرى رميم

وتوفى الملك المظفر سليم شاه وله من العمر نحو سبعة وأربعين سنة على ما أشيع ذلك ووقع له من الامور الغريبة مالم يقع لاحد من آبائه ولا أجداده بل ولا لاحد من ملوك الشرق ولا ملوك الغرب ولا غيرهم فانه زحف على شاه اسماعيل الصوفى ملك العراقين وحاربه فكسره وقتل من عساكره مالا يحصى حتى قيل قتل فوق الخمسين ألفا وملك بلاده وطرده عنها ثم تحرش بسلطان مصر ولازال يخادعه ويظهر أنه تحت طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه وفقد وقد طرقه على حين غفلة وجرى عليه منه ماجرى كما تقدم ذكر ذلك فملك مدينة حلب وقلعتها فى خمس درج واحتوى على أموال السلطان الغورى التى كانت بقلعة حلب من غير مانع ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها من غير مانع فى أسرع من طرفة عين ثم توجه الى الديار المصرية وحارب السلطان طومان باى فكسره وقتل غالب عسكر مصر من المماليك الجراكسة وقتل من الامراء ما تقدم ذكره وملك الديار المصرية فى نحو عشر درج ومن أراد أن ينظر ما وقع منه بالديار المصرية فلينظر الى

الجزء الخامس من تاريخنا بدائع الزهور فى وقائع الدهور وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر أربع سنين وخمسة أشهر وهو يخطب باسمه على منابر حلب وأعمالها ودمشق وأعمالها ثم خطب باسمه فى الديار المصرية وأعمالها وثغورها وضربت السكة باسمه فى هذه المدة وكان استيلاؤه على مدينة حلب فى أواخر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة واستولى على دمشق فى سلخ رمضان واستولى على الديار المصرية فى المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فكانت مدة اقامته فى القاهرة نحو ثمانية شهور من مستهل المحرم الى أواخر شعبان واستقر بخاير بك نائبا عنه بمصر وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن فنحو تسع سنين الا شهرا فان والده أبا يزيد توفى فى ثانى جمادى الاولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة وكان استيلاؤه على مملكة الروم فى حياة والده باشهر فان والده أقام مريضا ملازما للفراش مدة طويلة فيقال انه عجل على أبيه وقتله لاجل الملك ثم انه خنق أخاه قرقط وقتل أخاه أحمد وظن أن الوقت قد صفا له فتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بغيره من الملوك ودهاه الموت الذى لا يدفع بقوة ولا حيلة وقد صار فى رمسه رهين الذنوب لا يعلم أهو فى نعيم أو فى عذاب وقد رثيته بهذه الابيات

لابن عثمان قصة فاسمعوها * واعجبوا من صنع ربى تعالى
ملك الشام للفرات وأضحى * فاتكا فى الانام روحا ومالا
وأراد الدخول فى كل مصر * قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنها سهام الدياجى * بدعاء فيها يفوق النبالا
بعد ما جار فى الانام بقتل * من جيوش يدك منها الجبالا
منذ جاروا وبالغوا فى أذاهم * قد سألنا الاله يكشف حالا
فاستجاب الدعاء ومن علينا * بانفراج الهموم جل تعالى
وأتتنا أخباره بزوال * صيرت رشده حقيقا محالا
كم ملوك أذلها بعد عز * وسطا فيهم وأفنى الرجالا
لهف قلبى على ملوك تفانوا * من سطا سيفه وطال اشتعالا
ذلت الروم بعد ما قد دهاهم * موت أستاذهم وشاعوا المقالا
زال عنا بموته دون حرب * وكفى الله المؤمنين القتالا

وفى ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الامراء الذى كان مقيما باسطنبول وكان رهينا عند ابن عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة بمصر ولما تحقق ملك الامراء موت السلطان سليم شاه أظهر الحزن والاسف وشق أثوابه ولبس السواد وكذلك الامير قراموسى وخير الدين نائب القلعة وفرحات وسائر الامراء العثمانية لبسوا السواد حتى الامير قايتباى

الدوادار لبس السواد ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر الحزن وفى يوم الخميس عشريه رسم ملك الامراء بأربعة مشاعلية تنادى فى القاهرة اثنان ينادیان بالتركى واثنان ينادیان بالعربى ترجموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان شاه فارتجت القاهرة فى ذلك اليوم وتحققوا موت سليم شاه من غير شك وقالوا سبحان من هذا الجبار وأما المماليك الجراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور واستبشروا بالفرج كما يقال

* مصائب قوم عند قوم فوائد * فاستمرت الامراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام متواليه وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن عثمان وكان موته من الغرائب على حين غفلة ولو عاش وصفاله الوقت ما حصل لاحد منه خير فكفى الله الناس شره انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك المظفر سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار وقد وقع فيها من العجائب والغرائب مالم يقع فى غيرها من الدول

ذكر سلطنة الملك المظفر سليمان ابن الملك المظفر سليم شاه ابن عثمان

وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان استولى على الروم بالقسطنطينية العظمى يوم الاحد ثانى عشر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه وصار متملكا على المملكة الرومية والديار المصرية ومامع ذلك من الممالك قيل استولى على الملك وله من العمر نحو ثمانية وعشرين سنة وله أولاد ذكور واناث وقيل عنه انه من ذوى العقول وفيه أقول

سرنا لما ولى سلطاننا * ابن عثمان وصرنا فى أمان
وارث الملك عن أجداده * فهو فى الملك سليمان الزمان

(١) وأما ترجمته فهو سليمان بن سليم شاه الذى أخذ مصر عنوة بالسيف ثم والده سليم أبو يزيد ولد سنة احدى وخمسين وثمانمائة وولى على مملكة الروم وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الاول سنة ست وثمانين وثمانمائة وتوفى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة وكانت مدة سلطنته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ولد سنة خمس وستين وسبعمائة وكانت مدة حياته نحو ستين سنة ثم والده مراد خان ويدعى غازى أيضا ولد سنة عشر وسبعمائة وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم احدى وثلاثين سنة وعاش من العمر نحو ثمانية وستين سنة ثم والده أبو يزيد المعروف بيلدرم ويلدرم باللغة التركية اسم البرق وهو الذى أسره تمرلنك ووضعه

(١) هذه العبارة من أولها الى آخرها فيها مخالفات كثيرة لما ذكره المؤرخون فليكن ذلك معلوما

فى

فى قفص من حديد وطاف به فى البلاد يعجب عليه وكانت وفاته فى القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك ثم أبوه اورخان عاش نحو ثمان وستين سنة ثم أبوه على اردن ثم أبوه عثمان الثانى ثم أبوه سليمان ولد فى بلاد الروم وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثانى على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وستمائة واستمر على ذلك حتى قتل فى الغزاة ببلاد الفرنج وخلف ابنه سليمان فهؤلاء كلهم من نسل عثمان الثانى فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان وهم تسعة بالعدد وأما جدهم الكبير عثمان فقال بعض المؤرخين انه ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة وعاش تسعا وستين سنة وأن أصله من عرب الحجاز من وادى الصفراء بالقرب من المدينة النبوية فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فارا الى بلاد قرمان فنزل هناك وكان شجاعا بطلا فتزايا بزى أهل قونيا وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية فصار عثمان فى خدمة الامير على بن قرمان فعظم أمر عثمان عنده ومشى على طريقتهم وتكلم باللغة التركية وصار له أتباع كثيرة وأعوان وعدة عساكر نحو عشرين ألفا فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية وصار له عدة بلاد افتتحها وصار يغزو بلاد الفرنج فى كل سنة ويغنم أموالهم ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ولا زال ملك بنى عثمان يكثر وجنودهم تكثر وأظهروا العدل فى الرعية وعمروا التكايا والزوايا والخوانق وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصلحاء وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الانف وقيل عاش عثمان هذا نحو سبعين سنة ومات شهيدا فى بعض غزوات الفرنج وهو جد بنى عثمان قاطبة قال الشيخ تقى الدين أحمد المقريزى لم يكن فى أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسلطان بل كانوا اذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمهم يقول لهم الخنكار أو الامير فلان وقال المقريزى انهم ينسبون الى أبى مسلم الخراسانى صاحب دعوة خلفاء بنى العباس الذى تعصب لهم ونزع الخلافة من يد الامويه وجعلها الى العباسية انتهى ما أوردناه من نسب ابن عثمان وهذا هو النسب الصحيح عنهم والله أعلم بحقيقة ذلك ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن سليم شاه ابن عثمان فالذى أخبر به القوصونى فى كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك أظهر العدل فى الرعية فأرسل أحضر الخليفة من المكان الذى كان سجنه فيه والده سليم شاه فأحضره الى اسطنبول كما كان ورتب له فى كل يوم ستين درهما وأفرج عن علاء الدين ناظر الخاص وعن جماعة كثيرة من المباشرين الذين كان سجنهم والده وأفرج عن جماعة من التجار الاعجام الذين كان والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصوفى وأخذ منهم حريرا بنحو اثنى عشر ألف دينار فلما آل اليه الملك أفرج عنهم وأعاد لهم الحرير الذى كان أخذه والده

منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط وفى يوم الجمعة حادى عشريه رسم ملك الامراء بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة الغيبة بجامع القلعة وسائر جوامع القاهرة وأن يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر السلطان سليم شاه كأنه لم يكن وفى يوم السبت ثانى عشريه نودى فى القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنة الملك المظفر سليمان فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى داخل الاسواق وغالب الحارات ولاسيما خان الخليلى فان تجاره زينوا زينة عظيمة وصار الامير على الكيخية والى القاهرة يطوف فى كل يوم عدة مرار وقدامه جماعة من الانكشارية وهو ينادى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وان لا أحد يشوش على أحد من الرعية وصار يأمر بتقوية الزينة ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق

زينت مصر وأضحت * بعد حزن فى تهانى
مذ غدت بعد سليم * لسليمان الزمان

ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا أن ينهبوا حارة زويلة وقيل جرت العادة عندهم اذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمنعهم خير الدين نائب القلعة وقراموسى وفرحات من ذلك فغضبوا منهم وتوجهوا الى بركة الحبش على أنهم يدخلون على جمية وينهبون القاهرة عن آخرها فترددت الرسل بينهم وبين ملك الامراء على انه ينفق على طائفة الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار فتراضوا على ذلك وعلى انه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكملية شيأ فتقرر الحال على ذلك ثم فى يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك الامراء الى الامير قايتباى الدوادار قفطان حرير صارى وشاش خسينى ثم ان ملك الامراء صار يتراضى خواطر المماليك الجراكسة فانفق عليهم جامكية شهرين دفعة واحدة وصار القاضى شرف الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسة أيضا ويخاطبهم يا أغاوات بعدما كان يقول يا كلاب يا زرابين وقد أقامت المماليك الجراكسة صدورها من حين سمعوا بموت سليم شاه ابن عثمان وفى يوم الاثنين رابع عشريه أشيع ان طائفة الاصباهية وقفوا الى ملك الامراء وقالوا مثل ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا فقال لهم الانكشارية مماليك الخنكار وأنتم خدامه وما عندى ما أنفقه عليكم فنزلوا من عنده على غير رضا وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة فبادر الناس بفك الزينة ووقع الاضطراب فى ذلك اليوم وفى يوم الثلاثاء خامس عشريه أنفق ملك الامراء على الانكشارية فقط فأعطى لكل واحد منهم أربعين أشرفيا ذهبا تصرف بثمانين أشرفيا فضة وأعطى الصوباشية أغوات

الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار فشق ذلك على الاصباهية والكملية وأشيع اقامة
فتنة وفي يوم الاربعاء سادس عشريه حضر قاصد من عند نائب الشام الامير جان بردى
الغزالي يقال له خشقدم اليحياوي وهو أحد الامراء العشراوات بدمشق وكان أمير جكار
عند قانصوه اليحياوي فلما حضر بين يدي ملك الامراء دفع اليه مطالعة نائب الشام
جان بردى الغزالي ومطالعة الى الامراء فلما قرئت اضطربت أحواله ولم يعلم ما في تلك
المطالعات فانزلوا القاصد في بيت الامير جانم الحزاوي فأقام عنده في الترسيم وهو محتفظ به
ثم أشيع أن ملك الامراء من حين حضر قاصد نائب الشام الغزالي وهو منكد وشرع في
تحصين قلعة الجبل وركب على أبراجها المكاحل ووزعت أعيان الناس أمتعتهم في
حواصل وتزايد القيل والقال بين الناس في أمر جان بردى الغزالي نائب الشام وأشيع
عصيانه بالشام وقد جمع من العساكر ما لا يحصى ثم في يوم الخميس سابع عشريه رسم
ملك الامراء ان طائفة الانكشارية يقيمون في القلعة في الطباق ولا ينزلون الى المدينة وان
طائفة الاصباهية يسكنون حول القلعة وبالقرب من بيت قراموسى ففعلوا ذلك وفي يوم
الجمعة ثامن عشريه خرج قاصد من عند ملك الامراء يقال له أمير شيخ فأرسل على يديه
مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمان يعزيه في والده السلطان سليم شاه ويهنيه باستقراره
في الملك عوضا عن أبيه ثم أشيع أن ملك الامراء أرسل قاصد نائب الشام وهو خشقدم
اليحياوي الذي حضر وعلى يديه المطالعات فأرسله الى السلطان سليمان وصحبته تلك
المطالعات الواردة من عند نائب الشام فقيل أرسله في الحديد وتوجه أمير شيخ الى البحر الى
ثغر الاسكندرية ومن هناك توجه من البحر المالح الى اسطنبول ثم أشيع بعد ذلك ان
القاصد قد أغرقوه تحت الليل وكان اخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال ومما استفاض
بين الناس من أمر واقعة نائب الشام جان بردى الغزالي انه تسلطن بالشام وقبل له العسكر
الارض وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة فلما
تحقق ملك الامراء ذلك أرسل يعلم السلطان سليمان ابن عثمان بما وقع من نائب الشام
من سلطنته بالشام وأرسل اليه المطالعات التي وردت عليه بما جرى منه وصار الامر موقوفا
على الجواب عن ذلك وقد تحقق عصيان نائب الشام وخروجه عن الطاعة وفي شهر ذي
الحجة وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر
فلما تكامل المجلس أحضر ملك الامراء مصحفا شريفا ووضعه على كرسي وحضرت الامراء
الجراكسة والامراء العثمانية فتقدم الامير ازمك الناشف وحلف أنه يكون تحت طاعة
السلطان سليمان كما كان تحت طاعة والده سليم شاه وانه لا يخون ولا يغدر ولا يخامر
عليه فحلف على ذلك بحضرة القضاة الاربعة ثم تقدم الامير قايتباى الدوادار فحلف بمعنى

ما حلف به الامير ازمك الناشف ثم صارت الامراء الجراكسة يحضر منهم اثنان اثنان ويحلفون على المصحف بمعنى ذلك ثم قام شخص يقال له قراجا الطويل وقال يا ملك الامراء مثلما حلفنا للامراء العثمانية يحلفون لنا هم أيضا فقال ملك الامراء واجب علينا ذلك فتقدم ملك الامراء وحلف على المصحف وأوسع فى ألفاظ الحلف وأكد فى ذلك ثم تقدم قراموسى وحلف على المصحف وكذلك فرحات وخير الدين نائب القلعة والكيخية الكبير اغات الانكشارية فلما تكامل الحلف رسم ملك الامراء أن ينادى فى القاهرة بالعربى والتركى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وان التجار تفتح دكاكينها وان لا أحد يكثر كلاما ولا يدخل فيما لا يعنيه ولا يقل له قماشا الى داره والدعا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان فلما نودى بذلك سكن الاضطراب الذى كان بين الناس قليلا وفى ذلك اليوم عرض على ملك الامراء شخص من النصارى قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلام فاحش وشهد عليه بذلك فحكم القاضى الحنفى بقتله فضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ثم ان العوام أحرقوه بالنار حتى صارت جثته رمادا ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة انه أشيع أن بحر النيل زاد فى هذه الايام بعد ما قد مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع حتى قيل بقى على علام الوفاء ستة عشر أصبعا فعد ذلك من النوادر الغريبة التى لم يقع مثلها فيما مضى من الزمان ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس بل أغرقت الزروع التى زرعت على الشطوط والامتعة وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى فكان كما يقال فى المعنى

النيل أفرط فيضا * بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا * حديثنا بالاصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل الى خليج الزريبة من عند قصر ابن العينى فتطير الناس من ذلك ثم أشيع ان الماء دخل الى الخليج الناصرى وفاض حتى دخل الى بركة الرطلى وغرق الزرع الذى كان بها فعد ذلك من النوادر الغريبة وأشيع أن جهات المنوفية غرق ما كان زرع بها وهى عدة أفدنة كثيرة وكذلك غرق غالب البراسيم التى بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير وفيه أفرج ملك الامراء عن نجم شيخ العايد وخلع عليه وأعاده فى مشيخة العايد كما كان أولا وخلع على أربعة أنفار من عربان السوالم وقرر معهم أن يجمعوا من العربان ما يقدرون عليه بسبب ملاقاة نائب الشام جان بردى الغزالى فانه تزايدت الاخبار بسلطنته بالشام وقد تلقب بالملك الاشرف صاحب الفتوحات وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع على الدكاكين وقبل له الامراء الارض وقد جمع العسكر الكثير وهو قاصد نحو الديار المصرية وفى يوم الاربعاء ثالث شهر ذى الحجة توفى

الامام العالم العامل شيخ الاسلام والمسلمين مفتى الانام فى العالمين بقية السلف وعمدة الخلف عالم الوجود على الاطلاق ومن ذكره قد شاع فى الآفاق فهو آخر علماء الشافعية بالديار المصرية وانتهت اليه رياسة الشافعية فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد ابن محمد الانصارى السنيكى الشافعى رحمة الله عليه كان مولده فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ومات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها وكان رئيسا حشما فى سعة من المال وولى قضاء الشافعية فى دولة الاشرف قايتباى وأقام بها نحو عشرين سنة ومات وهو معزول من القضاء وقد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة وحضر مبايعة خمسة من السلاطين وهم الناصر محمد بن قايتباى وخاله الظاهر قانصوه والاشرف جان بلاط والعادل طومان باى والاشرف الغورى وولى تدريس قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه وولى فى أواخر عمره مشيخة مدرسة الجمالية وكان بيده عدة تداريس وألف الكتب الجليلة فى العلوم المفيدة وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة وانتفع منه غالب الناس وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء فلما بلغ ملك الامراء وفاته أرسل اليه ثوبا بعلبكيا وخمسين دينارا على يد الامير جانم الجزاوى وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه وأخرجت جنازته من عند المدرسة السابقية ومشى فى جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس وصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ونزل ملك الامراء وصلى عليه وحمل نعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلعوا وكانت جنازته حافلة فلما صلوا عليه توجهوا به الى مقام الامام الشافعى رحمة الله عليه ودفن عند الشيخ محمد الخبشانى تجاه قبر الامام الشافعى رضى الله عنه فكان أحق بقول القائل حيث قال

لقد عظمت رزيتنا فنبه * لها عمرا ونم جنح الليالى
فلا زالت ذوو الاقدار تلقى * من الايام أنواع النكال
وكم جنت المنون على رجال * وجندلت الكماة بلا قتال
ودائى ليس يشفيه دواء * وجرحى لا يؤول الى اندمال
به الايام قد كانت قصارا * فويلى من لياليها الطوال
وكان ذخيرتى فيها وكنزى * وكان هدايتى عند الضلال
لقد درست دروس العلم حزنا * وقد ضل الجواب عن السؤال
ودق الناس أبواب الفتاوى * وقد وصلوا الى باب الصيال
بكاك العلم حتى النحو أضحى * مع التصريف بعدك فى جدال
بكت أوراقه بيض المواضى * دما ويراعه سمر العوالى
وعين دواته عمشت وآلت * يمينا الاتداوى بالكحال
تنكرت المعارف فى عيانى * وتميزى غدا فى سوء حال

وماعوضت من بدل وعطف * سوى توكيد سقمى واعتلالى
فيا قبر اثوى فيه تهنى * فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاه الله عينا سلسبيلا * وأسبغ ماعليه من الظلال
وبوأه من الفردوس فضلا * ورقاه الى الغرف العوالى

وفى يوم الاربعاء المقدم ذكره توفى الشيخ شمس الدين محمد البساطى الشاهد الذى قطع ملك الامراء يده فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك وأشيع أن ملك الامراء أرسل اليه مائة دينار على انه يحاله على ماوقع منه فأبى من أخذ المائة دينار وقال حتى أقف أنا واياه بين يدى الله تعالى وقيل ان يده التى قطعت استمرت عنده الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا وفى يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة قدمت على ملك الامراء أخبار رديئة بان العربان نزلوا على قطيا ونهبوا مافيها واستمر النهب عمالا من قطيا الى الخطارة وطفشت العربان فى الشرقية واضطربت أحوالها وأشيع أن شيخ العرب أحمد بن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ووزع أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد وقد وردت عليه أخبار غير صالحة وصار القيل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس والاخبار الكذب أكثر من الصدق وفى يوم الاربعاء عاشره كان عيد النحر فوقع فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الاضحية فبلغ سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا وشئ منها يباع بار بعين دينارا ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الزمان وبيع الخروف الكبير بعشرة أشرفية وشئ باثنى عشر فعد ذلك من النوادر الغريبة وسبب هذا أن الاشرفى الذهب العثمانى صار يصرف بخمسين نصفا من الفضة وأما المعاملة من الفضة فان غالبها نحاس وأكثرها غش فوقف حال الناس بسبب ذلك وصار الشئ يباع بمثلين وصار كل من البضائع وغيرها يباع باغلى الاثمان وموجب ذلك قلة البقر والاغنام فى هذه الايام وصارت الابقار تجلب الى دمشق وتباع هناك باغلى الاثمان فان الابقار التى بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الامير ناصر الدين محمد الحلبى المهمندار وتوجه الى نحو ثغر الاسكندرية بسبب تفقد الابراج التى هناك خوفا من الفرنج أن يطرقوا الثغر على حين غفلة وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح وقد طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم شاه ابن عثمان وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشامية وعلى يده مطالعة الى ملك الامراء فقال له ان كان معك مطالعات الامراء فاظهرها علينا فانكر الساعى ذلك فخنق منه ملك الامراء وضربه ضربا مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشئ من المطالعات وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع ان أمير شيخ الذى أرسله ملك الامراء الى السلطان سليمان ابن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى أبيه السلطان سليم شاه أنه رجع الى ثغر الاسكندرية وانه وجد البحر المالح قد امتلأ بمراكب

الفرنج فلم يستطع التوجه منه الى اسطنبول ورجع الى ثغر الاسكندرية وأرسل يعلم
ملك الامراء بما وقع له وفى يوم الاحد حادى عشريه نزل ملك الامراء الى الميدان الذى
تحت القلعة وعرض سنيحه وعرض العربات وهى العجلات التى صنعها وفرق على المماليك
سلاحور ماحا وغير ذلك ورسم لهم بان يعملوا برقهم بسبب ملاقاة نائب الشام الامير جان
بردى الغزالى ورسم للعسكر العثمانى أن يعملوا برقهم أيضا وفى يوم الاثنين ثانى عشريه
رسم ملك الامراء للمماليك الجراكسة بان يعملوا برقهم أيضا ويجهزوا أمورهم بسبب السفر
فتوجهوا الى سوق القبو وجامع قوصون واشتروا ما يحتاجون اليه بسبب السفر وأشيع
أن ملك الامراء أمر طائفة الاصباهية والكملية بأن يخرجوا الى الصالحية ويقيموا بها الى
أن يخرج العسكر فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج الا فى ركاب ملك الامراء اذا خرج
وان لم يخرج ما نخرج فوقع الخلف بينهما فى هذا الامر وكثر القال والقيل بين الناس وان
ملك الامراء أنفق على الانكشارية وأعوانهم ولم ينفق على الاصباهية ولا على الكملية
شيأ فحنقوا منه وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنوا على
أزقتها خوخا قصارا وقد أخذوا حذرهم من النهب وكذلك أعيان المباشرين وأن شخصا
من الامراء العشراوات يقال له جان قلج وهو الذى كان نائب قطيا حضر فى مجلس لهو فلما
سكر نقل عن ملك الامراء كلاما لم يقله فلما بلغ ملك الامراء ما قاله جان قلج رسم للامير
قايتباى الدوادار بان يدع جان قلج عنده فى الترسيم حتى يعرضه عليه ويحقق ما قاله عنه
فاستمر فى الترسيم عند الامير قايتباى وفيه أشيع أن ملك الامراء ملأ الصهاريج الكبار
التى بباب السلسلة وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل وأخذ فى تحصين القلعة بكل ما يمكن
وطلع الى القلعة باحمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك وأرسل طلب من ابن
قريميط المتحدث على شبرى خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحب المكاحل التى على
العجل والعربات وأشيع أن ملك الامراء طلب شيخ المغاربة وقال له احضر لى ألفى
مغربى من شجعان المغاربة وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جان بلاط لما تسلطن
العادل طومان باى بالشام ودخل هو وقصروه نائب الشام الى القاهرة وقد تقدم ذلك
فى الجزء الثانى وكان الاشرف جان بلاط حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ولم
يفده منه شئ وانكسر وأخذت منه قلعة الجبل فى خمسة أيام ثم قبض عليه ونفى الى ثغر
الاسكندرية وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه نودى فى القاهرة بان أولاد الناس ومن بمصر
من الاروام يطلعون الى القلعة للعرض بين يدى ملك الامراء فصار جماعة من خان الخليلى
من الطباخين ومن يعمل السراميج ومن يعمل السنبوسك يطلعون الى القلعة ويكتبون
أسماءهم فى الديوان ويسمون أنفسهم الكملية ويتزيون بزيهم وصار العسكر ملفقا من سائر

الطوائف والاجناس ففي سبيل الله خيار السبيل ثم ان طائفة الاصباهية والكملية تغلبوا
على ملك الامراء وقالوا نحن ما نخرج الى قتال نائب الشام الا برسوم من عند السلطان
سليمان ابن عثمان ونحن ما علينا الا حفظ درك القلعة والمدينة فان دخل الينا نائب الشام
حاربناه فوقع الخلف بين العسكر العثماني وبين ملك الامراء بسبب ذلك وكان من حين تولى
السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الامراء خلعة الاستمرار فطمع فيه كل أحد
بسبب ذلك وصارت الاخبار في كل يوم ترد على ملك الامراء بان جان بردى الغزالي نائب
الشام قد زحف وخرج من الشام في عسكر كثيف وقصد نحو الديار المصرية ومعه طائفة
كثيرة من الاكراد ومن عربان جبل نابلس ومن عربان بني عطاء وبني عطية وغير ذلك من
طوائف العربان وغيرهم من عساكر دمشق وفيه قدمت الاخبار بان عربان بني عطاء
وبني عطية اتفقوا مع عربان طائفة السوالم وكسروا طرابای بن قراجا شيخ عربان جبل
نابلس وكان ملك الامراء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس وأنعم عليهم
بمال له صورة على أنهم يلاقون جان بردى الغزالي ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة
وفيه قدمت الاخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية فهرب منهم
وأرسل يعلم ملك الامراء بذلك ليعين لهم تجريدة وفيه حضر شيخ العرب بيبرس بن
بقر وقابل ملك الامراء فخلع عليه وكان أشيع عصيانه وفيه عرض ملك الامراء من
بالسجون فاطلق منهم عشرين انسانا وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام
بذلك من ماله وفيه قبض ملك الامراء على شخص من الغلمان كان عند قان بردى نائب
قطيا الذي تسحب منها فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له أخبرني عن أحوال الغزالي
كيف تسلطن فقال ما عندي منه علم وكان أشيع عن ذلك الغلام أنه أتى من عند الغزالي
بمطالعات الى الامراء الذين بالقاهرة فلما أنكر الغلام ذلك حنق منه ملك الامراء ورسم
بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ومضى أمره وفي يوم الخميس خامس
عشريه حضر مبشر الحاج وأخبر أنه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء في سائر
الاصناف والبضائع ومات من الحجاج جماعة كثيرة وأشيع الثناء الجميل على أمير الحاج جانم
الكاشف وفيه قدم الخبر بان نائب الشام جان بردى الغزالي توجه الى حلب بمن معه من
العساكر وحاصر المدينة أشد المحاصرة وقد حاربه أهل حلب وتعصبوا عليه ولم يمكنوه من
أخذ المدينة وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب من استمرار الغلاء مع
قلة الامن والفتن القائمة في البلاد الشامية والحلبية وكثر القال والقيل بين الناس بسبب
جان بردى الغزالي فانه أشيع عنه أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك الاشرف ومن معظم
حوادث هذه السنة موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان فان موته كان من العجائب والغرائب

ولاسيما ماجرى منه فى حق أهل مصر من الفعائل الشنيعة مما تقدم ذكره ومن لطائف صنائع الله تعالى انه لم يقع فى هذه السنة طاعون ولا غيره فى البلاد الشامية ولا أعمال الديار المصرية انتهى ما أوردناه من أخبار سنة ست وعشرين وتسعمائة

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وتسعمائة فاستهل المحرم بيوم الاربعاء فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر والعام الجديد ثم عادوا الى دورهم وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى وعلى يده مراسيم شريفة فكان من مضمونها ان ملك الامراء خاير بك على عادته فى النيابة بالديار المصرية ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل يقول لملك الامراء انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالى وأرسل يقول لا تخرج تجريدة نحن نكفيك أمره وفيه قدمت الاخبار بان جاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب وحاصر المدينة انكسر ذلك الجاليش ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ورفعوا يد جماعة نائب الشام وقد انتدب الى محاربة جان بردى الغزالى شخص من عربان جبل نابلس يقال له جغيما شيخ عربان الكرك وفى رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الاتراك يقال له اياس قيل انه من مماليك الامير يشبك الدوادار رسم ملك الامراء بتوسيطه فوسط فى الرميلة وكان سبب ذلك انه كان فى مجلس لهو وحضر فى ذلك المجلس جماعة من الاصباهية فخلط اياس فى الكلام مع الاصباهية فى ذلك المجلس فقال بلغنى عن ملك الامراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام فلما حضر جماعة من الامراء العثمانية عند ملك الامراء قالوا له بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام فقال لهم ومن نقل عنى ذلك قالوا شخص من الاتراك يقال له اياس فأمر باحضاره فلما حضر قال له من قال لك عنى انى أقصد أن أتسلطن فقال له اياس أنا سمعت ذلك من العوام فقال له ملك الامراء أحضر لى من نقل عنى ذلك فانعقد لسان اياس وتوهم من ذلك واضطربت أحواله وصار لا يدرى ما يقول فأخذ الامير قايتباى الدوادار يرقع له خلله فطفش فيه ملك الامراء وكاد أن يفتك به ثم ان ملك الامراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة فوسطه بسوق الخيل وراح ظلما من غير ذنب يوجب عليه ذلك فان أكثر الناس كانوا يخلطون فى ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالى بالشام واستمر اياس مرميا فى الرميلة والكلاب تنهش جثته فى الليل ورسم أن لا أحد يدفنه وكان اياس شيخا مسنا وله أولاد وعيال ولكن اشتد غضب ملك الامراء عليه فى ذلك اليوم فعد ذلك من مساوى ملك الامراء وفى يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الامراء ما هو أشنع من ذلك وهو أنه رسم بتوسيط محمد بن شمس الدين محمد الفرنوى

وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه فانه كان مباشر وقف السلطان حسن فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية فكلم الفرنوى فى خلاص ذلك الفلاح فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فاغلظ عليه العثمانى فى القول وسبه فقال ابن الفرنوى عن قريب يحضر جان بردى الغزالى نائب الشام ويخرجون على ايشمه فطلع العثمانى وشكا الى ملك الامراء ما قاله فاحضر ابن الفرنوى وقال له كيف تقول عن قريب يحضر الغزالى ويتسلطن بمصر فأنكر ابن الفرنوى ذلك فأحضر العثمانى جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفرنوى بأنه قال ذلك فحنق منه ملك الامراء ورسم بتوسيطه فوسط فى الرميلة وراح ظلما كما وقع لاياس وكان ابن الفرنوى هذا من أعيان الناس امام الامير اقبردى الدوادار والامير يشبك اله وادار وفيه صار ملك الامراء يتصدق على الاطفال بالمكاتب قاطبة لكل طفل أربعة أنصاف فغرق مالا له صورة وصارت الاطفال يقرؤن له الفاتحة ويهدونها فى صحيفة ملك الامراء وصار يتصدق على الزوايا والمزارات التى بالقرافة ويتصدق على المجاورين بالجامع الازهر فقيل انه صرف من ماله فى هذه السنة نحو خمسمائة دينار وفيه عزل كاشف الشرقية اياس واستقر عوضه شخص من الاتراك يقال له جانى بك وقد تقدم أنه ولى كشف الشرقية قبل ذلك وفى يوم الخميس ثالث عشريه طرق ملك الامراء أخبار رديئة بان العربان قد زحفوا على قطيا وقد وصلوا الى الصالحية فتنكد ملك الامراء لذلك وعين لهم تجريدة فخرج اليهم طائفة من الاصباهية وطائفة من الكملية فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القال والقيل بسبب العربان وغيرهم وفى يوم الاحد سادس عشرى المحرم دخل الحجاج الى القاهرة مع الامن والسلامة صحبة الامير جانم أمير ركب المحمل ودخل قاضى المحمل الشيخ أبو الفتح فتح الدين الوفائى المالكى ودخل صحبته الشيخ شرف الدين يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى وكان السلطان سليم شاه قرره فى مشيخة الحرم النبوى فسعوا عليه فعزل واستقر بها الامير بكاى كما تقدم ذكر ذلك فلما عزل الشرفى يحيى بن البردينى عن مشيخة الحرم حضر صحبة الحاج وأشيع أن الحاج قاسى فى الرجعة غاية المشقة من الغلاء وموت الجمال وتعرضت لهم جماعة من العربان فتقاتلوا مع الامير جانم أمير الحاج فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة فرجع الحجاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم وأثنوا عليه بكل جميل وشالوا له الراية البيضاء فى بركة الحاج وفى شهر صفر وكان مستهله يوم الجمعة صعد القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفيه جاءت الاخبار بان الاصباهية والكملية الذين توجهوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ظهر منهم غاية الفساد وصاروا ينهبون الضياع التى حول بلبيس والصالحية ويأخذون ما فيها من الدجاج والاوز والشعير والتبن

فضج أهل الضياع من ذلك فأتى الفلاحون وشكوا الى ملك الامراء أن التركمان نهبوا مغلهم وفسقوا بنسائهم وبناتهم فلما بلغ ملك الامراء ذلك أرسل خلف الاصباهية والكملية فحضروا الى القاهرة ولم يحصل بهم نفع وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت وكان من جملة تجار الوراقين وله شهرة وهو فى سعة من المال فقتل من غير ذنب يوجب ذلك وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هنالك فانزلوها الى البحر قدامه ثم رجع وشق من القاهرة وارتفعت له الاصوات بالدعاء وكان يوما مشهودا وفيه خرج الامير جان بك أخو الامير قايتباى الدوادار فتوجه من البحر وسافر نحو البلاد الشامية ليكشف أخبار نائب الشام جان بردى الغزالى وغير ذلك من الاشغال السلطانية وفيه انقطعت الاخبار من البلاد الشامية وامتنعت القوافل والمسافرون من الدرب السلطانى وانكتمت أخبار نائب الشام جان بردى الغزالى واستمر على ذلك ثلاثة أشهر وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ومنع القوافل وجلب البضائع من البلاد الشامية واستهل شهر ربيع الاول بيوم السبت فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الثلاثاء رابعه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى بركة الحبش والبريم فأقام هنالك الى ما بعد الظهر فارسل القاضى بركات بن موسى المحتسب خمسة جمال ما بين خرفان شوى وحلوى وفاكهة وغير ذلك من مجامع ضمنها مأمونية وسنبوسك بسكر وغير ذلك أشياء فاخرة ثم ان ملك الامراء نزل من هنالك فى الحراقة وتوجه الى الروضة وكشف على المراكب التى عمرها هنالك ثم شق من البحر وطلع من عند قصر ابن العينى وتوجه من هنالك الى القلعة فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ومن الوقائع اللطيفة ما وقع فى يوم الاحد تاسع الشهر وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد الاوجاقى ويعرف أيضا بالشرابى وشخص يقال له محمد بن سرية فوقع بينهما رهان فى فن الموسيقى فقال محمد بن سرية أنا أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر قط فقال محمد الاوجاقى ان كان حقا ما تدعيه فنجمع مشايخ أرباب الفن ونجمع مغانى البلد قاطبة ويكون ذلك يوم الاحد فى وسط بركة الرطلى وكان ذلك فى زمن الربيع فلما كان يوم الاحد يوم الميعاد حضر جماعة من أرباب الفن وحضر مغانى البلد قاطبة وأتوا الى بركة الرطلى فجلسوا فى وسطها واجتمع هنالك الجم الكثير من المتفرجين وكان ذلك اليوم مشهودا فغنى كل واحد من المغنين فى ذلك اليوم نوبة من أحسن ما عنده من الغناء وابتهج الناس فى ذلك اليوم غاية البهجة وأما محمد بن سرية فانه احتج بأنه ضعيف ولم يحضر وقال الرهان باق الى يوم الاحد الثانى فظهر عليه العجز ولم يف بما ادعاه مما تقدم فكان كما قيل

كل من يدعى بما ليس فيه * كذبته شواهد الامتحان

فانفض ذلك الجمع وعدّ ذلك اليوم من النوادر فى الفرجة والقصف وفى يوم الاثنين عاشره أشيع أن قاصدا حضر من عند السلطان سليمان وعلى يده خلعة الاستمرار الى ملك الامراء فحضر القاصد وصحبته الامير شيخ والامير على المحضر وبرسباى استادار الصحبة مملوك ملك الامراء الذى كان أرسله الى السلطان سليمان بن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى موت أبيه السلطان سليم شاه فلما حضر طلعوا الى القلعة ومعهم مرسوم مختوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان فاجتمع بالقلعة الامراء العثمانية والامراء الجراكسة وقرئ عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الامراء انه فوّض اليه نيابة مصر وما معها من الثغور والاعمال يعزل من يعزل ويولى من يولى ولم يرسل اليه خلعة الاستمرار فعز ذلك على ملك الامراء وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس وفى يوم الثلاثاء حادى عشره كان المولد الشريف النبوى بالقلعة على حكم ما ذكرناه فى السنة الماضية وفى يوم الخميس ثالث عشره نودى فى القاهرة عن لسان ملك الامراء خاير بك بأن من كان له حاجة الى الشام أو غزة يتوجه الى هنالك فان الدرب السلطانى قد انفتح وكان الدرب السلطانى له نحو أربعة أشهر لم يسلك ولم تجى منه القوافل حتى عزت البضائع التى كانت تجلب من هنالك وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالى وأشيع ان جماعة من العربان أو قعوا مع جان بردى الغزالى وانكسر منهم وهرب فقصد ملك الامراء أن يعلم الناس بان الدرب قد انفتح وسلك وفيه خلع ملك الامراء على قراموسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره فى نيابة غزة فخرج اليها فى يوم الخميس وسافر وفيه قدمت الاخبار من الشام بأن السلطان سليمان بن عثمان أرسل الى نائب الشام جان بردى الغزالى عساكر عظيمة وصحبتهم ابن سوار فاوقعوا مع الغزالى فى ثانى عشرى صفر وكان بين الفريقين واقعة مهولة على حلب فانكسر منهم وهرب الى حماة فتبعوه واقتتلوا معه ففرّ منهم وهرب وقصد التوجه الى الشام وقطع قناطر الرستن فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق فقتل فى تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان وقيل أكثر من ذلك ما بين عربان ومماليك وجماعة من عوام الشام وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبى وحرق ضياع وما أبقوا فى ذلك ممكنا وليس الخبر كالعيان والذى قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر وآخر الامر انكسر نائب الشام الغزالى كسرة مهولة وقبض عليه وقتل وحزّت رأسه وأرسلت الى اسطنبول مع رؤس جماعة من أصحاب الغزالى ممن كان من عصبته ونهب وطاقه وبركه عن آخره وكانت

من

من الوقائع العظيمة التى لم يسمع بمثلها وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما وزال كأنه لم يكن وكان الغزالى عنده رهج وخفة زائدة أهوج الطبع ليس له رأى سديد رهاج فى الامور ليس له تأمل وكان ولى نيابة الشام وهو فى غاية العظمة والحرمة الوافرة والكلمة النافذة وقد أصلح الجهات الشامية فى أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء كما يقال فى المعنى

يا أيها الملك الذى سطواته * فى البيد يخشى ذئبها من شاتها

ولما كان بالشام التف عليه الجم الكثير من العساكر ما بين عربان جبل نابلس والكرك وغير ذلك والتف عليه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وصار يخرجون من مصر فى الخفية ويتوجهون اليه والتف عليه طائفة من الاكراد والتركمان حتى اجتمع عليه اثنا عشر ألف مقاتل وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام وقيل أكثر من ذلك فعند ذلك حدثته نفسه بالسلطنة وثورته الجهلة فتسلطن وتلقب بالملك الاشرف وقبلوا له الارض هنالك وخطب باسمه على المنابر فى جمعتين بدمشق وكل ذلك عين الغلط منه وكم من عجلة أعقبت ندامة فكان كما قيل فى المعنى

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة * حتى تروم التى من دونها العطب

ولما تحقق ملك الامراء أن الغزالى قد تسلطن بالشام وقبلوا له الارض هنالك اضطربت أحواله وسرت المماليك الجراكسة بذلك واستبشروا بالفرج وبالفرحة ما تمت (أقول) وكان أصل جان بردى الغزالى من مماليك الاشرف قايتباى اشتراه وأعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية ثم ان الامير تغرى بردى الاستادار قرره شادا فى ضيعة بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب اليها وقيل له الغزالى مضافا الاسم تلك الضيعة ثم ان الاشرف قايتباى جعله جمدارا وقرره فى كشف الشرقية ثم بقى أمير عشرة فى أواخر دولة الناصر محمد بن قايتباى ثم بقى محتسب القاهرة فى دولة السلطان الغورى ثم قرره فى حجوبية الحجاب بحلب فخرج اليها من يومه وذلك بعد واقعة مصرباى لما انكسر ثم ان الغورى نقله من حجوبية الحجاب بحلب الى نيابة صفد وذلك فى سنة سبع عشرة وتسعمائة ثم نقله من نيابة صفد الى نيابة حماه الى أن توجه السلطان الغورى الى حلب وانكسر وجرى له ما جرى فرجع الغزالى صحبة العسكر الى مصر فوجد الاشرف طومان باى قد تسلطن عوضا عن الغورى فاستقر بالغزالى نائب الشام وقد تقدم القول على ذلك فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر أقره على عادته فى نيابة الشام وجعل له التحدث على الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الاعمال الشامية والطرابلسية فلو قنع بذلك لكان خيرا له فكان كما يقال فى الامثال السائرة

من شرب بكأس الطمع شرق به وفى يوم الاحد ثالث عشريه قدمت الاخبار بانه وصل قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان فلما تحقق ملك الامراء ذلك نزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى وبات بها الاجل ملاقاة القاصد الذى حضر وكان ملك الامراء أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب الى الخانكاه ليمد له مدة هنالك فلما كان يوم الاثنين رابع عشريه نادى ملك الامراء فى القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد فزينت زينة حافله فلما دخل القاصد لاقاه ملك الامراء من هنالك ودخل هو واياه من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه العسكر قاطبة من الجراكسة والعثمانية وقدامه جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط ودخل قدامه عشرة رؤس على رماح زعموا انها رؤس مشايخ عربان ممن كان من عصبة نائب الشام جان بردى الغزالى فشق من القاهرة هو والقاصد وكان يوما مشهودا وفى يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر من عند السلطان سليمان ابن عثمان وأشيع أنه أتى الى ملك الامراء بخلعة الاستمرار فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الامراء ولاقاه من هنالك فجلس على المصطبة التى هنالك فألبسه القاصد الخلعة وهى قفطان مخمل أحمر بتماسيح مذهب ثم قام من هنالك هو والقاصد ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل أعظم من الموكب المقدم ذكره وركب قدامه قضاة القضاة الاربعة وهم كمال الدين الطويل الشافعى وعلاء الدين على الطرابلسى الحنفى ومحيى الدين يحيى الدميرى المالكى والشهابى أحمد الفتوحى الحنبلى وركب قدامه الامراء الجراكسة قاطبة والامراء العثمانية ومشت قدامه الانكشارية والكملية وهم يرمون بالنفوط ومشت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة وكانت القاهرة مزينة فى قوة الزينة وعلقوا له أحمالا وتريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ولاسيما مافعله تجار الوراقين من الشموع الموكبيات الكبار وأطلقوا له المجامر بالعود القمارى ومرشات المياورد المسك ثم ان جماعة من التجار نثروا على رأسه الفضة فى عدة أماكن من المدينة وارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من كل جانب من البيوت والدكاكين وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان مسرور واستمر فى هذا الموكب الحفل حتى طلع الى القلعة وعليه خلعة الاستمرار من عند السلطان سليمان ابن عثمان وهى بتماسيح مذهب على مخمل أحمر وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجة والقصف فلما طلع الى القلعة خلع على الامير قايتباى الدوادار قفطانا مخملا ونزل الى منزله ثم نادى للناس بفك الزينة وقد أقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة من وقيد وقناديل ومشترى زيت وحصل فى هذه الزينة من التركمان غاية الفساد من

خطف النساء والصبيان المرد والتجاهر بالمعاصي ليلا ونهارا حتى خرجوا في ذلك عن الحد ولاسيما ما كان يفعل في خان الخليلي من الفسق وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة وفي هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصري محمد بن قانصوه بن صادق يمدح السلطان سليمان ابن سليم شاه ابن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال

الحمد لله أضحى الملك مبتسما * من بعدما كان أبدى وجهه كظما
وكيف لا يبك يبدي وجهه كظما * على سليم وقد أضحى يرى رمما
وصار بعد سليم لابنه وغدا * من السرور به بالبشر مبتسما
وافتر عن شنب الفتح المبين فم * النصر العزيز له بالسعد فيه لما
قد قطعت أرؤس الاعداء مخزية * وسيفه لمئت منه البطاح دما
وكيف لا وسليمان مدبره * بخاتم الملك منه مذبه اختتما
وصار من كعبه فينا الغلاء رخا * والخوف أمنا بنا والنور زال عما
والنيل قد زاد في هاتور من فرح * به وروى أراضي مصر بعد ظما
وكان أبطا التوت بالوفا حزنا * على سليم وما روى البلاد بما
ومصر من فرح في زينة رقصت * لما رأت لرخاها كعبه علما
وأصبحت جنة من سعد خيربك * بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما
وكيف لا وهو خير قد أحل بها * لو لم يكن هو خير قط ما حكما
يا أيها الملك الممدوح دم فرحا * وانظر لقصد عبيد يشتكي ألما
فأنت بالطب أدرى من سوالذبه * ومن سوالذ يرى في حكمه حكما
لازلت من ابن قانصوه الوفي ترى * مشنفا بمديح مبدع حكما
والجود كالجود يهمى منك من خلع * نيابة عن سليمان له حكما
وموكب الملك يبديه وأنت به * كما رأينا بمصر والسرور غما
وأنت في فرح تبدو وفي فرح * والملك مبتسم منه ترى نعما
وكوكب السعد يسري في سماشرف * عليك في سائر الاوقات محتكما
وقائلا حامدا مذ صار مبتسما * الحمد لله أضحى الملك مبتسما

انتهى ذلك وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير وكان كثير الحوادث ووقع فيه أمور غريبة وأحوال عجيبة ولاسيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن العظيمة من القتل والنهب وحرق الضياع وذهاب الغلال وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى الغزالي واظهاره للسلطنة ووقع مثل ذلك بحماه وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية واستهل شهر ربيع الآخر يوم الاحد ففي ذلك اليوم بلغ ملك الامراء قدوم قاصدوهو

الثانى من عند السلطان سليمان ابن عثمان قد وصل وعلى يده خلعة ثانية لملك الامراء وهذا القاصد يقال له الامير على فلما تحقق ملك الامراء وصوله نزل اليه من القلعة ولاقاه من عند تربة العادلى ولبس الخلعة هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وصحبته الامير على الذى حضر ولم يكن صحبته من القضاة سوى قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى بن الدميرى وكان هذا الموكب على حكم الموكب الذى تقدم ذكره ومن العجائب أن ملك الامراء أوكب ثلاثة مواكب حافلة وشق من القاهرة ثلاث مرات فى مدة سبعة أيام فعد ذلك من النوادر الغريبة وفى يوم الاثنين ثانى هذا الشهر خرج الامير قرا موسى العثمانى الذى قرر فى نيابة غزة فخرج من بين التربة ولم يشق من القاهرة وخرج صحبته الجم الكثير من الاصباهية ومن التجار فان الدرب السلطانى كان له مدة طويلة وهو منقطع من السالك من حين جرى من الغزالى ما جرى الى أن أشيع قتله وفى يوم الاثنين تاسعه كانت وفاة صاحبنا القاضى محب الدين بن أصيل وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت وكان قد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة وحصل له شدائد ومحن ومات وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة الجمالية عنه الى الشيخ زكريا وقد تقدم القول على ذلك وفى يوم الاربعاء حادى عشره توجه ملك الامراء الى قبة الامير يشبك الدوادار التى بالمطرية على سبيل التنزه فصنع له المقر الشهابى أحمد بن الجيعان هناك مادة حافلة وكذلك الخواجا هاشم ناظر المارستان وما أبقى فى ذلك ممكنا ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الامراء فى يوم السبت رابع عشره رسم بقطع ثلاث رؤس من أعيان المماليك الجراكسة فقطع رؤسهم فى ذلك اليوم تحت شباك الدهيشة وأشهر تلك الرؤس على الرماح ثم علقها على باب زويلة فمنهم شخص يسمى ماماى الساقى وشخص يسمى قان بك الاشقر وهم من مماليك السلطان الغورى وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا بالقاهرة وكان ملك الامراء يحسن اليهم غاية الاحسان فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب الشام أنه تسلطن هناك وتلقب بالملك الاشرف تسحب هؤلاء المماليك من مصر وتوجهوا الى الشام ودخلوا تحت طاعة الغزالى فلما انكسر الغزالى وقتل وجرى له ما جرى حضر هؤلاء المماليك واختفوا فى القاهرة فغمز عليهم فلما بلغ ملك الامراء ذلك أرسل الوالى فقبض عليهم وأحضرهم بين يديه فلما مثلوا بين يديه وبخهم بالكلام فأغلظ عليه فى القول ماماى الساقى فخنق منه فرسم بقطع رقابهم بين يديه ورسم للوالى بان كل من كان عند الغزالى من المماليك وحضر الى مصر يوسطه من غير اذن ولو كان من الامراء واشتد غضب ملك الامراء فى ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم الفراش وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام وأشيع أنه قد طلع له تسالیك فى مشعره واشتد الالم عليه وانقطع عن الخروج وصار يتصدق على الزوايا

والمزارات بمال له صورة وصار يذبح الذبائح من الابقار على أبواب الجوامع الكبار ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع والزوايا وفي يوم الثلاثاء سابع عشره نودي بالقاهرة عن لسان ملك الامراء معاشر كافة الناس ان كل من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ممن كان عند الغزالي نائب الشام وأخفاه ولم يقربه يشنق على باب داره من غير معاودة وصارت هذه المناداة تتكرر في كل يوم ثلاث مرات نحو ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية اثنان بالتركي واثنان بالعربي وقد اضطربت الاحوال في هذه الايام الى الغاية بسبب جان بردي الغزالي نائب الشام فمن الناس من يقول انه باق في قيد الحياة وأن الرأس التي قطعت غير رأسه ومن الناس من يقول انه قتل في الواقعة التي كانت على القابون وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول والاصح أنه قتل على القابون وهي ضيعة من الشام وهذه الواقعة تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس في قتله وفي يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر كانت وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ابن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله وكان مولده سنة احدى وخمسين وثمانمائة وأمه تسمى آمنة وهي ابنة أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله فهو هاشمي الابوين وكان رئيسا حشمادينا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ولي الخلافة في دولة الملك الناصر محمد بن قايتباي الاشرف وأقام فيها احدى عشرة سنة ونصفا وبايع أربعة من السلاطين ثم صرف عن الخلافة في دولة الاشرف الغوري وعهد الى ولده محمد المتوكل على الله وقاسى شدائد ومحنا وقد تقدم ذكر ذلك وحصل له ضعف في بصره وكان لا يقرأ ولا يكتب وكان رجلا مباركا لم يعهد له صبوة قط ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة أو دون ذلك وكان ولده غائبا باسطنبول من حين نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ولما مات رثاه الاديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق بهذه المرثية فقال

رشق الموت في مرامي القلوب * من قسي الجوى سهام الكروب
يالها من سهام كرب عظيم * في مرامي الحشا برمي مصيب
صيرت دورنا خرابا وصرنا * بعد عز أذلة للخطوب
يالها من مذلة بعد عز * صيرتنا من عظمها في لغوب
أين خير الانام والآل والصحـ * ـب وأين الملوك أهل الحروب
قد قضى الله بالممات عليهم * مثل ما قد قضى على يعقوب
الذي كف من فراق مناه * وتلقى البلاء عن أيوب
غاب عنه ابنه فمات بحزن * كمدا من يطيق فقد الحبيب
ابن عبد العزيز أعني أمير المـ * ـؤمنين النجيب وابن النجيب

صاحب العهد والخلافة والعقـ * ـدمع الحل واللوا والقضيب
قلت صبرا على الذى حل لما * قد أشان فى ذا الزمان العجيب
هاشمى أباوأما وهـذا * غاية المجد للحسيب النسيب
الذى كان للارامل والايـ * ـتام كفؤا وكان مأوى الغريب
يا يتامى ويا أرامل ضجوا * واهطلوا عينكم بدمع سكوب
واسألوا الله أن يسكنه الفر * دوس فضلا فالله خير مجيب
والى مصر أن يجىء قريبا * ابنه فى هنا وعيش خصيب
صير الله روح والده فى * خير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهذا * ان يمت مثله بأوفى نصيب
وكذا قانصوه أبوه امتنانا * منه ماصاح ذو بكا ونحيب
قائلا والعيون تجرى عيونا * رشق الموت فى مرامى القلوب

ولما توفى الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الامراء أن ينزل من القلعة ويصلى عليه فانه كان فى غاية الضرر من تلك التساليك التى طلعت له فى مشعره فحضر مشهد الخليفة يعقوب قضاة القضاة وبعض الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشهد النفيسى رحمة الله عليه ودفن يوم الجمعة عشريه وتوفى بزدداره الحاج على فى ذلك اليوم ودفن عقيب دفن أستاذه يعقوب وفى يوم السبت حادى عشريه خرج الامير قاسم العثمانى كزلك الذى حضر صحبة الاصباهية فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانية الذين كانوا بمصر فاختاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التى جاءت الى ملك الامراء من عند السلطان سليمان ابن عثمان وفيه حضر الى الديار المصرية القاضى بدر الدين محمد المسعودى ابن الوقاد وكان توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الاسارى فأقام فى اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان فاستأذن الوزراء فى الحضور الى مصر لتفقد أحواله ثم يعود الى اسطنبول فأذنوا له فى ذلك فحضر الى مصر وهو فى الترسيم بشاويش مرسم عليه وحضر صحبته كمال الدين بزدار الامير طراباى وكمال الدين العائق وكريم الدين المجولى ويوسف مناخير وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ومحمد بن فارس فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة فلما انقضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش استحثهم على الخروج والسفر الى اسطنبول فلما كانت ليلة الرحيل اختفى القاضى بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسما عليهم وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الامراء حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الامراء فى هذه الحركة ألف دينار فى الخفية وصار ملك الامراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد

فى طلبه ورسم على أصحابه وجيرانه وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته انه محث فى طلبه والامر بخلاف ذلك ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزدار طرابای وعلى كمال الدين العائق ويوسف مناخير وبدر العادلى ووضعهم فى الحديد وأخرجهم من مصر على أقبح وجه وسافروا من البحر الى اسطنبول وقاسوا شدائد ومحنا وفيه توفى المعلم عبد الرحمن بن طبيلة المعامل فى الدجاج والاوز وكان علامة عصره فى هذا الفن وكان فى سعة من المال لا بأس به وله بر ومعروف وفى يوم الاثنين ثالث عشريه كان عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين وكان ذلك اليوم رطبا وفى السماء غيم وهذا فأل للنيل بأن يكون فى تلك السنة عاليا جدا فى الزيادة وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه حضر أولاقى من عند السلطان سليمان ابن عثمان وعلى يده مراسيم تتضمن أن كزلبك قاسم الذى حضر وعلى يده خلعة الاستمرار لملك الامراء يستقر فى نيابة حلب عوضا عمن كان بها وقيل ان كزلبك هذا رضع مع السلطان سليم شاه وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان فكزلبك هذا قرر فى نيابة حلب وشخص آخر يقال له اياس فى نيابة الشام عوضا عن الغزالى وقرر فرحات بك فى نيابة طرابلس وقرر قراموسى فى نيابة غزة وقد اقتسم العثمانية النيابات التى كانت بيد أعيان المماليك المصرية وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن نابتة الحنفى وكان لا بأس به ولم يظهر القاضى بدر الدين بن الوقاد ولا كريم الدين المجولى فلما طال الامر على الشاويش الذى كان توكل بهما تقلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزدار الامير طرابای وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور والخواجا عمر بن معزوز المغربى وزين العابدين حامل المزرة وبدر العادلى وحسين ويوسف مناخير فخرجوا من القاهرة على أقبح وجه من الشاويش الذى رسم عليهم فوضعهم فى الحديد وكتف بعضهم بالحبال وساقهم مشاة قدامه حتى وصلوا الى بولاق فأنزلهم فى المراكب وسافروا نحو اسطنبول وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش وقد رحق من ابن الوقاد والمجولى وحط غبنه فى هؤلاء ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولى وزين الدين المجمى شفع فيه ملك الامراء من التوجه الى اسطنبول وفيه أرسل الامير على بن عمر شيخ جهات الصعيد تقدمة حافلة للسلطان سليمان ابن عثمان قيل انها اقومت بستين ألف دينار وكان السلطان سليمان ابن عثمان أرسل الى الامير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد وقد رأى الامير على بن عمر فى دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه من العز والعظمة والمال والجاه انتهى ذلك واستهل شهر جمادى الاولى يوم الثلاثاء فطلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم ولما طلعوا الى ملك الامراء وجدوه بالاشرفية التى بجوار الدهيشة فقام اليهم وكان له مدة

وهو متوعك فى جسده بسبب طلوع التساليك التى فى مشعره وقد أشرف على الشفاء وبرئ من ذلك العارض وفى ذلك يقول ابن قانصوه

الحمد لله ثغور الهنا * سرورنا منها أرتنا شفاه
لما الى نائبنا شاهدت * فابتسمت من فرح عن شفاه

وفى يوم الثلاثاء ثامنه ركب ملك الامراء ونزل من القلعة وقد شفى من ذلك العارض الذى كان قد اعتراه فلما نزل من القلعة توجه الى بيت الامير فرحات بك الذى قرر فى نيابة طرابلس فنزل اليه وودعه وأقام عنده الى قريب الظهر ثم عاد الى القلعة وشق من الصليبة وقد امه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط وقد هنأه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله

الحمد لله زال الهم والالم * عنا لبرئك والاعداء الهاسقم
وقلعة الملك أضحى وجهها طلقا * من بعد ما كان فيه قد بدا الكظم
وأصبحت مصر بعد الحزن فى فرح * بكم وأمست بثغر البشر تبتسم
وقد غدت بلسان الحال قائلة * الحمد لله زال الهم والألم

وفى يوم الجمعة حادى عشره قدم الامير جانى بك وهو أخو الامير قايتباى الدوادار وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشامية وأرسل ملك الامراء على يده تقدمة حافلة الى الامير اياس العثمانى الذى استقر فى نيابة الشام عوضا عن جان بردى الغزالى فلما قابل ملك الامراء خلع عليه ونزل الى منزله وهو فى غاية التعظيم وفى يوم الجمعة المقدم ذكره خرج ملك الامراء وصلى صلاة الجمعة وكان له مدة وهو منقطع لم يصل الجمعة فى جامع القلعة فلما خرج من الصلاة خلع على المزينين والحكماء وقيل دخل على المزينين والحكماء ألف وخمسمائة دينار من نساء ملك الامراء ومن سراريه ومن الامير جانم الحمزاوى ومن الامير برسباى الخازندار والمهمندارو المباشرين وأرباب الدولة قاطبة ومن الامراء العثمانية وغير ذلك من أعيان الناس وفى يوم السبت ثانى عشره خلع ملك الامراء على الامير جانم الحمزاوى وخلع على الامير جانم كاشف الفيوم وقرره فى امرية الحاج على عادته وخلع على الامير واصل بن الاحدب شيخ جهات الصعيد وقرره على عادته فى مشيخته وفيه قدمت الاخبار بأن الامير فرحات الذى عين فى نيابة طرابلس لما وصل الى الصالحية وجد العربان هناك مفتتنة فأرسل يطلب من ملك الامراء نجدة فان العربان قد ثاروا عليه فى الطريق وكادوا يقتلونه فأرسل اليه جماعة من الكملية والاصباهية بسرعة على الفور حتى أدركوه واستمروا معه الى طرابلس وكانت العربان فى هذه الايام فى غاية الفساد فى البلاد الشامية من عربان بنى عطاء وبنى عطية وفى يوم الاحد عشريه توفى القاضى بدر الدين محمد المعروف بابن العبسى ناظر

ديوان الاحباس وكان رئيسا حشما حسن السيرة وكان لا بأس به وفي يوم الخميس رابع عشريه وقع أن ملك الامراء تغير خاطره على شخص من الخدام يقال له مثقال فقطع أنفه وأذنيه ورسم بنفيه الى مكة فنزل من القلعة والدم يقطر من أنفه وأذنيه ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك وفيه حضر جماعة كثيرة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخذهم من مصر فلما مات السلطان سليم شاه ابن عثمان واستقر سليمان ولده بعده رسم بعود الاسرى قاطبة الى بلادهم ورأف بهم وأظهر العدل فيهم فحضر منهم جماعة في هذا الشهر منهم شهاب الدين أحمد بن قريميط ومحيي الدين وزين الدين بن بهاء الدين أحد كتاب المماليك والخواجا أبو الطيب بن الرئيس يحيى المزين وعبد الحفيظ بن الفار تاجر بالهرامزة وأبو الفضل ابن بركات السمسار في البعلبكي وتاج الدين بن ابراهيم ابن القاضي سالم وبدر الدين محمد مباشر الامير انسباي حاجب الحجاب وآخرون لم تحضرني أسماؤهم الآن وفي يوم الاثنين ثامن عشريه ظهر كريم الدين المجولي وبدر الدين السعودي ابن الوقاد وقد تقدم القول في سبب اختفائهما من الشاويش الذي كان مترسما عليهما وحشهما على الخروج الى الاسطنبول وفي شهر جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الاربعاء طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفي يوم الخميس ثاني الشهر خرج الامير جانم الحزاوي وقصد التوجه الى اسطنبول وكان ملك الامراء عينه الى السفر الى السلطان سليمان بتقدمة كما كان يرسله الى والده سليم شاه وقيل ان هذه التقدمة التي أرسلت على يد الامير جانم الحزاوي قومت بمائتي ألف دينار أو فوق ذلك فخرج الامير جانم الحزاوي في موكب حافل ولم يشق من القاهرة بل خرج من التربة وكان الامير جانم الحزاوي يومئذ من أرباب الحل والعقد بالديار المصرية واجتمعت فيه الكلمة ورأى من العز والعظمة في دولة ملك الامراء خاير بك ما لم يره غيره من الامراء وأشيع أن ملك الامراء رسم لكريم الدين المجولي بان يسافر الى اسطنبول صحبة الامير جانم الحزاوي وأما القاضي بدر الدين السعودي بن الوقاد فاشيع أنه قدم لملك الامراء ألف دينار حتى أقام بمصر وكاتب عنه ملك الامراء بأنه لا يستطيع السفر الى اسطنبول وفيه قدم الشيخ شمس الدين محمد السمديسي الحنفي الذي كان ولي قضاء الحنفية في دولة الغوري بحلب وكان السلطان سليم شاه ابن عثمان لما انكسر الغوري ومات بحلب وملك سليم شاه حلب قبض على السمديسي وأرسله من هناك الى اسطنبول فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان بعود الاسرى الى بلادهم فحضر السمديسي مع جملة من حضر الى مصر وحضر صحبته محب الدين الحنبلي الذي كان مقيما بالخانقاه الشيخونية وحضر أبو الفوز بن الحمصاني وأفضل الدين موقع السلطان طومان باي وحضر شمس الدين محمد المقسمي أحد نواب الشافعية فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط

وفيه دخل الامير جانم الحمزاوى من الخانكاه وسافر وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الحولى مهتار السلطان الغورى وحضر من التجار ابن أبى عوانة البراسى وآخرون وفيه استقر فى نيابة جدة شخص من تجار الاروام يقال له عيسى قراقرز فى نيابة جدة عوضا عن حسين الذى كان بها وفى هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن ابراهيم الشرابيشى الذى كان متحدثا فى أوقاف الزمامية وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول فى الخفية فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن عثمان عن الاسرى الذين كانوا باسطنبول وفى يوم الاربعاء خامس عشره توفى القاضى محيى الدين النبراوى أحد نواب الحنابلة وكان عالما فاضلا علامة فى مذهبه مات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها وهو آخر نواب الحنابلة ممن ولى عن قاضى القضاة عز الدين العسقلانى وكان لا بأس به وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمد المنوفى صاحب ملك الامراء وكان لا بأس به وكان له فيه اعتقاد عظيم بالصلاح وفيه توفى الشيخ عبد الصمد خطيب المدرسة الجيعانية وكان لا بأس به ۞ ومن الحوادث أنه فى يوم الجمعة سابع عشره ثارت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية وغلقوا باب القلعة ومنعوا القاضى الشافعى أن يطلع القلعة ويصلى بملك الامراء صلاة الجمعة واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة ويقتتلون مع الاصباهية فى الرميلة ويطردونهم الى الصليبة فقتل من الاصباهية شخص من أعيانهم فلما تزايد الامر دخل بينهم أغواتهم والكيخية الكبير فأصلحوا بينهما فاصطلحا على فساد وخمدت هذه الفتنة ولله الحمد وفيه قدمت الاخبار بان عربان الشرقية قد خرجوا عن الطاعة وأظهروا العصيان ونهبوا الضياع فعند ذلك عين ملك الامراء قايتباى الدوادار وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة بأن يخرجوا الى العربان ويحاربوهم فخرج الامير قايتباى من يومه على جرائد الخيل ويتوجه الى بلبيس وأقام بها ثم أشيع أن الامير قايتباى قد وقع بينه وبين شيخ العرب يبرس بن بقر واقعة وكبس عليه تحت الليل فهرب منه وأظهر العصيان فتوجه الى نحو الطور وأقام به فلما أظهر العصيان يبرس بن بقر اضطربت أحوال الشرقية الى الغاية حتى أشيع أن ملك الامراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان والخروج عن الطاعة منهم بنو عطية وبنو عطاء وبنو حرام وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين ثم ان ملك الامراء خلع على الامير أحمد بن بقر واستقر به فى مشيخة الشرقية عوضا عن أبيه يبرس وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الخميس اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر فتفاءل الناس بان النيل سيكون فى تلك السنة عاليا مباركا فى أوله طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الاحد رابعه قبض ملك

الامراء

الامراء على شخص من الاصباهية قتل شخصا من المماليك السلطانية فى محل سكر فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة فربطوه فى ذنب اكديش وهو على ظهره ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة وشنقوه ومضى أمره وفيه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية وأقام هناك الى قريب الظهر ثم عاد الى القلعة وكان له مدة لم يتنزه فى الروضة ولا غيرها من المتنزهات وسبب ذلك العارض الذى طلع له ولم يختم الى الآن وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هنالك من أهل مصر وأشيع أن السلطان سليمان نادى فى اسطنبول بأن الجماعة الاسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد وكل من تأخر منهم شنق فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدى على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الاشرف اينال وابن السلطان الغورى والناصرى محمد بن خاص بك ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان وعبد القادر بن الملكى وعبد الكريم أخى الشهابى أحمد بن الجيعان وآخرين من أعيان الديار المصرية فحضر من جملة من حضر من اسطنبول القاضى شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية وحضر القاضى شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية وولى أمانة الحكم أيضا ۞ ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة حصل له توعك فى جسده فى مدة اقامته فى البحر المالح فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه فكان ترابه بمصر وحضر زين الدين المتوفى الموقع وابن عمه أفضل الدين وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيشة وحضر عبد العزيز السمسار فى البهار وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر وحضر القاضى شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص وحضر الخواجا أبو بكر الهاشمى وحضر عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه وولده زين الدين وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد وحضر ابن السيرجى وغير ذلك وفيه قدم شخص من الامراء العثمانية يقال له نصوح بك فلما بلغ ملك الامراء قدومه نزل اليه ولاقاه من عند تربة العادلى ودخل صحبته وشق من القاهرة وهو راكب عن يمينه فانزله فى بيت الامير ازدمر الدوادار ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم واوز وسكر ودقيق وغير ذلك وأشيع أنه يقيم بمصر عوضا عن فرحات الذى قرر فى نيابة جاه وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل اليه ملك الامراء وأنعم عليه بخمسة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته وفى يوم الخميس خامس عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فجاءت القاعدة ستة أذرع وثمانية أصابع وفى يوم الجمعة سادس عشره حضر الامير قايتباى الدوادار من الشرقية وقد تقدم القول على انه توجه الى الشرقية بسبب

العربان وفسادهم وعصيان بيبرس بن بقر فلما رحلوا الى الطور رجع الامير قايتباى الدوادار
الى القاهرة وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب صحبته فانه كان توجه الى الشرقية
أيضا وفيه توجه ملك الامراء الى الجزيرة الوسطى وسبب ذلك أن الامير تمم الناظر على
وقف الدشيشة كان قد صنع هنالك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيشة وكان طولها مائة
وعشرين ذراعا وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ومقعد ومبيت واسطبل للخيل
فعرضها على ملك الامراء ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ومن هناك
يرسلها الى البحر المالح فلما نزل اليه ملك الامراء مدله مادة حافلة وأقام عنده الى قريب
الظهر ثم عاد الى القلعة وفيه قدمت الاخبار من دمشق بأن جماعة من عربان دمشق
ثاروا على نائب الشام الامير اياس بك فلما خرج اليهم ووقع معهم انكسر وجرح ورد الى
الشام وهو مكسور من العرب وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ومن عربان جبل
نابلس أيضا وكانت فتنة مهولة بدمشق وفيه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى
تربة العادلى ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل والامير نوح صحبته
فلما شق من القاهرة ارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء وفى شهر شعبان وكان مستهل
يوم الجمعة طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى منازلهم
وفيه قدمت الاخبار من اسطنبول بأن طائفة من طوائف الفرنج يقال لها انكرس
قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان ابن عثمان فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير
وصغير وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم فى الجم الكثير من العساكر والفرسان وفيه
تغير خاطر ملك الامراء على شخص من الاتراك يقال له جان قلج فسجنه بالعرقانة وأوعده
بالتوسيط وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا فى بيت شخص من أبناء الناس وهو ابن الامير
شاهين الجمالى الذى كان ناظر الحرم النبوى فانكسرت عليه أجرة المكان فطالبه ابن شاهين
فلم يعطه شيأ وسبه سبا فاحشا فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الامراء فأرسل خلف
جان قلج فلم يطلع فى ذلك اليوم وأساء على قاصد ملك الامراء فبلغ ملك الامراء ذلك ثم ان
جان قلج طلع بعد ذلك الى ملك الامراء وقابله فقبض عليه وسجنه بالعرقانة وكان تقدم له مع
ملك الامراء واقعة مهولة فاستمر فى نفس ملك الامراء منه أشياء كمينة وكان جان قلج عنده
بادرة وكلامه يابس كثير الفجور ومن الحوادث المهولة أيضا واقعة سيدى عمر ابن الملك
المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق وذلك أن سيدى عمر كان متزوجا بابنة الامير جانم
الاشرفى الذى كان نائب الشام وكانت زوجة تمرازا التمشى فكان له رزقة وقفها عليها وبها
فلاحون فلما تزوج بها سيدى عمر تكلم على جهاتها فقيل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم
يمش لهم أمر الشراقى فى الحصة فتضرر الفلاحون لذلك فوقفوا الى ملك الامراء وشكوا له

من سيدى عمر بأنه قد جار عليهم وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية فأرسل اليه ملك الامراء يقول له انظر فى حالهم ولا تجر عليهم فقال سيدى عمر وايش كان ملك الامراء حتى يدخل بينى وبين فلاحينى فى شئ ليس له فيه شغل فبلغ ملك الامراء ذلك فتغير خاطره على سيدى عمر فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه فى القول ولم يطلع فخنق منه ملك الامراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه وطلعوا به الى القلعة فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثانى حتى شفع فيه بعض الامراء فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدلة من الانكشارية فاشكر أحد من الناس ملك الامراء على هذه الفعلة الفاحشة لانه لا يستحق ذلك كله وفى هذا الشهر كانت وفاة الشيخ زين الدين المغربى وكان صالحا معتقدا دينا خيرا وله اشتغال بالعلم وكان مقيما بمقام الامام الشافعى رضى الله عنه وكان لا بأس به وفى يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر قدم شخص من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له محمد بن ادريس ويعرف بقلقسز الدفتردار وصحبته شخص يقال له الامير كمال فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الامراء ولاقاه من هناك ثم دخل هو واياه من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه الانكشارية والكملية مشاة يرمون بالنفوط فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة وأنزل الدفتردار فى بيت الامير يشبك الدوادار الذى فى حدرة البقر ومد له هناك مادة حافلة وأنزل الامير كمال فى مكان آخر وأشيع أن الامير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام والدفتردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم السبت وكان الهلال عسر الرؤية على خمس درج وقيل على أربع درج فرآه بعض الناس وثبت عند القاضى زكريا أحد نواب الشافعيه وركب القاضى بركات بن موسى من المدرسة المنصورية بعد المغرب وقدامه المشاعل والفوانيس وشق من القاهرة فى موكب حافل على العادة وفى يوم السبت مستهل الشهر كان وفاء النيل المبارك اوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ثم فتح السد يوم الاحد ثانى شهر رمضان الموافق لحادى عشر مسرى ووقع فى دولة الاشرف قايتباى أن السد فتح فى أول يوم من رمضان فلما أوفى النيل نزل ملك الامراء الى المقياس وخلق العامود ونزل فى الحراقة وتوجه الى السد ففتحه على جارى العادة وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجة والقصف كما يقال فى المعنى

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا * كالروض تطفو على نهر أزاهره

والوفاء عمود من أصابعهم * مخلق تملأ الدنيا بشائره

وفى يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان صعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة واجتمع الامراء

العثمانية بالقلعة وقرئ عليهم مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية وان ملك الامراء ينظر فى اصلاح المعاملة من الذهب والفضة فوقع فى المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الامراء بسبب ذلك فقال ملك الامراء أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ولا أخرج عما وقع فى أيامه من أن الاشرفى الذهب يصرف فى المعاملة بخمسين نصفا على العادة ثم ان ملك الامراء رسم باحضار التجار فلما طلعوا الى القلعة تكلموا معهم فى أمر صرف الاشرفى الذهب الواسع بخمسين نصف فضة فتضرروا من ذلك وقالوا ما يوافقنا أحد من الناس على ذلك وانفض المجلس ما نعا من ذلك ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب تكلم مع ملك الامراء بأن يصرف الاشرفى الذهب بخمسة وأربعين نصفا وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا وفى البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا فوقع الاتفاق على ذلك ونودى فى القاهرة بذلك فسكن الاضطراب قليلا ثم ان القاضى بركات جعل القاضى حمزة العثمانى متكلما على دار الضرب ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الاشرفى الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصفا وصار يصرف بأربعين نصفا وعز وجود الفضة جدا وصار الاشرفى الذهب يصرف بمشقة زائدة من السوقة ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جددا وحصل للناس الضرر الشامل وفيه قدمت الاخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم وصار يموت بها فى كل يوم ما لا يحصى وفيه توجه الدفتردار الذى حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثغر الاسكندرية أيضا بسبب جبى الاموال التى أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم فخرج الدفتردار وصحبته القاضى حمزة وفى أثناء هذا الشهر حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها فحضر القاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه وحضر القاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى وحضر من نواب القضاة القاضى شمس الدين محمد العبادى أحد نواب الشافعية والقاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية وحضر القاضى شمس الدين محمد الابشادى أحد نواب المالكية وحضر بدر الدين بن الرومى وحضر القاضى ابن عرفات أحد نواب الشافعية وحضر تقى الدين العزيزى الشافعى وحضر الشهابى أحمد بن نصر الله ناظر دار الضرب وحضر بدر الدين محمد بن خازوقه مباشر الامير علان الدوادار وحضر أحمد السكندرى الشطرنجى رفيق ابن الورد وحضر أبو البقاء ابن السيرجى وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المباشرين والقضاة والاعيان لم تحضرنى أسماؤهم الآن وأشيع أن السلطان سليمان نصره الله تعالى أعتق جميع الاسرى الذى كانوا باسطنبول من أهل مصر ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ومن أولاد الجميعان ممن تقدم ذكرهم وجماعة من أعيان الديار المصرية وأما الامراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين

كان

كان السلطان سليم شاه نفاهم الى اسطنبول فلما ولى ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود الى مصر ولم يقبل فيهم شفاعة واستمروا فى بلاد الروم الى الآن وأشيع أن السلطان سليم شاه ابن عثمان كان أرسلهم الى مكان يحاصرون فيه الفرنج وقد خمدت أخبارهم فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول أشاعوا أن السلطان سليمان شاه ابن عثمان قد خرج الى القتال بسبب الفرنج ولم يرد من عنده خبر من حين توجه اليهم وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف حصل له فى عقله ذهول وحصل له ضيق معيشة وصار يشترى عشاءه وغداءه من الطباخ فى زبدية ويحملها بنفسه على يده وهو لابس كنبك لباد أبيض وقاسى شدائد ومحنا وأخبروا عن زين العابدين ابن قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج وكانت جماعة من الشاويشية ينصبون على من هنالك من الاسرى من أهل مصر ويقولون نحن نسافر بكم من اسطنبول فى الخفية ونتوجه بكم الى مصر فيخرجون بهم من اسطنبول ويقتلونهم فى الطريق ويأخذون ما معهم من مال وقماش وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ولم يعلم لهم خبر الى الآن وفى يوم السبت خامس عشر شهر رمضان قدمت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان بن عثمان وولدها مصطفى صحبتها وأشيع أنها قدمت الى مصر تروم حج بيت الله الحرام فاكرمها ملك الامراء غاية الاكرام وأنزلها فى مكان مطل على بركة الفيل ورتب لها فى كل يوم أسمطة حافلة لها ولجماعتها الذين قدموا معها من بلاد الروم وفى يوم الخميس عشريه وقع فيه كائنة يحيى ظلام وكان يتجر فى السكر وله مطبخ يعمل فيه السكر فاستمر على ذلك مدة طويلة ثم انه بعد ذلك انكسر وتجمد عليه جملة ديون كثيرة بحيث أشيع عنه انه تجمد عليه نحو أربعين ألف دينار فلما انكسر طالبه أصحاب الديون وكان المال لاقوام من تجار خان الخليلى وغيرهم فلما طال الامر عليهم شكوه الى ملك الامراء فرسم عليه ملك الامراء مدة طويلة بجماعة من الانكشارية حتى يرضى أصحاب الديون فاستمر فى الترسيم مدة طويلة وكان ملك الامراء قرر عليه وألزمه بأن يرد لاصحاب الديون فى كل شهر خمسة آلاف دينار فما قدر على ذلك وعجز عن ايراد ذلك القدر وكان ملك الامراء حلف يمينا برأس السلطان سليمان ابن عثمان ان لم يرض أصحاب الديون فى حقوقها والا يوسطه فلما ضاق عليه الامر خنق نفسه تحت الليل وأصبح ميتا ثم أشيع أن الانكشارى الذى كان مرسما عليه خنقه تحت الليل وأخذ ما كان معه من المال الذى كان يورده لاصحاب الديون على أول الشهر وأشاع عنه أنه قد خنق نفسه وأصبح ميتا ومضى أمره الى حال سبيله وفى يوم الخميس سابع عشرى شهر رمضان كان يوم النوروز وهو أول يوم من السنة القبطية وهى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية ففى ذلك اليوم بلغ

النيل فى الزيادة سبع عشرة اصبعا من تسعة عشر ذراعا واستمر عما فى الزيادة وفى يوم السبت تاسع عشرى شهر رمضان وقع فيه من الحوادث كائنة سيدى عمر ابن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق وذلك ان القول تقدم بما وقع لسيدى عمر مع ملك الامراء بسبب أمر الفلاحين فاستمر سيدى عمر تابع غلظه مع الفلاحين كما تقدم فوقفوا وشكوه الى ملك الامراء ثانيا فتغير خاطره على سيدى عمر واحتدّ منه فأرسل اليه نقيب الجيش فقال له رسم ملك الامراء بأن تقوم فى هذه الساعة وتتوجه الى دمياط فاستمر عنده حتى كتب وصيته وقام وركب من وقته وتوجه الى بولاق ونزل فى مركب وسارت به الى نحو دمياط فهذا كله بسبب الفلاحين من صلابة سيدى عمر وقوة راسه وقلة درايته حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك الامراء على هذا الامر الفشروى الذى لم يستحق هذا كله ووقعت له هاتان الكائنتان فى شهر واحد فشق ذلك على ملك الامراء وعلى الناس قاطبة فوقع له البهدلة من ملك الامراء مرتين الاولى بسجنه فى العرقانة والثانية بنفيه الى دمياط وركوبه على بغلة وهو متوجه الى بولاق فلما جرى ذلك توجه عيال سيدى عمر الى بيت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان ابن عثمان وترامواعليها فى أن تشفع عند ملك الامراء فى عود سيدى عمر من النفى فأرسلت الى ملك الامراء ولدها مصطفى بك فشفع عنده فى سيدى عمر بأن يعود الى داره فقبل شفاعة الملكة خاتون ورسم بعود سيدى عمر الى منزله فعاد بعد ما سار فى البحر يوما وليلة فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران ودقت له على بابه الطبلخانات والزمور وهنؤه بالسلامة وفى سلخ شهر رمضان حضر الدفتردار محمد بن ادريس الذى كان توجه الى دمياط والبرلس وبقية الثغور بسبب جبى الاموال التى أضيفت الى خزائن مولانا السلطان سليمان فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الامراء ولاقاه من هناك واستمر معه حتى أوصله الى منزله وفى شهر شوّال كان عيد الفطر يوم الاثنين وقد ثبتت رؤية الهلال بعسر فان هلال رمضان ثبت على يد القاضى زكريا أحد نواب الشافعية وشك الناس فى ذلك وقالوا ان ذلك اليوم الذى صاموه كان آخر يوم من شعبان فوقع الشك بسبب ذلك وما لاقى القاضى زكريا خيرا من الناس بسبب ان هلال رمضان ثبت عنده وكانت الميقاتية حكموا بأنه لا يرى فى تلك الليلة أبدا فلما كان هلال شوّال أرسل ملك الامراء يقول للقاضى الشافعى أنتم أثبتم هلال رمضان على أربع درج وقد شك الناس فى ذلك فما تفعلون فى هلال شوال فارسل يقول له قاضى القضاة الشافعى هلال رمضان قد ثبت حقا وقامت به البينة وزكيت وغدا من شوال محقق ثم ان قاضى القضاة الشافعى نادى فى القاهرة أن غدا من شوال وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل رؤية الهلال أن غدا من شوال فعد ذلك من النوادر وكان موكب العيد حافلا بالقلعة وفيه كان دخول المقر الشهابى احمد بن الجيعان على ابنة الامير خاير بك

كاشف الغربية أحد الامراء المقدمى الالوف وهى التى كانت زوجة الاميرتانى بك الخازندار أحد الامراء المقدمين وكانت غير محمودة السيرة فى أفعالها وقبل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضى أبو بكر بن الملكى بابنة الامير قانصوه المعروف بابى سنة أحد الامراء المقدمين ولا ينكر ذلك عليهم فى هذا الزمان وفيه قدمت الاخبار بان السلطان سليمان ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج أوقع معهم وكان بينهم واقعة مهولة وقتل من عسكره مالا يحصى عدده وقتل فى معركته الامير قانصوه العادلى الذى كان توجه الى اسطنبول وقد انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصرة عظيمة ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك وفى يوم الخميس ثامن عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد وكان أمير ركب المحمل الامير جانم كاشف الفيوم على العادة وخرجت صحبته الملكة خاتون عمة السلطان سليمان وولدها مصطفى بك فطلب الامير جانم طلبا حافلا وكان به ست عجلات تسحبها الاكاديش وعليها عدة مكاحل نحاس ومدافع حجر بسبب قتال العربان الذين فى طريق الحجاز فانه كان فى السنة الماضية فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان وفى يوم الاربعاء رابع عشريه نودى فى القاهرة عن لسان ملك الامراء بانه لا مملوك ولا عثمانى يلبس زنطا أحمر ولا أولاد الناس أيضا ومن لبس زنطا بعد المناداة شنق من غير معاودة فى ذلك ثم أشيع أن ملك الامراء رأى عبيدا وغلمانا بجمقدارية وهم برنوط حمر فقال امضوا بهم الى بيت الوالى يشنقهم فشفع فيهم بعض الامراء ثم أشيع أن ملك الامراء رسم للامراء الجراكسة بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ولا يطلعون بها الى القلعة وهذا كله عين المقت للجراكسة وبغضا فيهم قاطبة وفى يوم السبت سابع عشريه الموافق لاول يوم مر بابه من الشهور القبطية ثبت النيل المبارك على ثلاث وعشرين اصبعا من عشرين ذراعا فكان منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا اصبعا واحدة وكان نيلا عظيما الى الغاية وللناس مدة طويلة مارأوا نيلا مثل هذا فضحكت الناس فى الفرجة والقصف وسكن غالب بيوت الجسر بعدما كان آل الى الخراب وتهدمت بيوته وكاد أن يبقى مثل الجزيرة الوسطى فى خرابها وفى شهر ذى القعدة وكان مستهل يوم الاربعاء طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الجمعة ثالثه نودى فى القاهرة عن لسان ملك الامراء بأن لا أمير من الجراكسة ولا خاصكى يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب بل يمشى على طريقة العثمانية فى أفعالهم يأخذ الغلام الغاشية على كتفه ويمشى قدامه وفى يوم الاربعاء ثامن الشهر أنفق ملك الامراء الجامكية على المماليك الجراكسة بعدما عوق حوامكهم وعليقهم ستة أشهر حتى عاينوا الموت من ضيق الحال بهم فصرف لهم ثلاثة أشهر وأخر

لهم ثلاثة أشهر ولم يصرف لهم العليق فقبض ذلك اليوم كل مملوك من الجراكسة احد عشر أشرفيا ذهبا وثمانية انصاف من الذهب العثماني فأقاموا عليهم كل أشرفي ذهب بأشرفيين فضة فخسروا في صرف كل أشرفي عشرة أنصاف فضة فكانت خسارتهم في العشرين أشرفيا خمسة أشرفية ونصفي فضة فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك بعد صبرهم ستة أشهر وأخر العليق عنهم وأشيع أن الديوان مشحوت غاية الانشحات وان ملك الامراء عليه ستون ألف دينار والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الاول أربعة أشهر معجلا من مغل سنة سبعة وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية قبل ان يفي النيل ويزرع الفلاحون وتروى الاراضي فحصل للفلاحين غاية الضرر من ذلك ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجور وقد انحط سعر الغلال عما كان أولا من الارتفاع وكان سبب انشحات الديوان أن المال الذي يجبى عصار ينقسم على سبع طوائف من العسكر وهم المماليك الجراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ثم الاصباهية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ثم الصوباشية والانكشارية والكملية ثم مماليك ملك الامراء وذلك خارج عن كلفة من يرد من المملكة الرومية من القصاد والمترددين من اسطنبول وغيرها فكان ملك الامراء ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة وقد بلغني ممن أثق به انه كان متحصل خراج مصر في دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ومن المغل ستمائة ألف اردب منها ثلثمائة ألف اردب قمح وثلثمائة ألف اردب شعير وفول وغير ذلك وأين هذا القدر مما كان عليه خراج مصر في الزمن القديم نقل الشيخ تقي الدين المقريزي في الخطط قد بلغ خراج مصر في زمن القبط عند تلاشي أحوال مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكان جملة خراجها في زمن الفراعنة ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل من مثاقيلنا الآن وكان مساحة أراضي مصر في زمن الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وجبي خراج مصر في زمن عمرو ابن العاص على عبد الله بن أبي سرح في صدر الاسلام اثني عشر ألف ألف دينار غير الدنانير المتعامل بها الآن وجبي خراج مصر في أيام الامير أحمد بن طولون مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير ما يتحصل من المكوس والغلال وجبي خراج مصر في أيام الاخشيدية فكان ألفي ألف ألف دينار غير دنانير الآن وجبي خراج مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري فكان اثني عشر ألف ألف دينار مع تلاشي أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك وكان موجب انشحات الديوان في أيام ملك الامراء خاير بك ان الاصباهية والانكشارية والكملية لما استقروا بمصر رتب ملك الامراء جوامك في كل شهر فكان يعطي جماعة من الاصباهية في كل شهر ستين دينارا وجماعة منهم خمسين دينارا

وجماعة

وجماعة منهم اربعين دينارا وجماعة منهم ثلاثين دينارا وباقيهم عشرين وأما الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته كل شهر خمسة عشر دينارا وباقيهم اثنى عشر دينارا وأما الصوباشية فلهم فى كل شهر ثلاثون دينارا لكل واحد وأما الكملية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته فى كل شهر اثنى عشر دينارا وجماعة عشرة دنانير وجماعة منهم ثمانية دنانير وهذا كله خارج عن جوامك مماليك ملك الامراء واما المماليك الجراكسة فان ملك الامراء يرتب لكل واحد منهم فى كل شهر سبعة دنانير فى تظير الجامكية واللحم وذلك خارج عما يرتب للامراء الجراكسة القاطنين بمصر وذلك خارج عن انعام ملك الامراء للمترددين من المملكة الرومية وغيرها حتى قيل كان يصرف ملك الامراء على ماذكرناه فى كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك فى كل شهر وأما المال الذى كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله فلا يتعرض ملك الامراء لشئ من ذلك وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير فان قال قائل ان السلطان الغورى كان يسد أمر الجوامك فى كل شهر وكان العسكر أكثر من ذلك والامراء أربعة وعشرون مقدم ألف غير الامراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الالف خاصكى أقول ان السلطان الغورى كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار وغير ذلك من مساتير الناس وكان يرد عليه أموال الثغور وأموال البلاد الشامية والحلبية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات والآن البلاد الشامية والحلبية فى غاية الاضطراب ولم يرد منها شئ من الاموال فبموجب ذلك ضاق الامر من المال على ملك الامراء ونرجو من الله اصلاح الحال وفى يوم الاثنين ثالث عشره خرج الدفتردار محمد بن ادريس وتوجه صحبته ملك الامراء الى تربة العادلى وكذلك الامراء قاطبة وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية فتوجه طائفة منهم فى البحر وأشيع انهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله وقد بلغه انهم يشوشون على أهل مصر غاية التشويش فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشارية وأراح الله المسلمين منهم فانهم كانوا من كبار المفسدين فخرج الدفتردار فى ذلك اليوم فى موكب حافل كما تقدم وفيه كانت وفاة الناصرى محمد ابن الامير جانى بك كوهية وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أولاد الناس حسن السيرة لا بأس به وفيه قدم من اسطنبول سيدى محمد بن الكويز وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر فلما أفرج السلطان سليمان عنهم حضر الى مصر وكان حسن

السيرة فى التحدث فى أمر المواريث وفى يوم الثلاثاء رابع عشره حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن انه قد انتصر على الفرنج نصرة عظيمة وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج وملك عدة قلاع من قلاعهم وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومنابر وخطب باسمه فيها وكانت هذه النصرة على غير القياس فلما تحقق ملك الامراء ذلك رسم بدق البشائر فى القلعة ونادى فى القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام متوالية وفتك الناس فى هذه الزينة فتكا ذريعا حتى خرجوا فى ذلك عن الحد وتجاهروا بالمعاصى ليلا ونهارا وفى هذه النصرة يقول الاديب البارع محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال

أفدى سليمان من مليك * ليس له فى الورى مقايس
انكر سهاد اسمها وهدت * من دوسه وهو خير دايس
ومنه صارت لخير دين * مدار سا قد محت كنايس
مذ سلطت جنده عليها * وصفدت جنها الكنايس
من أجل ذا زينت سرورا * مصر وأضحت رجاء آيس
وأومأت وهى فى رخاء * بثغر بشر لكل يائس
والناس فى فرجة عليها * كفرحة العرس والعرائس
لكونها نصرة شراها * سلطان ذا العصر بالنفائس
وبعد فى دروس ستبدو * وتمح منها أولو الدحائس
وهو بسيف الاله نصر * فى عنق المشركين ماثس

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع يوم الجمعة سابع عشره وذلك أن القاضى بشرا أحد نواب الحنفية أخذ تدريسا فى المدرسة القجماسية وسكن هناك فلما زينت القاهرة أتى الى بيته ثلاثة مباشرين من النصارى ليتفرجوا على الزينة فسكروا هناك سكرا فاحشا وتجاهروا بالمعاصى حتى خرجوا فى ذلك عن الحد فأرسل القاضى بشر ينهاهم عن ذلك فما سمعوا له كلاما وتزايد منهم الحال فجاء بنفسه وأغلظ عليهم فى القول وسبهم فسبوه وأفحشوا فى السب له وسبوا دين الاسلام على ما قيل فأرسل القاضى بشر من قبض عليهم وتوجه بهم الى المدرسة الصالحية وحضر قضاة القضاة الاربعة وكان ذلك اليوم يوم الجمعة قبل الصلاة فلما حضر قاضى القضاة المالكى محيى الدين بن الدميرى قامت عنده البينة بما وقع من النصارى فى حق القاضى بشر الحنفى فتوقف القاضى المالكى فى قتل النصارى ثم قال يجب عليهم الحد والتعزير فانهم كانوا سكارى وكذلك قال بقية القضاة فلما سمع القاضى بشر بذلك ورضى الدين بن الدهانة الحنفى كبروا على القضاة وأغلظوا فى القول على قاضى القضاة المالكى

واجتمع بالمدرسة الصالحية الجم الكثير من العوام فهموا بان يرجموا القضاة فى ذلك اليوم
وما حصل لقاضى القضاة المالكى فى ذلك اليوم خير من ألسنة العوام ثم ان بعض
الانكشارية قبض على النصارى وأخرجهم من المدرسة الصالحية فلما خرجوا بهم
قطعوهم بالاطبار قطعا قطعا ثم ان النصرانى الثالث أسلم وحماه بعض الانكشارية
من القتل فلما قطعت النصارى اجتمع السواد الاعظم من العوام بباب المدرسة الصالحية
وأخذوا رمم النصارى وأطلقوا فيها النار وأخذوا السقائف التى على الدكاكين
ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار فاحترقوا وصاروا كالرماد فاضطربت القاهرة فى ذلك
اليوم أشد اضطراب حتى كادت أن تخرب وقصد العوام أن يرجموا القضاة وقتلوا
هؤلاء النصارى وأحرقوهم بغير حكم حاكم ولم يثبت عليهم فى الشرع قتل وفعل ذلك
العوام بيدهم جهلا وعدوانا وفى يوم الخميس ثالث عشريه توجه ملك الامراء
الى نحو الجزيرة التى تجاه الجيزة بالقرب من المقياس وأقام بها ذلك اليوم على سبيل التنزه
فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة فتغدى ملك الامراء
هناك ورسم بان الذى فضل من المدة يحمل الى القلعة وقد فضل منها أشياء كثيرة
ثم ان ملك الامراء خلع على القاضى بركات بن موسى المحتسب قفطانا مذهبا وشكر له
ما صنعه من أمر تلك المدة وفى يوم الاحد سادس عشريه وقعت كائنة عظيمة للشيخ
عبد المجيد بن الطريني وذلك أن ملك الامراء تغير خاطره عليه بسبب انه كان تسلط
عليه الدين الذى تقدم ذكره فلم يعط أصحاب الديون شيأ مما قسطه عليه فشكوه الى ملك
الامراء ثانيا فأرسل خلفه فلما حضر بين يديه قال له ألم أقسط عليك ذلك الدين فى كل
شهر وقررت معى أنك ترضى أصحاب الديون بما قسطته عليك فلم تفعل من ذلك شيأ فلم
ينطق فى ذلك بحجة فخنق منه ملك الامراء ورسم بضربه فبطح على الارض وضرب ضربا
مبرحا حتى قيل ضرب ست نوب تبدلت عليه حتى كاد أن يموت ثم وضعه فى الحديد
وأرسله الى بيت الوالى ليعصره فى اكعابه بحضرة أصحاب الديون فرق له الوالى وأرسله
لسجن الديلم فسجن به والحديد فى عنقه فاستمر فى السجن بالحديد حتى كاد أن يموت وقد
عجز عن وفاء ما عليه من الديون حتى قيل تجمد عليه من الديون نحو سبعين ألف دينار
للتجار الاروام وغيرهم وقد تزايد غضب ملك الامراء على الشيخ عبد المجيد بن الطريني
حتى كاد أن يوسطه من شدة غضبه عليه وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان الناس
وله بر ومعروف حتى قيل كان يصنع فى كل يوم ستة أرادب دقيق برسم الوارد عليه
فى المحلة ويعلق فى كل يوم اثنى عشر اردبا من الشعير والدسوت عمالة بالطعام ليلا ونهارا
للوارد عليه من سائر البلاد فتجمدت عليه هذه الديون العظيمة وسيق كما سيق غيره من

الاكابر ولكن يلطف الله به والكريم لا يضام أبدا فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل حيث قال

لنا غنم تعرف وجوه ضيوفنا * تجى من مراعيها تروم الذبايح
لنا خدم ما ينبت الشعر روسها * لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص من المماليك الجراكسة قيل هو من مماليك أمير اخور كبير وقيل هو خازندار وكان شابا حسنا فشق شنقه على الاتراك قاطبة وشنق فى ذلك اليوم معه أربعة من الجراكسة وقد تزايد شره فى هذه الايام وفيه أشيع بين الناس أن الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول لما دخلوا الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة وقتل منهم جماعة فلما بلغ ملك الامراء ذلك تنكد لهذا الخبر وعين لهم الكيخيه الكبير أغاتهم فسافر الى الاسكندرية فى ساعته حتى يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن أثارها من الانكشارية أو من الكملية الذين سافروا من القاهرة فتوجه الكيخيه الى ثغر الاسكندرية بسبب ذلك واستهل شهر ذى الحجة يوم الجمعة فطلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من مكة وصحبته رأسان فى علبة مقفولة زعموا أن الاولى رأس شخص يقال له اسكندر وكان أصله من مماليك السلطان الغورى أرسله صحبة التجريدة التى أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة الشيخ عامر متملك زبيد وعدن وكرمان فلما توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغورى تحاربوا معه فانكسر منهم وقتل فى المعركة فملكوا منه البلاد وأمواله ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر وتسلطن بها وعصى على السلطان الغورى وجعل له هناك أمراء وعسكرا وخطب باسمه على منابر بلاد الشيخ عامر واستمر على ذلك ولم يدخل تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك الديار المصرية ولم يخطب باسمه ولم يضرب السكة باسمه هناك فلم يزل نائب جدة يتحيل عليه حتى قتله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة فعرضت على ملك الامراء وهو بالميدان ثم ان ملك الامراء أشهر تلك الرأس فى القاهرة ومعها رأس أخرى قيل انها رأس دوادار أو خازندار أو وزيره ثم علقتا على باب النصر وكان اسكندر هذا شجاعا باسلا مقداما فى الحرب قوى القلب ملك البلاد واحتوى على أموالها وفرقها على عسكره وجعل له أمراء وحجاباً ودوادارية ولولا نهم احتالوا عليه حتى قتلوه لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أنه حضر قاصد من اسطنبول الى الشام ثم حضر الى القاهرة فلما استقر بها أظهر مراسيم من عند السلطان سليمان وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على الذراع الهاشمى الذى تتعامل به أهل مصر بخمسة قراريط وأحضر معه سنج نحاس وأرطال على

طريقة اسطنبول وأشيع أن السلطان سليمان ابن عثمان رسم بابطال الذراع والسنج التى تتعامل بها أهل مصر وأن التجار وأرباب البضائع لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج فامتثل ملك الامراء ذلك وأجاب بالسمع والطاعة ورسم للقاضى بركات بن موسى المحتسب بان ينادى فى القاهرة حسبما رسم الخنكار بابطال الذراع الهاشمى من مصر واستعمال الذراع الاسطنبولى فنزل المحتسب مع الوالى ونادى فى القاهرة بذلك ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب كتب قسائم على التجار أنهم لا يبيعون ولا يشترون الا بهذا الذراع الاسطنبولى فشق ذلك على التجار وأرباب البضائع فلما أشهر المحتسب المناداة بذلك وأن كل من خالف مرسوم الخنكار شنق على دكانه من غير معاودة ثم صارت رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين فى الاسواق وتأخذ الاذرعة الحديد وترميها فى الطرقات فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد الاضطراب ثم صاروا يكررون المناداة بذلك فى أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولى واستمر ذلك فى البيع والشراء الى الآن وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء يقال له على الازهرى توكل عن شخص يهودى فى شغل فاخذ منه فى ذلك الشغل أربعين دينارا وقيل خمسين دينارا فلما بلغ المحضر الذى فى المدرسة الصالحية ذلك طلب على الازهرى وسأله عن ذلك فانكر وقال ما أخذت منه هذا القدر أبدا وحلف وأقسم فخنق منه المحضر وأمر بضربه بين يديه ثم ان المحضر طلع الى ملك الامراء وأخبره بامر الوكلاء وما يصنعون فرسم باحضار سائر الوكلاء فاختفى منهم جماعة وقبضوا على أربعة منهم وهم على الازهرى وسالم ومسعود والحكرى فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الامراء فاوعدهم بكل سوء ثم أرسلهم الى بيت الوالى فارسلهم الوالى الى سجن الديلم فسجنوا به الى أن تظهر البقية وكان الذى رافع فى الوكلاء وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى وتعصب معه خير الدين نائب القلعة وقال لملك الامراء هذه الافعال التى يفعلها الوكلاء فى المدرسة الصالحية لا تحل ولا تجوز فاضطربت أحوال القضاة الى الغاية ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع فيهم القاضى حمزة وقيل الامير على أحد الامراء الخنكارية ثم أقامت الوكلاء فى السجن أياما ثم أخرجوا منه وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الامراء بمنع الصيارف الجازيين قاطبة أن لا يصرفوا دينارا ذهبا فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون الزغل فى الذهب والفضة ويطيرونها على الناس فى الصرف فمنعوا من ذلك وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له قاسم بك وعلى يده مرسوم شريف فكان من مضمونه انه انتصر على الفرنج نصرة ثانية وملك منهم عدة قلاع وقد ظفر بجماعة منهم وقتلهم فلما تحقق ملك الامراء ذلك نادى فى القاهرة بالزينة فزينت ووافق ذلك يوم عيد

النحر فحصل للناس المشقة الزائدة بهذه الزينة واشتغلوا بذلك عن الاضحية والعيد ووقع
فى ذلك اليوم مطر غزير فاعدم فراش الناس الذى فى الزينة وصار الوالى يبطح الناس على
الارض و يضرب الذى مازين دكانه فما حصل لاحد من الناس خير واستمرت الزينة معلقة
الى أن نزل ملك الامراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقاة القاصد الذى حضر من البحر فطلع
من سوق مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة والقاصد صحبته ومشى القاضى بركات بن
موسى المحتسب قدامه بعصاه الى أن طلع الى القلعة فأوقد واله الشموع بالنهار على الدكاكين
فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة ثم فكت الزينة فى ذلك اليوم وانقضى أمرها
وفى يوم السبت سادس عشره جلس ملك الامراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى وطلب
قضاة القضاة الاربعة فلما حضروا حضر القاضى حمزة قاضى ابن عثمان فلما تكامل
المجلس تكلم ملك الامراء مع القضاة فى أمر نوابهم وما يفعلون وفى أمر الوكلاء فوقع
فى ذلك المجلس غاية ما يكون من اللغط وكان القاضى حمزة فى ذلك المجلس أشد ما يكون على
القضاة وصار يقول لهم نوابكم يفعلون ماهو كيت وكيت فجاء ملك الامراء على القضاة
بكل ما فيه بسبب نوابهم وقد كثر فسادهم فتكلم معهم ملك الامراء فى ذلك فوقع الاتفاق فى
المجلس بأن كل قاض من القضاة الاربعة يقتصر على سبعة من النواب لاغير على عدد أيام
الجمعة والقاضى من النواب يجلس فى بيت قاضى القضاة فى نوبته و يسمع الدعوى هناك
بمفرده وان القاضى اذا عقد عقد نكاح يأخذ على من تزوج البكر ستين نصفا وعلى من تزوج
الثيب ثلاثين نصفا يأخذ العاقد شيأ والشهود شيأ والباقى يحمل الى بيت الوالى ولا يتزوج
أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة الاربعة وان الوكلاء تبطل قاطبة من
المدرسة الصالحية فانفض المجلس على ذلك وقامت القضاة فقيل لهم امشوا على اليسق
العثمانى فاضطربت أحوال القضاة والشهود قاطبة وبطلت أسبابهم ومشوا على هذا الحكم
وصار مقدم الوالى والحالية يأتون فى كل يوم من أيام الجمعة و يجلسون فى بيت كل قاض
من القضاة الاربعة الى ما بعد العصر و يأخذون ما يتحصل من عقود الانكحة و يمضون به
الى بيت الوالى كما تقرر الحال على ذلك اليسق العثمانى فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع
غرامته نحو أربعة أشرفية فامتنع الزواج والطلاق فى تلك الايام وبطلت سنة النكاح
والامر لله تعالى وفيه نزل من القلعة القاضى بركات بن موسى المحتسب وأشهر المناداة فى
القاهرة وصحبته الوالى بأن لا قاضى ولا شاهد يحكم فى المدرسة الصالحية وان لكل قاض
من القضاة سبعة من النواب لاغير يحكم كل نائب يوما فى بيت قاض من القضاة الاربعة
و يسمع الدعوى فى بيت مستنيبه وان لكل نائب من النواب شاهدين لاغير وأن القاضى
يأخذ على نكاح البنت البكر ستين نصفا و يأخذ على الثيب ثلاثين نصفا وأن سائر

النواب والشهود بطالة من الاحكام الشرعية وهذا حسبما رسم به ملك الامراء والمشى على اليسق العثمانى فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية الاضطراب ولاسيما النواب والشهود حصل لهم الضرر الشامل وصارت المدرسة الصالحية ليس يلوح بها قاض ولا شاهد بعد ما كانت قلعة العلماء وفى هذه الواقعة يقول البدرى بدر الدين محمد بن محمد الزيتونى أحد نواب الشافعية وخليفة الحكم العزيز بالديار المصرية هذه القطعة وهى من فن الزجل فى معنى هذه الواقعة

اسمعوا ما جرى فى مصر وابكوا بدموع غزار

كان شعار الدين ظاهر كمثل الشموس * والمجالس من الناس فى جلوس
شبه أقمار تتاح اليها النفوس * هم جمال الاسلام وقمع النفوس
اختفت ذى الشموس بظلام النهار

وقضاة الاسلام محى رسمهم * والشهود اختفوا وضاع اسمهم
صار على العقد جالية وسمهم * وقضاة القضاة بترسيمهم
طول الايام مع الامين فى انحصار

قرروا جاليه على المسلمين * فى العقودات صارت حقا يقين
كل من راد الزواج فى الدين * يبق فى الوالى ويغرم مئين
اعتبروا يا أولى الابصار

قلعة الدين صالحية مصر * غلقوها وقد رأينا العبر
وفى هذى الامور تحير الفكر * كل هذا عبره لاهل النظر
يا الهى عجل بأخذ الثار

علماء المسلمين بالازهر * خرجوا يسألوا لمن جبر
بمصاحف وأعلام وجمع اكبر * برفع المظلمة فانقهر
عادوا يدعوا عليه بكار مع صغار

فى الاحاديث قد سطروا بالقلم * حاش يفلح من عاب ومن قد ظلم
عن قريب تسمع على ايش يقدم * من يعادى أهل العلم يندم
من بغضهم قد أبغض الجبار

يا حكيم حكامنا قد طغوا بالجحود * وأفسدوا علينا وتعدوا الحدود
صارت الناس مناعدم فى الوجود * بهدلوا الدين سالت الدموع بالخدود
يا الهى لا تكشف الاستار

الحوانيت فيها المحرم جهار * وبنات الخطا تقف بالنهار

ويقرّوهم على ذا القرار * والمجالس تمنع من اهل الوقار
هذا يرضى مين من الكفار
من بيع منكر هو اللى طاب * حالوا ماشى بسبب من الاسباب
والحشيش والنبيذ والطبطاب * مايجيه الفقر لا من طاق ولا من باب
قوموا نتسبب نبيع لنا أمزار
ضجت الناس لما رأوا ذى الحرق * والمغارم وما حدث فى الغسق
واستباحوا النكاح بهذا اليسق * وفسد حالهم وزاد الخنق
قالوا ما نطيق هذا العيار
سادس العشر شهر ذى الحجه * عام سبعه وعشرين جرت ضجه
ثانى عشرينه حصل وهجه * للشهود والقضاة بلا حجه
ينصر الله الدين على الفجار

وهذه القطعة الزجل مطوّلة وهذا ما وقع عليه اختيارى منها ومن الحوادث ما وقع فى أواخر الشهر وهو يوم الاحد خلع ملك الامراء على شخص يسمى جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ويعرف بابن الجاكية وهو ابن محمد الذى كان نقيب الجيش من أولاد ابن أبى الفرج واستقر به فى وظيفة التفتيش عن الرزق فلما قرر فى هذه الوظيفة أخذ حذره منه سائر الاعيان ودخلت رأسهم منه الجراب فلما استقر أمر ملك الامراء بان ينادى له عن لسانه حسبما رسم ملك الامراء لا أحد من الناس يحتمى على الامير جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ولا يعارضه وانه مسموع الكلمة وافر الحرمة فلما جرى ذلك طغى الامير يوسف بن أبى الفرج وتجبر وصار معه الجم الكثير من الرسل والبزدارية وصار يطلب أعيان الناس من رجال ونساء بالرسل الغلاظ الشداد فاذا حضروا الى بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم يقرؤها ثم ينجش لهم فيها انجاشا ويقول لهم أروني أصول هذا وأصول الاصول فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضى الحنفى ويشهد عليهم أن لا حق لهم فى هذه المكاتيب ولا استحقاق ويأخذ منهم ما معهم من المكاتيب والمربعات ويمضوا خائبين فيطلع بالمكاتيب والمربعات الى ملك الامراء ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس فأخذ من الجمالى يوسف نقيب الجيش بن الشرفى يونس نقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتيب شرعية وحذف عليه ملك الامراء ما عنده من المكاتيب جميعها فطلع له بها وفعل بجماعة كثيرة من أعيان الناس والستات مثل ذلك والامر لله تعالى وفيه حضرت مركب من الاغربة التى كان عمرها ملك الامراء وأرسلها صحبة الاروام والمغاربة البحارة فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبثون فى سواحل البحر المالح فاوقعوا معهم وقاتلوهم فانكسر الفرنج وقبضوا عليهم وأسروهم واحتووا على مراكبهم فوجدوا فيها بضائع وجوخا

واصنافا

وأصنافا فاخرة فأخذوا جميع ما كان فيها وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوهم في الحديد وأرسلوهم الى ملك الامراء فلما عرضوا عليه رسم بتوسيطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا وسجنوا الباقين وأخذ ملك الامراء جميع أموالهم ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فانكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم وأشيع انهم كانوا يعبثون في سواحل البحر المالح وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر في أيام السلطان سليم شاه ابن عثمان فحضر علم الدين جلبي السلطان الغوري وحضر عقيب ذلك المقر الشهابي أحمد ناظر الجيش كان وهو ابن المقر الجمالي يوسف ناظر الخاص وحضر كمال الدين بن دادار الامير طراباي وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال وحضر الناصري محمد بن العلائي علي بن خاص بك وحضر القاضي شمس الدين محمد الحجازي أحد نواب الشافعية وحضر آخرون من الاسرى ما تحضرني أسماؤهم الآن وفي يوم الخميس ثامن عشريه قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالامن والسلامة عن الحجاج وأخبر أن الغلاء معهم عمال في سائر الغلال والمأكول قاطبة وأخبر بموت الجمال مع الحجاج فخلع عليه ملك الامراء ونزل الى منزله وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة وكانت سنة مباركة وقع فيها الرخاء في سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تناهى سعر القمح الى أربع أشرفيات ذهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضي مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه ومن محاسن هذه السنة انها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون في الديار المصرية ولا في شيء من أعمالها قاطبة ولكن وقع في أواخر السنة حوادث مهولة منها عصيان الامير جان بردي الغزالي نائب الشام وقتله وما وقع بالشام من الاضطراب فكان من ملخص واقعة الامير جان بردي انه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه في الظاهر ولما ولي بعده ابنه سليمان على مملكة الروم أظهر جان بردي الغزالي العصيان جملة واحدة ولم يدخل تحت طاعة السلطان سليمان ابن عثمان فقام معه أهل الشام من الامراء والعسكر والعربان والعشير وقالوا له قم وتسلطن فما بقي قدامك أحد تخشى منه ونحن نقاتل معك حتى نقتل فاستمال لقولهم وطاش وخف وكم عجلة أعقبت ندامة فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الاشرف أبي الفتوحات وقبلوا له الارض وخطب باسمه في جامع بني أمية وعلى بقية منابر دمشق فلما تسلطن قالوا له امض الى مصر وحارب خير بك واملك منه مصر فقال لهم مصر في قبضة يدي ولكن أتوجه الى حلب وأخلصها من أيدي العثمانية فما يقي خلفي التفاتة ثم أتوجه الى مصر ولو أتى الى مصر لكان خيرا له وكان العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة يقلبوا على ملك الامراء خير بك ويمضوا اليه فانه كان محببا

للرعية فلما توجه الغزالى الى حلب ليملكها حاصر أهلها وأحرق غالب الضياع التى حولها وحصل منه الضرر الشامل لاهل حلب فلما حاصر مدينة حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك وكان الامير جان بردى الغزالى أول ما توفى السلطان سليم شاه وتولى بعده ابنه سليمان أرسل يقول لملك الامراء خاير بك تسلطن أنت بمصر وأستمر أنا بالشام وأحكم من الفرات الى غزة ونطرد هذه العثمانية عن مملكة مصر فلما وقف خاير بك على مطالعة الغزالى أفشى سره وكان الغزالى أرسل يقول لخاير بك ان لم تتسلطن فعندى من يتسلطن فاراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان فارسل له مطالعة الغزالى التى أرسلها له فى السر فلما وقف السلطان على مطالعة الغزالى أرسل يقول لخاير بك لا تخرج أنت من مصر للغزالى فنحن نكفيك شره ثم ان السلطان سليمان أرسل تجريدة الى الغزالى نائب الشام فجهز له من العساكر العثمانية نحو أربعة عشر ألف مقاتل فخرجوا من اسطنبول على حمية وتوجهوا من اسطنبول الى حلب فاوقعوا مع الغزالى على حلب فانكسر منهم فتوجه الى دمشق فكان بين الفريقين واقعة مهولة على القابون خارج مدينة دمشق فقتل من عسكر الغزالى هنالك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد وتركمان ومماليك جراكسة ومن أهل دمشق حتى قيل قتل فى المعركة من أهل دمشق شيوخ وشبان وأطفال ومن سوقة دمشق ما لا يحصى وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما دخل الى دمشق وقد خرب فى هذه الواقعة ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت وتمت الكسرة على الغزالى واختفى وقيل بل قتل على المعركة وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ومضى أمره والى الآن تشك جماعة من الناس فى قتله ويقولون ما قتل وهو باق فى قيد الحياة وانه هرب عند الصوفى بعد وقوع المعركة والاصح انه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ووقع الشك للناس فى ذلك كما وقع لهم فى قتل قانصوه خمسمائة من الشك ومما وقع فى هذه السنة من الحوادث حرق النصارى على باب المدرسة الصالحية ومنع الشهود من الجلوس فى الحوانيت ومن الحوادث ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرينى وقصته مشهورة ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة الصالحية وعزل نواب القضاة الاربعة واقتصارهم على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكرستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا وقد تقدم ذلك فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب القضاة من باكر النهار الى آخره ليأخذوا ما يتحصل من عقود الانكحة ويضون به الى بيت الوالى ويسمون ذلك اليسق العثمانى ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة فضيقوا على المسلمين غاية الضيق ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الامراء خلع على شخص يقال له

جمال الدين يوسف ابن أبى الفرج ويعرف بابن الجاكية وقرره فى وظيفة وسماه مفتش الرزق الجيشية فلما استقر فى هذه الوظيفة أطلق فى الناس النار ورافع الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش أقاطيع سلطانية ورزق جيشية وصنع لها مكاتيب شرعية بمشترى من بيت المال وباعها على الناس ورافع أيضا الزينى أبا بكر بن أبى بكر بن الملكى بمثل ذلك حتى تكلم فى حق الشهابى أحمد بن الجيعان بانه ابتاع من ديوان الجيش رزقا وأقطاعا وصنع لها مكاتيب شرعية وباعها على الناس بنحو عشرين ألف دينار وأظن هذا الكلام ليس له صحة وهذا باطل لاستحالة فتغير خاطر ملك الامراء على المقر الشهابى أحمد بن الجيعان وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه أصلا ورسم للزينى أبى الوفاء الحلبى موقع ملك الامراء من حين كان بحلب أن يقرأ عليه القصص بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان فعظم أمر الزينى أبى الوفا فى هذه الايام جدا حتى صار فى مقام من تقدم من كتاب السر وصار من أعيان الرؤساء بالديار المصرية ثم ان الجمالى يوسف بن أبى الفرج أخذ من الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب شرعية قطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه الرزق أقاطيع سلطانية فأخذ منه المكاتيب وأشهد عليه بان لا حق له فيها وطلع بها الى ملك الامراء وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من رجال ونساء ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب الى ملك الامراء فاطلق فى الناس جمرة نار وضج منه الناس قاطبة حتى قيل أخذ من أيدى الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية وطلع بها الى ملك الامراء وحصل للناس منه الضرر الشامل ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم وما اكتفى ملك الامراء بيوسف بن أبى الفرج حيث جعله مفتش الرزق الجيشية فجعل الامير على العثمانى مفتش الاوقاف أيضا من بلاد وبيوت وغير ذلك فاجتمع على بابه الرسل الغلاظ الشداد والبزددارية وصاروا يطلبون الناس أصحاب الاوقاف فاذا حضروا ومعهم مكاتيبهم ينجشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف مصاريف وايش متحصله فى كل شهر فيدعون أصحاب الاوقاف فى الترسيم ويقررون عليهم مبالغ ثقيلا للامير على هو ودواداره والبزددارية والرسل ومن عنده من المباشرين ويكتبون له على مكاتيبه عرض ثم يطلقونه بعد أن يلتهب من الغرامة فوق ما لا يطيق فصار الامير على يتكلم على فرع من أبواب المظالم المهولة فاطلق فى الناس النار الموقدة وأقول أن أولاد ابن أبى الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف وطبعهم الاذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق وقد تقدم القول على ذلك ومن الحوادث فى أواخر هذه السنة أن ملك الامراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين فتوجهوا الى البحر المالح وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعبثون فى السواحل على المسافرين فلما توجهوا الى البحر المالح وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ومعهم

بضائع بنحو خمسين ألف دينار فقاتلوا معهم فكسروا الفرنج وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع فلما حضروا الى مصر وعرضوا على ملك الامراء رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج فراحوا ظلما وأخذت أموالهم وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ويمنعون التجار من المرور في البحر ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم وفي هذه السنة قتل ملك الامراء من الناس مالا يحصى بتوسيط وشنق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما والامر لله تعالى انتهى ماأوردناه من حوادث سنة سبع وعشرين وتسعمائة

928 ❁ (ثم دخلت سنة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة) فيها في المحرم وكان مستهله يوم الاحد المبارك طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم وفي هذا الشهر تزايد ظلم الجمالي يوسف بن أبي الفرج وفتك في الناس فتكا ذريعا وكثر على بابه الرسل والبزدارية وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير فيحضرون ومعهم مكاتيبهم فلم يلتفت الى مافي المكاتيب ويأخذها من أيدي أصحابها غصبا ويشهد عليهم أنه لاحق لهم فيها ولا استحقاق ويطلع بها الى ملك الامراء واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والامر لله تعالى وفيه توفي الشهابي أحمد بن القماري وكان من مشاهير أولاد الناس وكان أمير جكار وقد ترحل حاله في أواخر عمره ومات فقيرا وفي يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول فحضر بهاء الدين بن البارزي وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشبراوي وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم البدي المغربي من تجار جامع طولون وحضر آخرون ممن كان باسطنبول وفي يوم السبت سابعه نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي التي بالريدانية وجلس هناك على المصطبة القديمة وكان القاصد الذي حضر بالامس صحبته فقدله هناك مدة حافلة وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ورمى قدام القاصد رماية هناك وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية فبينما هو على ذلك واذا بجماعة من الاعيان حضروا بين يديه منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقاني المالكي والشيخ شمس الدين محمد المعروف بالديروطي الشافعي والشيخ شهاب الدين أحمد بن الحلبي وآخرون من العلماء فلما اجتمعوا قالوا يا ملك الامراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرتم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفا وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفا ويتبع ذلك أجرة الشهود ومقدمي الوالي وغير ذلك وهذا يخالف الشرع الشريف وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة وعلى ستة أنصاف فضة وعقد على آية من كتاب الله وقد ضعف الاسلام في هذه الايام وتجاهر الناس بالمعاصي والمنكرات وتزايد الامر في ذلك ثم ذكروا له آيات من كتاب

الله تعالى وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلتفت ملك الامراء الى شئ من ذلك وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى اسمع ياسيدى الشيخ ايش كنت أنا الخنكار رسم بهذا وقال امشوا فى مصر على اليسق فقال له شخص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى هذا يسق الكفر فحنق منه ملك الامراء فرسم بتسليمه الى الوالى ليعاقبه فتوجهوا به الى بيت الوالى ثم شفع فيه بعض الامراء فلما كان عقيب ذلك توجه الى ملك الامراء جماعة من النجارين والقلافطة وعلى رؤسهم مصاحف وهم يستغيثون الله ينصر السلطان سليمان فظن ملك الامراء انهم من الجامع الازهر ثم تبين انهم نجارون وقلافطة أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الامراء فى الروضة بأنه قد ظلمهم وجار عليهم فلما كثر منهم الضجيج رسم ملك الامراء لمن حوله من الانكشارية بضربهم فشتتوا أجمعين ثم طال المجلس بين ملك الامراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا فكان من جوابه للشيخ شمس الدين اللقانى المالكى ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتى أكثر من رقابكم امضوا باسم الله فقاموا من عنده وهم فى غاية القهر يتعثرون فى أذيالهم ولم يلتفت الى أقوالهم فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا نحن نسافر الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ونخبره بما يفعل فى مصر فتنكد ملك الامراء فى ذلك اليوم بعدما كان منشرحا ثم قام من هناك وطلع الى القلعة وخرج القاصد من هنالك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول فلما رجع الفقهاء من عند ملك الامراء قامت الاشلة والنائرة على ملك الامراء وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الانكحة وقصدوا يغلقون أبواب الجوامع والمساجد فلما جرى ذلك أرسل ملك الامراء الزينى أبا الوفاء الموقع يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقانى وقال له لا تؤاخذ ملك الامراء فانه لم يكن يعرف وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ففرقت على مجاورى الجامع الازهر وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الافعال الشنيعة ليمحوا ذلك بذلك وهذا من المحالات كما يقال فى المعنى

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط * وعذر أتى سرا فأكد ما فرط

ومن ظن أن يمحو جلى جفائه * خفى اعتذار فهو فى غاية الفرط

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق ملك الامراء على المماليك الجراكسة وكان لهم خمسة أشهر جامكية منكسرة وقد ضاع عليهم عليق أربعة أشهر فأنفق ملك الامراء عليهم فى ذلك اليوم شهرين وأخر لهم ثلاثة أشهر فاضر ذلك بحالهم وفيه اجتمع العسكر ليقبضوا

الجامكية فى الميدان فنزل لهم المقر الشهابى أحمد بن الجيعان والقاضى بركات بن موسى المحتسب وابن أبى اصبع فقالوا للمماليك الجراكسة ملك الامراء يقول لكم انه مسافر بعد الربيع فالذى له قدرة يعمل برقه والذى ماله قدرة على السفر لا يأخذ جامكية ويقعد يستريح فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم ثم ان ملك الامراء جلس فى شباك الدهيشة وأرسل خلف المماليك الجراكسة فلما طلعوا ووقفوا بين يديه استدعاهم واحدا بعد واحد وصار يختار من كل عشرة مماليك مملوكا واحدا الذى يجده شابا وله قدرة على السفر فيبقيه على جامكيته والذى يجده من الشيوخ العواجز يوقف جامكيته فابطل فى ذلك اليوم ألف مملوك من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك وفيهم من هو من الاغوات من مماليك الاشرف قايتباى فتزايدت قسوته فى ذلك اليوم عليهم ومما وقع فى ذلك اليوم من النوادر الغريبة أن ملك الامراء لما عرض المماليك صار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها ونصفها ويعطيها له فى يده ويقول له امش على القانون العثمانى فى قص اللحا وتضييق الاكمام وكل ما تفعله العثمانية فنزل المماليك الجراكسة من القلعة فى ذلك اليوم وهم فى غاية النكد مما جرى عليهم وكان سبب قطع جوامك جماعة من المماليك الجراكسة أن الديوان كان يومئذ فى غاية الانشحات وقد كثر العسكر وصار المال يقسم على سبعة طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانية وطائفة من الاصباهية وطائفة من الانكشارية وطائفة من الكملية وطائفة من الامراء الجراكسة وطائفة من المماليك الجراكسة ومماليك ملك الامراء طائفة سابعة فكان يصرف فى كل شهر لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار ويصرف لطائفة الانكشارية فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ويصرف لطائفة الكملية فى كل شهر أحد عشر ألف دينار ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار ويصرف لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواتب فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار وذلك خارج عن جامكية الامراء الجراكسة والامراء العثمانية والمترددين من القصاد لعثمانية فبموجب ذلك وقع الانشحات فى تأخير الجوامك وكسرها الاشهر وكان السلطان الغورى لا يستعين على سد الجوامك فى كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم وكان يستدمن مظالم العباد ويصير انم ذلك عليه وفيه أشيع أن ملك الامراء قد تغير خاطره على خوند مصر باى الجركسية وأنزلها من القلعة ورسم لها بان تسكن بمدرسته التى بناها بباب الوزير ورتب لها فى كل شهر ما يكفيها من النفقة وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الامراء قدوم زوجته أم أولاده من اسطنبول وقد أتت صحبة الامير جانم الحزاوى من اسطنبول فاختار بان تكون صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصر باى فشق ذلك عليها وفى يوم الخميس تاسع عشره أكمل ملك

الامراء تفرقة الجامكية على العسكر وأوقف جوامك كثير من المماليك الجراكسة ومن أولاد الناس ومن العواجز والشيوخ وقال للذين صرف لهم الجوامك كونوا على يقظة واعملوا برقكم فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين غفلة فقالوا كلهم السمع والطاعة ونزلوا على ذلك وفيه أشيع ان الامير فرحات العثمانى نائب طرابلس استقر فى نيابة الشام عوضا عن اياس الذى كان بها وتوجه اياس الى اسطنبول فصار الامير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام وفى يوم الاربعاء خامس عشريه دخل الحاج الى القاهرة ودخل الامير جانم أمير ركب المحمل وصحبته المحمل الشريف ثم أشيع ان الحاج قد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال ولما طلع الى العقبة اشتد عليه البرد هناك والرياح العاصفة فمات من الحجاج ما لا ينحصر حتى قيل مات منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين انسانا ودخل الباقون مرضى من شدة البرد العاصف المضر بالاجساد ولما دخل الحاج أشيع موت الامير باباى الذى كان ولى مشيخة الحرم النبوى وأشيع موت شخص من الامراء العثمانية كان أغات الانكشارية توفى لما دخل المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع وكان من خيار العثمانية وتوفى الامير مقرن أمير عربان بنى جبر متملك جزيرة بين النهرين الى بلاد هرمز الاعلى وكان أميرا عظيما جليل القدر مبجلا فى سعة من المال وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق وكان أتى الى مكة وحج فى العام الماضى وكان يجلب الى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة والمسك والزعفران والعنبر الخام والعود القمارى والحرير الملون وغير ذلك من الاشياء المتحفة قيل انه لما دخل الى مكة والمدينة تصدق على أهلهما بخمسين ألف دينار فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه فانكسر الامير مقرن منهم وقبضوا عليه باليد وأسروه فسألهم أن يشترى نفسه منهم بألف ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك وقتلوه بين أيديهم ولم يغن عنه ماله شيأ وملكوا منه جزيرة بين النهرين وملكوا قلعتها التى هناك واستولوا على أموال الامير مقرن وبلاده وكان ذلك أشد الحوادث فى الاسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى والامر لله تعالى ولما رجع الحجاج أثنوا على الامير جانم أمير الحاج بكل جميل فى حفظه للحجاج ومنع الضرر عنهم وغير ذلك من أنواع البر والمعروف وفى شهر صفر وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الاربعة الى القلعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى يوم الاربعاء ثالثه خرج الامير قايتباى الدوادار وجماعة من الامراء الجراكسة الى ملاقاة الامير جانم الحمزاوى الذى كان توجه الى اسطنبول وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان سليمان ابن عثمان أرسلها ملك الامراء خاير بك اليه على يد الامير جانم كما تقدم فأكرمه وأحسن

اليه وقبل منه تلك التقدمة فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر فلما بلغ
الامراء قدومه الى مصر خرجوا اليه قاطبة وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة وجميع
مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر صفر وصل
الامير جانم الحزاوى الى خانقاه سرياقوس فدله القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة
هذا بعد ان لاقاه من الصالحية وأشيع انه حضر صحبة الامير جانم الحزاوى حريم ملك
الامراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية فلما تولى
السلطنة ولده سليمان رسم بعود حريم ملك الامراء وأولاده اليه وفيه طلعت زوجة
ملك الامراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة فلما طلع
النهار طلع اليها جميع المغانى يهنئونها بالسلامة ثم ان الامير جانم الحزاوى رحل من
الخانكاه وتوجه الى تربة العادلى وبات بها فلما كان يوم السبت ثالث عشره صلى ملك
الامراء صلاة الفجر ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية فجلس على
المصطبة التى هناك وسلم على الامير جانم الحزاوى ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له
السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر فقام ولبسها وقبل الارض نحو
القبلة وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر ثم قصد الدخول من باب النصر
وشق من القاهرة فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة وأوقدت له
الشموع على الدكاكين وعلقت له القناديل والتريات ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم
وكان سبب ذلك انه بلغ ملك الامراء ان السلطان سليمان قدمات له ولد ذكر مراهق فمنع
الزينة بسبب ذلك فلما وصل الى قبة الامير يشبك الدوادار لاقته الامراء الجراكسة
والعسكر من المماليك الجراكسة قاطبة ولاقته قضاة القضاة الاربعة وهم كمال الدين
الطويل الشافعى ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ومحيى الدين الدميرى المالكى وشهاب
الدين أحمد الفتوحى الحنبلى ولاقته الامراء العثمانية وهم الامير على والامير خير الدين
نائب القلعة والامير نصوح وغير ذلك من الامراء العثمانية وخرج اليه طائفة الاصباهية
وأمراؤها والكواخى من أغوات الانكشارية ومشى قدامه الانكشارية قاطبة
والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ولاقاه أعيان الشرقية وهم الامير أحمد بن بقر أمير
طائفة جذام وأمير الرايتين ومشايخ عربان الغربية وهم حسام الدين بن بغداد وشيخ
العرب واصل بن الاحدب أمير هوارة وشيخ العرب اسمعيل ابن أخى الجويلى وشيخ العرب
جربش وآخرون من عربان الشرقية والغربية ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقودة
ودخل الامير جانم الحزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان ابن عثمان وهى مخمل مذهب فلما
دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ومشى بالعصا قدام ملك الامراء

من باب النصر الى ان طلع الى القلعة وكذلك الجمالى يوسف نقيب الجيش ولاقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية فلما وصل مدرسة الناصر نثر عليه الحلوانى الذى هناك شيأ من الفضة فقال له ملك الامراء كثر الله خيرك فلما وصل الى باب سوق الورّاقين أطلقوا له مجامر البخور بالعود القمارى وركز واله الطبول والزمور والمغانى من النساء والرجال فى عدة أماكن من القاهرة وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت وأوقدت له الشموع على الدكاكين ولاسيما تجار الوراقين فانهم أوقدوا له موكبيات شمع بكار مذهب وصار ملك الامراء يسلم على الناس كلما مر عليهم يمينا وشمالا فارتفعت له الاصوات بالدعاء من الناس قاطبة وكان الامير جانم الحمزاوى قدامه وعليه خلعة السلطان سليمان وعن يمينه الامير قايتباى الدوادار وعن يساره الامير ازدمك الناشف وأعيان المباشرين قدامه ودخل صحبة الامير جانم الحمزاوى جماعة من أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه فلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم بالعود الى مصر فعد ذلك من جملة محاسنه وعدله وفعله الحسن فحضر صحبة الامير جانم الحمزاوى الشرفى يونس بن الاتابكى سودون العجمى والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان والزينى عبد القادر ابن القاضى بركات بن قريميط أحد كتاب المماليك والقاضى كريم الدين عبد الكريم بن اسرائيل والقاضى كريم الدين المجولى وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب المماليك وأولاد المستوفى سعد الدين وأخوه بركات وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور كبير وشهاب الدين أحمد بن أخى الاستادار يونس النابلسى والحاج بدر العادلى المهتار وآخرون ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر واستمر ملك الامراء فى ذلك الموكب الحافل حتى دخل الى الميدان الذى تحت القلعة وقد طلع من جهة التبانة الى مدرسة السلطان حسن وقد شاهدت هذا الموكب بالمعاينة وكان من المواكب المشهودة الجليلة فلما استقر ملك الامراء بالقلعة خلع على الامير على العثمانى والامير نصوح والامير خير الدين نائب القلعة والامير شيخ وخلع على القاضى زين الدين بركات بن موسى المحتسب قفطانا مخملا لكونه مشى بالعصا قدامه من باب النصر الى القلعة ولكونه مد للامير جانم الحمزاوى عند ملاقاته مدة حافلة فى بلبيس ثم فى الخانكاه وغير ذلك من الاماكن وفى هذه الواقعة يقول الاديب البارع الفاضل ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال

أهلا بمن عنه التواضع راوى * شرفا ومنه الجود وجدا راوى
شرفا تخرّله الرؤس لكونه * شرفا علوّ الفرقدين يساوى
يا مرحبا من قادم أعنى به * مولى المقرّ هو جانم الحمزاوى
من جاء مصر بخلعة غرّاحوت * والعزمن ذى الملك فخرا حاوى

شرف من اسطنبول معه بها أتى * منه لخير بك وخيرا ناوى
لله ذاك اليوم وهو بها يرى * وسلامه داء القلوب يداوى
فى موكب الملك العظيم وحوله * أسد سطاها الراسيات يقاوى
والناس فى فرح وفى فرح به * والجو مثل النحل منهم داوى
وصياحهم بالنصر من عظم الدعا * وعدوه كالكلب خزيا عاوى
ولبعضهم بعضا أصابعهم غدت * تبدى الاشارة والرؤس تلاوى
جانم المفدى ونائب فى مصرذا * والعز فى ذى الخلعتين سماوى
لازال فى مثليهما مرقاهما * فيه على زحل بغيرتهاوى
ببقاء ذى الملك الذى أضحى له * شرف على كسرى وقيصر حاوى
أعنى سليمان المقيم بعدله * أمنا اليه من ترقع ياوى
والمدح ممن قانصوه له أب * يبدى على كبد العدو مكاوى
ولسانه عن حال مصر قائل * ومقاله داء الغلاء مداوى
ان فاخرت بالنيل مصر غيرها * فنواله لبلاد مصر تقاوى

انتهى ذلك ثم أشيع ان السلطان سليمان نصره الله تعالى أرسل سبع قفاطين حريرا الى مشايخ العربان الذين بالصعيد والذين بالغربية والذين بالشرقية والذين بالبحيرة وأرسل لكل واحد منهم مرسوما شريفا على انفراده مع القفطان وأرسل على يد الامير جانم الحزاوى قفطانا مخملا مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة وأرسل قفطانا مخملا للامير على بن عمر شيخ عربان الصعيد وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب واصل بن الاحدب أمير هوّاره وأرسل قفطانا مخملا الى الامير أحمد بن بقر أمير جذام وأمير الرايتين وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب حسام الدين بن بغداد شيخ عربان الغربية وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب اسمعيل ابن أخى الجويلى شيخ عربان البحيرة فأرسلوا ذلك مع المراسيم ومن كان منهم حاضرا فى القاهرة لبس قفطانه بحضرة ملك الامراء وفى يوم الاحد رابع عشره حضر بين يدى ملك الامراء الامير على العثمانى وخير الدين نائب القلعة والامير نصوح والامير شيخ والقاضى حمزة وغير هؤلاء من الكواخى ثم أحضر الامير جانم الحزاوى مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان نصره الله تعالى فقام اليه الامراء العثمانية قاطبة وملك الامراء ولم يحضر ذلك المجلس أحد من الامراء الجراكسة ثم قرئ عليهم ذلك المرسوم فكانت ألفاظه باللغة التركية فأحضروا من حللها بالعربية فكان من مضمونه ان السلطان سليمان نعت ملك الامراء نعتا عظيما وفوّض له التكلم على مصر وأعمالها يعزل بها من يختار ويولى من يختار من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد الصعيد ومن مضمونه أنه

اذا قدم عليه قاصد من بلاد الروم لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار فانه بلغ السلطان سليمان أنه ينعم على قصاده الواردة عليه من بلاد الروم بمال جزيل فمنعه من ذلك ومن مضمونه أن ملك الامراء ينظر فى أحوال الرعية ويصرف للجند جوامكهم فى كل شهر على العادة وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب والفضة ومن مضمونه أنه أرسل يطلب جماعة من الاصباهية يضون الى اسطنبول ويجىء الى مصر غيرهم وأرسل يقول لملك الامراء أن ينظر فى أمر تسعير البضائع كالقمح وغيره وأظهر غاية العدل فى مرسوم ملك الامراء وأكد فيه النظر فى أحوال الرعية قاطبة وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق

كعب سليمان كعب خير * أعنى ابن عثمان دام ملكه
من كعبه مصر فى رخاء * ومن سطاه الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للامير جانم الحزاوى انه اذا دخل الى حلب يطلع القلعة ويأخذ المال الذى كان السلطان الغورى أودعه بها ويخرج الى ملاقاة السلطان سليم شاه ابن عثمان وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور فرسم السلطان سليمان بحمل ذلك الى ملك الامراء خاير بك وانه يسبك الفضة ويضرب باسم السلطان سليمان بمصر وتمشى فى المعاملة للناس والله أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أولا وفى يوم الاثنين ثانى عشريه نزل ملك الامراء من القلعة وعدى الى برا الجيزة ونزل بشبر منت على سبيل التنزه وكان صحبته الامير قانصوه وآخرون من الامراء الجراكسة والامراء العثمانية والقاضى شرف الدين الصغير والشهابى أحمد بن الجيعان والقاضى بركات بن موسى المحتسب وآخرون من المباشرين وأقام بشبر منت الى يوم الاربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا ودقيقا وغير ذلك من دجاج واوز وأشيع انه توجه من هناك الى نحو النجيلة يتصيد فتوجه اليه الامير جانم الحزاوى ونقيب الجيش الجمالى يوسف والقاضى شرف الدين بن عوض ويوسف بن أبى الفرج المفتش وابن أبى اصبع وغير هؤلاء من الاعيان وأرباب الوظائف وفيه توفى القاضى بدر الدين محمد بن حجاج الموقع وكان من الاعيان وخدم عدة أمراء مقدمى ألوف واستهل شهر ربيع الاول بيوم الاربعاء وكان ملك الامراء غائبا فلم تطلع القضاة الى القلعة ولم يهنؤا بالشهر فلما كان يوم الثلاثاء سابعه حضر ملك الامراء من تلك السرحة فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة خمسة عشر يوما فتنزه هناك وانشرح الى الغاية وتصيد عدة من الكراكى والغزلان ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان الذين بالغربية والشرقية والكشاف المدركين ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس وغنم وأوز ودجاج وقدور عسل نحل وسمن وغير ذلك أشياء فاخرة تهدى للملوك فلما رحل من النجيلة لم يتوجه الى الاسكندرية ولم يدخلها فى هذه المرة بل قصد العود الى القاهرة فلما وصل

الى قرية قليوب تسامع به الناس فخرجوا اليه فاضافه هناك شيخ العرب ابن أبى الشوارب وبات بقليوب فلما أصبح رحل من هناك وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية فمدت هناك مدة حافلة تتغدى هناك ورحل فخرجت اليه قضاة القضاة لتلقيه فلم يجتمعوا به ولم يكن معه غير قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن الدميرى فقط ثم اصطف له الناس على الدكاكين لاجل الفرجة فلم يشق من القاهرة فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة من بين الترب فلم يشعر به أحد وفى يوم السبت حادى عشره عمل ملك الامراء المولد النبوى فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة وأرسل يقول لقضاة القضاة لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا القلعة فان ملك الامراء حصل له توعك فى جسده فلم يحضر المولد ثم أرسل خلف قاضى القضاة المالكى على انفراده وقال له اطلع واحضر المولد وكان قاضى القضاة المالكى من أخصاء ملك الامراء وكان عنده من المقربين ثم ان ملك الامراء أرسل يقول للامراء الجراكسة والامراء العثمانية لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد فان ملك الامراء احتجب فى ذلك اليوم بالاشرفية التى بجوار الدهيشة ولم يجلس عند المقرئين ولا حضر السماط فى ذلك اليوم بل قعد على رأس السماط قاضى القضاة المالكى والامير برسباى والخازندار وآخرون من الامراء العثمانية وانقضى ذلك وفيه خلع ملك الامراء على القاضى أبى السعود بن الشحنة واستقر أمير جكار عوضا عن الناصرى محمد بن أحمد بن اسنبغا بحكم صرفه عنها وفيه تغير خاطر ملك الامراء على الطواشى مسك فرسم بتوسيطه ثم شفع فيه الامراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فخرج من يومه وسافر فى البحر المالح وكان سبب ذلك أن مسك هذا مالك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر واستقر الاميرجان بردى الغزالى فى نيابة الشام وسافر اليها فخرج مسك صحبته فى الخفية وأقام عنده بالشام فلما جرى للغزالى ما جرى وقتل حضر مسك الى القاهرة وقابل ملك الامراء وصار عنده من المقربين وكان مسك هذا الطيف الذات يشتمل على جملة من المحاسن منها الخط الجيد والقراءة الحسنة وغير ذلك من المحاسن فاتفق أن الطواشى الذى حضر من اسطنبول رأى مسك هذا الذى كان يكره السلطان سليم شاه ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالى فتغير خاطره عليه فرسم ملك الامراء بتوسيطه ثم شفع فيه من التوسيط فرسم بنفيه وكان مسك هذا من أعيان خدام الاشرف قايتباى وفى يوم الجمعة سابع عشره خرجت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان وقد تقدم القول انها أتت الى مصر لتحج فلما حجت قصدت العود الى بلادها وعين معها ملك الامراء جماعة من الكملية ومن الاصباهية يحفظونها فى الطريق اذا سافرت فاشيع بعد سفرها بايام أن العربان خرجت عليها فى العريش ونهبت أطراف بركها

من جمال وقماش وغير ذلك ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشريه وذلك أنه قد أشيع فى القاهرة بين الناس أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد شنق نفسه فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد الاضطراب ولم يشك أحد من الناس فى ذلك لان المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حصل له فى تلك الايام غاية الشدائد والمحن وصار ممقوتا عند ملك الامراء وقد تقدم القول على سبب ذلك فلما قويت الاشاعات بذلك كان الشهابى أحمد بالقلعة فقال له الامير جانم الحمزاوى قم وانزل وشق من القاهرة حتى تخمد هذه الاشاعة فقام ونزل من القلعة وشق القاهرة فلما رآه الناس فرحوا به وهنؤه بالسلامة وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التى ليس لها صحة فعد ذلك من النوادر الغريبة وفى شهر ربيع الآخر وكان مستهله يوم الجمعة طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل فى ذلك اليوم تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى على الطرابلسى وبين مستنيبه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة وقد ناقضه قاضى القضاة الحنفى فى القول وقال له حكمك لا يجوز قد وليت بالرشوة واسمعه من هذه الالفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الامراء وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم فقال قاضى القضاة الشافعى لمحب الدين حكمك الذى حكمته باطل فقال له محب الدين ما هو صحيح منك واستمر المجلس يتزايد فى اللغط بين الفقهاء بحضرة ملك الامراء وكان قاضى القضاة الحنفى أهوج رهاج وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة فلما رأى ملك الامراء المجلس قد انفض على غير طائل أصلح بين قاضى القضاة الحنفى وبين مستنيبه محب الدين سبط بن الدهانة فاصطلحا صلحا على فساد وانفض ذلك المجلس ثم ان ملك الامراء قال لقاضى القضاة الحنفى لا تبق تعارض محب الدين فى أحكامه فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضى القضاة وقد بهدله فى ذلك اليوم غاية البهدلة وفيه قدمت الاخبار من اسطنبول بانه قد وقع بها زلزلة عظيمة فهدمت عدة بيوت سقطت على أهلها ورمت الاعمدة التى تحت الاماكن والقبب وكانت من الامور المهولة وذكروا انه وقع مثل هذه الزلزلة فى أيام الخنكار أبى يزيد جد السلطان سليمان فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباى وكسر مرتين وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده وفى يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه فى يوم الجمعة تثور على الناس رياح عاصفة وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت وتقبض الناس وهم فى صلاة الجمعة فانتشرت هذه الاشاعة فى القاهرة وانطلقت ألسنة الناس بذلك قاطبة فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة وصار الناس يودع بعضهم بعضا وباتوا تلك الليلة على وجل فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رؤسهم طيرة فلما قضيت الصلاة وخرجوا من الجوامع صار لهم ضجيج وهم يهنؤن بعضهم بعضا بالسلامة ويصافحون

بعضهم بعضا وحدث هذه الاشاعة التى لا أصل لها وقد اتفق مثل هذه الواقعة فى أوائل سلطنة الاشرف قايتباى وأشيع مثل ذلك ان الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم فى صلاة الجمعة فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رؤسهم طيرة فاتفق ان خطيبا كان فى الجامع الذى عند ميدان القمح وكان يعتريه خلط مصرع فلما صعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع وهو على المنبر فاضطرب وسقط عن المنبر فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ولم يصلوا وظنوا أن الذى أشيع حق فعد ذلك من النوادر وأهل مصر ليس لهم عقول يصدقون بالمحالات الباطلة التى ليس لها صحة وفى يوم الاثنين حادى عشره نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى بولاق وكشف على المراكب الاغربة التى عمرها هنالك فسيرت قدامه فى البحر ذهابا وايابا وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ثم عاد الى القلعة وفى يوم السبت سادس عشره سقطت القبة العظيمة التى كانت على الايوان باكر النهار وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن قلاون فلما سقطت تفاءل الناس بزوال ملك الامراء عن قريب وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت وكانت من خشب وفوقها رصاص وكانت مغلفة بقيشانى أخضر ولم يعمر فى مصر أكبر منها وكانت من نوادر الزمان وفى يوم الاثنين ثامن عشره توجه الامير شيخ العثمانى الى اسطنبول وأرسل صحبته تقدمة حافلة الى السلطان سليمان ابن عثمان وأرسل يشاور السلطان فى أمور كثيرة من أحوال المملكة وينتظر الجواب عن ذلك وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من ملك الامراء نخيل بلح ليزرعها فى اسطنبول فشرع ملك الامراء فى تجهيز ذلك فقيل انه أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحيانى وهى نخيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر فى غاية الحلاوة فأرسل تلك النخيل فى صناديق خشب وهى فى طينها وأرسلها فى مراكب الى البحر المالح وتتوجه من هنالك الى اسطنبول وأرسل صحبتها خولة تزرعها هنالك وفيه جهز ملك الامراء الاغربة وبها مقاتلون من المغاربة وغيرهم وقد بلغه أن جماعة من الفرنج تعبث فى السواحل وتشوش على المسافرين فى البحر ولما سافر بعض التجار من الاروام فى البحر وقصد يطلع من الاسكندرية ويتوجه من هنالك الى اسطنبول أوسق معه عدة مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغير ذلك بنحو مائة ألف دينار وكان فى ذلك المركب رجال ونساء وصغار وتجار من الاروام وعبيد وجوار فلما سافروا من ساحل بولاق وأقلعوا ذلك اليوم ثارت عليهم رياح عاصفة فلما وصلت المركب الى شبرا دارت فى البحر وغرقت هنالك بكل ما فيها من الخلائق والبضائع والاصناف وكان فيها تجار مغاربة وبحارة وكانوا قبل سفرهم صاروا يشوشون على الناس ويمسكونهم من الطرقات غصبا بسبب المراكب فكثر الدعاء عليهم من الناس بظلمهم وحصل

لاهل

لاهل مصر فى ذلك اليوم غاية الضرر فلما سافرت المراكب غرق أكبرها فى يومه لما حلت من بولاق وذلك بدعاء الناس عليهم وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن المعلم ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب كان له جاريتان احداهما حبشية والاخرى سوداء فوطئ الجارية الحبشية فحبلت منه فوضعت بنتا فعاشت تلك البنت سبعة أشهر ثم ان الجارية الحبشية أظهرت انها تريد ان تدخل الحمام فلما وصلت الى الحمام هربت وتوجهت الى بيت قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى وقالت له ياسيدى القاضى أنا مسلمة وأبدت الشهادة بين يديه ثم قالت له أنا سيدى المعلم ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب وقد وطئنى وحملت منه بهذه البنت وأنا صرت مسلمة ما بقيت أقعد عنده فحكم قاضى القضاة باسلامها فى الحال وأرسل خلف اليهودى معلم دار الضرب بسبب ابنته فانها صارت مسلمة تابعة لامها فحكم قاضى القضاة باسلام البنت أيضا وأمها فقيل ان المعلم ابراهيم دفع لقاضى القضاة خمسمائة دينار على أن يجعل البنت تبعا لابيها فأبى من ذلك واستمر مصمما على حكمه فطلع ابراهيم اليهودى الى ملك الامراء وكتب قصة بشرح الحال ووقف الى ملك الامراء فقال له قاضى القضاة حكم باسلام البنت وأمها وصارت مسلمة أعيدها أنا الى دين اليهود فلم يطلع من يد ابراهيم اليهودى فى هذه الواقعة شئ ونزل من القلعة وهو مخزى وعتقت الجارية وابنتها على رغم أنفه وفيه قدمت الاخبار من الغربية ان عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ويرعون الزروع فحاربهم شيخ العرب اسمعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخيولهم وغير ذلك ولم يترك لهم شيأ وهربوا ومضوا حيث شاؤا ثم ان اسمعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الامراء فشكره على ذلك وفى شهر جمادى الاولى وكان مستهله يوم السبت طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر وعادوا الى منازلهم وفى ذلك اليوم خلع ملك الامراء على الامير جانم السيفى دولات باى الاتابكى كاشف الفيوم وقرره أمير ركب المحمل على عادته وهذه ثالث مرة يسافر أميرا الحاج فى دولة ملك الامراء خاير بك وفى ذلك اليوم (١) نادى ملك الامراء فى القاهرة بان الدينار السليم شاهى يصرف بار بعين نصفا من الفضة العتيقة والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربع عبارة عن ان الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة الجديدة وسعر بالفضة العتيقة فضج الناس من ذلك وغلقت الاسواق والدكاكين وبطل البيع والشراء ووقف حال التجار والمسببين وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد والفضة الجديدة تصرف

جمادى الاولى

(١) قوله نادى ملك الامراء الخ تأمل هذا

بنصفين وربع وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق والامر الى الله تعالى وفى يوم الاربعاء خامس الشهر اجتمع الجم الكثير من السوقة والمسبيين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله وجماعة من المكاسة وغير ذلك وحملوا على رؤسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة وزعموا أن محيى الدين بن أبى أصبع قد ظلمهم بسبب مكس الاطرون وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة نقرة فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الامراء واحتجب عنهم وأرسل اليهم الامير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك فقال لهم ملك الامراء يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم فتشتتوا ونزلوا على أسوا حال وهم فى غاية الذل وفيه نزل ملك الامراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة وأقام الى آخر النهار ثم عاد الى القلعة فى يومه وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والارطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية وهى عبارة عن تسعة دراهم فتنقص كل مائة درهم أربعة دراهم فى سائر الاوزان قاطبة فى البضائع حتى فى المسك والعود والعنبر وغير ذلك فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما وعملوا مثل ذلك فى القبان أيضا وحرجوا على الناس فى استعمال تلك السنج والارطال وأوعدوا السوقة ان كل من خالف فى ذلك شنق من غير معاودة فى ذلك وقد تقدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهاشمى وأخرجوا الذراع العثمانى الذى يزيد على الهاشمى خمسة قراريط ونصف قيراط وكتبوا على التجار قسائم ان لا يستعملوا الا الذراع العثمانى فقط فشق ذلك على الناس قاطبة وفى يوم السبت ثامن الشهر رسم ملك الامراء بشنق أنفار منهم يهودى ونصرانى وقد ظهر عليهم شئ من الزغل فى الذهب والفضة وقدم النصرانى على اليهودى فكبسوا على اليهودى فى بيته فوجدوا عنده آلة الزغل وشخص آخر مقدم درك الازبكية أشيع انه قتل فى دركه شخصا من الانكشارية وشخص آخر قيل هو ابن أنس التى كانت فى الازبكية وغرقوها قبل تاريخه فخوزقوا الاربعة فى يوم واحد فاما اليهودى فخوزقوه عند باب الصاغة والنصرانى خوزقوه بالقرب من المارستان وأشيع عنه انه لما خوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلتفتوا الى اسلامه فخوزقوه وأقام يوما وليلة وهو فى قيد الحياة يتكلم حتى مات بعد ذلك وأما مقدم درك الازبكية فخوزقوه فى الازبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط عند المكان الذى

قتل

قتل فيه الانكشارى وأما ابن أنس المعرصة التى غرقوها خوزقوه فى الازبكية قيل انه كان له جرة فى الانكشارى الذى قتل ومن الحوادث الشنيعة فى ذلك اليوم أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصرانى الذى خوزقوه عند باب المارستان فوجدوه يتلفظ بالشهادتين فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله وكان أربعة مماليك من مماليك الامير قايتباى الدوادار واقفين مع الانكشارية فرفقوا بذلك النصرانى وأنزلوه الى الارض وقلعوا الخازوق من بطنه وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الارض فحصل بين الانكشارية وبين مماليك الامير قايتباى الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصرانى فاتسع الشر بينهم فسحب بعض مماليك الامير قايتباى خنجرا وهاش به على الانكشارية فجرح منهم شخص وسال دمه وانقطعت جوخته فتكاثرت الانكشارية على المماليك فهربوا منهم وتوجهوا الى بيت الدوادار الذى بين القصرين فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهم فى بيت الدوادار فاغلقوا الباب فى وجوههم فخنقوا منهم وقصدوا أن يحرقوا الباب وثارت فتنة عظيمة كما يقال ومعظم النار من مستصغر الشرر فلما بلغ الوالى ذلك أرسل دواداره فأعاد النصرانى الى الخازوق ثانيا وفيه الروح فلما طلع النهار بلغ ملك الامراء أخبار هذه الواقعة فتغير خاطره على الامير قايتباى الدوادار بسبب مماليكه فارسل يطلب منه مماليكه الذين فعلوا هذه الفعلة فطلع اليه الامير جانى بك أخو الدوادار فلما رآه ملك الامراء طفش فيه بالكلام وقال له ان لم تحضر هذه المماليك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصل لك خير فنزل من عنده وهو فى غاية النكد ثم ان ملك الامراء نادى فى القاهرة كل من أخفى عنده مملوكا من مماليك الدوادار شنق على باب داره من غير معاودة والذى يحضر مملوكا منهم فله مائة دينار وقفطان مخمل فلما كان يوم الاثنين عاشر الشهر نزل ملك الامراء الى الميدان وأحضروا بين يديه مملوكين من مماليك الامير قايتباى الدوادار ممن فعل هذه الفعلة وقد قبض عليهما الوالى ورسم بتوسيطهما فوسطوهما على باب الميدان ووسط معهما بواب الدوادار أيضا لكونه أغلق فى وجه الانكشارية الباب فراح البواب ظلما وكان عند ملك الامراء الامير قايتباى فقته ملك الامراء غاية المقت فلما رسم ملك الامراء بتوسيط البواب قام الامير خير الدين نائب القلعة والامير نصوح العثمانى وشفعا فى بواب الدوادار فان له أولادا وأباشيخا كبيرا فلم يلتفت الى شفاعتهما فقاما وقبلا يدى ملك الامراء ثانى مرة وهو لا يزداد الا قسوة وحصل للامير قايتباى فى هذه الحركة غاية البهدلة وانحطت كلمته عند الناس قاطبة وقيل ان الامير قايتباى الدوادار دفع للانكشارى الذى قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه جوخة كانت عليه وجبتى حرير بفرو سنجاب فى نظير جوخته التى شرطت وأعطاه خنجرا عوضا عن خنجره الذى زعم أنه سقط منه وأرضاه بكل

ما يمكن وهذه من أبشع الحوادث وأشنعها ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصراني الذى أسلم لما خوزقوه فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى مات فشاوروا عليه قاضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعى فرسم بان يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه فى مقابر المسلمين ففعلوا به ذلك وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى دفنوه بعد الصلاة عليه فى جامع الحاكم وفى يوم الخميس ثالث عشره سافر القاصد الذى كان حضر وبشر بأن الامير مصطفى قد تزوج بابنة السلطان سليم شاه وهى أخت السلطان سليمان فأنعم عليه ملك الامراء بمال له صورة وكذلك سائر الامراء العثمانية وأرباب الدولة فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار ودخل عليه مثل ذلك بالشام وحلب وسائر النواب وفى يوم الجمعة رابع عشره أشيع قدوم شيخ العرب الامير أحمد بن قاسم بن بقر ويعرف بأبى الشوارب وكان توجه الى الامير جان بردى الغزالى وطلب له من ملك الامراء الامان على نفسه فحضر الى القاهرة وقابل ملك الامراء فخلع عليه وصار عنده من المقربين فأقام مدة على ذلك ثم بدا للملك الامراء قتله فأرسل الى جانى بك كاشف الشرقية بان يقطع رأسه فتوجه اليه جانى بك وهو فى منية أبى الحارث بالدقهلية فهجم عليه وقطع رأسه وقتل معه شخصا آخر من مشايخ عربان العايد فلما قتل الامير أحمد بن قاسم بن بقر نهبت داره وسبيت نساؤه وأولاده ولم يعلم أحد ما سبب ذلك ثم ان الامير جانى بك الكاشف أرسل رأس الامير أحمد بن قاسم وراس شيخ العايد فرسم ملك الامراء بدفن الرؤس وقد أخذ ملك الامراء بثأره من أحمد بن قاسم وكان فى قلبه منه شئ من حين توجه الى الغزالى نائب الشام فكان كما يقال فى المعنى

قالت ترقب عيون الحى ان لها * عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

وفيه توفى الامير عز الشمسى السيفى الاتابكى الذى كان كاشف البحيرة وكان لا بأس به وفى يوم الاثنين سابع عشره قبض ملك الامراء على المقر الشهابى أحمد بن الجيعان وسجنه بالقاهرة بالعرقانة وكان ملك الامراء متحاملا منه فى الباطن غاية التحامل وكانت هذه أول كائنة وقعت له مع ملك الامراء وأمره الى الله تعالى فأقام أياما وهو فى الترسيم ثم ان ملك الامراء خلع عليه بعد ما أورد مالا له صورة من التقسيط الذى كان عليه وقد نفد منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين وابتاع سائر قاعاته التى على بركة الرطلى فاشتراها الامير قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة بابخس الاثمان وجرى عليه شدائد ومحن دون أقاربه الذين مضوا ومالاقى خيرا فى هذه الدولة وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه وفى يوم الاثنين كان عيد الفصح عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين وهو أكبر أعياد النصارى فحكى عن يونس النصرانى مباشر ملك الامراء أنه صنع فى ذلك اليوم خمسين بطة من الدقيق بريسم الكعك والخشتنان واثنى عشر قنطار شيرج

وعشر قناطير سكر وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذى يفرق على الناس ودخل عليه تقادم من الاعيان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المضارع خرج من بيته بعد العصر وركب على حماره ثم جلس على مصطبة تحت بيت فى الجسر ليتفرج فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه فى الحال وصار ملقى على الطريق فمضى الناس الى ولده وزوجته وأخبروهما بموته فأحضروا له نعشا وحملوه عليه بعد المغرب ومضوا به الى بيته وكان ذلك الرجل يبيع الورق فنعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة وفى يوم السبت ثانى عشريه قدم أمير من أمراء السلطان سليمان وقد طلع من البحر من ثغر الاسكندرية فلما بلغ ملك الامراء قدومه رسم للامير جانم الحمزاوى والامير قايتباى الدوادار أن يخرجا الى ملاقاته فخرجا الى وردان ولاقوه من هناك ومدوا له هناك مدة حافلة وصارت الكشاف ومشايخ العربان تمد له المدات بطول الطريق فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الامراء ولاقاه من هناك فلما كان يوم الاربعاء سادس عشريه دخل الامير سنان بك الذى أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقيم بها عوضا عن الامير نصوح ويسافر الامير نصوح الى اسطنبول قيل ان الامير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر وكان موكلا بحفظه ليلا ونهارا فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية فلما تسلطن ولده سليمان أرسله الى مصر ليكون أمينا على ملك الامراء فلما توجه اليه ملك الامراء أركبه فرسا بسرج ذهب وعرقية زركش وألبسه قفطانا مذهبا فركب من بولاق وملك الامراء صحبته فتوجهوا من باب البحر وعلى رأسه صنجق حرير أحمر وخلفه طبلان وزمران وكان معه نحو مائة مملوك مشتروا نه فلما دخل من باب البحر استمر فى ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا فانزلوه فى بيت الاتابكى قرقاس الذى عند حوض العظام ومدوا له هناك مدة حافلة ثم أشيع انه لما دخل الامير سنان أخبر ان السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب وشحنها بالسلاح والمقاتلين وخرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج وقد جمع من العساكر ما لا يحصى عددهم وهو قاصد التوجه اليهم قيل ان الامير سنان لما مر على ضياع الشرقية التى على شاطئ البحر وقف اليه الجم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان وقالوا قد خربنا من الظلم بأخذوا منا النصف من الفضة الجديدة بنصفين وربع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضة ما يحل من الله سبحانه وتعالى فوعدهم بالنظر فى أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد واستمر كل شئ على حاله وفى يوم الخميس سابع عشريه طلعت تقدمة الامير سنان بك الى ملك الامراء فكان من جملتها أربعة مماليك صغار

مرد جراكسة وجملان مابين شربات وطاسات وغير ذلك وجملان شقق برصاوى مذهب
وأثواب مخمل ملون وعليها فرو سمور ووشق وسنجاب وجملان اقواس وغير ذلك وفى يوم
السبت سلخ هذا الشهر طلع الامير سنان بك الى القلعة وحضر الامراء العثمانية ثم ان
الامير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذى حضر على يده فلما قرئ عليهم كان
من مضمونه الوصية بالرعية والنظر فى أحوال الناس فى أمر المعاملة وأرسل يقول للملك
الامراء انه لايمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لايشتكى أحد
من الناس منهم وان ملك الامراء لايصرف لهم فى كل يوم أكثر من درهمين فضة كما
كانوا فى اسطنبول وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعلقات المملكة وفى شهر جمادى
الآخرة وكان مستهله يوم الاحد طلع القضاة الاربعة وهنؤا ملك الامراء بالشهر ثم عادوا
الى منازلهم وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الامراء لزيارة الامام الشافعى
والامام الليث فابطأ عليهم حتى اضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعة فلما عاد جلس
بالدهيشة وأرسل خلفهم فهنؤه بالشهر ونزلوا وفى ذلك اليوم حضر الشريف البرديني من
اسطنبول وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته بانه استقر به ناظر
المدرسة الشيخونية وشيخها وكذلك مشيخة مدرسة الامير قانى باى الجركسى التى فى الرميلة
والنظر على جهات السادة الاشراف قاطبة فلم يلتفت الى ما فى مراسيمه وعزل ذلك عليه فانه
أخذ عدة أنظار ونزع أيدى المتحدثين عليها ومما وقع فى ذلك اليوم ان شخصا وقف الى ملك
الامراء بقصة واشتكى فيها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان شكوى بالغة وكان ملك
الامراء متغيظا عليه فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليه ملك الامراء وسجنه فى مخزن
عند باب الحوش ورسم أن لايدخل عليه أحد من جماعته ولا يفرش تحته شئ ولا حصير
ثم قبض على دواداره محمد وضربه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش وقرر عليه
ألف دينار يوردها على الجامكية وفى يوم السبت سابعه دخل العسكر الذين أرسلهم
السلطان سليمان الى مصر يقيمون بها والذين كانوا بها يتوجهون الى اسطنبول فلما وصل
العسكر الى الريدانية نزل ملك الامراء الى تربة العادلى ولاقى العسكر الذين حضروا من
اسطنبول وكان باشهم يسمى الامير خضر وكان ذلك العسكر كله من الاصباهية قيل انهم
فوق ألف انسان فدخل ملك الامراء من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب
حافل فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفشوا فى المدينة بسبب البيوت التى ينزلون بها
فصاروا يشوشون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها ثم
أشيع انه حضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم انه قاض من قضاة ابن عثمان
وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام

وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة الاهلية وغير الاهلية ولا يعارضه أحد من الناس فى ذلك ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الاهلية وغير الاهلية فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل ومن مضمون مراسيمه ان لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الاتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا فأخذ قسامه على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين وقد خافوا على مناصبهم من العزل وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام فى أيامهم واستطالت قضاة الروم عليهم وقد ترادفت الحوادث المنكرة والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة فى هذه الايام وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه فصار يوسف بن أبى الفرج مفتش الرزق والاقطاعات وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الاحباسية التى بالصعيد والامير على العثمانى مفتش الاوقاف قاطبة والقسام الذى حضر قسام الترك وملك الامراء يعينهم على ذلك فأين المهرب كما يقال فى المعنى

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها * فكيف اذا الرعاة هى الذئاب

وفى يوم الاحد خامس عشره خرج الامير على العثمانى باش العسكر الاصباهية وتوجه الى خيامه بالريدانية ثم فى يوم الخميس تاسع عشره خرج الامير نصوح العثمانى وصحبته من كان تأخر من الاصباهية فلما سافروا سكن الامير سنان فى بيت الامير ازدمر الدوادار عوضا عن الامير نصوح وسكن الامير خضر فى بيت الامير طرابای عوضا عن الامير على الذى توجه الى اسطنبول وفى يوم الجمعة عشريه حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب وكان مسافرا نحو المنزلة فأقام بها مدة ثم رجع فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الامراء خلع عليه فنزل من القلعة وهو فى موكب حافل ففى ذلك اليوم أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم فحصل للسوقة غاية الضرر بسبب ذلك ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابى أحمد بن الجيعان وأفرج عنه من الترسيم ونزل الى منزله وكان له مدة وهو فى الترسيم كما تقدم وفيه عزم الامير سنان على ملك الامراء فنزل اليه ملك الامراء فمد له مدة حافلة وحضر أيضا الامير خضر فأقام ملك الامراء عنده الى قريب الظهر وركب من عنده وطلع الى القلعة وفيه رسم ملك الامراء بشنق ثلاثة أنفس وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيأ يسيرا من الخيار الشنبر فشنقوا بسبب ذلك وراحوا ظلما وفى يوم الاثنين ثالث عشريه أنفق ملك الامراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر وأخر لهم ثلاثة لانهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف وفى ذلك اليوم قطع ملك الامراء جوامك كثير من المماليك الجراكسة وأولاد الناس وصرف لهم بحكم

النصف فجعل لكل واحد ألف درهم ويصير طرخانا فشق ذلك على المماليك الجراكسة وكان فيهم من هو كفؤ للاسفار والتجاريد وفيهم من هو شاب بطل وكذلك أولاد الناس وفي أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول في البحر المالح الى الاسكندرية ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الامراء وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان فكان من مضمونه ان الواصل الى الديار المصرية الذي يسمى سيدي چلبي هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم وان السلطان سليمان رسم بابطال القضاة الاربعة الذين بمصر ويصير قاضي العسكر الذي هو قادم يتصرف في الاحكام الشرعية على المذاهب الاربعة وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ويقتصر الامر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لاغير وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لاغير وان النواب الاربعة يكونون في الصالحية لاغير وان لا أحد يعقد عقدا ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجة ولا غير ذلك من الامور الشرعية حتى تعرض على قاضي العسكر بالمدرسة الصالحية دائما فلما وقف مملك الامراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان أرسل يقول للقضاة الاربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم والنواب قاطبة والوكلاء والزموا بيوتكم الى أن يحضر قاضي العسكر حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمان فامتثلوا ذلك وصرفوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء فاضطربت أحوال النواب والشهود والقضاة قاطبة وضاق الامر على الناس أجمعين وفي يوم الجمعة سابع عشريه وقعت حادثة مهولة وهي أن مملك الامراء أرسل خلف الشهابي أحمد بن الجيعان شاويشا فلما حضر بين يديه بطحه على الارض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة يضربونه بالعصي ثم انه طلب القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك وكان مريضا ملازم الفراش وعينه موجوعة ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض فخنق منه مملك الامراء فأرسل اليه أربعة شاويشية فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدي مملك الامراء بطحه الى الارض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة وهو يقول للمماليك الذين يضربونه اضربوه قوي هذا عدو كم الاكبر فضربوه حتى كاد أن يموت ويهلك ثم طلب القاضي شرف الدين بن عوض فلما حضر بطحه على الارض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابي أحمد بن الجيعان ثم طلب محيي الدين بن أبي أصبع وهم بضربه فشهد له الامير برسباي الخازندار أنه غلق ما عليه من التقسيط فأقامه ولم يضربه في ذلك اليوم ثم رسم مملك الامراء بسجن الجميع في العرقانة فسجنوا فيها وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره وقد اشتد غضب مملك الامراء على المباشرين في ذلك اليوم وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القاضي شرف الدين الصغير وسجن الشهابي أحمد بن الجيعان وابن عوض عند باب الحوش الى

أن يكون من أمرهما ما يكون (أقول) ان أولاد الجيعان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة فى أوائل دولة الاشرف برسباى وكان أول اشتهارهم وظهورهم فى دولة الملك المؤيد شيخ وذلك نحو مائة وعشرين سنة فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش وهم فى كل دولة معظمون مكرمون وما بهذا لواقط وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد هذا وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الاشرف الغورى وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلى يقال له الخواجا محمود العجمى التبريزى وهو فى سعة من المال وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ويأخذ الربا من الناس على القرض ولا سيما المحتاج لذلك فاتفق انه سكر يوما وأتى الى منزله فوجد جاريه واقعات فى بعضهن وتقاتلن قتالا مهولا فخنق منهن فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها وكان معه منها أولاد وكادت الاشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لاجل ذلك فطلع الى ملك الامراء وقص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها فغضب عليه ملك الامراء ورسم بمسكه ثم أرسله عند الوالى فركب الوالى وتوجه الى بيت الخواجا محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت فوجد الخواجا محمودا كان ظالما عليها وقد قتلها بغير ذنب وقد شهد أهل الحارة أنه يسكر كل ليلة ويعربد فى الجوار فطلع الوالى الى ملك الامراء وأخبره بسيرته القبيحة وانه ماش على غير الطريق وأنحن جراحاته عند ملك الامراء فرسم بسجن الخواجا محمود فى العرقانة وقيل انه سأل ملك الامراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ولو أن الخواجا محمودا أرضى الوالى بمائة دينار وستر عليه هذه الكائنة ما وصل الامر الى ذلك ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية وأشيع أن ملك الامراء طلب منه عشرة آلاف دينار وهذا كله آفة الربا الذى كان يأخذه من الناس فانه كان يقرض الالف دينار بألف وخمسمائة دينار والذى خبث لا يخرج الا نكدا فختم ملك الامراء على حواصله ثم شفع فيه بعض الامراء العثمانية فأخذ ثلاثة آلاف دينار ثم ان ملك الامراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار وكانت هذه السكرة سكرة الشوم على الخواجا محمود وأصحابه وفى يوم الاحد تاسع عشريه عرض ملك الامراء القاضى شرف الدين الصغير والشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم فى الحديد ورسم للوالى أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم واحتاط بهم مقدموا الوالى فضمنهم القاضى بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار حتى يسعوا فى سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التى تأخرت فى البلاد وأخذ الشهابى أحمد بن الجيعان

فى أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التى كانت على بركة الرطلى فاشتراها الامير قاسم الشروانى بأبخس الاثمان ولم يبق بيد الشهابى أحد لا ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شئ قل ولا جل ثم ان أخته باعت جميع ما تملكه من مصاغ وحلى حتى باعت البسط من تحتها والطراريح واللحف والمخدات وأثاث البيت وفعلوا مثل ذلك بسراريه وجواريه المونقات وغير ذلك من حاشيته وعبيده وغلمانه ثم ان القاضى عبد الجواد أخا القاضى شرف الدين الصغير أخذ فى أسباب ما يؤخذ على أخيه من التقسيط والقرض والتداين وقد أشرف على التغليق وكذلك القاضى شرف الدين بن عوض وفى يوم الاثنين سلخ هذا الشهر أشيع أن ملك الامراء يقصد أن يعرض العسكر فطلع العسكر الى القلعة قاطبة فلم يخرج ملك الامراء فى ذلك اليوم وأرسل يقول للعسكر العرض يوم السبت فانفضوا ونزلوا من القلعة ولم يعرضوا فى ذلك اليوم وفيه جاءت الاخبار بوفاة الشريف على بن هجار أمير الينبع توفى هو ووزيره أحمد بن زحام فى جمعة واحدة وكان من خيار من ولى امرية الينبع وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بان الغريب يسافر لاهله وأن لا يقيم بمصر غريب وكان سبب ذلك انه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من الاعجام زعموا أنهم جواسيس من عند اسمعيل شاه الصوفى وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الثلاثاء أهل هذا الشهر والناس فى أمر مريب بسبب ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الاربعة وسائر نوابهم والشهود قاطبة وما وقع للمباشرين من هذه الكائنة العظمى ومنها أمر المعاملة التى حصل للناس منها غاية الضرر ولاسيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم على حكم الفضة الجديدة بنصفين وربع ويقيمونه عند الحساب بنصف واحد وقد تزايد الاضطراب فى هذه الايام جدا من وجوه كثيرة وفى يوم الاربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب بيبرس بن بقر وانه توجه الى نحو الطور وأخوه عبد الدائم بالبرج فى القلعة وهو مقيد وله نحو ثلاث سنين فى البرج لم يفرج عنه وصار أبوهم الامير أحمد بن بقر هو المتكلم فى الشرقية قاطبة وفى هذا الشهر قدم الزينى عبد القادر بن الملكى الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من الاسرى فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان مع من أفرج عنه وفيه نزل ملك الامراء الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية على سبيل التنزه فأقام هناك الى ما بعد العصر فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة على حكم ما تقدم له قبل ذلك وفى يوم الخميس ثالثه طلب ملك الامراء الشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض فلما مثلا بين يديه رسم بضربهما حاضر بامير حافضرب بهما حتى أشرفا على الموت وكانا فى غاية الالم مما نالهما من شدة الضرب الاول وجاء هذا الضرب الثانى زيادة على ذلك وأمرهما الى الله تعالى وفى يوم السبت خامسه نزل ملك الامراء الى الميدان

وجلس به وعرض العسكر قاطبة وعين منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف وخمسمائة مملوك وقال لهم كونوا على برقان طلبكم السلطان من البحر توجهوا اليه وان طلبكم من البر توجهوا اليه وفى ذلك اليوم طلع ملك الامراء وقطع جوامك كثيرة من العسكر وصرف لهم بحكم النصف من الجامكية وفى يوم الاحد سادسه نودى فى القاهرة بان كراء بيوت الاوقاف التى تحت نظر القضاة وغيرهم لا يقبضونه الا على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع وان الاشرفى الذهب يصرف بسبعة عشر نصفا من الفضة الجديدة فشق ذلك على الناس قاطبة وحصل لهم غاية الضرر وفى يوم الاثنين سابعه عرض ملك الامراء جماعة من أمراء الجراكسة ما بين أمراء طبلخانات وعشراوات فقطع رواتبهم التى كانت تصرف لهم ثم رسم بان يصرف لهم بحكم النصف من ذلك كما فعل بالمماليك الجراكسة فحصل لهم فى ذلك اليوم كسر خاطر عظيم وكان فيهم شيوخ من القرانصة الاغوات وفى يوم الخميس عاشر الشهر قدم قاضى العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلبى واستمر ملك الامراء بصحبته الى ان أنزله فى بيت الامير جانم مصبغه الذى خلف المدرسة الغورية وأرسل اليه مدة حافلة فلما استقر هناك أتى اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى القضاة الحنفى مريضا فلم يحضر اليه فقيل لما دخلوا عليه لم يقم لهم ولم يعظمهم وكانت صفته انه شيخ هرم أبيض اللحية طويل القامة وعلى عينه اليمنى فص فلم ينظر الا بعين واحدة وهو فصيح اللسان باللغة العربية حسن المحاضرة ولكن قال القائل فى المعنى

لا تشكرن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا * وذمه بعد شكر محض تكذيب

وفى يوم السبت ثانى عشره نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة قاطبة وانها تدخل الى دار الضرب وفى ذلك اليوم نزل ملك الامراء الى الميدان وجلس به وأحضر الامراء العثمانية والامير قايتباى الدوادار ثم حضر قاضى العسكر وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على يده فكانت ألفاظه باللغة التركية فاحضروا من قرأ ذلك فكان من مضمونه الوصية بالرعية قاطبة وانصاف المظلوم من ظالمه واصلاح المعاملة فى الذهب والفضة بين الناس وقد تعاظم عليهم قاضى العسكر فلم يجلس بينهم ولا حضر قراءة مرسوم السلطان ومن جملة ألفاظه نعت قاضى العسكر فكان من نعته أوصاف جميلة تختص به وأن يكون له التكلم فى الاحكام الشرعية على المذاهب الاربعة ويحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس ثم ان قاضى العسكر جعل شخصا من العثمانية يقال له القاضى صالح أفندى نائبا عنه

يحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس وكان حنفيا ثم ان قاضى العسكر استناب شخصا آخر يقال له فتح الله وكان من العثمانية وكان شافعى المذهب ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يد كل قاض من الاروام قاضيا من أولاد مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى صالح أفندى العثمانى وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح الله العثمانى وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه وجعل نظام الدين الحنبلى يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه والمرجع فى الاحكام الشرعية الى قاضى العسكر ثم رسم لكل نائب من النواب الاربعة أن يقتصر على شاهدين لاغير وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ثم رسم قاضى العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون فى أيديهم العصى فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا وصاروا على هذه الهيئة ثم ان قاضى العسكر أقام من الاروام شخصا وسماه قسام التركة فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الاولاد الذكور والاناث فحصل للناس بذلك الضرر الشامل وفى يوم الاحد ثالث عشره نودى فى القاهرة عن لسان قاضى العسكر بان الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيأ من الامور الا فى المدرسة الصالحية عند القاضى صالح نائب قاضى العسكر فحصل للناس بسبب التزويج فى هذه الايام غاية المشقة واختار كل منهم العزوبية على التزويج فكان الامر كما قال القائل فى المعنى

اذا نكح الرجال بنات قوم * وصار المهر فى أيد الفريق
عمدت الى يدى فنكحت بكرا * وأمامهرها عندى فريق

وفيه نزل ملك الامراء الى قاضى العسكر وسلم عليه وقد بلغه أنه توعك فى جسده فنزل اليه وعاده ثم طلع الى القلعة وفى يوم الثلاثاء خامس عشره أنفق ملك الامراء على المماليك الجراكسة جوامكهم وكان لهم سبعة أشهر منكسرة فانفق عليهم فى ذلك اليوم أربعة أشهر حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة وفيه منع قاضى العسكر شمس الدين الحلبى من التكلم فى المدرسة الصالحية وقرر عوضه القاضى شجاع العثمانى وجعله قاضى العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الانظار فطلب الجباة وقال لهم ارفعوا الى حساب الاوقاف وقدر معاليم الانظار وما قدرها فى كل شهر فشرعوا فى أسباب ذلك وفى عمل الحساب ثم ان قاضى العسكر رسم بأخذ الخلاوى التى فى المدرسة البرقوقية والاشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس وأنزل فيها جماعة من الاروام الافاقية ثم ان القاضى صالح نائب قاضى العسكر عرض الرسل الذين فى المدرسة الصالحية ورسم لهم أن لا يأخذ الرسول منهم فى الشغل الذى يتوجه اليه أكثر من نصف فضة من

الفضة

الفضة الجديدة بنصفين وربع وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ويتكلف للشهود والعاقد مثل هذا هذا ما تقرر على العوام وأما الرؤساء فشيء غير ذلك وقرر على كل شهادة تقع في المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيلا كان أو خفيفا ثم أشيع عن قاضي العسكر انه قال قصدي أمشي نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذي أعطاه لها وأن الرجل لا يقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها في كل سنة جوخة وقيصين ويطعمها في كل يوم على ما يختار من قليل وكثير وتغزل وتكسي زوجها في كل سنة فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا القاضي العسكر بسبب هذه الواقعة واغتم النساء بذلك وظنوا أن ذلك الشيء واقع وأن قاضي العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن فشق ذلك عليهن فعد من النوادر الغريبة ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى القاضي صالح نائب قاضي العسكر وكتب قصة واشتكى فيها الامير تنم أحد الامراء الطبلخانات ناظر الدشيشة فارسل خلفه القاضي صالح رسولا وانكشاريا فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى اليهودي على الامير تنم فانصف القاضي صالح اليهودي من الامير تنم واستمر الامير تنم في الترسيم حتى أرضى اليهودي ثم في عقيب ذلك اشتكت الامير جانبك أخا الامير قايتباي الدوادار زوجته عند القاضي صالح فطلبه في المدرسة الصالحية ووضعه في الترسيم حتى أرضى زوجته فيما ادعته ولم يلتفت الى أخيه الامير قايتباي الدوادار وفي يوم الخميس سابع عشره نودي في القاهرة عن لسان ملك الامراء وقاضي العسكر بان لا امرأة تخرج الى الاسواق الا العجائز وكل من خالف بعد ذلك من النساء تضرب وتربط من شعرها بذنب اكديش ويطاف بها في القاهرة فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر ثم بعد ذلك بايام اتفق أن قاضي العسكر طلع الى القلعة فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من الاصباهية في وسط السوق فعز ذلك عليه فلما طلع الى القلعة قال لملك الامراء ان نساء مصر أفسدت عسكر الخنكار ولا بقوا ينفعون لقتال قط وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية فتغير خاطر ملك الامراء على النساء فاطبة ورسم للوالي بان لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ولا تركب على حمار مكاري مطلقا وكل مكاري أركب امرأة شنق من يومه من غير معاودة في ذلك ثم في عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع مكاري في طريق الصحراء فانزلوها عن الحمار وهربوا الحمار فضربوها وقطعوا ازارها فاخلصت الا بعد جهد كبير وغرمت نحو أشرفيين فلما استمر ذلك الامر باعت المكارية حميرها فاطبة واشتروا عوضها أكاديش وشدوها بنصف رحل وصارت النساء يركبن عليها بسجادة والمكاري قائد لجام الاكديش واستمروا على ذلك وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة وركبت الخوندات والستات على الاكاديش على طريقة أهل اسطنبول وفيهم من ركب على بغل ويقرب

من هذه الواقعة ماوقع فى أيام الاشرف برسباى انه منع النساء من الخروج الى الاسواق مطلقا وكان الطعن بمصر عمالا وكانت الغاسلة اذا خرجت الى ميتة لتغسلها تأخذ من المحتسب ورقة وتغرزها فى ازارها حتى يعلم انها غاسلة فاستمروا على ذلك مدة يسيرة ثم فى عقيب ذلك مرض الاشرف برسباى ومات بعد ذلك وأعيد كل شئ على ما كان عليه وفيه نزل القاضى بركات بن موسى المحتسب من القلعة بعد العصر ونادى بان الاشرفى الذهب السليمانى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة وعشرين نصفا والاشرفى الذهب السليم شاهى والغورى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة عشر نصفا وان الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت عليه فى أيام يشبك الجمالى المحتسب فلما نودى بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة فى الذهب والفضة وحصل للناس غاية الضرر وخسروا أموالهم ولاسيما التجار فغلقت أسواق البلد والدكاكين قاطبة وتعطل الناس من البيع والشراء لاجل ابطال المعاملة وصرف النصف الفضة بنصفين وربع وفى يوم الاحد عشريه نودى فى القاهرة كل شئ على حكمه كما كان أولا فى صرف الذهب والفضة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على ما كانت عليه أولا فسكن الاضطراب قليلا وفى يوم الاربعاء ثالث عشريه نزل ملك الامراء وتوجه نحو قصر ابن العينى الذى فى المنشية وكشف على المراكب التى أنشأها هناك واستعجل الصناع فى سرعة العمل وفى يوم الجمعة خامس عشريه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ القاعدة فجاءت سبعة أذرع وعشرة أصابع وذلك أربح من العام الماضى وفى أواخر هذا الشهر قدم قاصد من البحر من عند السلطان سليمان ابن عثمان وعلى يده مرسوم شريف فكان من مضمونه أنه أرسل الى ملك الامراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الامراء الجراكسة فعين الامير قايتباى الرمضانى الدوادار الكبير بان يكون باش العسكر ثم رسم له بأن يطلب الامراء الجراكسة الى بيته ويعين منهم من يختاره فعرضهم عنده وكتب منهم جماعة نحو ثلاثة وأربعين أميرا منهم امراء طبلخانات وامراء عشراوات بسبب غزاة رودس وأن السلطان سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب وشحنها بالسلاح والمقاتلين وخرج الى الغزاة فيهم بنفسه وصحبته الجم الكثير من العساكر الرومية فى البحر المالح وفى يوم السبت سادس عشريه نزل ملك الامراء الى الميدان وجلس فيه وعرض جماعة من الكملية وكتب منهم أربعمائة انسان وعرض طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان وفى يوم الاحد سابع عشريه نزل ملك الامراء الى الميدان وجلس به وعرض المماليك الجراكسة وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك وقيل ثمانمائة وكان الامير قايتباى الدوادار باش العسكر هو الذى يعين ويكتب منهم من يختاره فلما تكامل عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية والكملية

كان مجموع ذلك ألفا وخمسمائة انسان ثم في يوم الاثنين ثامن عشريه أنفق ملك الامراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر كانت لهم منكسرة في الديوان ولم يعطهم زيادة على ذلك ثم ان ملك الامراء عين الامير قايتباى الدوادار باشا على الامراء والمماليك الجراكسة فقط ثم ان ملك الامراء جهز صحبة الامير جانم الحزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصلا وعسلا اسود فجهز ذلك في المراكب برسم العسكر يفرق عليهم بطول الطريق وقيل أرسل صحبته أربعين ألف دينار بسبب جوامك العسكر ومن الحوادث الشنيعة ماوقع في أواخر هذا الشهر وذلك أن ملك الامراء رسم للوالى بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لاجل المراكب حتى يقذفون فيها بالعساكر فنزل الوالى وأطلق في الناس النار وشرع يقبض على كل من رآه في الرميلة وفي الطريق من الغلمان والفلاحين وكل من قبض عليه وضعه في الحديد وأرسله الى السجن الى أن يخرج العسكر فصار يقبض على جماعة من السوقة والعبيد السود ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك فصاروا يشترون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتيه والفلاحين فهرب الناس قاطبة من السواحل ثم رسم ملك الامراء لكاشف الجيزة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقليوب وسبك الثلاث ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع فصار الفلاحون يختفون في المطامير وكادت مصر أن تخرب في هذه الحركة عن آخرها فقيل مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى انسان وقيل أكثر من ذلك وحصل للناس غاية الضرر وقيل مات في سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبض عليه ماتوا من الجوع وشدة الحر والوخم ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك لم يسمع بمثلها قط انتهى ما أوردناه من حوادث شهر رجب وكان كثير الحوادث فوقع فيه أمور غريبة ونوادر عجيبة والامر لله

واستهل شهر شعبان بيوم الاربعاء فلم يطلع أحد من القضاة الاربعة للتهنئة بالشهر فانهم استمروا في العزل المقدم ذكره وصار قاضى العسكر هو المتكلم على المذاهب الاربعة ووقع في هذا الشهر من الحوادث أن الاخبار قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين بن عوض لما توجه ليمسح جهات الصعيد أدخل سائر الرزق الاحباسية قاطبة في المساحة التى بالمكاتيب الشرعية والمربعات والمناشير وقال لاصحابها من أراد الافراج عن رزقته يقف الى ملك الامراء ويحضر مرسومه بالافراج عن رزقته ثم انه منع الفلاحين من اعطاء خراج الرزق حتى يحضروا بالافراجات من عند ملك الامراء فاضطربت أحوال الناس وتنكدوا غاية

النكد وصار كل من وقف الى ملك الامراء بسبب رزقته وأحضر مكتوبه أو مربعته يأخذ منه المكتوب أو المربعة ويقول له امض الى حال سبيلك فان الرزق قاطبة دخلت الذخيرة فيرجع وهو فى غاية القهر (أقول) ان الرزق الاحباسية ما تعرض لها أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيأ عن أصحابها ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك وقيل ان الامام الليث ابن سعد رضى الله عنه هو الذى دون ديوان الاحباس فى أيامه وأفرد للرزق الاحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث الى الآن حتى جاء فخر الدين بن عوض فنقض ذلك الامر الذى كان على جهات البر والصدقات وأبطل أمر الرزق الاحباسية وأدخلها الذخيرة وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى الله عنه

وفى يوم الاثنين سادس الشهر خرج الامير قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السفر بسبب غزاة رودس فخرج صحبته الامراء والعسكر قاطبة وخرج صحبته الامير جانم الحمزاوى مشير المملكة وخرج الرئيس حامد القبطان رئيس المراكب وصحبته العسكر العثمانى الذى تعين من الاصباهية والانكشارية والكملية وخرج العسكر من المماليك الجراكسة فكان معه من الامراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ما بين أمراء طبلخانات وعشراوات فلما طلع الى القلعة خلع عليه ملك الامراء قفطان حرير مذهب وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا فخرج الامير قايتباى من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر وخرج ملك الامراء من الميدان صحبته ليودعه وخرج صحبته قاضى العسكر والامراء العثمانية قاطبة فشق من القاهرة فى موكب حافل وليس قدامه جنائب وخلفه طبلان وزمران عثمانية ونزل وشق من القاهرة الى بولاق وكان يوما مشهودا ثم عاد ملك الامراء الى القلعة وحصل لاهل مصر بسبب خروج التجريدة غاية الضرر وفى يوم الثلاثاء سابع الشهر أرسل ملك الامراء يستعجل الامير قايتباى الدوادار فى سرعة التوجه الى رودس والنزول فى المراكب ثم نودى فى القاهرة بان العسكر المعين للسفر يخرج فى بقية ذلك اليوم وكل من تأخر عن الخروج فى بقية هذا اليوم شنق من غير معاودة فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوى الحنفى شهد شهادة حقا بين شخصين فى تمارى بينهما بسبب دين فلما بلغ قاضى العسكر ذلك أرسل خلف القاضى شمس الدين محمد المناوى انكشاريين فلما حضر بهدله وهم بضربه وقال له أنا ما منعتكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا فى المدرسة الصالحية ثم أرسله الى السجن فشق ذلك على القضاة والنواب فاضطربت القاهرة بسببه ثم شفع فيه عند قاضى العسكر القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى فاطلقه من السجن فى يومه هو والجماوى وقد حصل لاهل مصر من قاضى العسكر غاية الضرر للرجال والنساء

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين وتزايد حكمه بالجور بين الناس وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم الناس مع قاضي العسكر في أمر النساء ان لا يمنعوا من طلوع التربة ودخول الحمام وزيارة الاقارب فاذن لهن في ذلك وان المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها وأن لا يدخل الاسواق غير العجائز فقط فسمح لهن قاضي العسكر وأن النساء لا يركبن الا الخيول والبغال دائما فاستمروا على ذلك وقد فتك قاضي العسكر بالناس في هذه الايام فتكا ذريعا وقد جمع بين قبح الشكل والفعل فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء وقد طعن في السن وكان قليل الرسمال في العلم أجهل من حمار لا يدري شيأ في الاحكام الشرعية وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء وقد هجاه الناس هجوا فاحشا في مدة اقامته بمصر وقالوا فيه عدة مقاطيع فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله

رأينا شيخا أعور قبل موتنا * أتى من بلاد الروم يقطع رزقنا
يقدم قانونا على شرع أحمد * فنسأل رب العرش يكشف كربنا

﴿ وقلت أنا ﴾

رأيتك لا ترى الابعين * وعينك لا ترى الا قليلا
فان تك قد أصبت بفرد عين * فخذ من عينك الأخرى كفيلا
وقد أيقنت أنك عن قريب * اذن بالكف تلتمس السبيلا

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الامير شيخ الذي كان توجه الى اسطنبول في بعض أشغال ملك الامراء فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقاتلين وجهز عساكر كثيرة بسبب غزاة رودس وخرج بنفسه وذلك في خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس وأرسل على يده مراسيم شريفة تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الامراء خاير بك يعزل من يختار ويولي من يختار والمرجع في ذلك اليه فيما يراه من المصلحة وفي يوم السبت حادي عشره نودي في القاهرة بان الامير والي الجلبي العثماني الذي حضر من اسطنبول قد استقر ناظرا على سائر الاوقاف قاطبة فلا يعصى عليه أحد من الناس فتجددت مظلمة أخرى وفي يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان فنزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى المقياس وأقر أهنالك ختمة ومد هنالك مدة حافلة ورسم بقراءة عدة ختمات في تلك الليلة في الجامع الازهر ومقام الامام الشافعي والامام الليث رضي الله عنهما وغير ذلك في أماكن متفرقة وفي يوم الخميس سادس عشره خلع ملك الامراء على القاضي بركات بن موسى المحتسب قفطانا مخملا مذهبا وقرره في التحدث على جهات الشرقية قاطبة من المطرية الى دمياط وقد التزم في كل سنة بار بعمائة ألف دينار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط فنزل من القلعة في موكب حافل

ومشاعليه قدامه تنادى ان القاضى بركات بن موسى ناظر الذخيرة الشريفة متحدث على الشرقية قاطبة فلا يحتمى عليه أحد من الناس ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابه فتزايدت عظمة القاضى بركات بن موسى الى الغاية وفى يوم الاحد سادس عشريه خرج قاضى العسكر بقصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح فلما خرج نزل ملك الامراء وركب صحبته وكذلك خير الدين نائب القلعة وجماعة من الامراء العثمانية فودعوه من عند تربة العادلى ورجعوا فلما خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه فما حصل منه لاهل مصر خير فعزلت القضاة الاربعة بسببه وأخرج عنهم الأنظار ومنع الشهود من الجلوس فى المجالس قاطبة واستمرت دكاكينهم مغلوقة ومنع نواب القضاة الاربعة من الاحكام الشرعية ولم يبق منهم غير من تقدم ذكرهم وضيق على الناس فى أمر عقود الانكحة وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ وصار لا يعقد عقد الا فى المدرسة الصالحية وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الاسواق ومن ركوب الحمير فلما خرج من مصر صفقت النساء ورقصت وقلن فى كلامهن

قوموا بنا نقحب نسكر * فقد خرج قاضى العسكر

وضيق على أهل مصر فى أمور كثيرة يطول شرحها ولما خرج قاضى العسكر توجه الى نحو الطور فقيل ان ملك الامراء أنعم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذى أرسله اليه لما قدم من اسطنبول ولما توجه قاضى العسكر الى الحجاز أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العين التى بمكة المشرفة لما تعطلت وهى التى بالحرم وعمارة المنارة التى بالحرم النبوى ولما خرج قاضى العسكر خرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية ومن أهل مصر وخرجت صحبته زوجة الامير سنان فى محفة فلما سافر قاضى العسكر جعل القاضى صالح العثمانى الحنفى نائبا عنه يحكم فى المدرسة الصالحية الى أن يحضر من السفر من الحجاز وكان قاضى العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الاربعة وجعل منهم من هو فى بولاق وفى مصر العتيقة وفى جامع طولون وفى الحسنية وغير ذلك من الاماكن وجعل فى كل مجلس أربعة نواب يقضون بين الناس بالحق وجعل على كل مجلس شيأ معلوما وعليهم شاويش من العثمانية يضبط ما يتحصل فى كل يوم من أجرة أشغال الناس فيقسم للقاضى من ذلك المتحصل شيأ وللشهود شيأ وله شئ ثم يأخذ الباقى ويضعه فى صندوق برسم السلطان سليمان يودع ببيت المال ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقاضى القضاة الحنفى على بن ياسين الطرابلسى بسبب وقف الخواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندرى وذلك انه طلع قاضى القضاة الحنفى الى ملك الامراء فلما رآه مقبلا من بعيد قال

ايش طلع هذا الثقيل يعمل فلما جلس وأخرج مكتوب الوقف الذى زوروه وثبت عليه انتبذله جماعة من القضاة وحضر أبو الفتح الوفائى المالكى الذى حكم لابن الخواجا شهاب الدين السكندرى وحضر ذلك المجلس القاضى صالح العثمانى نائب قاضى العسكر ولما أخرج قاضى القضاة الحنفى المكتوب الذى صنعوه دفعه ملك الامراء الى القاضى صالح العثمانى وقال له انظر فى هذا المكتوب فلما قرأه قال هذا الحكم الذى حكم به قاضى القضاة الحنفى باطل لا يجوز قراءته فحصل لقاضى القضاة فى ذلك المجلس غاية البهدلة وأسمعته الفقهاء الكلام المنكى وانتصف عليه أبو الفتح فى ذلك الحكم الذى حكمه فقام قاضى القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر فى أذياله مما قاسى من البهدلة من ملك الامراء ومن القاضى صالح وغيره وكان قاضى القضاة الحنفى غير محبب للناس وكان عنده صعصعة وجنون وسوء تدبير ويبس طباع مع وهج وخفة زائدة مع عبوسة وجه وشناعة زائدة وقد قلت فيه

رب قاض قد اعتراه جنون * شأنه الوهج ما لديه سكون
لم يفده علمه اذ اضل شيأ * فهو فينا معلم مجنون

وقولى أيضا

كم ضاع للنعمان من مذهب * فى عصرنا لما تولى فلان
تباله من حاكم أهوج * أحكامه مشهورة بالجنان

وفى يوم الاربعاء سلخ شهر شعبان كانت ليلة رؤية هلال رمضان فلم يحضره من قضاة القضاة أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة فانهم كانوا منفصلين عن القضاء فحضر بعض نواب القضاة منهم شمس الدين المحولى وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى وفتح الدين الوفائى المالكى ونظام الدين الحلبى الحنبلى وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب فلما رؤى الهلال ركب من هناك القاضى بركات المحتسب وشق من بين القصرين فى موكب حافل وقدامه عدة فوانيس ومشاعل على جارى العادة فى كل سنة فلما كانت ليلة الخميس أهل شهر رمضان فلم يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر وكان الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة فان الدينار السلمانى يصرف بخمسة وأربعين نصفا من الفضة القديمة حسابا عن كل نصف بنصفين وربع من الفضة الجديدة فوقف الحال بسبب ذلك ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد فان العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين وربع من الفضة الجديدة ويقيمونه عليهم وقت الحساب بنصف واحد فخرب غالب البلاد بسبب هذه المعاملة وغير ذلك وكانت أحوال الناس فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الاحباسية التى أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان وصار ملك الامراء كل من طلع له

بمكتوب أو مرسعته يأخذ ذلك منه و يقول له هذا دخل ديوان السلطان فحصل للناس غاية
الضرر من كل وجه ومن الحوادث أن ملك الامراء طلب التجار قاطبة وكتب عليهم قسائم أن
لا يتعاملوا الا بالذراع العثمانى فى البيع والشراء وأبطل الذراع القديم الهاشمى وكتب
القسائم على التجار بذلك وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع ذراع واستهل رمضان وقضاة
القضاة الاربعة منفصلون عن القضاء والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من حين جرى عليهم
ماجرى وفى يوم الخميس ثامنه مع ليلة الجمعة رأى الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب
وخلفه شرار كمثل عامود النار فاستمر ماشيا فى السماء الى نحو الشرق فاختفى وقد شاع خبره
بين الناس لما طلع النهار وفى يوم الاربعاء رابع عشر شهر رمضان كان وفاء النيل المبارك
ووافق ذلك ثالث عشر مسرى وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر رمضان الموافق لرابع
عشر مسرى فأوفى الله الستة عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع السابع عشر فلما
أوفى نزل ملك الامراء من القلعة وتوجه الى المقياس وخلق العمود ونزل فى الحراقة
وصحبته الامراء العثمانية ففتح السد الذى عند رأس المنشية ثم ركب من هناك وتوجه
الوالى ففتح السد الثانى الذى عند قنطرة السد وكان ذلك اليوم مشهودا وكان ذلك آخر فتح
ملك الامراء للسد ومات بعد ذلك بشهرين وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه

خليج السد يوم الكسر جبر * بماء للعيون يرى بهيجا
وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع * بنا قطعا نرى هذا الخليجا

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج
وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك وفيه جاءت الاخبار بان ابن سوار قد قتل وسبب
ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان ابن عثمان أن ابن سوار قد التف على شاه اسمعيل الصوفى
وصار يكاتبه فى الدس فندب اليه الامير فرحات الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب
الشام فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصد التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصوفى
فأضافه ابن سوار وركن اليه فلما جلس معه على مجلس الشراب فى نفر قليل من أصحابه
وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الامير فرحات فقتلوا ابن سوار وهو على
سفرة الشراب على حين غفلة ولم يشعر به أحد من عسكره ولما أشيع قتله اضطربت
أحوال السوارية بقتله وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار وقتل
جماعة من أمرائه ثم مضى عنهم وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله ومن الحوادث
أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق وقيل كان بمكة وأقام بها مدة
فلما حضر ادعى انه المهدى فلما طلع الى ملك الامراء وقال له انا المهدى وكان حاضرا فى
ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين فسأله عن مسائل فى العلم فلم يجبه بشئ

وكانت

وكانت صفته انه شيخ طاعن فى السن قصير القامة جدا ولم يكن فيه من علامات المهدى شئ فلما أغلظ على ملك الامراء فى الكلام رسم بالقبض عليه وأن يتوجهو به الى المارستان ويضعوه فى الحديد ويسجنوه عند المجانين فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان فكشفوا رأسه ووضعوه فى الحديد فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى فى الجامع المؤيدى والشيخ حسن العثمانى طلعا الى ملك الامراء وشفعا فيه فرسم ملك الامراء باطلاقه من المارستان فاتى اليه الشيخ حسن العثمانى وحمله على أكتافه وأخرجه من المارستان وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية وفى خدمته جماعة كثيرة من الاعجام نحو خمسين انسانا فلما خرج من المارستان ازدحم عليه الناس ليروا المهدى وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة فاستمر على أكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدية ثم بدا لملك الامراء أن يرسل المهدى الى بيت الوالى فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالى فاستمر به مدة ثم شفع فيه وفى يوم الاربعاء حادى عشريه قبض ملك الامراء على يوسف بن أبى الفرج ابن الجاكية وسلمه الى القاضى بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعريه ويضربه بالمقارع وقال له أقم حسابك من حين قررت فى هذه الوظيفة فقيل انه أورد سبعمائة دينار فقال له القاضى المحتسب جلبت الدعاء على ملك الامراء لاجل هذا القدر الهين لاجزاك الله خيرا وفى يوم الجمعة ثالث عشريه نزل ملك الامراء وتوجه الى نحو الجامع الازهر ليصلى هناك صلاة الجمعة وكان صحبته الامراء العثمانية الذين بمصر وجماعة من الامراء الجراكسة منهم الامير أرزمك الناشف فلما انقضى أمر صلاة الجمعة وقصد أن يركب وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له يا ملك الامراء انظر فى أحوال الرعية فقال نعم وركب بسرعة وخرج من باب الجامع وتوجه الى القلعة وقيل ان ملك الامراء تصدق فى ذلك اليوم على مجاورى الجامع الازهر بخمسمائة دينار وكان الذى تولى أمر الصدقة فى ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير اخور كبير فما لاقى فى ذلك اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة وحصل له غاية البهدلة من الناس وفى يوم السبت رابع عشريه نودى فى القاهرة عن لسان ملك الامراء بأن جميع القضاة والشهود يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر فلم يوافق أحد من الناس على ذلك وأبطلوا هذا الامر وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية فنقص البحر فى تلك الليلة ثمان أصابع وكان فى قوة الزيادة فاضطربت أحوال الناس ثم فى يوم الخميس زاد الله فى النيل المبارك اصبعين من النقص فسكن ذلك الاضطراب واستمرت الزيادة عمالة الى بابه وفى شهر شوال وكان مستهله يوم السبت وهو

عيد الفطر فكان أكثر العساكر مسافرا فى غزوة رودس وكذلك الامير قايتباى الدوادار وجماعة من الامراء فلما صلى ملك الامراء صلاة العيد مدمدة حافلة وكانت الاصباهية والانكشارية تتخاطفها وكان هذا العيد خامدا وفى يوم الاحد ثانيه حضر أولاق من البحر وعلى يده كتاب من عند الامير جانم الحزاوى الى ملك الامراء فقرئ بحضرة القاضى شهاب الدين بن شيرين فكان من مضمونه أن الامير قايتباى الدوادار ومن معه من العساكر والامراء والمماليك الجراكسة قد وصلوا الى رودس فى ثالث عشر رمضان فوجدوا السلطان سليمان فى جزيرة تجاه رودس فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا بالسلطان ثم فى اليوم الثالث أوكب السلطان سليمان وجلس للعسكر جلوسا عاما فى ذلك اليوم فلما نظر الامير قايتباى الدوادار عظمه وأكرمه وكذلك الامراء الذين صحبته ووقف المماليك الجراكسة قدامه فشكرهم وأثنى عليهم وقيل ان السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك الجراكسة وقال مثل هذه المماليك كانت تقتل وقيل انه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الاعظم وأخبر الامير جانم فى كتابه أنه الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس قتال وانه مقيم بجزيرة تجاه رودس والميعاد بعد العيد وفى يوم الاثنين ثالث الشهر قدم الخواجا ابن عبد الله من اسطنبول فنزل اليه ملك الامراء ولاقاه من عند تربة العادلى وخلع عليه قفطان حرير فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان قرره ناظرا على الاوقاف قاطبة وأنه يكشف على سائر الاوقاف والجوامع والمدارس قاطبة فيعزل من يشاء ويبقى من يشاء وأشيع عنه أنه يخرج الوظائف عن الفقهاء ولا يبقى بيد فقيه وظيفتين فى التصرف وأن يقرر الوظايف لجماعة آفاقية من الاروام فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال فقهاء مصر وفيه قدمت الاخبار من دمشق بأن الامير فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار أتوا من بلاد الشاه اسمعيل الصوفى وزعم أنهم جواسيس من عند الصوفى فلما قبض عليهم أخذ جميع ما معهم من الاموال والبضائع والاصناف التى أتوا بها ثم ضرب أعناقهم أجمعين وربما يشور من هذه الواقعة فتنة عظيمة بين العثمانية والصوفى ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون فى بيت عند جامع المقسى على الخليج فلما قوى عليهم السكر تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر وكان فى جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به فثقل عليه أمرهم فأرسل اليهم من ينهاهم عن ذلك فأغلظ عليهم فى القول وقال لهم أما تستحون من الشيخ ابن عنان فسبوا الشيخ ابن عنان سبا قبيحا فطلع الشيخ الى ملك الامراء وشكا له من النصارى فأرسل ملك الامراء بالقبض على النصارى فهربوا وقبضوا على واحد منهم فرسم ملك

الامراء بحرقه فلما رأى النصرانى عين الجد أسلم خوفا من الحرق فألبسوه عمامة بيضاء فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم واختفوا عند يونس النصرانى حتى تخمد هذه الواقعة عنهم وفى يوم الجمعة قدم قاصد من عند الامير جانم الحزاوى وأخبر أن العسكر برز للقتال مع عسكر الفرنج الذين برودس وأشيع أنهم أشرفوا على أخذ السور الاول من مدينة رودس ولكن قتل فى هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى وفى يوم الجمعة المقدم ذكره كان يوم النوروز وهو أول توت من الشهور القبطية وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية وكان النيل يومئذ فى عشرين اصبعا من ثمانية عشر ذراعا وكان سائر المغل فى غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة عشر انسانا وخوزق منهم جماعة وعلقهم فى أماكن متفرقة وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم فاخرهم الوالى فى السجن الى آخر شهر رمضان وأتلفهم فى يوم واحد وفى ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملا حتى أظلم الجو وصار القمر كالفحمة السوداء فأقام فى ذلك الخسوف نحو خمسين درجة وكان ذلك نصف الليل وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل عظيم وكان يوما مشهودا وكان أمير ركب المحمل الشريف الامير جانم السيفى دولات باى الاتابكى وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافرها الامير جانم كاشف الفيوم فشنق من القاهرة فى موكب حافل وطلب طلبا كاطلاب الامراء المقدمى الالوف وكان فى موكبه ست عجلات وفى كل عجلة مكحلة نحاس برسم المدافع فان درب الحجاز كان فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الاربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الامراء من البحر المالح وسبب ذلك فساد العربان وكذلك المال الذى أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لاجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحبة قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفا من العربان واضطراب درب الحجاز فى هذه الايام المنشطة وفى يوم الاثنين رابع عشريه حضر قاصد من البحر وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان فى المحاصرة مع الفرنج الروادسة وأحضر كتابا من عند الامير جانم الحزاوى يذكر فيه أن العسكر فى انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق وقد عزت الاقوات هناك فلما بلغ ملك الامراء ذلك نزل الى الشون التى بمصر العتيقة وأخرج ثلاثين ألف اردب وخمسمائة حمل دقيق فاستمر ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة أيام متوالية حتى جهز فى المراكب ثلاثين ألف اردب قمح وخمسمائة حمل دقيق وخمسمائة اردب أرز وقيل مثلها حمص وبسلة وقيل أرسل مع ذلك أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنه فجهز

ذلك بسرعة وأرسله من البحر الى السلطان والعسكر الذين هنالك وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم الاثنين وكانت القضاة الاربعة منفصلين عن القضاء كما تقدّم فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر فى ذلك اليوم وفى يوم الثلاثاء ثانيه عزل الامير جان بك من كشف الشرقية واستقر بالامير اينال السيفى طرابای وفى يوم الاثنين ثامنه توفيت أصيل القلعية وكانت من أعيان مغانى البلد وكان لها انشاد لطيف وكانت بارعة فى غناء الخفائف التى هى من فرح الزمان ورأت من الاعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها وفيه نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة من المعاملة قاطبة وأن الفضة الجديدة تصرف كل نصف بنصفين وربع فازداد وقوف الحال على الناس ثانيا بابطال الفضة العتيقة من المعاملة والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم فنادوا عليها كل واحد بدرهم فازداد الحال وقوفا ثالثا وفيه أشيع أن ملك الامراء خاربك قد مرض ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع عن المحاكمات فلما قوى عليه المرض صار يتصدق على الاطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل صغير نصف فضة كبير بنصفين وربع وصار أحد الخازندارية وابن الظريف المقرى يدفع لكل صغير النصف فى يده ويعطى الفقيه خمسة أنصاف كبار والعريف ثلاثة أنصاف كبار ويقولون لهم اقرؤا الفاتحة وادعوا بالشفاء والعافية لملك الامراء وقد تكاثرت الاقوال بأن به ثلاثة أمراض منها فرخة جمرة طلعت له فى مشعره ومنها حدار انصب له فى جميع أعضائه وهو من أنواع الفالج ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده فى كل ليلة وقد أعياهم أمره فى هذا العارض الذى به وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون وفى هذا الشهر ثبت النيل المبارك على احدى وعشرين اصبعا من تسعة عشر ذراعا وكان نيلا متوسطا وكان فى العام الماضى عشرين ذراعا الا اصبعا واحدا وفى يوم الثلاثاء تاسعه أفرج ملك الامراء عن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وأفرج عن القاضى شرف الدين بن عوض وألبسهما قفطانين حرير مذهب وأركبهما فرسين من الاسطبل السلطانى ونزلا من القلعة فى موكب حافل وشقا من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا فتخلقت عيالهما بالزعفران فانهما خلصا من فم الموت وقد قاسوا شدائد ومحنا وضربا وبهدلة وسجنا فى العرقانة وقد أقاموا فى هذه الشدة نحو أربعة أشهر وقسا قلب ملك الامراء عليهما وقد قال فى ذلك الناصرى محمد بن قانصوه

بالشرفى المقر أضحى * ديوان ذا الملك فى انضباط
لازال فيه الى المعالى * بالسعد يرقى بلا انهباط

فلما نزل القاضى شرف الدين الصغير الى بيته لم يقم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة الامام الشافعى رضى الله عنه فزاره ثم طلع الى القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى

المحتسب فاجتمعا على ملك الامراء وتكلما معه على المقر الشهابى أحمد بن الجيعان فان ملك الامراء توقف فى الافراج عنه وقد عوّل على شنقه على باب زويلة فنجاه الله تعالى من كيده ولولا اشتغال ملك الامراء بنفسه لكان شنق الشهابى أحمد بن الجيعان لا محالة فلما تكلم القاضى شرف الدين الصغير والقاضى بركات المحتسب وقيل ساعدهما خير الدين نائب القلعة فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان رسم ملك الامراء بالافراج عنه بعد جهد كبير وكان ملك الامراء على خطر وبانت عليه لوائح الموت فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير وأركبه على فرس من الاصطبل السلطانى ونزل من القلعة وشق من القاهرة فرجت له وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت وارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء فان الشهابى أحمد كان محببا للناس فشق من القاهرة بعد العصر فكان له موكب حافل وكان ذلك اليوم مشهودا فتوجه الى منزله بعد ما قاسى شدائد ومحنا وأوعد بالشنق من ملك الامراء فكفاه الله تعالى شره وفيه يقول الاديب ناصر الدين محمد بن قانصوه

الحمد لله بكم عيننا * قرّت بفرحة لنا فى السرور
لما خلصتم ونزلتم الى * منازل العز وزال الشرور

وفى يوم الخميس حادى عشره أشيع بين الناس أن ملك الامراء بطلت شقته وعجز عن القيام وتزايد به ألم الفرحة الجمر واشتد عليه مخرج البول والغائط من الورم من تلك الجمرة وهذا العارض بعينه قد وقع للخنكار سليم شاه ابن عثمان ومات به ثم ان قضاة القضاة الاربعة ركبوا وطلعوا الى ملك الامراء وعادوه وسلموا عليه فلم يع لهم ولم يلتفت اليهم فقرؤا له الفاتحة ونزلوا الى منازلهم فلما تزايد الامر بملك الامراء أعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه ثم انه دفع للقاضى بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ورسم بعشرة آلاف اردب قمح من الشونة ورسم للمحتسب بأن يفرّق ذلك كله على مجاورى الجامع الازهر والمزارات والزوايا التى بالقرافتين قاطبة ومجاورى مقام الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما و يفرّق باقى ذلك على الفقراء والمساكين ومن عليه دين ففرّق ذلك كما رسم له ملك الامراء ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضى شرف الدين بن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الاحباسية التى كان أدخلها الى الديوان السلطانى وكان قدرها نحو ألف وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لاصحابها وأعاد مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها المفتش يوسف بن الجاكية الى أصحابها ثم صار يقول للمباشرين الذين شوّش عليهم حاللونى وأبرؤا ذمتى فحاللوه غصبا وفى يوم الجمعة ثانى عشره رسم باطلاق المحابيس رجالا ونساء فتوجه القاضى شرف الدين الصغير والقاضى

المحتسب الى بيت الوالى وعرضوا من فى سجن الديلم والرحبة فطلعوا بالمحابيس فى زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالى فلما عرضهم هناك صار القاضى شرف الدين الصغير والقاضى المحتسب يصالحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين أشرفيا ونازل فيقولون لاصحاب الديون اتركوا الاجل ملك الامراء الباقى فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون وفيهم جماعة من أعيان الناس وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان وجماعة من الفلاحين فقيل اطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ومن عليه دم ولم ير الناس فى أيام ملك الامراء خاير بك أحسن من هذه الايام فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل فلم يفده من ذلك شئ ويأبى الله الا ما أراد ويقرب من هذه الواقعة ماوقع للاشرف الغورى لما حصل له عارض فى عينيه فجاد على الناس الى الغاية وأفرج عمن بالسجون وعن جماعة من المباشرين ممن كان فى الترسيم بمال له صورة وكانت تلك الايام خيار دولته على الاطلاق ويقرب من ذلك ماوقع للاشرف قايتباى لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه وأقام منقطعا فى القاعة التى بجوار الدهيشة وجلس على سرير مقور وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه فجاد على الناس وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا فى السجن وتصدق بمال له صورة على الفقراء والمساكين وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات وكانت تلك الايام خيار دولته وغالب هؤلاء الملوك مايعرفون الله الا وهم تحت الحمل اذا جرت عليهم مصيبة يجودون فى حق الناس ويفعلون الخير وفى يوم السبت ثالث عشره أشيع أن ملك الامراء قد نزل به النزع وانه أرسل خلف الامير سنان بك العثمانى فلما طلع اليه وجده فى حال التلف فدفع اليه خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه له ثم انه قال له على قدر الاموال التى فى الخزائن وقال الاموال سبعمائة ألف دينار ذهب عين هذا خارج عما كان فى بيت المال من المال وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير مالا ينحصر ومن الغلال والاغنام والابقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الاموال التى تركها كان يكسر جوامك المماليك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيأ ويشتكى أن بيت المال مشحوت من المال (أقول) وكان أصل ملك الامراء من مماليك الاشرف قايتباى وهو جركسى الجنس اباظا وكان أبوه اسمه بلباى الجركسى ولهذا كان يدعى خاير بك بلباى الى الاشرف قايتباى ومات أيضا أخوه خضربك وأما أخوه جان بلاط فانه بقى مقدم ألف ومات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى مات بالطاعون وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه الحمدى فارتقى حتى تولى نيابة الشام ومات فى دولة الاشرف الغورى وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة المماليك السلطانية فاخرج له

السلطان خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ثم بقى أمير عشرة فى سنة احدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر محمد ابن الاشرف قايتباى ثم بقى أمير طبلخانات فى دولته أيضا وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد ابن عثمان ملك الروم فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم بقى مقدم ألف فى دولة الاشرف جان بلاط وخرج صحبة العسكر الى الشام فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف كما كان فلما تسلطن الاشرف الغورى جعله حاجب الحجاب واستمر على ذلك حتى توفى أخوه قانصوه المحمدى نائب الشام فنقل السلطان الامير برسباى من نيابة حلب الى الشام عوضا عن قانصوه برج وخلع على الامير خاير بك وقرره فى نيابة حلب عوضا عن برسباى وذلك فى سنة عشر وتسعمائة واستمر على ذلك حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على السلطان الغورى وانكسر وكان خاير بك سببا لكسرة الغورى فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه ماجرى وأراد التوجه الى بلاده خلع على يونس باشا وقرره نائبا على مصر ثم بدا له أن يقرر خاير بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس باشا فخلع عليه فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفع اليه خاتم الملك فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات فى يوم الاحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بما فيها من مدة انقطاعه عن المحاكمات وتوعك جسده انتهى ذلك وأما ما عدد من مساويه فانه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء قتل فى مدة ولايته مالا يحصى من الخلائق وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه من جنينته وشنق من الناس ووسط وخوزق جماعة كثيرة واقترح لهم أشياء فى عذابهم فكان يخوزقهم من أضلاعهم ويسميه شك الباذنجان فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل وغالبهم راح ظلما ومنها أنه أتلف معاملة الديار المصرية من الذهب والفضة والفلوس الجدد وسلط ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين ومنها انه قرب شخصا من النصارى يقال له يونس وجعله متحدثا على الدواوين وصارت المسلمون تقف فى خدمته ويخضعون له ومنها انه كان يكره الفقهاء وطلبة العلم والعلماء وعزل القضاة الاربعة ونوابهم قاطبة ومنع الشهود أن يجلسوا فى الحوانيت ويتقاضوا أشغال الناس ومنها انه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق جوامكهم ستة أشهر ثم يصرف لهم شهرين بألف جهد ومنها انه شوش على جماعة من أعيان المباشرين وضربهم وبهدلهم وعوقهم فى الترسيم نحو خمسة أشهر ولاسيما ماجرى على الشهابى أحمد بن الجيعان فانه سلب نعمته وأخذ منه فوق السبعين ألف دينار حتى باع جميع أملاكه وقماشه ورزقه وبقى على الارض ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج

وقرره فى وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل ومنها
انه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد الصعيد ومسح الرزق الاحباسية وأدخلها فى الديوان
ولم يفرج عنها وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر فقيل انه أخرج ألفا وثمانمائة رزقة
منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك ومنها انه كان سببا لخراب الديار المصرية
ودخول سليم شاه الى مصر وحسن له عبارة أخذ مصر وضمن له أخذها من غير مانع وعرفه
كيف يصنع حتى ملكها وجرى منه ما جرى وقتل الامراء والمماليك الجراكسة وشنق
السلطان طومان باى على باب زويلة وكل ذلك بترتيبه ودوليته وكان كثير الحيل والخداع
والمكر وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال ولو ذكرت مساويه كلها الطال الشرح فى ذلك وقد
قلت فيه هذه الابيات عن لسانه

أصبحت بقاع حفرة مرتهنا * لا أملك من دنياى الا كفنا
يا من وسعت عباده رحمته * من بعض عبيدك المسيئين انا

فلما تحقق الناس موت ملك الامراء ارتجت القاهرة وأشيع ان التركمان ينهبون الاسواق
فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على لمح البصر ووزع الناس أمتعتهم فى الحواصل ثم طلع
الامير سنان بك الى القلعة وحضر الامير خير الدين بك نائب القلعة والامير خضر بك
والكواخى أغوات الانكشارية فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر المملكة وما يكون من
أمر جماعة العثمانية فالتزم الامير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية والتزم
الامير سنان بك والامير خضر بك بامر الاصباهية وغير ذلك من الكملية ثم حضر الامير
ارزمك الناشف فالزموه بامر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم ثم ختم نائب القلعة والامير
سنان بك على الحواصل التى بالقلعة ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة
ونادوا فى القاهرة بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وان لا أحد يغلق له بابا ولا دكانا
والدعاء للسلطان سليمان بالنصر فارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء فاطبة فكرروا هذه
المناداة يوم الاحد ويوم الاثنين وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة ينهبون
المدينة عن آخرها فمنعهم الامراء التركمان من ذلك وقالوا لهم متى نهبتم المدينة تقتلكم عوام
مصر ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمة وتخرب مصر عن آخرها فسكن الاضطراب قليلا ثم
فى يوم الاثنين لما دفن خاير بك تحول الامير سنان وطلع الى القلعة من يومه وسكن بها فوقع
بين الامير سنان والامير خضر تشاجر بسبب النيابة فاظهر الامير سنان مرسوما وعليه
علامة السلطان سليمان بانه اذا توفى ملك الامراء خاير بك يكون عوضا عنه فى نيابة مصر
فوقع الاتفاق بينهما بان يستقر بالقلعة ويكاتب السلطان بموت خاير بك وينتظر الجواب بما
تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك ثم ان الامير سنان عرض ما فى بيت المال من المال

فوجد

فوجد خاربك خلف من المال على ماقيل ستمائة ألف دينار خارجا عما كان فى بيت المال
ثم ان الاميرسنان خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدثا على جهات
الغربية وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض وجعلهما متحدثان
على جهات الشرقية فامتنع الشهابى أحمد كل الامتناع من لبس القفطان وقال أنا أصبحت
رجلا فقيرا لا أملك من الدنيا شيأ وأنا ما بقيت أباشر شيا فارسلونى الى اسطنبول أو الى مكة
المشرفة وردّ على الاميرسنان ذلك القفطان وخلع على القاضى بركات المحتسب وجعله
متحدثا على جميع جهات الشرقية من دمياط الى المطرية على عادته وخلع على محيى الدين
ابن أبى اصبع وجعله متحدثا على ديوان الوزارة وديوان الخاص على عادته كما كان وفى ذلك
اليوم نزل حريم خاربك من القلعة على وجوههن وهن فى غاية الذل وفى يوم الاربعاء سابع 172
عشره رسم الاميرسنان بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه فى الرميلة وسبب ذلك انه
خطف خرقة جوخ ثمنها مائة وعشرون دينارا فطلع صاحب الجوخه الى الاميرسنان وشكا
له ذلك الشخص الاصباهى فقال له الاميرسنان لك عليه بينة بانه خطف منك الخرقة الجوخ
فقال له نعم وأحضر له من شهد عليه بذلك فارسل خلف الاصباهى وسأله عن ذلك فاعترف
وأحضر الخرقة الجوخ وأعادها الى صاحبها ومضى بها ثم انه رسم بتوسيط الاصباهى فوسطوه
فى الرميلة عند باب الميدان وهذا أول حكم الاميرسنان فى القتل ثم ان الاميرسنان رسم بان
يعين جماعة من الانكشارية فى بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل من أموال الحسبة فى كل
يوم وجعل مثل ذلك فى بيت الوالى وبيت محيى الدين بن أبى اصبع لكونه متحدثا فى ديوان
الوزارة والخاص وجعل مثل ذلك فى ديوان الوزراء يضبطون ما يتحصل فى كل يوم وجعل
مثل ذلك على المكاسة الذين فى بولاق ومصر العتيقة وغير ذلك من القباض وفى يوم
الخميس ثامن عشره سافر الامير اينال السيفى طرابای الذى ولى كشف الشرقية الى محل
ولايته بها وفى يوم الجمعة تاسع عشره حضر شخص من مماليك الامير قايتباى الدوادار فى
بعض أشغال استاذه وعلى يده كتب فكان من مضمونها ان السلطان سليمان نازل على
رودس وانه بباب رودس يحاصرها أشد المحاصرة وقد قتل من العسكر العثمانى ما لا يحصى
من البندق الرصاص ومن المدافع التى عمالة نازلة فى كل يوم من قلعة رودس وكلما
هدم من سورها شيأ تبنيه الفرنج تحت الليل بالحجر الفص وقد أعياهم أمر الفرنج وقوة
بأسهم وقد كتم موت من مات من الامراء الجراكسة والمماليك وفى يوم السبت عشريه 20
رسم الاميرسنان لمماليك ملك الامراء خاربك أن ينزلوا من الطباق التى بالقلعة فشق ذلك
عليهم فلما نزلوا من الطباق طلع اليها جماعة من الاصباهية ممن هم من جماعة الاميرسنان
والانكشارية من عصبة خير الدين نائب القلعة ثم أشيع أنه وقع بين الاميرسنان والامير

خضر العثمانى تشاجر بسبب النيابة فوقع الاتفاق على مايرد من جواب السلطان على ذلك
وفيه أشيع أن الامير اينال السيفى الذى استقر كاشف الشرقية تحول عنها الى كشف
الغربية وأعيد الامير جانبك الى كشف الشرقية كما كان أولا واستهل شهر ذى الحجة بيوم
الثلاثاء فكان المتحدث على الديار المصرية يومئذ الامير سنان بك العثمانى نائبا على مصر عوضا
عن خاير بك بحكم وفاته وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء كما تقدم فلم يطلع الى التهنئة
بالشهر أحد وفى يوم السبت خامسه توفى الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع
الغمرى وكان دينا خيرا من أهل العلم والدين من أعيان الشافعية وفى عقيب موته توفى
القاضى جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كميل أحد نواب الشافعية وكان عالما
فاضلا وله نظم جيد وكان من أعيان الشافعية وفى يوم الخميس عاشره كان عيد النحر فصنع
الامير سنان مدة حافلة بالقلعة لاجل الاصباهية والانكشارية والكملية فتناهبوا تلك
المدة على لمح البصر وقد ذاق الامير سنان طعم المملكة ودخلت حلاوتها فى أسنانه ۞ وفى يوم
الخميس سابع عشره نادى الامير سنان بعد العصر فى القاهرة بان السلطان سليمان
استقر بالوزير الاعظم مصطفى باشا نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته وقد
وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ثم نادى فى ذلك اليوم للناس بالامان والاطمئنان والبيع
والشراء وأن لا أحد يكثر كلاما فيما لا يعنيه فلما تحقق الناس ذلك خرج المباشرون
وأعيان الناس الى ملاقاة ذلك النائب وأشيع أن الامير جانم الحزاوى قادم صحبة
النائب وانه قد وصل الى قليوب فخرج غالب العسكر العثمانى الى ملاقاته فلما كان يوم
الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الاعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق فلما أشيع
ذلك نزل الامير سنان من القلعة والامير خير الدين نائب القلعة وأتى اليهم الامير خضر
العثمانى وأتى اليهم الاكواخى أغوات الانكشارية وأتى الامير أرزمك الناشف أغات
المماليك الجراكسة وسائر الاصباهية والانكشارية والكملية قاطبة وتوجهوا الى بولاق
لاجل ملاقاة النائب مصطفى باشا فلما وصلوا الى بولاق أحضروا للنائب فرسا من الخيول
الخاص ولبس خلعة السلطان وهى بتماسيح على أحمر وأحضروا لجماعته نحو أربعمائة فرس
فركب النائب من هناك هو وجماعته ومشت الانكشارية قدامه والكملية قاطبة يرمون
بالنفوط وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم وجميع الامراء الجراكسة وأتباعهم
وأعيان الناس قاطبة فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة فشق من سوق مرجوش
ثم شق من القاهرة فى موكب حافل مثل موكب ملك الامراء خاير بك وكان الامير سنان عن
يمينه والامير جانم الحزاوى عن يساره وعليه خلعة بتماسيح ذهب والامير خير الدين نائب
القلعة والامير خضر قدامه وعلى رأسه صنجق بقع فضة ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية

وخلفه

وخلفه جماعة بطراطير حمر بعصائب ذهب فلما شق من القاهرة ارتفعت له الاصوات من الناس بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكان ذلك اليوم مشهودا وكانت صفته أنه أبيض اللون عربى الوجه حليق اللحية ليس له غير شاربين أصفرين معتدل القامة وعليه حشمة وخفر وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء واستمر فى موكب حافل حتى شق من الرميلة ودخل الى الميدان ثم صعد الى القلعة وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق

لا تحزنى مصر على * موت الامير خير بك

بل افرحى بمصطفى * ستنظرية خير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر أشيع ان الاخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الامراء خاير بك وهو على رودس فى يوم الخميس ثالث ذى الحجة فلما تيقن موته خلع على وزيره الاعظم مصطفى باشا وقرره فى نيابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته فاستقر فى النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكانت ولايته فى الخامس وهو يوم نحس مستمر وكان السلطان على رودس فكانت مدة ولايته من حين ولى برودس الى أن دخل الى ثغر الاسكندرية تسعة عشر يوما وكانت مدة سفره فى البحر أربعة أيام ودخل الى شاطئ بولاق يوم الاربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الاربعاء مدله الامير سنان هناك مدة حافلة بالقلعة ثم مدله بساط الانس وسلمه مفاتيح بيت المال ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الامراء ثم تحول الامير سنان ونزل الى منزله بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشا ثمانية وثلاثين يوما كأنها أضغاث أحلام وفى يوم الخميس رابع عشريه نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان وحضر الامير سنان والامير خضر والامير خير الدين نائب القلعة وحضرت الاغوات المتعلقة بالانكشارية وقرئ عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى باشا فكانت براعة استهلال ذلك المرسوم الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ثم نعت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمة بانه وزير الوزراء وأمير الامراء وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة ثم رسم له بان يعطى فى كل سنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له ولمماليكه وحاشيته ومن مضمون ذلك المرسوم انه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف فى كل يوم فشق عليهم ذلك وكان ملك الامراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين فى كل يوم جماعة وأشرفى فى كل يوم وكان فى طائفة الانكشارية من كان له فى كل يوم

عشرون نصفا وشئ عشرة أنصاف وشئ ثمانية فبطل ذلك جميعه واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم ومن مضمون المرسوم الوصية بالرعية قاطبة والمماليك الجراكسة واصلاح المعاملة والنظر فى أحوال الرعية والمسلمين بما فيه اصلاحهم وكان من مضمونه أشياء كثيرة يطول شرحها وفى ذلك اليوم طلعت القضاة الاربعة يسلمون عليه فوجدوه بالاشرفية التى بالقلعة فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه فأذن لهم فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره فلم يلتفت اليهم ولا قام لهم ولم يعدّهم من البشر ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم فقرؤا الفاتحة وانصرفوا وفى يوم الجمعة خامس عشريه نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان وجلس به وعرض موجود ملك الامراء خاربك من الجمال والخيول والبغال فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تحصر ثم طلع الى الحوش السلطانى وعرض مماليك خاربك ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك فوجد له أشياء كثيرة أعظم من موجود الاشرف قايتباى ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة وفى يوم السبت سادس عشريه نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به وحوله الاميرسنان والاميرخضر والامير خير الدين نائب القلعة والامير ارزمك الناشف وجماعة آخرون من الامراء فأظهر التعاظم فى ذلك اليوم ومشى على طريقة الخنكار سليم شاه وصاركواحد منهم وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابنة الخنكار سليم شاه وهى أخت السلطان سليمان فوقف الوالى قدامه بالعصا وكذلك نقيب الجيش أيضا واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكملية وبأيديهم العصى ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس فلم يفهم منها شيأ وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى وهو كالخشبة ثم رسم بالمناداة فى القاهرة بالامان والاطمئنان والبيع والشراء وأن كل من ظلم من بعد ملك الامراء خاربك فعليه بالابواب العالية ثم أشيع انه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين النصف الفضة بنصفين ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربع ففرح الفلاحون بذلك ثم من بعد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة وكل شئ على حكمه فى المعاملة ثم ان النائب قام وطلع الى القلعة وهذا أوّل ديوان فى أيامه وأول محاكمته بين الناس وأوّل جلوسه للناس عامة وفى يوم الاحد سابع عشريه أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشا فاضطربت القاهرة بسبب ذلك وشق على الناس عزله وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب قد أخذ مفاتيح الحواصل كلها جميعا التى فى القلعة

من

من البوابين وسلمها لجماعة من الاروام من حاشيته وطرد البوابين والغلمان والركابة والبابية وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغلمان السلطان قاطبة حتى أبطل الطباخين من المطبخ وأقام جماعة من الاروام عوضهم وأبطل المقرئين الذين كانوا يقرؤن بالقلعة قاطبة حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين وجعل لجامع الحوش مؤذنا واحدا وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ومشى على القانون العثمانى وهو أشأم قانون ثم انه شرع فى بيع موجودات ملك الامراء خاير بك فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع وفى يوم الاثنين ثامن عشريه طلع أعيان المباشرين الى القلعة وتوجهوا الى بيت الدفتردار فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البلاد وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانية آلاف دينار له ولمماليكه خاصة ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته وغير ذلك مما حكم به الزمان الخبيث على الناس ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية التى بين القصرين صار من خواص النائب مصطفى باشا وصار من المقربين عنده ويتقاضى حوائجه وحوائج الناس عنده واجتمعت فيه الكلمة وصار المرجع اليه فى الامور فى تلك الايام حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير فكان كما يقال فى المعنى

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى * حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشريه قدم مبشر الحاج وأخبر بالامن والسلامة وان الغلاء وموت الجمال موجود مع الحجاج ولم يكن لما قالوه من أمر الفتن التى وقعت بمكة صحة ولله الحمد والشكر على ذلك وفى ذلك اليوم خلع مصطفى باشا على القاضى شرف الدين الصغير وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الغربية وخلع على القاضى فخر الدين بن عوض وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الصعيد وخلع على القاضى بركات بن موسى والقاضى شرف الدين بن عوض واستقر بهما فى التحدث على جهات الشرقية قاطبة كما كانا فى الاول فنزلوا من القلعة وشقوا من القاهرة فى موكب حافل ثم أشيع أن القاضى بركات بن موسى لم يعد الى الحسبة فتشوش الناس لذلك وفى يوم الاربعاء سلخ الشهر ترشح أمر القاضى بركات بن موسى المحتسب لعوده الى الحسبة وقيل انه رتب لذلك الشخص العثمانى أشرفيين كل يوم فنادى فى القاهرة بعد العصر حسبما رسم الزينى بركات بن موسى كل شئ على حاله وأن السوقة والمتسببين يحضرون باكر النهار الى بيت القاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة وناظر الذخيرة الشريفة فهو على حاله فى الحسبة ففرح غالب الناس بذلك انتهى ما أوردناه فى هذا التاريخ من الاخبار العجيبة والوقائع الغريبة وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية

وقد تقدم ذكرها من الاول الى هنا وقد وقع لى من المحاسن فى هذا التاريخ ما لم يقع لغيرى من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير ولله الحمد والمنة على ذلك وفيه أقول

اغفر لمنشيه واصفح * عما جنى بالتهامى
أحسنت لى فى ابتداء * يارب أحسن ختامى

﴿وقولى أيضا﴾

تاريخنا بهجة المجالس * يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور * يشرح صدر الكل عابس

﴿وغيره أيضا﴾

الفتى نعم الجليس اذا * تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا * أبدا ويقنع بالنظر

تم طبع تاريخ مصر لابن اياس على ذمة الكتبخانة الخديوية بمطبعة بولاق الاميرية فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية وعهد الطلعة الداورية العلية من بلغت به رعيته غاية الأمانى حضرة أفندينا المعظم ﴿عباس باشا حلمى الثانى﴾ ملحوظا هذا الطبع الجميل بنظر من عليه أخلاقه تثنى حضرة وكيل المطبعة الاميرية محمد بك حسنى فى يوم الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الاولى سنة ١٣١٢ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ميلادية

New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
http://library.nyu.edu
Circulation policies
http://library.nyu.edu/about

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE

New York University
31142028212507